

الدكتور الطور بنبان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان

تأليف

دكتورة عفاف سيد صبره

مدرس تاريخ العصور الوسطى
جامعة الأزهر — فرع البنات
كلية الدراسات الانسانية

١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م

الناشر

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

الدكتور الطور تيان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان

تأليف

دكتورة عفاف سيدي صبره

مدرس تاريخ العصور الوسطى
جامعة الأزهر - فرع البنات
كلية الدراسات الانسانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الناشر

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر والتوزيع

محتويات الكتاب

الصفحة

المقدمة : ك

الباب الأول

الأحوال السياسية والتينية في الامبراطوريتين

الرومانية الغربية والبيزنطية ١ — ١٢٦

الفصل الأول : التطور السياسي لأوريا حتى سقوط

الامبراطورية ٤٧٦ م ٣ — ٢٦

٥ — الأحوال السياسية ٨ — عصر دقلديانوس

وقنسطنطين ٩٧ — ظهور الامبراطورية البيزنطية

٢٢ — سقوط الامبراطورية الغربية .

الفصل الثاني : الآثار المترتبة على شعور العرش

الامبراطوري في الغرب ٢٩ — آثار شعور العرش

الامبراطوري في الغرب ٣٦ — البابوية

٣٩ — البابوية واللومبارديون .

الفصل الثالث : احياء الامبراطورية الغربية على يد

شارلمان ٤٥ — ١١٤

٥٤ — شارلمان والسكسون ٥٧ — شارلمان

والمسلمون ٥٩ — شارلمان والبابا ليو الثالث

٦٦ — تنويع شارلمان امبراطورا .

(د)

الصفحة

٧٣ — ١١٤	الفصل الرابع : الامبراطورية البيزنطية وصدى الاحياء الامبراطورى
	٧٥ — الحياة السياسية فى عصر الدولة الايسورية
	٧١٧ — ٨٠٢ م ٨٥ — قنسطنطين السادس وايرين
	٨٩ — ايرين وعودة الى الايقونات ٩٣ — نتائج مجمع
	نيقية ٩٣ — الآثار الداخلية ١٠٣ — آثار مجمع نيقية
	الخارجية ١٠٨ — صدى الاحياء الامبراطورى على
	الامبراطورة ايرين

١١٥ — ١٢٦	الفصل الخامس : محاولات الوفاق بين الامبراطوريتين البيزنطية والرومانية الغربية
	١١٧ — محاولات الوفاق بين الامبراطوريتين
	البيزنطية والكارولنجية ١٠ — استئناف المفاوضات
	السياسية مع شارلمان زمن نقفور وميخائيل الأول
	رانجابية ١٢٣ — ميخائيل رانجابية ومفاوضات
	شارلمان ٨١١ — ٨١٣

الباب الثانى

١٢٧ — ١٩٠	نظام الحكم والادارة فى الامبراطوريتين البيزنطية والكارولنجية
	الفصل الأول : نظام الحكم والادارة فى الدولة البيزنطية
١٢٩ — ١٥٨	على عهد الدولة الايسورية
	١٣١ — نظام الحكم فى الامبراطورية البيزنطية
	١٣٣ — القوانين والتشريعات فى عهد الايسوريين
	وحتى سنة ٨١٢ م ١٣٨ — ١ — الاكلوجيا ١٤٠
	٢ — قانون الفلاح ١٤٥ — القانون البحرى
	الرودى ١٤٦ — قانون الجند ١٤٨ — الجيش
	البيزنطى ١٤٩ — الجيش وعناصره ١٤٩ — المجندون

(٥)

الصفحة

١٥٠ - القنات المرتزقة ١٥٣ - البحرية	
١٥٤ - النظام المالى والنقدى . . .	
الفصل الثانى : نظام الحكم والادارة فى الامبراطورية	
١٥٩ - ١٩٠ - الكارولنجية	
١٦١ - نظام الحكم والادارة فى عهد شارلمان	
١٦٦ - النظام الادارى ١٦٩ - نظام المبعوثون	
١٧٥ - المراسيم والتنظيمات الامبراطورية	
١٧٨ - القوانين والتشريعات فى عصر شارلمان	
١٨٢ - التنظيمات المالية ١٨٦ - التنظيمات	
والتشريعات العسكرية	

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية والثقافية للدولة البيزنطية فى

٣٣٥ - ١٩١ - القرنين الثامن والتاسع الميلاديين	
---------------------------------------------------------	--

الفصل الاول : حياة البيزنطيين الاجتماعية فى القرنين الثامن

١٩٣ - ١٥٣ - والتاسع الميلاديين	
١٩٥ - الحياة الاجتماعية ٢٠٧ - ميدان السباق	
والعروض ٢٠٩ - المقصورة الامبراطورية	
والاسطبلات ٢١٠ - المسارح ٢١١ - الحمامات	
٢١٣ - السكان حياتهم وعاداتهم الاجتماعية	
٢١٣ - عناصر السكان ٢١٦ - أعداد السكان	
٢١٨ - الحياة الاجتماعية فى المجتمع البيزنطى	
٢١٨ - أسماء للعائلة ٢١٩ - الخطبة ٢٢٠ -	
الزفاف ٢٢١ - المرأة فى المجتمع البيزنطى	
٢٢٤ - الاغوات ٢٢٤ - للخدم والرقيق ٢٢٦	
الأطفال ٢٢٧ - ملكية الأسرة ٢٢٨ - تعاليم الكنيسة	
واثرها على الأسرة ٢٢٩ - المسكن ٢٣٢ - الأثاث	

(و)

الصفحة

- ٢٣٤ — الملابس ٢٣٥ — تطور الثياب ٢٣٧ — ملابس
النساء ٢٤١ — الطعام ٢٤١ — عادات الطعام
٢٤٢ — انواع الطعام ٢٤٩ — الجنائز والموتى
٢٥١ — القبور والمدافن ..

الفصل الثانى : الحياة الثقافية فى الدولة البيزنطية فى

- القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ٢٥٣ — ٢٨٤
٢٥٨ — أسلوب التعليم بالمدارس والجامعات
٢٦٢ — انواع العلوم السائدة فى القرنين الثامن
والتاسع الميلاديين ٢٦٢ اللغة ٢٦٤ — الفلسفة
واللاهوت ٢٦٥ — الثقافة الدينية ٢٦٥ — الاتصال
بالدول الاسلامية ٢٦٧ — وراثة الروح الهيلينية ٢٦٨ —
العقيدة الأرثوذكسية — الصور المقدسة ٢٦٨ —
يوحنا الدمشقى ، والمجمع المسكونى السابع
٢٦٩ — ثيودورس الاسنيوديونى ٧٥٩ — ٨٢٦ م
٢٧٠ — نيقفورس المعترف ٧٥٨ — ٨٢٨ م ٢٧١ —
جرجس الراهب ٢٧١ — الأدب ٢٧٣ — النثر
الأبى ٢٧٤ — البلاغة ٢٧٥ القصص ٢٧٦ — التاريخ
٢٧٨ — الرسائل والخطب ٢٧٩ — الشعر ٢٨١ —
العلوم العلمية .

الفصل الثالث : الحياة الاجتماعية فى غالة على عهد

- شارلمان ٢٨٥ — ٣٠٨
٢٩٤ — حياة الفرنجة الاجتماعية داخل المدينة
٢٩٩ — الحياة الاجتماعية فى الريف ٣٠٣ — الملابس
٣٠٤ — السكن ٣٠٦ — المأكل ٣٠٦ — المجاعات
والأوبئة ..

(ز)

الصفحة

الفصل الرابع : الحياة الثقافية فى الامبراطورية الكارولنجية

على عهد شارلمان	٣٠٩ — ٣٣٥
٣١٥ — مؤسسو الحركة العلمية فى عصر شارلمان	
٣١٥ — الكوين ومدرسة القصر ٢١٩ — العسوم	
السائدة فى مدرسة شارلمان ٣٢٤ — المدارس	
الاقليمية ٣٢٧ — الأدب ٣٣٢ — الشعر ٣٣٤ —	
المكتبات ٣٣٥ — العلوم العلمية .	

الباب الرابع

حياة البيزنطيون الاقتصادية فى القرنين الثامن

والتاسع الميلاديين	٣٣٧ — ٣٨٤
------------------------------	-----------

الفصل الأول : حياة البيزنطيون الاقتصادية فى القرنين

الثامن والتاسع الميلاديين	٣٣٩ — ٣٦٢
٣٣٩ — الزراعة ٣٤١ — القرية البيزنطية فى القرنين	
الثامن والتاسع ٣٤٤ — الزراعة فى آسيا الصغرى	
٣٤٥ — الزراعة فى مناطق بحر ايجه ٣٤٦ —	
الضرائب والاقتصاد النقدي ٣٤٨ — الصناعة ٣٥١ —	
المناجم والتعدين ٣٥١ — التجارة ٣٥٣ — أهم الموانئ	
فى الامبراطورية ٣٥٣ — السياسة التجارية	
للإمبراطورية البيزنطية ٣٥٥ — الطرق التجارية	
والأسطول ٣٥٩ — أنواع السلع والمتاجر .	

الفصل الثانى : انحية الاقتصادية فى الدولة الكارولنجية

على عهد شارلمان	٣٦٣ — ٣٨٤
٣٦٥ — الحياة الاقتصادية فى عصر شارلمان	
٣٦٥ — الاقطاع الزراعى ٣٧٠ — واجبات التابع	

(ح .)

الصفحة

ثجاه سيده فى عصر شارلمان ٣٧٢ — واجبسات
السيد على التابع ٣٧٣ — نظام الضياع ٣٧٧ —
الصناعة فى عهد شارلمان ٣٧٨ — التجارة فى
عهد شارلمان

٣٨٦ — ٣٨٥	الخاتمة :
٤٠٦ — ٣٨٧	الملاحق
٤٣٨ — ٤٠٧	الفهارس
٤١٧ — ٤٠٩	الاعلام
٤٢٣ — ٤١٨	الفرق والقبائل والملل والنحل
٤٣٦ — ٤٢٤	الامكن والبلدان
		الخرائط ٥١ — ايطاليا تحت الغزو اللومباردى ٦٧ .
		امبراطورية شارلمان ٨٦ — الامبراطورية البيزنطية
		فى عهد الاسرة الايسورية

المراجع :

٤٤٠ — ٤٣٩	اولا : المراجع العربية
٤٤٧ — ٤٤١	ثانيا : المراجع الاجنبية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

أقدم الى القارئ العربى الكريم موضوعا هاما من أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى ، يخص الفترة التى حكم فيها شارلمان ملك الفرنجة الكارولنجيين العالم الغربى ، حيث نجح فى احياء الامبراطورية الرومانية الغربية القديمة مرة أخرى بعد سقوطها سنة ٤٧٦ م •

والمعروف تاريخيا أن شارلمان ينتمى الى أصل جرمانى ، غير الاصول التى كان ينتمى اليها أباطرة الرومان الأوائل ، كما جعل عاصمة امبراطوريته فى آخن « اكس لاشابل » فى منطقة بعيدة عن العاصمة الرومانية القديمة •

ويؤكد المؤرخون على أن ظهور شارلمان فى هذه الفترة كان له أكبر الأثر فى تغيير مسار تاريخ العصور الوسطى ، وتوجيهه هذه الوجهة التى سار فيها ، اذ لولاه لتغير شكل أوروبا فى هذه الآونة ، ولاتخذت طابعا مذكرا ' نكل الاختلاف •

ولعل الأحداث التى سبقت احياء الامبراطورية الغربية.على يد شارلمان كانت من الأهمية الى الحد الذى جعلنا نخصص لها فصولا

(ك)

خاصة في كتابنا ، لأنه لولا هذه الظروف السياسية لما نجح شارلمان في الوصول الى العرش الامبراطوري •

وقد جعلنا خطة بحثنا تسير على أساس توضيح الظروف التي أدت في البداية الى سقوط الامبراطورية الغربية في روما ، وجهود الأباطرة الرومان أمثال دقلديانوس وقنسطنتين الكبير في اصلاح المفاسد التي عمت الامبراطورية ، وكيف كان هذان الامبراطوران هما أساس انتقال العاصمة الرومانية الى الشرق ، حيث قام الأول باخضاده نيقوميديا عاصمة ، كما أسس الثاني القسطنطينية سنة ٣٣٤ م على ضفاف البسفور •

وتتابعت جهود الأباطرة بعد ذلك على تأكيد هذه الظاهرة بحيث قام الامبراطور ثيوديسيوس الكبير بتقسيم امبراطوريته بين أبنائه ، وكانت الطامة الكبرى بسقوط الامبراطورية نهائيا سنة ٤٧٦ م ، فورث أباطرة الشرق مجد الامبراطورية الغابر ، وأصبحت الدولة البيزنطية هي صاحبة الدور الفعال في أحداث هذه الفترة •

وقد نتج عن سقوط الامبراطورية وشغور العرش الامبراطوري أن تسابقت القوى المختلفة للسيطرة على ايطاليا ، وحاولت كثير من القوى الخارجية فرض سلطانها السياسى ، فأصبحت ايطاليا فريسة سهلة للقوى الخارجية المعادية كما أدت الظروف كذلك الى ارتفاع نجم البابوية وسمو مركزها ، وتدخل البابوات في تحريك الأحداث السياسية •

ووقعت ايطاليا فريسة سهلة للقوى الشرقيين واللومبارديين من بعدهم ونجح البيزنطيون في سحق قوى القوط ، لكنهم لم يحركوا ساكنا في مساعدة البابوية على طرد اللومبارديين ، وذلك لاختلاف

(م)

المذهبيين الشرقي والغربي ، وظهور نحلة اللايقونية في الدولة البيزنطية ،
واصدار البابوية قرار الجرمان الكفسي ضد أباطرتها .

لذلك أصبح من المحتتم أن تنظر البابوية الى مصلحتها الذاتية ،
وأن تتحالف مع القوة التي تقدم المساعدة الفعلية ، ووجدت ضالتها
في دولة الفرنجة الكارولنجيين الذين لم يتوانوا عن مساعدة البابوية
بدءا من البابا ستيفن الثالث الذي منح يبين القصير ما عرف في التاريخ
باسم « هبة يبين » سنة ٧٥٣ م ، ثم البابا هادريان الذي أنعم على
شارلمان بلقب « ملك الفرنجة واللومبارديين وبطريق الرومان » ثم البابا
ليو الثالث الذي أضفى على هذه الأعمال قوة بمنحه شارلمان لقب
الامبراطور سنة ٨٠٠ م ، فأعاد بذلك مجد الامبراطورية الغابر ، وأصبح
للعالم الروماني امباطويين شرقي وغربي .

ولعل هذه الظروف السياسية جعلت البيزنطيين يحاولون اثبات حقهم
في هذه الآونة بضرورة السيطرة السياسية ، لكن الظروف التي كانوا
يمرون بها في هذه الفترة من اعتلاء الامبراطورة ايرين للعرش وسملها
لعيني وليها قنسطنطين السادس ، كانت سببا في ثورة العالم عليها
وقبولهم لشارلمان امبراطورا ، حتى وجد شارلمان والبايا ليو الثالث
في ذلك فرصة لتحقيق غرضهم .

ورغم ذلك عمل شارلمان جاهدا على الحصول على اعتراف رسمي
من الدولة البيزنطية ، وكان سينجح في ذلك الاعتراف من الامبراطورة
ايرين — بعد موافقتها على مشروع الزواج منه — لولا قيام ثورة
الامبراطور نقفور أمين الخزانة وتنازلها له عن العرش . فتجددت
محاولات شارلمان للحصول على هذا الاعتراف في عهد نقفور وخليفته
ميخائيل رانجابه الذي اعترف به امبراطورا سنة ٨١٢ م .

(ن)

لذلك أصبح للعالم الرومانى امبراطورية جديدة بزعامة جديدة وبظروف ومناخ جديد ، كل ذلك أدى الى أهمية دراسة نظم الحكم فى كلا الامبراطوريتين محاولين أن نبين مدى التباين أو الاتفاق فى كل منهما ، الى جانب عرضنا لأهم نواحي الحياتين الاجتماعية والثقافية ومدى الاختلاف الكبير بين الشرق والغرب خاصة فى النواحي الثقافية التى أصبح لكل منها سمات مختلفة عن الأخرى ، نتيجة لاختلاف الظروف ، والأصول الثقافية وعناصر السكان ، كما نرى أن الحياة الاجتماعية اختلفت كل الاختلاف فى المنطقتين وأصبح لكل منها نظاما وعادات وتقاليد تنبع من البيئة المحيطة بها •

الى جانب أن الاقتصاد قد توجه فى كلا الجزأين بصورة مختلفة عن الأخرى ، وبرز الطابع الاقطاعى فى الجناح الغربى أسبق منه فى الشرقى كما نشطت التجارة فى الشرق عن الغرب ، لما كان له من ماض عريق فى هذا المجال •

ويتضح بذلك أن هذا الموضوع يحوى مباحث هامة ، ويعالج فترة هامة من تاريخ العصور الوسطى تصارعت فيها الامبراطوريتين وبرزت امبراطورية شارلمان كقوة عظمى فى العالمين الشرقى والغربى •

ولابد أن أسجل هنا اعترافا بأن هناك جهودا مكثفة بذلها أساتذتنا فى حقل العصور الوسطى من أجل كشف النقاب عما غمض فى تاريخ هذه الحقبة ، فهم يضيئون لنا الطريق ونحن نسير على الدرب علنا نصل جميعا الى الحقيقة التى ينشدها كل باحث •

ولابد أن نؤكد أيضا أن المكتبة العربية مازالت فى حاجة كبيرة الى مزيد من الدراسات والبحوث فى هذا المجال ، الذى تخصص فيه أساتذة

(س)

غربيون ، حتى نتمكن من تزويد القارىء العربى بشتى قضايا هذه الفترة
التي اتسمت بالصعوبة الشديدة •

والله تعالى أسأل أن أكون قد وفقت فى اضافة جديد فى هذا
الموضوع ، وأن يحقق هذا الكتاب الهدف المرجو من تأليفه ، انه نعم
المولى ونعم النصير •

القاهرة — مدينة نصر

يناير سنة ١٩٨٢ م •

المؤلفه

د. عفاف صبره

الباب الأول

الأحوال السياسية والدينية في

الامبراطوريتين

الرومانية الغربية والبيزنطية

الفصل الأول

أولا : الأحوال السياسية .

التطور السياسى لأوروبا حتى سقوط الامبراطورية

تمكن الامبراطور أوكتافىوس — الذى أنعم عليه السناتو بلقب أغسطس المعروف فى اليونانية بـ «Sebastos» سنة ٢٧ ق م — من القضاء على النظام الجمهورى وأعلان الامبراطورية عقب انتصاره على خصمه أنطونيوس وحليفته كليوباترا فى موقعة اكتيوم البحرية سنة ٣١ ق م .

ومن خصائص النظام الامبراطورى الذى أعلنه أغسطس أن يحكم الامبراطور الى جانب مجلس الشيوخ *Senatus* ^(١) على أن يتمتع أغسطس بسلطة أكبر أو أعلى من سواء *Maius imperium* كانت تخوله حق الاعتراض على أية سلطة أخرى فى كافة أرجاء الامبراطورية ، الى جانب احتكاره للسلطة العسكرية ، فقد قضى على الجيوش الخاصة مستخدما سلطات استثنائية ما أمكن حاذيا حذو الذين فعلوا ذلك أمثال الجنرال الرومانى لوكوللوس وبومبى وقيصر ، ولكن اكتافىوس دعم سلطاته العسكرية حتى أضفى القائد الأعلى والأوحد للجيوش الامبراطورية ^(٢) .

(1) Bury «History of the later Roman Empire' Vol. I p.p. 12 - 15.

(2) William. G. Sinnigen « A history of Rome. p. 254.

(٢) سيد الناصرى « تاريخ الامبراطورية الرومانية » ص ٢٦ .

ورغم ذلك فقد تنفست الامبراطورية الصعداء باستقرار أحوالها على يد أغسطس بل ان كثيرا من الناس رحبوا بهذا الاستقرار ترحيبا شديدا وأطلق المؤرخون على هذه الفترة اسم « الحكم الثنائي dyarchy »^(٣) .

بدأت الامبراطورية الرومانية تتسع رويدا رويدا فضمت بين جنباتها مواطن الحضارات القديمة ، الى جانب سيطرتها على أهم مناطق في الشرق وهما مصر وشمالي افريقيا ، اللتان كانتا تمدانها بالغلال .

وتمكن الإباطرة الرومان من احكام سيطرتهم على هذه الأمم المتباينة الأصول واللغات والحضارات والديانات ، وكان للنظم الرومانية الادارية والتشريعية والعسكرية أكبر الأثر في رسوخ الحكم في الولايات . واجبار أهلها على احترام التقاليد الرومانية ، كما استطاع أغسطس بدارته الحازمة أن يسير شئون الدولة جيدا وبكفاءة منقطعة النظر سواء في روما أو الولايات ، ولذا أحبه الشعب الروماني بكافة طبقاته .

وعلى الرغم من هذه الاصلاحات السياسية والادارية والاجتماعية الا أنها لم تمس جوهر المشكلة ولم تهز أعماق المجتمع الروماني ، بل كانت سطحية ، اذ ظل حكمه يعتمد على تأييد الطبقات الغنية الارستقراطية والتي قام بثورته أساسا لتصفيتهم ، وظلت هذه الطبقات تنعم بحياتها التقليدية دون أدنى تدخل من الامبراطور ، فزاد خطرهما . وكبرت أظفارها ، وأكثر من هذا ، شجع الامبراطور هذه الطبقة على تجديد شبابها ، واعتمد على الصفوة المختارة منهم ، مثل لوكيوس سستيووس Lucius Sestius الذي كرمه ووثق فيه ربما تماشيا مع

(3) Bell «Egypt from Alexadner the great to the Arab conquest» p. 91.
Bury op. cit. p.p. 14-15.
William Sinnigen «op. cit.» p. 261.

الاتجاه العام فى العالم والعصر الهلينستى كما كان السلام فرصة للأغنياء لكى يزدادوا غنى اذ استغلوه فى تنمية ثرواتهم عن طريق التجارة ، وهكذا تذوق المجتمع طعم السلام ، ولكن الذى استفاد منه ماديا فئة قليلة ، أما غالبية الشعب فراحت تنعم بالحرية الشكلىة وبالتمتع الرخيص ، ولما كان خبزها كفاف يومها ، فقد كانت سريعة التأثر بأدنى أزمة اقتصادية أو ضرائب جديدة ، وهذا ما حدث بالفعل فى عصر خلفاء أغسطس^(٤) .

تتابع الأباطرة الرومان على حكم الامبراطورية الرومانية ، وتنوع سياستهم بتنوع شخصياتهم ، ولعل الأسس التى وضعها اوكتافىوس كانت أساسا لهم كما أدخلوا بعض التعديلات فى السلطات الممنوحة للأباطرة .

ولقد بدأت الامبراطورية تعاني من بعض التصدع السياسى والاجتماعى ابان القرن الثالث ، فقد نشب صراع مرير بين الأباطرة والسنااتو حول مسألة الحكم ، فضلا عن ازدهار طبقة الفرسان التى فتحت الأبواب على مصراعيها للجنود المسرحين ، واستولت هذه الطبقة على كافة المراكز الحيوية فى الامبراطورية ، كما سيطر الجنود اللاليريين والبانونيين على الجيش الرومانى واستولوا على المستوطنات العسكرية عند الحدود وفرضوا قادتهم على العرش بقوة السلاح ، وتحولت المجالس المحلية التى أنشأها الأباطرة بهدف الحكم الذاتى بين هذه الشعوب المختلفة الى أجهزة للحكومة الرومانية لتحقيق ما ربتها وفرضوا الضرائب الباهظة على السكان ، واهملت الزراعة لقلة العناية بالرى والصرف ، كما أن النقص فى الأيدى العاملة فى مجال الزراعة قد ظهر واضحا بسبب الخسائر البشرية نتيجة للهبوط الشديد فى نسبة المواليد ، وارتفاع نسبة الوفيات بسبب النقص فى التغذية .

(٤) سيد الناصرى « المرجع السابق » نقلا عن

Tacitus, Annales. Vol. I. p.p. 1 - 4.

وقد عصف الفقر بالناس وأسقط في أيدي الحكومة الامبراطورية ، واضطرت في عصر سبتيوس سفيروس الى زيادة الضرائب والمكوس لتعويض العجز العام في دخل الخزانة ومجابهة نفقات الحروب المدمرة على الجبهات المتعددة لقد كان على الناس أن تتحمل نفقات اطعام الجيوش وصناعة ملابسهم وسلاحهم وأن يعبدوا لهم الطرق ويحفروا الخنادق ، ويبنوا الأسوار الدفاعية مجاناً فانتشرت الأوبئة الفتاكة بين السكان .

ومن أهم ما يبرز في هذا المجال الدور الذي قام به الجيش ، فبعد أن كان فيما سبق أداة يستغلها الامبراطور لخدمة مصالح الامبراطورية أصبح دور الجيش في هذه المرحلة الجديدة يتزايد وينحرف ، فبدلاً من أن يحكم الامبراطور بواسطة الجيش أصبح الجيش هو الذي يحكم بواسطة الامبراطور ، وتحكم القادة العسكريون في شئون الحكم ، وأخذوا يعزلون الأباطرة ويقيمون غيرهم مما أدى الى عدم الاستقرار داخليا ، ومنذ أواسط القرن الثالث بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الأباطرة العسكريين ، وأخذت الدولة تتباعد عما بقى من التقاليد الجمهورية السابقة ، وظهرت الثورات التي هددت وحدة الامبراطورية وتماسكها (٥) .

عصرى دقلديانوس وقنسطنطين :

قدر للامبراطورية الرومانية أن تصحو على يد امبراطور مصلح هو الامبراطور دقلديانوس ٢٨٤ — ٣٠٥ م الذي يعتبر تاريخه نقطة تحول في التاريخ الرومانى .

ترجع نشأة دقلديانوس الى اقليم الليريا المطل على البحر الأدرياتي حيث كان جندياً مترناً ، وان أعوزه النبوغ وسياسيا واسع الأفق

(5) William G. Sinnigen «op. cit.» p.p. 262-263.

خصب التفكير ذا مقدرة على الابتكار ومطبوعا على البشر والتفاؤل •
ألقيت على عاتقه مهمة من أشق المهام ألا وهى انقاذ الامبراطورية من
برائن الانحلال ، ولم تكن تعوزه الشجاعة أو القدرة على النهوض بها ،
وتعتبر اصلاحاته احدى نقط التحول الهامة فى التاريخ (٦) •

كان حكم المواطن الأول Principatus المتمتع بسلطة
الاعتراض على سلثر السلطات قد حل مكانه « حكم السيد »
Dominatus أو حكم الامبراطور المؤله المتمتع بالسلطة
المطلقة ، غير أنه كانت لا تزال هناك آثار ضئيلة من نظام الحكم
الجمهورى كنوزيع السلطات على الأقل من ناحية الشكل بين الامبراطور
والسنانو ، لكن الحكم يصبح بتولى دقلديانوس العرش استبداديا
مطلقا ، صحيح أن بيزنطة لم تصبح عاصمة الامبراطورية الا فى عهد
قسطنطين الكبير ، مع هذا فاننا نستشعر بعض مظاهر الحياة الخاصة
بالعصور الوسطى (٧) •

والواقع أن معظم مؤرخى العصر البيزنطى دأبوا على معالجة
عصرى دقلديانوس وقنسطنطين فى دراسة واحدة لأن الكثير مما قام
به دقلديانوس من اصلاحات قد اكتمل تطوره ونموه زمن قنسطنطين
الكبير •

وعندما أحس دقلديانوس بجسامة مهام الامبراطورية ، قرر بأن
يستعين بزميل له على أعباء الحكم ، وكان النظام فى شكله النهائى
يقضى بأن يتولى الحكم فى نفس الوقت امبراطوران يحمل كل منهما
لقب أغسطس على أن يستعين كل منهما بمساعد يعتبر وريثا له يحمل

(6) W. Ensslin. The Reforms of Diocletian camb. A. H. XII.
1939. Chapt. X I.

(7) William. G. Sinnigen «op.cit.» p. 409.

لقب قيصر ^(٨) . وقسم بذلك الامبراطورية الى أربعة أقسام كبرى تعرف باسم *Prefectus* وهي ايطاليا وغالة واليريا والشرق . وقد احتفظ دقلديانوس لنفسه بالشرق ومركزه نيقوميديا وقد قرر ضرورة بقاء الامبراطورين في منصبهما لمدة عشرين عاما على أن يحل محلها القيصران . وسمى الحكم بذلك حكم الأربعة ^(٩) . وحرصا منه على تجنب الامبراطورية خطر الاضطرابات الناجمة عن اطماع حكام الولايات الذين يتمتعون بالسلطتين العسكرية والمدنية ، وربما لاحساسه بأن الأعباء الملقاه على عاتق حكام الولايات متشعبة الى حد أنهم لا ينهضون بها على الوجه الأكمل ، فقد أعاد تنظيم الولايات ، وألغى التفرقة بين الولايات السناطورية والولايات الامبراطورية ، وقلل مساحة الولايات ، وفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، ثم أدمج الولايات في وحدات ادارية كبيرة. تعرف كل منها باسم *Dioecesis* كل وحدة منها يرأسها نائب عن الحاكم العام *Vicarius* ^(١٠) وتشمل عددا من الولايات ، أما هذه الولايات فقد أصبح عددها مائة ولاية وولاية ، ولكل منها ثلاث ادارات هامة تشرف احداها على العدالة والثانية على المالية والثالثة على الأملاك الخاصة بالاباطرة ، وهكذا أصبح حكام الولايات مسئولين أمام نواب الحاكم العام والنواب مسئولين أمام الحاكم العام للاقليم وهؤلاء الحكام مسئولين أمام دقلديانوس الذي كان يتمتع بسلطة تامة في تعيينهم أو عزلهم ^(١١) .

وحظى الجيش بعناية فائقة من جانب دقلديانوس ، لأن الإدارة الرومانية اعتمدت اعتمادا كبيرا على قواتها المسلحة في احكام سيطرتها

(8) Bury «op. cit.» p. 26.

(9) Vasiliev «History of the Byzantine Empire» Vol. p. 73.
William G. Sinnigen «op. cit.» p. 410.

(10) Bury «op. cit.» p. 27.

(١١) سعيد عاشور «أوروبا العصور الوسطى» ص ١٥ .

على الولايات فى الشرق والغرب ، لذا قام بتقوية الوحدات الرباطة على الحدود وأعطى لهم أرضا ليتعيشوا منها وأوجد وحدات متحركة لاستخدامها فى البطش بأية محاولة للقيام بفتن داخلية ومواجهة الأخطار الخارجية ، كما أكثر من ادخال البرابرة الجرمان فى الجيش . كما يلاحظ أن أهمية فرق الخيالة أخذت أعدادها فى الأزدىاد أيضا (١٢) .

اتجه دقلديانوس بعد ذلك الى اصلاح النظام المالى اصلاحا جوهرى شاملا متخذا من ضريته التموينية *annona* أساسا لهذا الاصلاح بعد أن نظم ميعاد جبايتها وثبت معدلها ، وكانت حتى ذاك الحين ضريبة متغيرة تجبى فى أوقات غير محددة وفى كل عام كانت الحكومة تقوم بتقدير الضريبة اللازمة لسد حاجات الامبراطورية خلال السنة ، وتحدد فيه نصاب كل ولاية ، ثم تخطر بها بذلك عن طريق المنشور أو « التفويض الامبراطورى » الخاص بفرض الضريبة *Delegatio* ، وقد نجم عن هذه التغييرات تبسيط كثير من النظم المعقدة التى كانت سائدة فى العصر الرومانى ، واختفت معظم الضرائب التى كانت مألوفة فى ذلك العصر (١٣) ، كما قام دقلديانوس باصدار « مرسوم الأسعار » عام ٣٠١ ، وضع فيه التسعيرة المحددة لكل البضائع المتداولة فى الامبراطورية والأسعار الخاصة للخدمات (١٤) كما سك دقلديانوس عملة صحيحة من أجل حماية الفقراء من جشع المستغلين ، ومن أجل حيازة ثقة التجار والمتعاملين الى جانب تحديد كميات البضائع المتداولة ، والتى تعرض للبيع من جهة أخرى (١٥) .

(12) Bury «op. cit.» p. 27.

(13) Ostrogorsky, «A, History of the Byzantine State, p. 40.

(14) Ensslin «op. cit.» p.p. 383-385.

(15) Camb. Anc. Hist. pp. 338 — 385.

William. G. Sinngen. «op. cit.» p. 412.

(١٦) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ص ٢٦ .

وبعد أن انتهت مدة حكم دقلديانوس تنازل عن الحكم هو وزميله مكسيميانوس ، بل قيل أن المفاصد الضاربة في البلاد ، وعمليات اضطهاد القيصر جاليروس للمسيحيين كانت ذات صلة كبيرة بتنازله عن الحكم (١٧) . وقد اختلف المؤرخون في تقدير تجربة دقلديانوس الأوتوقراطية ، فمنهم من أكد أن هذه التجربة لم تأت بالنتيجة المرجوة منها نتيجة لتفشى الأوبئة في البلاد ، وقيام الحروب الأهلية وكثرة الهجمات الجرمانية على حدود الدولة فقد نقص عدد سكان المدن ، وتقلصت التجارة والصناعة ، وفقدت العملة قيمتها ومنهم من أكد أن تجربة دقلديانوس هذه كانت تجربة رائدة وانها أنقذت الامبراطورية من كارثة كادت أن تودي بها وان هذه الاصلاحات دعمت الحكم المركزي وأحكمت السيطرة على الولايات الرومانية (١٨) .

ومهما يكن من أمر فان دقلديانوس قد بذل كل ما في وسعه محاولا اصلاح المفاصد التي عمت البلاد راغبا في احكام السيطرة على الولايات وتدعيم المركزية الشديدة في الحكم وبذلك فقد قدر للامبراطورية البقاء بعد أن كادت تنهار .

وعقب تنحي دقلديانوس عن الحكم تعرضت البلاد لفوضى سياسية ضارية وتنازع شديد على الحكم مما أدى الى نشوب الحرب الأهلية في البلاد ، وفي هذه الظروف الحالكة برزت شخصية قنسطنطين الكبير الذي تمكن من الانتصار على خصومه وأوجد لنفسه في وسط هذه الفوضى طريقا وصل منه الى حكم الامبراطورية الرومانية عام ٣٢٤ م .

وكما ذكرنا من قبل فاننا لا نستطيع أن نفصل الاصلاحات التي قام بها قنسطنطين عن الأخرى التي قام بها سلفه دقلديانوس لأن كلا

(17) Ostrogorsky «op. cit.» p. 31.

(18) Lot «The end of the ancient World». p.p. 22-23.

فيشر « أوروبا العصور الوسطى » ج ١ ص ١ ترجمة زياده والعرينى .

منهما مكمل للآخر ، ولكن عهد قنسطنطين انفراد بمسألتين هامتين أولاهما : انتقال العاصمة الرومانية الى الشرق وتأسيس مدينة القسطنطينية ، والثاني : الاعتراف بالمسيحية كديانة مصرح بها في الامبراطورية الرومانية (١٩) .

والواقع أن هناك آراء متعددة حول الأسباب التي حدثت بقنسطنطين التي نقل عاصمتها من الغرب الى الشرق ، منها بعض الاعتبارات الحربية والدينية .

والحقيقة ان قنسطنطين رأى بثاقب نظره أن روما حصن الوثنية لم تعد صالحة لأن تكون عاصمة للامبراطورية بعد أن بدأت المسيحية في الانتشار ، كما أن دقلديانوس سبق أن نقل عاصمته من روما الى نيقوميديا في الشرق (٢٠) . وبالتالي ففكرة الانتقال الى الشرق لم تعد فكرة جديدة في عهد قنسطنطين الى جانب أن قنسطنطين نفسه كان من أبناء البلقان فتوقع أن أهل هذه المنطقة سيكونون أكثر اخلاصا وطوعا له من الرومان الغربيين (٢١) . الى جانب أن روما في هذه الآونة كانت تتعرض دائما لهجمات الجرمان من الشمال والشرق ، ولم تكن على قدرة لصد هذه الهجمات مما دعا أباطرتها الى ضرورة الاستعانة بهؤلاء الجرمان في صفوف الجيش الروماني ، فأصبح هؤلاء يكونون قوة جديدة لا يستهان بها داخل المجتمع الروماني ويشكلون خطرا حقيقيا لرغبتهم في الاستيلاء على السلطة (٢٢) . لذلك رأى قنسطنطين أن نقل العاصمة الى الشرق سيحقق لها ملاذا وملجأ من هذه الاخطار الخارجية والداخلية .

ويرى الاستاذ داود رايس ان فكرة انتقال العاصمة الرومانية

(١٩) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ج ١ ص ١٩ .

(20) Vasiliev «op. cit.» p. 72.

(21) Baynes «The Byzantine Empire» p. 103.

(22) Ibid.

من روما الى الشرق ليس جديدا ، وترجع أهمية القسطنطينية الى أنها ائلكان المثالى لأهميتها التجارية ولأنها لا تتحكم فى الطريق البحرى الكبير من الشمال الى الجنوب والذى يربط عالم البحر المتوسط المتحضر بمنطقة روسيا ذات المصادر الطبيعية الغنية فقط ، بل انها تتحكم فى المنطقة التى تتلاقى عندها الطرق البرية لآسيا الصغرى ، ومناطق شرق أوروبا مع المضائق البحرية ، كما انها وقفت كخط دفاعى مع بحر مرمرة فى الجنوب والقرن الذهبى فى الشمال • أضف الى ذلك اعتدال مناخها الذى لم يكن شديد الحرارة ، كما لم يكن شديد البرودة ، الى جانب أن جميع المناطق المحيطة بها كانت أراضى زراعية خصبة تتمتع بإمكانيات ضخمة تساعد على الزراعة • الى جانب ان مياه البحر أمدت المنطقة بالاسماك • لذلك فقد اكتفت الامبراطورية ذاتيا من الناحية الغذائية ، ولم تكن فى حاجة الا الى القمح فقط (٣٣) •

ويرى المؤرخون كذلك أن ظروف هذه الفترة كانت تتطلب بقاء الأباطرة فى الشرق أكثر من الغرب ، وذلك يرجع الى التطور الذى طرأ على الجبهة الأرمنية والشامية والجبهة الدانوبية • فعلى الجبهة الأولى أعادت الأسرة الساسانية الفارسية نشاطها وطموحها ، وأخذت بلاد الفرس تحاول التوسع على حساب الامبراطورية فى الشرق ، كما أن القبائل الجرمانية أخذت تهدد حدود الامبراطورية الواقعة على نهر الدانوب ، هذا وكانت الولايات الشرقية الامبراطورية تتميز بنشاطها وتقوتها الاقتصادى على الولايات الغربية (٣٤) •

ولهذه الأسباب مجتمعة قام قنسطنطين بتأسيس مدينة القسطنطينية الجديدة للنسوبة اليه والتى بنيت محل مدينة بيزنطة القديمة التى أنشأها بيزاس Byzas ٦٥٧ ق.م ، ولم يلتفت أحد الى موقعها

(23) David R. «The Byzantines» p. 19.

(٢٤) عمر كمال نونى « الامبراطورية البيزنطية » ص ٢٥ •

وأهميتها الا عندما اختارها قنسطنطين عاصمة للامبراهورية (٢٥) وقرر سنة ٣٢٤ بناء عاصمته الجديدة التى اتخذ المؤرخون تاريخ انشائها بداية لتاريخ الامبراطورية البيزنطية (٢٦) .

ان تأسيس القسطنطينية يعتبر نقطة تحول جديدة فى التاريخ الرومانى اذ بدأ القسم الشرقى من الامبراطورية يتميز كثيرا عن الغربى من حيث الاستقرار والتقدم ، بل وراثته مجد الامبراطورية الرومانية ، فى حين أضحت روما العاصمة الرومانية تعيش حياة قلقه مزعجة نتيجة اشتداد غارات الجرمان عليها ، وتمكنهم من القضاء على معظم التراث الحضارى العظيم (٢٧) .

أما الموضوع الثانى الذى تميز به عهد قنسطنطين فهو الاعتراف بالديانة المسيحية كديانة مسموح بها للشعب الرومانى ، وهذه الحقيقة على جانب كبير من الأهمية ، اذ أن القسطنطينية أصبحت حامية المسيحية بعد أن كانت روما من قبل هى حصن الوثنية المنيع .

أما عن أسباب اعتراف قنسطنطين بالمسيحية فربما ترجع الى نواحي سياسية ودينية . فالمعروف أن المسيحية تعرضت لحركة اضطهادات والسعة منذ قيامها ، وكان المسيحيون يمارسون عقائدهم سرا ، ورفضوا المشاركة فى العقائد الوثنية التى كان يمارسها جميع الرومان حتى أصبحوا عنصرا غريبا نافرا بين مواطنى الامبراطورية وكان طبيعيا أن تتخذ الاجراءات اللازمة لادماجهم أو استئصالهم .

فاستمرت الاضطهادات منذ ظهور المسيحية وحتى نهاية عهد دقلديانوس حيث قام القيصر جاليوس الذى تنسب اليه حركات

(25) David «op. cit.» p. 20.

(26) Gibbon «The history and decline of the Roman empire. p.p.96-97.

(27) Ostrogorsky «op. cit.» p. 42.
Vasiliev. op. cit. p. 60.

الاضطهادات العنيفة ضد المسيحيين بإصدار مرسوم عرف باسم
« مرسوم التسامح » Edict of Toleration وفيه سمح
للمسيحيين بممارسة عقائدهم داخل الدولة الرومانية دون أن يتعرض
لهم أحد بأذى (٢٨) .

ولكن يرجع الى قنستطنطين الكبير عملية الاعتراف بالديانة
المسيحية كديانة رسمية مرخص بها داخل الدولة ، وتجمع آراء
المؤرخين على أن السبب الذي حدا بالامبراطور قنستطنطين الى
الاعتراف بالمسيحية هو الرؤيا التي رآها سنة ٣١٢ م أثناء قيامه
بمحاربة زميله ماكسينتيوس Maxentius ، فقد قص هذه
الرؤيا بنفسه على مؤرخ الكنيسة يوسبيوس Eusebius
« فقد رأى صليبا على قرص الشمس وعليه عبارة Hoc-Vince
أي بهذا أنتصر » (٢٩) .

وليس هناك من شك في أن قسطنطين قد اعتقد أن وحيا هبط عليه
ورغم أن الاعتبارات السياسية كانت فيما يبدو توحى باتباع سياسة
التسامح الدين ، فاننا بلا ريب نجانب الصواب اذا افترضنا أن
قسطنطين قد عبد اله الشمس الذي لا يقهر لم يتأثر بالأفكار الدينية
أيضا .

وليس هناك شك في أنه كان على ثقة تامة من احرار النصر حتى
لقد غزا إيطاليا ، وأقدم على اقتحام حصن روما المنيع بقوات غير كافية

(28) William G. Sinnigen «op. cit.» p. 414.

(29) Vasiliev «op. cit.» p. 61.

Ostogorsky «op. cit.» p. 43.

A - Alfold «The Conversation of Constantine and Pagan Rome.» Ch. I.

دون أن يعبأً بنصيحة قادته أو نبوءات عرافية فكان الصليب مرسوماً على دروع رجاله عندما خاضوا غمار معركة جسر ملغبيوس Melvian Bridge التي أتاحت له السيادة على الغرب . وفى عام ٣١٣ أعلن هو وحليفه ليكينيوس وفقاً لرسوم ميلان مبدأ التسامح الدينى (٣٠) .

وهناك دلائل على اعتراف قنسطنطين بالمسيحية * فجميع الآثار القديمة تدل على محاولات للتوفيق بين الديانات والتركيز على اله واحد ، كما أن محاولة التركيز على الصليب على قرص الشمس وعلى العملة التى سادت فى عصره ، الى جانب اتخاذ يوم الأحد 'جائزة رسمية' ، كل ذلك يدل على أن قنسطنطين اتجه الى تغيير الديانة التى اعتنقها أبوه وهى « اله الشمس » الى عبادة « اله المسيحيين » (٣١) .

وهناك من المؤرخين من يعارض ذلك ويقول ان قسطنطين لم يعتنق المسيحية ولم يتنصر الا وهو على فراش الموت ، وبالرغم من ذلك كان يرأس المجامع الدينية الكبرى ، وكان يتصرف على أنه زعيم الكنيسة . وبهذا الاجراء أوجد سابقة سار عليها من جاء بعده من الأباطرة البيزنطيين (٣٢) .

ويؤكد ذلك ما ذكره أستاذنا الدكتور سعيد عاشور من أن قسطنطين قتل زوجته وولده يدل على أنه لم يتأثر اطلاقاً بتعاليم المسيحية وأخلاقها (٣٣) .

ظهور الامبراطورية البيزنطية

عهد قسطنطين ينقلنا الى عالم جديد فى العصور الوسطى : وهو العالم الذى تألفت فيه القسطنطينية كعاصمة للامبراطورية : حيث قام

(30) Baynes «Cam. Anc. Hist.» p. 695.

(31) William, G. Sinnigen «op. cit.» p. 416.

(32) Vasiliev «op. cit. p.. 54.

(٣٣) سعيد عاشور « أوروبا العصور الوسطى » ج ١ ص ٣٤ .

الجرمان بتفتيت الامبراطورية الغربية وقسموها فيما بينهم ، هذا فى الوقت الذى صمدت فيه القسطنطينية ، وأصبحت وريثة الحضارة الرومانية ، ومركز الدراسات الهلينستية ومركز الحضارة والفكر والسياسة •

ومن الطبيعى أن هذه الفترة الزمنية بدأت تؤكد على فكرة انقسام الامبراطورية الى قسمين شرقى وغربى ، حتى تبلورت هذه الحقيقة على عهد الامبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩٥ الذى قسم الامبراطورية الى قسمين شرقى وغربى جعل الأول من نصيب ابنه أركاديوس فى حين صار الثانى من نصيب ابنه هونوريوس ، وفى زمنهما تعين الحد الفاصل بين الشرق البيزنطى والغرب الرومانى ، بعد أن انضمت داشيا ومقدونيا الى الشطر الشرقى (٣٤) •

هذا التصرف الذى قام به ثيودسيوس عجل بالكارثة وعجل بانحلال الامبراطورية حيث أن كلا من الامبراطورين حكم فى منطقة مختلفة تمام الاختلاف عن الأخرى (٣٥) •

ولم يصبح بين القسمين من الامبراطورية أى صلة ، وسبب ذلك ان ما جرى من الحوادث فى الغرب والشرق سار فى طريقين مختلفين ، كما أنه لم يكن بين الحكومتين الشرقية والغربية من عوامل الود ما يجمع بينهما ، ففى أثناء حكم ولدى ثيودسيوس نلحظ كثرة من تعاقب على الوصاية على أركاديوس امبراطور الجزء الشرقى « البيزنطى » فى حين أن ستيلىكو الجرمانى القوى حكم باسم هونوريوس فى الغرب ما يزيد على عشر سنوات (٣٦) •

(34) Ostrogorsky «op. cit.» p. 50.

Vasiliev «op. cit.» p. 82.

(٣٥) سعيد عاشور « المرجع السابق » ص ٢٣ •

(36) Ostrogorsky «op. cit.» p. 5.

وهناك أسباب أخرى أدت الى حدة التناحر بين القسمين الغربي والشرقي وألحت في ضرورة انقسام الامبراطورية الى قسمين مختلفين بكل الاختلاف هو أن حضارة كلا من القسمين مختلفة تمام الاختلاف عن حضارة الأخرى فالقسم الغربي متأثر بالحضارة الرومانية والشرقي متأثر بالحضارة اليونانية الهلينستية التي كانت تجد في تراثها المجد والتقدم والرقى عن الحضارة الرومانية . حتى ان الإمبراطرة الرومان تأثروا تلقائيا بالحضارة اليونانية ، وأخذوا بها ، كما أن هناك اختلافا شديدا في اللغة بين قسمي الامبراطورية ، فالغربية تتكلم اللاتينية والشرقية تتكلم اليونانية^(٣٧) وهذا ما سنفرده له فصلا خاصا .

أُصِفَ الى ذلك أن الظروف السياسية التي مرت بها الامبراطورية الغربية أدت الى بلورة هذا التقسيم والى ظهور القسم الشرقي من الامبراطورية في صورة المنقذ الخاص للقسم الغربي .

فالمعروف أن القبائل الجرمانية بدأت منذ نهاية القرن الثالث الميلادي في عبور حدود الامبراطورية الواقعة على الدانوب والراين على السواء تاركين آثارا في تاريخ الامبراطورية بشكل يختلف في الشرق عنه في الغرب .

وقد اتخذت هجماتهم شكل اغارات عامة ضخمة منذ سنة ٣٧٥ م ، وقد أمتدت هذه الحركة الواسعة حتى سنة ٥٦٨ م أي نحو قرنين من الزمان استطاعت فيها كثير من الجموع الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية هامة وتأسيس ممالك جديدة في هذه الأقاليم مما غير وجه العالم القديم تخيرا تاما ، وجعل صورة أوروبا العصور الوسطى تبدو أكثر وضوحا^(٣٨) .

فقد وزعت معظم أجزاء الامبراطورية الغربية ، وضاعت معظم

(37) Ostrogorsky «op. cit.» p. 52.

(٣٨) سعيد عاشور « المرجع السابق » ص ٦٣ .

أجزائها فقد احتل القوط الشرقيون إيطاليا ، والقوط الغربيون والبرجنديون أسبانيا وسيطر الوندال على شمال أفريقيا ، ووصل الألمان الألاس والفرنجة الى السوم والميز^(٣٩) هذا فى الوقت الذى تعرضت فيه الامبراطورية الشرقية أيضا لهجمات البرابرة وعلى رأسهم قبائل الهون بزعامة أتتلا ، ولكن الولايات الغربية الغنية الفسيحة تمكنت من اجتذاب هذه العناصر المتبربرة اليها ، وصرفتهم عن مهاجمة الدولة الشرقية الى جانب مهارة الأباطرة البيزنطيين فى استخدام الحيلة والدهاء والرشوة ، وعلى سبيل المثال ما فعله بركسوس التراقى السفير الذى أوفده الامبراطور البيزنطى الى أتتلا قائد الهون فظل يخادعه ويصور له خيارات العزب حتى صرفه اليه وأراح الدولة البيزنطية من شره^(٤٠) . فنجت الدولة البيزنطية من خطر المتبربرين فى حين وقبـح الغرب فريسة سهلة بين أيديهم •

ومن الأسباب الأخرى التى ادت الى انقسام الامبراطورية الى شطرين متميزين هو لاختلاف المذهبى بين القسمين الغربى والشرقى

فقد تدخل الأباطرة المسيحيون منذ الاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية — فى شئون الكنيسة والعقيدة لأن ذلك أعطاهم تأييدا روحيا فى تطبيق سياستهم ولكن هذا التدخل جعل للسلطة الزمنية الحق فى التدخل المباشر فى الصراع الدينى والانقسامات المذهبية الدائرة فى ذلك الوقت. والتى لم تكن فى الحقيقة ألا اختلافا بين الكراسى الرسولية، الكبرى، على الزعامة والصدارة^(٤١) •

ومن أهم الفرق التى نشأت عن الانقسامات المذهبية الأريوسية

(39) Vasiliev « op. cit. » p. 87.
Ostrogorsky « op. cit. » p. 53.
(40) Vasiliev « Ibid » p. 88-89.
(41) Ostrogorsky « op. cit. » p. 52.

التي تزعمها الكاهن السكندري أريوس والتي ترى أن المسيح الابن لا يعادله الاله الأب في المستوى والقدرة فهو دونه^(٤٢) .

أما الفريق الثانى فهو فريق الأثناسيوسية الذين تزعمهم القديس أنفاسيوس وكان رأيهم يقوم على أن المسيح الابن مساوى تماما للاله الأب فى كل صفاته وبذلك فهم لا يقللون من شأن المسيح بل يجعلونه فى نفس مستوى الاله الخالق^(٤٣) .

ازدادت خطورة الآراء الأريوسية لكثرة المؤيدين من رجال الدين مما دعى خصومهم الى رفع الأمر الى الامبراطور قنسطنطين الكبير ، فقام بعقد مجمع دينى فى نيقية سنة ٣١٥ الذى قرر فيه بطلان مذهب أريوس وقرروا أن الابن من نفس جوهر الأب ، ومن ثم أخذت العقيدة الدينية تتخذ صورتها وشكلها ، وأيد هذا القرار مجمع القسطنطينية الذى انعقد سنة ٣٨١ م^(٤٤) .

ورغم هذه القرارات الا أن الأريوسية ظلت منتشرة خاصة فى الشرق بل انها بدأت تنتشر بين رجال القصر الامبراطورى مما حدا بقنسطنطين الى ضرورة تغيير رأيه وتعاطفه مع الأريوسية مرة أخرى مما أدى الى زيادة حدة الصراع المذهبى ، ويهمنى من أمر هذا الموضوع انشطار الامبراطورية الى قسمين غربى كاثوليكي (أثناسيوسى) وشرقى بيزنطى. (أريوسى) .

وبذلك تألفت الامبراطورية البيزنطية كقوة سياسية قائمة بذاتها لها أباطرتها المستقلين وسياستها المستقلة التى كانت تتأثر بالأقاليم الشرقية ، وبدا ذلك واضحاً فى الناحية الدينية خاصة . ففى الوقت

(42) Cam. Med. Hist. Vol. I, p. 119.

(43) Vasiliev «op. cit.» p. 55.

(44) Vasiliev. Ibid.

الذى كانت فيه حكما استبداديا ، وتدير ادارة دقيقة وتدافع دفاعا محكما كانت قد وصلت الى درجة تستطيع معها أن تفصل علاقاتها بروما لكي تقيم وحدة دينية مع أطرافها فى الشرق ، وأن تؤسس كنيسة تكاد أن تكون مستقلة عن البابوية فى روما ، وتتفرغ لمشاكلها الشرقية الأمر الذى كان لا بد وأن يدعم قوتها •

ومن الناحية الاقتصادية والثقافية والفنية ، نجد أن الشام ومصر وشبه جزيرة الأناضول أصبحت لهم أهمية خاصة فى القرنين الرابع والخامس فبدأ ينمو الفن المسيحى بفضل جهود رجال الدين وأبحاثهم كى يخلف لنا قطع فنية عظيمة فى القرن السادس ، ومنذ ذلك الوقت ظهر لنا بشكل شرقى فى أساسه ، وإذا كان ذلك الحال فى الولايات البيزنطية . فان القسطنطينية نفسها شجعت العناصر المختلفة كى تمتزج بها وتخرج حضارة خاصة (٤٥) •

سقوط الامبراطورية الغربية

رأينا من الاستعراض السابق الظروف التى أحاطت بالامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وانشطار العالم الشرقى عنها ، وبداية ظهور التاريخ البيزنطى •

ومن أهم الظواهر التى عرضنا لها ، أخطار الجرمان وهجماتهم على مختلف أرجاء الامبراطورية ، مما أدى الى تفتت الوحدة الجغرافية فى الغرب وتقسيم البلاد بين هؤلاء الغزاة •

ولقد صادف سقوط الامبراطورية فى الغرب وجهات نظر مختلفة من قبل المؤرخين والأدباء القدامى ، فقد أرجع جيروم وهو من رجال الكنيسة فى القرن الخامس سقوط الامبراطورية الى هزيمة روما وخيانة

(٤٥) عمر كمال « المرجع السابق » ص ٦٧ •

الضابط الونوالى ستيلكو الذى عينه الامبراطور ثيودوسيوس الاول مستشارا لابنه هونوريوس * فقد انقسمت الامبراطورية الرومانية بعد وفاة ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م الى امبراطورية شرقية حكمها ولده أركاديوس وامبراطورية غربية حكمها ولده الثانى هونوريوس * وكان ستيلكو الشخصية الأولى فى بلاط الامبراطور الغربى ، وتجاوز طموحه أمور السياسة فأصبح القائد الأعلى للجيش الرومانى الذى كان عليه أن يحارب أليك ملك القوط الغربيين عندما هجم على ايطاليا (٤٦) *

وثبتت خيانة ستيلكو عندما تواطأ مع أليك وسمح له بالهرب بعد أسره مما أعطى الفرصة لملك القوط أن يعاود هجومه على ايطاليا وأن يحتل روما عاصمة الامبراطورية ، ولعل جيروم كان يدين هنا سابقة الأباطرة الخطيرة فى توظيف الأجانب وتجنيدهم فى الجيش الامبراطورى ، وان كان جيروم قد دافع عن سياسة أركاديوس وهونوريوس ووصفهما كما لم يصف أحدا من قبل بالتقوى والصلاح ، وكان جيروم كان يخفف عن كاهل الأخوين عبأ الخطر الذى ارتكبه أبوهما عندما نصب ستيلكو مستشارا فى بلاط الغرب ، ونصب روفينوس الغالى مستشارا فى بلاط الشرق ، ولقد تساءل جيروم والألم يعتصر قلبه « من ذا الذى يصدق الحقيقة بعدئذ ، وأى سجل الأحداث سيروى أن روما كانت تحارب داخل حدودها ليس بقصد المجد ، وانما من أجل مجرد الحياة » (٤٧) *

أما سالفيان المرسيلى فيعزو انهيار الامبراطورية فى كتابه « حكومة الله » الى انحلال الأخلاق الذى ساد المجتمع والحياة الاثيمة التى كانت داعية الى الهزيمة أمام الجرمان ، ان سالفيان يقول : وقد علت قلمه

(٤٦) على الغمراوى « مدخل الى دراسة التاريخ الاوروبى الوسيط » ص ٢١٦ .
(٤٧) على الغمراوى « المرجع السابق » .

الدهشة » أى رجاء يحق لدولتنا أن نتعلق بأهدابه اذا كان الجريمة أبلغ منا صفاء ونقاء ؟ ان ما أقوله الآن لهو القليل أى رجاء فى الحياة والغفران ونحن نرى عفاة الجرمان ونحن الرومان لا نقوى على أن نكون أعفة ؟ أليس حقيقيا بنا أن نشعر الخزي والحياء ؟ انى أصبح بأعلى صوتى لكى يسمع العالم أجمع أن كفوا أيها الرومان عن هذا الصلف أينما كنتم وأخزوا النفس بمر الحق وليكن معشركم الخجل والندامة ألا تعلمون أننا شقين بالدنس ؟ ان قوة الغرماء لم تكن هى التى لطمتنا بالهزيمة ، ولكن نحن الذين لطمنا أنفسنا بتلك الحياة الأثيمة إلىشنعاء » *

اذا استطاع الجرمان أن يتغلغلوا فى المجتمع الرومانى حتى تمكن أودواكر وهو أحد القادة الجرمان أن يخلع روميلوس أغسطولوس آخر أباطرة الغرب سنة ٤٧٦ م ، وان يتولى مكانه حكم ايطاليا *

وكان غرض أودواكر من هذا العمل الوصول الى السلطة ، ولم يدر بخلده موضوع سقوط الامبراطورية ، فكل همه ألا يحكم الغرب امبراطورا طفلا وهو رومولوس (٤٨) *

حاول أودواكر أن يكسب حكمه شرعية ، فراسل الامبراطور البيزنطى زينون وبعث اليه مبعوثين من قبل سنانو روما محاولين استمالته الى جانبهم ، فعرضوا عليه وجهة نظرهم وهى أن ايطاليا ليست فى حاجة الى تعيين امبراطور مستقل ، وانهم يعتبرون زينون امبراطورا على الشطرين الشرقى والغربى وفى الوقت ذاته التمس أودواكر من زينون أن يمنحه رتبة البطرقية ، وأن يعهد اليه بادارة شئون ايطاليا ،

(48) Ostrogorsky «op. cit». p. 57.

فاستجاب زينون لذلك واعترف بأودواكر حاكما على إيطاليا ، فكتب
بذلك الصفة الشرعية لحكمه^(٤٩) .

أما عن موقف البابوية من سقوط الامبراطورية ، فلم يكن أمام
البابا الا الاعتراف بالأمر الواقع ، فكان عليه أن يصدق على حكم
أودواكر لاطاليا ، وعلى جعل العاصمة رائنا بدلا من روا . كما أن
البابا اعترف بشرعية حكم زينون على الامبراطورية البيزنطية ، ونظر
اليه على أنه القوة الوحيدة في العالم الروماني ولذا بادله زينون نفس
المشاعر فاعترف به على أنه زعيم العالم المسيحي وله السيادة على
بطيركية القسطنطينية وانطاكية وبيت المقدس والاسكندرية^(٥٠) .

والمعروف أن هذه العلاقات الطيبة التي ربطت بين البابوية
والامبراطورية البيزنطية كانت رهينة الظروف الصاعدة فقط لأن
السياسة الدينية كانت تختلف كلية بين الكتيستين الشرقية والغربية .

من أهم الآثار التي عادت على الدولة البيزنطية من سقوط
الامبراطورية في الغرب أن أصبح الامبراطور البيزنطي وحيدا من
نوعه ، وأصبح يبدو أمام المتبربرين كممثل للحضارة الرومانية ، والمجد
الروماني ، وكان لذلك وقع كبير على قلوبهم . وعرف أباطرة الدولة
البيزنطية كيف يستغلون هذه الناحية فأحاطوا أنفسهم بمظاهر الأبهة
والغنى التي لم يعرفها الا القليلون من أباطرة الرومان واجتهدوا في أن
يظهروا أمام هذه الشعوب بمظهر رائع يلقي الرهبة في قلوب
رعايهم^(٥١) .

ورغم امتلاء العالم الروماني بمجموعات الجرمان من قوط

(49) Vasiliev «op. cit.» p. 107.

Eyre «The Middle Ages» p. 23.

(50) Pirenne. Mohamed and Charlemagne» p. 210.

(51) Ostrogorsky op. cit.» p.p. 57-58.

شرقيين وغربيين ووندال وهون وسكسون وانجلز وغيرهم الا أن البيزنطيين ظلوا مرابطين وحاكمين للبندقية واستريا ونابلى وصفلىة وكالابريا ثم عينوا بطريقا على رافنا أصبح من أكبر الموظفين وكالابريا ثم عينوا بطريقا على رافنا أصبح من أكبر الموظفين البيزنطيين •

أما البابوات فكان لسقوط الامبراطورية أثره فى ارتفاع شأنهم فقد بدأت سلطاتهم تملو ، وحاولوا أن يشقوا لأنفسهم وسط هذه الفوضى طريقا للسمو^(٥٢) حتى انتقل اليهم عفوًا حكومة دوقية روما وحاولوا التعلق بطيف السلطة الامبراطورية ، فأرخوا وثائقهم بسنوات حكم الامبراطور واعتبروا البطريق البيزنطى أرخون رافنا وليا لهم ونصيرا ، وبلغ من شدة تأثرهم وتعلقهم به أن ظنوا أنهم لا يأمنون على منصبهم الا اذا أقر هذا الموظف انتخابهم باسم سيده الامبراطور البيزنطى^(٥٣) •

(52) Pirenne. «op. cit.» p. 210.

(٥٣) ديفز « شارلمان » ترجمة العرينى ص ٦ •

الفصل الثاني

الآثار المترتبة على شغور العرش الامبراطوري في الغرب

* تسابق القوى الخارجية للسيطرة على ايطاليا

* القوط الشرقيون

* البابوية

* البابوية واللومبارديون

* البابا والفرنجة

الفصل الثانى

آثار شغور العرش الامبراطورى فى الغرب

كان لشغور العرش الامبراطورى فى روما أثره على تسابق القوى الخارجية للسيطرة على ايطاليا ، فأصبحت روما عبارة عن ظل لأمجاد غابرة ، وهيات هذه الظروف الفرصة لتألق نجم البابوية ، وظهور القوط الشرقيين ، واللومباردين فيما بعد ، ودخلهم فى صراع مرير مع أباطرة الدولة البيزنطية الذين رأوا أن من واجبهم وراثة أمجاد روما . فهم ورثة الأباطرة الرومان القدامى أمثال أوكتافيوس وقنسطنتين الكبير (١) .

ويعتبر ظهور البابوية كقوة لها دورها الفعال ووزنها فى توجيه السياسة فى العالم الغربى من أهم آثار شغور العرش الامبراطورى .

فقد عمل خلفاء القديس بطرس على أن يحلوا محل الأباطرة فى روما ، قلعة البابوية ، ولعل نشأة البابوية بها بالذات يرجع الى ما تمتعت به هذه المدينة من صفة مقدسة ، لأنها مدينة القديس بطرس التى أسس بها كنيسة ، كما أنه هو أول تلامذة السيد المسيح الذى أمره بقوله « أنت بطرس — أى صخرة — وعلى هذه الصخرة ابنى كنيسة » (٢) .

(١) أسحق عبيد « روما وبيزنطة من قطيعة فوشسوس حتى الغزو اللاتينى » ص ٤ .

(٢) انجيل متى . الاصحاح السادس عشر .

ومن هذا المنطلق راح كتاب الكنيسة اللاتينية منذ وقت مبكر يزعمون بأن لأسقف روما الامارة على الكنيسة العالمية ، لأن أسقف روما هو خليفة القديس بطرس^(٣) .

وقد صار من المتعين جريا على المنطق السائد وقتذاك أن يكون للكنيسة رئيس أعلى كما للامبراطورية امبراطورا ، وان تنصرف الأنظار عن فكرة المجالس الدينية المحلية لصعوبة تأليفها ولأنها تتفق والمناسبات الكبرى أكثر مما تتفق وشئون الادارة اليومية . والواقع أن توحيد المذاهب وتجنيس طقوس تطلب أن يكون هناك أسقف على الأساقفة للرجوع اليه في كل مواضع الشك ولتصبح الشعوب المسيحية تابعة لزميم واحد ، وكنيسة واحدة لها الصدارة على جميع الكنائس^(٤) .

لذلك أصبحت كنيسة روما ولأسقفها السيادة على العالم المسيحي الغربي ، وتحولت الى بابوية لها هيبتها وسلطانها وأصبحت قبلة العالم الغربي والملاذ الوحيد بعد سقوط الامبراطورية^(٥) .

تتابع على المنصب البابوي بابوات عظام أمثال ليو الأول وجيلازيوس وهكذا صارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية في صورة عملية عالمية في عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم ٦٠٤/٥٩٠ م الذى دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها ، وذلك بوصفه خليفة للقديس بطرس^(٦) .

ونحن لا نبالغ القول اذا أكدنا أن جهود البابوات الثلاث ليو الأول وجيلازيوس وجريجورى العظيم هي التى جعلت البابوية بحق

(٣) اسحق عبيد « الامبراطورية الرومانية » ص ١٧٥ .

(٤) نشر « تاريخ أوروبا العصور الوسطى » قسم ١ ص ١٠٦ .

(٥) Bury «op. cit» p. 64.

(٦) سعيد عاشور « المرجع السابق » ج ١ ص ٥٥ .

الموريث الشرعى للامبراطورية الرومانية ، وتمكنت فى عهد البابا-ليو الثالث من نقل التاج من على رأس امبراطورة الدولة البيزنطية ايرين الى رأس شارلمان ملك الفرنجة .

ومن الآثار الهامة لشغور العرش الامبراطورى فى الغرب تسابق العناصر الجرمانية قبيلة تلو الأخرى محاولة الاستقرار فى ايطاليا ، وذلك رغم الجهود البيزنطية المكثفة للسيطرة على أجزاء كثيرة منها .

ويعتبر القوط الشرقيون أهم العناصر الجرمانية التى كانت ترغب فى التوغل فى ايطاليا بعد ما أصابها من خراب وفوضى سياسية من جراء سقوط الامبراطورية .

دخل القوط الشرقيون فى الكفاح مع الامبراطورية البيزنطية التى أجبرت على السماح لهم بالدخول فى خدمتها ، ومنحتهم أرضا سنة ٤٦٢م وأغدقت المال والإلقاب على قوادهم . ومن أبرزهم ثيودريك الذى تولى زعامتهم عام ٤٧١ . بعد أن قضى عشر سنوات من حياته — وهو صبى — رهينة بالقسطنطينية ، ومن أهم الفوائد التى عادت عليه من ذلك أنه تأقلم على النظم البيزنطية ، وتعلم الكثير من النظم المتحضرة (٧) .

ظل القوط الشرقيون يضغطون على الدولة البيزنطية ، وتدفع لهم معونات مالية فادحة ، لذلك افكر الامبراطور زينون فى خير وسيلة للتخلص منهم ، فنظر أمامه فوجد أن أودواكر الزعيم الجرمانى قد تمكن من فرض سيطرته على رافنا وما حولها ، واضطر الامبراطور الى قبول الأمر الواقع كما ذكرنا ، ولكنه حقيقة يتمنى أن يقضى عليه ويجعل

(7) Thompson «The Middle Ages» p. 114

Moss «The Birth of the Middle Ages». p. 84.

إيطاليا جميعها تحت سلطانه ، فليس هناك الا أن يبعث اليه بالقوط الشرقيين^(٨) .

توجه ثيودريك على رأس قواته — بناء على أوامر الامبراطور زينون — الى ايطاليا ، والتقى بقوات أودواكر ، فانتهز عليه انتصارا ساحقا ولقى أودواكر مصرعه سنة ٤٩٣ هـ ، وقامت بذلك فى ايطاليا مملكة للقوط الشرقيين بزعامة ثيودريك الكبير^(٩) .

وبذلك نرى أن ايطاليا أصبحت لقة سائغة ، وأن شغور العرش الامبراطورى سهل لهذه القوى الخارجة تحقيق آمالها، وفعلا بدأ ثيودريك يوطد أقدامه داخل ايطاليا ، ويقبض على زمام الأمور مع ملاحظة ضرورة الالتزام بسياسة التبعية للدولة البيزنطية لأنها صاحبة الفضل أولا وأخيرا فى دخولهم ايطاليا وذلك قيام ثيودريك بسك عملة عليها اسم الامبراطور البيزنطى^(١٠) .

ومن معالم سياسة ثيودريك فى ايطاليا ابرام سلسلة من المحالفات مع الممالك الجرمانية الواقعة الى الغرب منه ، وكان هدفه من ذلك أن يقيم توازنا للقوى بين هؤلاء الحكام ، ويقوم بدور الوسيط بينهم وبين القسطنطينية وبهذه الوسيلة استطاع أن يكفل لنفسه الزعامة على الممالك الجرمانية وأن يكون مخلصا للامبراطور البيزنطى ، وكان يرجو من ذلك أن يكون مقاومة قوية لسحق أية فكرة قد تراود البابوية أو الامبراطورية البيزنطية^(١١) لاسترداد ايطاليا .

ورغم جهود ثيودريك ومحاولات الإصلاح الداخلية والخارجية الا

(8) Cam. Med. Hist. Vol. I, p. 367.

(9) Vasiliev «op. cit.» p. 197.

(١٠) سعيد عاشور « المرجع السابق » ص ٨٨ .

(11) Moss «op. cit.» p. 71.

أن الأمور ما لبثت أن اضطربت بينه وبين الامبراطور البيزنطى جستين الأول فبدأ الخلاف بينهما حول المسائل الدينية ، فقام جستين بحملة اضطهادات واسعة ضد الأريوسيين ، فثار ثيودريك لآخوانه ، وارتكب جريمة انتقامية أساءت الى ذكرى كل أعماله الجليلة حين أمر باعدام أمينة بؤثيبيوس خاتم الفلاسفة والشعراء الأقدمين والذي يعد من خيرة فلاسفة العصور الوسطى (١٣) .

توفى ثيودريك الأول وخلفته على العرش ابنته أمالاسونثا وصية على ابنها البالغ عشر سنوات ، ولكنها لم تتمكن من الصمود على العرش لوجود مقاومة كبيرة لسياساتها حتى انتهى الأمر بمقتلها (١٣) .

اتخذ جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية من هذه الحادثة ذريعة للتدخل فى شئون ايطاليا ، وحاولت إعادة هيكلة الامبراطورية البيزنطية الى هذه المناطق ، لذلك أعد جيشا امبراطوريا جعل على قيادته خيرة جنده وهو القائد بليزارىوس الذى كان مثلاً أعلى للجندى المحترف ، فتوجه الى صقلية التى ما لبثت أن سقطت ، ثم توجه الى داخل ايطاليا ، فوجدت قواته مقاومة طويلة من القوط ، وظل القتال محتدماً بين الجانبين البيزنطى والقوطى حتى سقطت رافنا عاصمة القوط سنة ٥٤٠ م (١٤) .

تتابع على عرش القوط فى هذه الفترة الوجيزة عدداً من الملوك بعد أمالاسونثا منهم ثيوداهاد ووتيجيز وهلدبياد وايرارتيغن وتوتيل الذى تمكن من السيطرة على الموقف ومن زعامة الجيش القوطى الذى استطاع أن يستولى على روما ذاتها (١٥) .

(١٢) فشر « المرجع السابق » ص ٣٦ .

Cam. Med. Hist. Vol. II, p. 81.

(13) Lot «The End of the Ancient World». p. p. 258-259.

(14) Hodgkin «Italy and her invaders» Vol. I, pp. 41-84.

(15) Hodgkin Ibid.

اضطر الامبراطور جستنيان الى سحب بليزاريوس من جبهة القوط ، وذلك لانشغاله فى الحرب على الجبهة الشرقية مع فارس ، فانتهز توتيلاً هذه الظروف وبدأ يمارس سلطاته السياسية داخل روما على أنه الحاكم الشرعى لها بدون وصاية الدولة البيزنطية ، وجدد « مبانى العاصمة ، ووفقاً لما ذكره المؤرخ بروكبيوس — فان أساطيله بدأت تغير على شواطئ دالماتيا للنهب والتخريب حتى أضحى الغرب كله فى أيدي البرابرة » (١٦) .

اضطر جستنيان الى معاودة الهجوم على القوط ، فبعث اليهم بقائد آخر يدعى نارسييس حيث تمكن من القضاء على جميع الاستحكامات التى أقامها توتيلاً وسحق قواته وقضى نهائياً على مملكة القوط الشرقيين (١٧) ثم تسلم نارسييس مدينتى بريشيا وفيرونا وهما آخر معاقل القوط وحصونهم . وقد قامت قواته بمذابح شديدة قضا فيها على جميع الذكور من سكان مدينة ميلان وعددهم يقدر بحوالى ثلاثمائة ألف نسمة على حسب تقدير المؤرخ بروكبيوس (١٨) .

لم تسلم ايطاليا من الأطماع السياسية — بسبب شغور العرش الامبراطورى ، فقد جذبت روما اليها عناصر جديدة حاولت أن تحل محل القوط الشرقيين — وهم (اللومبارديون) .

لم يكن لدى ايطاليا من الوسائل ما يكفى لحمايتها من أى خطر يحيق بها ، لذلك وقعت فريسة سهلة للشعب اللومباردى ، الذى تحالف مع قبيلة الآفار الآسيوية وقاموا معا بتدمير مملكة الجيسداى التى استوطنت حوض الدانوب ، واستولوا على بلادهم وما فيها من غنائم (١٩) .

(16) Moss «op. cit.» p. 104.

(17) Lot. «op: cit:» p.p. 262-263.

(١٨) فشر « تاريخ اوربا العصور الوسطى » ج ١ ص ٥٥ .

(19) Vasiliev. «op. cit.» p. 172.

غادر اللومبارديون بعد ذلك بانونيا خوفا من حلفائهم الآفار واتخذوا مسارهم صوب الأراضى الإيطالية لخلوها من الدفاع البيزنطى اللهم الا البطريق البيزنطى الموجود فى رافنا والذي عجز عن صد هذا الهجوم •

وصلت القوات اللومباردية سنة ٥٦٨ م الى ايطاليا متحدتين تحت قيادة ملكهم ألبوين صاحبين زوجاتهم وأطفالهم ، ومعهم بعض من القبائل الجرمانية الأخرى مثل السكسون^(٢٠) ، فسقطت كييفيدال ، ولم تلبث منطقة فريولى أن اجتاحتها اللومبارديون ، وغادر بطريك اكويليا مدينته ، وفر الى جرادوا ، واحتفظت القوات الامبراطورية بمدينتى بادوا ومفتو حيث صمدوا عند خط نهر البو ، وحالوا دون اقتيال اللومبارد الى الساحل الشرقى ، لكن ضاعت منهم فياكتزا وفيروسا ، وانعزلت منطقة الحدود فى جنوب التيرول عن رافنا ، وبعد ذلك بعام دخل ألبوين مدينة ميلانو ، ثم توصل فى النهاية الى الاستيلاء على بافيا بعد حصار طويل ، فأصبحت عاصمة للومبارد ، فانفصل بذلك شمال ايطاليا عن الامبراطورية الذى أضحى معروفا باسم لومبارديا^(٢١) •

استمرت القوات اللومباردية فى الزحف على وسط ايطاليا وجنوبها ، فاستولوا على تسكانيا واحتلوا بنفينتو ، وعلى الرغم من عدم استيلائهم على روما فانهم أحاطوا بها من ثلاث جهات من الشمال والشرق والجنوب وقطعوا كل اتصال بين روما ورافنا حتى لا تنتظر روما مساعدة من رافنا أو القسطنطينية^(٢٢) •

ولا يهمننا فى هذا المجال استعراض حياة اللومباردين فى ايطاليا أو نظام حكمهم ومدى اختلافهم عن غيرهم من العناصر الجرمانية ،

(20) Ibid.

(21) Bury «op. cit.» Vol. II p.p. 160-166.

(22) Ibid.

لكن ما يهمننا هو القوى التي حاولت التصدي لهذا الغزو ، كما حاولت أن
تجد لنفسها وسط هذه الفوضى منفذا للوصول الى السلطة •
وأول هذه القوى هي :

البابوية :

كان البابا في هذه الفترة هو جريجوري الأول الذي اتصف بصفات
خلقية هيأته لمعالجة الوضع الغريب المحيط به ، فقد كانت إيطاليا كلها
في حالة ارتباك مطلق ومحنة تامة ، فجعل لنفسه وللبابوية سلطانا زمنيا
يضارع سلطان الدولة البيزنطية واللويمباردين^(٢٣) ، وعندما أجمع رجال
الدين على اختياره لمنصب البابوية سنة ٥٩٠ م — رغم تمنعه الشديد —
بدأت تظهر ملامح شخصيته على حقيقتها لتعبر عن كثير من الصفات
التي امتاز بها أهل العصور الوسطى منها ولعه بدراسة اللاهوت ،
واعتقاده في المعجزات وبغضه للتراث الكلاسيكي وحماسه
للديريه^(٢٤) •

ومما يشهد بزيادة قوة البابوية في عهده نمو رقعة ممتلكات الكنيسة
من الأراضي الزراعية ، وهو أمر لم يؤكد فقط مقانة مركز إيرادات كرسى
روما ، بل زودها أيضا بوسيلة تمارس بها نفوذها الأدبي والمادى في كل
أرجاء إيطاليا ، اذ كان للكنيسة منذ عهد قنسطنطين الحق القانونى في
حيازة الممتلكات ، وتزودنا رسائل البابا جريجورى الكبير بمعلومات
وافية لما اشتهرت به روما من كفاية في نهاية القرن السادس ، وقد بذل
جريجورى اهتماما كبيرا لتعلم أحسن الوسائل في تربية الماشية والتأجير
وحيازة الرقيق ، وجميع الأمور التي تهتم كل مالك أرض وفي ذلك دلالة
على ما حدث من احلال النشاط الكنسى مكان الحكومة الامبراطورية في
العاصمة الامبراطورية السابقة روما^(٢٥) •

(23) Moss. «op. cit.» p. 132.

(24) سعيد عاشور «أوروبا الوسطى» ج ١ ص ١٤٨ •

Moss. «op. cit.» p. 133.

(25) (Ibid).

والواقع أنه حتى هذه الفترة لم يكن للبابا فى العالم المسيحى من الصفة السياسية الكبيرة، إلا أنه، أسقفاً دينياً له بقداسة كبرى • حيث كان للامبراطور البيزنطى دوراً سياسياً كبيراً • ولكن هذا الدور أخفته انتشار الاسلام بين ربوع العالم الرومانى خاصة فى مصر والشام وشمالي افريقيا ، لذلك أصبحت البابوية الصفة السياسية الكبرى التى بدأت تضارع بها الامبراطورية البيزنطية • لكن بدأ الاضطراب السياسى يعصف بالبابوية عندما هددها القوات اللومباردية (٢٦) •

قام جريجورى بمهمة سياسية هامة بالنسبة لاطاليا فباسم البابوية كان يحل كثيراً من المشاكل السياسية ، فقد دخل ميادين الحرب فى أكثر من جبهة باسم الرومان وكلها موجهة ضد اللومباردين ، فكان يعلن دائماً أن كرسى روما الرسولى « كرسى القديس بطرس » هو أعلى الكراسى فى الشرق والغرب (٢٧) • ومن أهم مواقف البابا جريجورى محاولته اثبات الحق البابوى ، وإن له سلطات أعلى من السلطات الامبراطورية داخل ايطاليا ، بل أراد أن يمد النفوذ البابوى ليس على ايطاليا فقط بل على جميع بلاد الغرب مثل شمال افريقية وأسبانيا وغاله (٢٨) وبمثل هذه السياسة دحض جريجورى النظرية الامبراطورية التى سادت الفكر السياسى البيزنطى منذ عصر جستنيان ، وهى أن الولاية الايطالية شأنها شأن جميع أجزاء الامبراطورية الأخرى لا بد أن تخضع للامبراطور ومرعوسيه وذلك لأن « الدولة لا تقع فى داخل الكنيسة ، بل ان الكنيسة هى التى تقع فى داخل الدولة » (٢٩) •

لذلك بدأت الاحتكاكات بين السلطتين الزمنية والدينية منذ هذا التاريخ المبكر ، فلو أن العرش الامبراطورى كان موجوداً داخل ايطاليا

(26) Lindsay J. «Byzantium into Europe.» p. 388.

(27) Cam. Med. Hist. Vol. I p. 246.

(28) Oman «The dark ages» p.p. 202-204.

(29) Moss. «op. cit.» p. 134.

فى هذه الفترة لما نمت البابوية الى هذا الحد ، ولما حاول المعاصرون أن يتجهوا صوب البابوية بصفتها القوة الوحيدة الموجودة بالغرب ، والتي تتمتع بالتراث القديم .

بدأ الصراع بين الدولة البيزنطية والبابوية حول دور النائب الامبراطورى « الأوكسيراخ » فى ايطاليا ، ومدى سلطاته . فقد رأى البابا جريجورى أن سلطاته الدينية تعطيه الحق فى أن يكون فى منزلة أعلى من منزلة الوالى البيزنطى لأنه خليفة بطرس الذى تسلم بمفاتيح الحل والابرار فى السماء والأرض ، لذلك نجد سكان روما وايطاليا يشاركون هذا الشعور ، وبدأت تصرفاتهم تعبر عن ذلك الاحساس ، وبدأوا يعاملون النائب الامبراطورى على أنه مجرد حاكم ضعيف ومندوب لامبراطور يعيش فى منطقة بعيدة عنهم ، ولا يربطه بهم أى صلات روحية (٣٠) .

ساعد جريجورى على تحقيق سموه ما حصل عليه من أموال وثورات وايرادات ضخمة فاقت ما يملكه النائب الامبراطورى (٣١) .

وظهر نزاع آخر بين البابا جريجورى الثانى والامبراطور البيزنطى موريس ٥٨٢ م — ٦٠٢ م بشأن القرار الذى أصدره الامبراطور بمنع موظفيه المدنيين وجنده من الانخراط فى سلك الكهنوت أو الرهبنة . لذلك عارضه البابا جريجورى ووقف منه موقفا شديدا وأثبت له أن الطريق الوحيد الى الجنة انما يتأتى من طريقى الكهنوت والرهبنة (٣٢) .

أعقب البابا جريجورى سلسلة من البابوات ورثوا عنه النظرية التى وضعها لهم وهى الحق البابوى فى حكم ايطاليا ، وان السلطة

(30) Cam. Med. Hist. p.p. 246-250.

(31) Ostrogorsky «op. cit.» p. 140.

(32) Oman. «op. cit.» p.p. 203-205.

الدينية أسمى وأعلى من السلطة الزمنية ، لذلك أصبحت هذه المشكلة هي جوهر العلاقات بين البابوية والدولة البيزنطية — التي رفضت الانصياع لهذا المبدأ ، وأرادت أن تثبت الحق الامبراطوري •

البابوية واللومبارديين

تكررت العلاقة بين البابوية والدولة البيزنطية في عصر الأسرة الأيسورية التي انتهجت السياسة اللأيقونية ، مما أدى الى الانشقاق الدينى بين الشرق والغرب وتباعد وجهات النظر بينهما مما جعل البابوية تنظر الى مملكة الفرنجة كحليف جديد ، وتترك الأباطرة البيزنطيين^(٣٣) •

لم يلبث الشقاق الدينى بين البابوية والامبراطورية البيزنطية أن تحول الى شقاق سياسى مما أدى الى اتساع الهوة بين القسطنطينية وروما ، فما حدث من انهيار مكانة الدولة البيزنطية فى ايطاليا دفعت البابا الى زيادة ارتباطه بغرب أوروبا^(٣٤) •

خرجت الدولة البيزنطية من الغرب اللاتينى ، وانهارت فكرة الوحدة — التي تمسكت بها كل من الامبراطورية البيزنطية والبابوية ، لكن البابوية لم تكن قد حققت كل أغراضها ، فانها وان كانت قد تحررت من سلطة البيزنطيين الا أنها أصبحت قوة منفردة فى ايطاليا تواجه قوات اللومبارديين •

ارتبطت البابوية بدولة الفرنجة الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، فكانوا عوناً لها ضد منافسيها على المسرح السياسى فى غرب أوروبا •

(33) Vasiliev «op. cit.» p. 328.

Ostrogorsky «op. cit.» p. 144.

(34) Vasiliev. Ibid. p. 239.

ورغم السياسة التي انتهجتها دولة الفرنجة وهي عدم التدخل في شئون إيطاليا إلا أن الدبلوماسية البابوية تمكنت من اجتذابهم إلى روما، ومشاركتهم لها ظروفها السياسية^(٣٥) .

بدأ اللومبارديون يسفرون عن سياستهم العدائية ضد البابوية باخضاعهم إيطاليا برمتها لسلطانهم ، وازدادت سياسة العداء بين الطرفين بعد فترة السلام التي سادت من عام ٧٣٠ — ٧٣٨ م وسببها الثورة التي قام بها دوق سبوليتو ضد الملك اللومباردي ليتو براند ، وفرار الأمير الناثر إلى روما محتفيا بالبابوية في آثار ليثوبراند ودفعه إلى الزحف على روما ، وفي هذه الأثرة لم يستطع البابا جريجوري الثالث أن يعتمد على مساعدة امبراطور القسطنطينية ، ولم يجد أمامه سوى شارل مارتل رئيس البلاط في مملكة الفرنجة ، فطلب منه المساعدة ضد الغزو اللومباردي ، لكن شارل مارتل رفض بحجة أن بينه وبين الملك اللومباردي خلفا^(٣٦) . لذلك زحف ليتو براند واستولى على دوقية سبوليتو التي تعتبر من أهم الدوقيات التي كانت تطمح هي ودوقية بنفيتينسو في الاستقلال المحلي وتوسيع رقعتيهما على حساب جيرانهما^(٣٧) .

تعرضت مدينة إيطالية أخرى للغزو اللومباردي وهي مدينة رافنا مركز الإدارة البيزنطية في شمال إيطاليا ، وكان على زعامة اللومبارديين في هذه الآونة ملكهم استولف الذي لم يكن على شاكلة أخيه ، فقد قرر استئناف الحرب ضد البابوية والبيزنطيين .

(35) Moss. «op. cit.» p. 202.

Thompson. «op. cit.» Vol. I p.p. 180-185.

(٣٦) سعيد عاشور « أوروبا العصور الوسطى » ص ١٥٤ — ١٥٥
يقال أن البابا جريجوري الثالث أرسل مفاتيح قبر القديس بطرس إلى شارل مارتل ، وأنعم عليه بلقب « باتريكيان » الطريق ، وتفيض رسائله بالسباب ضد اللومبارد وملكهم .

انظر اسحق عبيد « الإمبراطورية الرومانية » ص ٢٠١ .

(37) Moss. «op. cit.» p. 201

قرر البابا زكريا ٧٥١ — ٧٥٢ م ضرورة التحالف مع البيزنطيين لمصد الخطر اللومباردى عن رافنا ، ولكنه لم يكتب لهذا الحلف النجاح إذ هزمت قواتهما أمام قوات اللومبارديين الذين استمروا فى زحفهم على مدن ايطاليا فاستولوا على بنفنتو ومنها هددوا أمن روما^(٣٨) .

توفى البابا زكريا وخلفه البابا ستيفن الثالث ٧٥٢ — ٧٥٧ م ، الذى تعرض للضغط الشديد من قبل الملك اللومباردى استولف ، وقد طلب من البابا الاعتراف بسيادة اللومبارديين عليه ، ولم يكن البابا يملك سلاحا غير السلاح الدينى ، فأصدر قرار الصرمان الكنسى ضد استولف ومن تبعه ، لكن هذه القرارات لم تجد نفعا ، ولم تكن ذات تأثير فى تلك الفترة ، فاضطر البابا الى مخالفة القوة العظمى فى هذه الفترة وهى مملكة الفرنجة التى سبق أن طلب البابا جريجورى الثالث مساعدتهم وقد وجد البابا استجابة هذه المرة من ملكهم بيبين ، وذلك بعد أن رفض شارل مارتل من قبل مساعدتهم^(٣٩) .

رحل البابا الى مملكة الفرنجة سنة ٧٥٣ م ، وتقابل مع بيبين القصير الذى عاهده على حمايته وحماية شعب روما وكنيستها . وبقي البابا بضعة أشهر ضيقا على ملك الفرنجة حيث ساهم فى حل كثير من القضايا ، وأهم عمل قام به هو تتويجه لبيبين ملكا على الفرنجة ليكسبه بذلك صبغة شرعية وهو ما عرف فى التاريخ باسم « هبة بيبين » ، وليكون تتويجه من قبل السلطة الدينية العليا^(٤٠) وفى الاحتفال الذى أقيم لهذا الغرض فى القصر الملكى فى بونثيون . Ponthion : قام البابا بتتويج برترادا زوجة بيبين وولديه شارل وكارلمان ، ثم مسحهما بالزيت المقدس فطلب من النبلاء أن يقسموا يمين الولاء لبيت بيبين ، وألا يختاروا أحدا بعد

(38) Ostrogorsky «op. cit.» p.p. 151-152.

(39) Lindsay J. «Byzantium into Europe» p. 388.

(40) Thompson. «op. cit.» p.p. 182-183.

ذلك الا من سلالته وبيته^(٤١) ، كما اعترف هذا الملك بحق البابا فى حكم روما ورافنا ، وكان البابا حتى ذلك الوقت يباشر السلطة فى روما باسم الامبراطور ، كما أنعم على بيبين بلقب البطريرك ، وهو لقب كان يختص به الاوكسيراخ البيزنطى فى رافنا فقط^(٤٢) .

استجاب بيبين لرغبة البابا ستيفن الثالث وتوجه على رأس جيش كبير لتأديب اللومباردين ، فحلت الهزيمة بجيش استولف فى معركة سوسا ، فاعتصم وراء أسوار بافيا ، لذلك فرض بيبين على اللومباردين رد رافنا والممتلكات البابوية الى حالتها الأولى .

حاول الامبراطور البيزنطى أن يقضى على تحالف البابوية مع بيبين . وذلك لتدهور العلاقات بينهما نتيجة للخلاف المذهبى على موضوع الصور المقدسة .

لذلك بعث الامبراطور البيزنطى قنصلنطين الخامس كوبرنيوموس بمبعوثه جورج الى بلاط الملك الفرنجى بيبين سنة ٧٥٦ م وذلك لاقتناعه بفض الحلف مع البابا ، لكن هذه البعثة لم تحقق أهدافها لأن بيبين صرح لسفير القسطنطينية انه عندما قام بحملته ضد اللومباردين لم يكن يعمل لصالح الامبراطور البيزنطى ، بل لصالحه الخاص وبناء على دعوة من البابا^(٤٣) .

عندئذ وجه الامبراطور البيزنطى وجهته صوب اللومباردين حتى يقضى على نفوذ البابوية فى ايطاليا ويستعيد روما ورافنا ، فأرسل مبعوثه الى دسديوس ملك اللومباردين سنة ٧٥٨ م من أجل عقد حلف مضاد لحلف البابوية ، وتفاوض المبعوث من أجل استعادة الممتلكات البيزنطية ،

(41) Oman «The dark ages». p.p. 325-320.

Moss. «op. cit.» p. 217.

(42) Mauglais «Byzantine, Christianity» p. 93.

(43) Pirenne «Mohamed and Charlemagne» p.p. 226-227.

وعند عودته قرر معاودة الاتصال بالملك الفرنجى ربما يعود فى قراره ،
ولكن لم تفلح السفارة مرة أخرى (٤٤) .

وفى عام ٧٦٠ أسيح فى روما أن الامبراطور البيزنطى قد أرسل
أسطولاً مكوناً من ثلاثمائة سفينة حربية موجهة ضد البابا وملك الفرنجة ،
وكان غرض البابا من ترويح هذه الشائعة دفع بين للقدوم الى ايطاليا
مرة أخرى لدفع خطر اللومبارديين (٤٥) .

وصل بين الى ايطاليا ليواجه تجدد العدوان اللومباردى ،
وتعرضت بافيا للحصار مرة ثانية ، واعترف العدو المقهور فى مقابله
حصوله على السلام بيمين سيدا على المملكة اللومباردية ، على حين تقرر
تسليم رافنا والبنتابوليس ودوقية روما هبة الى البابا ، فارتفع سلطان
البابوية على سلطان الامبراطورية البيزنطية واتسعت هوة الخلاف بين
الاثنين مما مهد لظهور الامبراطورية فى الغرب (٤٦) .

خلف استولف الملك اللومباردى الملك دسدريوس ، فقد تضاعفت
مخاوف البابا عندما تزوج شارل بن بين من ابنة ملك اللومبارد ، ولم
تتقضى بضعة سنوات على وفاة بين حتى لاح فى الأفق بوادر قيام كتلة
فرنجية مؤلفة من الفرنجة والبافاريتين واللومبارديين تخضع لنفوذ الملكة
الأم برترادا ، ولكن الموقف تغير فجأة عندما انفصل شارل عن زوجته
اللومباردية سنة ٧٧٢ م (٤٧) .

أرسل الملك دسدريوس الى البابا هارديان ٧٧٢ — ٧٩٥ م يطلب
منه النظر فى موقف شارل من ابنته الى جانب مطالبة بأن يعترف
شارل بحق ابن أخيه كارلومان فى ممتلكات أبيه ، لكن البابا رفض هذه
المطالب ، وطالب بالأراضى التى ما زالت فى حوزة اللومبارديين (٤٨) .

(44) Pirenne «op. cit.» p.p. 226-227.

(45) Ibid.

(46) Moss. «op. cit.» p. 217.

(47) Moss. Ibid. p. 218.

(48) Cam. Med. Hist. Vol. II p. 220.

الفصل الثالث

أحياء الامبراطورية الغربية على يد شارلمان

- * شارلمان
- * شارلمان وملك اللومبارديين
- * البابا واللومبارديين
- * شارلمان والبابا
- * التباعد بين الشرق والغرب
- * شارلمان والسكسون
- * شارلمان والمسلمين
- * شارلمان والبابا ليو الأول
- * تتويج شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ م

الفصل الثالث

أدى شغور العرش الامبراطورى فى ايطاليا — كما رأينا — الى محاولة كل فئة من الفئات فرض سيطرتها على روما وايطاليا ، وخرجت البابوية من ذلك بالتحالف مع مملكة الفرنجة ، واصطدمت هذه المملكة مع قوى الومبارديين ، كما خرجت الامبراطورية البيزنطية من هذه الجولة بنتائج سلبية ، فلم يكن لها غير ممتلكات ضئيلة فى ايطاليا ، وضعف نفوذ النائب الامبراطورى فى حين علا نجم البابوية •

ولعل هذه الظروف السياسية هى التى مهدت لظهور شخصية شارلمان التى لولاها لتغير تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ولولا ظهوره ، وما قام به من أعمال لانقلب ميزان القوى •

ولد شارلمان حسب رواية اينهارد حوالى عام ٧٤٣ م ونشأ هو وأخيه كارلومان نشأة الملوك فى بيت يبين القصير ، وشاء القدر أن يتوجا مع أبيهما — كما رأينا — على يد البابا ستيفن الثالث على أن يكونا كهنة ملوكا •

وقد انتصف شارلمان بطول القامة ، وقوة البنية والهيئة الملوكية^(١)

وقد كان لشارلمان صفات خاصة وهى الحيوية والقدرة على تصريف الأمور ، فقد حكم أوروبا ما يقرب من ستة وأربعين سنة — كما سنرى — وقد ذكر أحد المؤرخين المعاصرين أن شارلمان قد ترك أوروبا على درجة

(1) Hulme «The Middle Ages». p. 259.

كبيرة من الرخاء حتى أن الشعراء قد قالوا فيه انه رئيس أوروبا أو زعيمها أو أباه^(٢) .

الى جانب أن شارلمان كان يتفهم اليونانية ، ولكنه لم يكن يحسن التحدث بها^(٣) ، وكان بطبيعته ميالا الى عقد صداقات ومحادثات ، وكان يصدق على حلفائه وأصدقائه من حنانه ومحبته ويبيذل طاقاته لحمايتهم^(٤) .

بدأ اتصال شارلمان بالسياسة بعد وفاة أبيه ، فقد آل الحكم الى الابنين شارل وكارل ، وبوفاة كارلومان مبكرا آل ميراث الامبراطورية الى أخيه شارل .

تأزمت الأمور السياسية في البلاط الفرنجى لسببين الأول طلاق شارلمان لزوجته ابنة الملك دسدريوس ملك اللومبارديين ، وقد صمت مؤرخ هذه الفترة عن توضيح سبب هذا الطلاق الذى قابله البابا بالرضى الكبير لأن أى تقارب بين البلاط الفرنجى والبلاط اللومباردى يهدد نفوذ البابوية فى إيطاليا^(٥) .

والسبب الثانى ، رفض شارلمان دعوى أبناء أخيه كارلومان فى وراثة ملك أبيهم ، لذلك هربت بهم جربرجا Gerberga مجتازة جبال الألب الى بافيا لتتقابل مع دسدريوس الملك اللومباردى ليرد لها حق أولادها^(٦) .

(2) Gerald Simons «The Birth of Europe».

(3) Einhard «The life of Charlemagne» p. 53.

(4) Ibid. p. 47

(5) Cam. Med. Hist. p. 220

(6) Bouquet «R.H.O.» Vol. IV p. 643.

حرص دسدريوس على اثاره الأبناء ضد عمهم شارل ، بل انه اتصل بالبابا هادريان ليعرض عليه الأمر ، ويطلب منه أن يأمر شارلمان باعطاء أبناء أخيه حقوقهم ، وبدأ في اثاره هادريان ضد شارلمان عليه يستطيع أن يوقع بين الحليفين •

لم يجد دسدريوس استجابة من البابا هادريان لمطالبه وادعاءاته ، لذا أثر استخدام القوة ، فأنغار على بعض المدن البابوية مثل فيرارا وكوماسيو وفانيزا ، وبدأ في تهديد رافنا ، وعندما وصله احتجاجا من البابا هادريان رد عليه بضرورة تنويع ولدى كارلومان ، ولما اعتذر اضطر دسدريوس الى محاصرة روما. عليه ينال مطلبه بحد السيف ، ولكن روما استعصت عليه وقاومت مقاومة شديدة (٧) •

اضطر البابا هادريان الى مراسلة شارلمان ، وارسال مبعوث من قبله ليشرح له الموقف ، وفي تيونفيل عرض المبعوث الأمر على شارلمان وطلب منه ضرورة الدفاع عن المقر البابوي بصفته بطريكا •

استخدم شارلمان طريقا دبلوماسيا محاولا به اقناع ملك اللومباردين بالسلم ، فأرسل مبعوثا من قبله لدراسة المشكلة في موطنها ، محاولا الحصول على جميع مطالب البابوية العادلة ، لكن هذه الوسيلة لم تنجح مع اللومباردين (٨) •

اضطر شارلمان الى الحرب ، فخرج على رأس قواته متخذا طريقه الى لومبارديا ناحية الشمال الغربى ، لذلك أمر دسدريوس بسد جميع منافذ جبال الألب في وجهه وسار بالجانب الأكبر من جيشه الى سفح جبل سينى منتظرا قدوم جيش الفرنجة ، واستطاع شارل أن ينفذ رغم هذه الاستحكامات ، وتوجه لمحاصرة مدينة بافيا حتى سلمت حاميتها

(٧) ديفز « شارلمان » ص ٦٦ •

(8) Cam. Med. Hist. p. 220.

عام ٧٧٣ ، واضطرت بقية دوقيات الجنوب الى اعلان خضوعها للبابوية (٩) .

قضى شارلمان عيد الفصح عام ٧٧٤ م فى مدينة روما ، وهناك تقابل مع البابا هادريان الذى استقبله استقبالا حافلا ، وقضى معه اسبوعا منحه فيه البابا منحة مشابهة لمنحة أبيه بيبين القصير وهى اكسراخية رافنا من فيرارا وكوماثيو فى الشمال الى أوسيمو فى الجنوب بما تشملها من مناطق النزاع بين البابا وملك اللومبارد (١٠) وحددت الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا فى البندقية ونابلى وكالابريا وصقلية حتى أصبحت هذه المناطق ليست ذات أهمية بالنسبة للبابوية ولشارلمان (١١) .

توجه شارلمان بعد هذا المكسب العسكرى والأدبى الى محاصرة فيرونا ، فسقطت فى يديه ، وبعدها استسلم دسديوس نتيجة لتفشى المجاعة ، ففتحت بأفيا أبوابها ، وبعدها استسلم دسديوس وأودع أحد أديرة نوسستريا ، فانتهت بذلك مملكة اللومباردين على يد شارلمان (١٢) . فلقلب شارلمان نفسه بعد ذلك « ملك الفرنجة وملك اللومبارد ، وبطريق الرومان » .

Carlous gratia Dei Rex Franconum et Lomkobardrum atique Patricius Romanorum.

(9) Hulme «op. cit.» p. 260.

Oman «op. cit.» p. 348.

(10) Pirenne «Mohamed and charlemagne» p. 228.

(11) Mauglais «op. cit.» p. 95.

Stephenson, «op. cit.» p. 150.

(12) Ibid, Mauglais «op. cit.» p. 95.

ولعل أهم نتيجة سياسية فى مجالنا هذا هى ازدياد أواصر التحالف بين البابا وشارلمان ، وابتعاد البابا كلية عن الامبراطورية البيزنطية فى الشرق * ولا بد أن نعرض للأسباب المتعددة التى أدت الى هذه الظاهرة السياسية ظاهرة الجفوة والتباعد بين الشرق والغرب والتى ترجع الى اختلاف المذاهب والطقوس الدينية كما سنرى بعد ذلك فى ظهور نحلة اللايتونية فى الشرق ، ومعارضة البابوية لها فى الغرب معارضة شديدة ، الى جانب أغلاق عدد كبير من الطرق التى كانت تربط الشرق بالغرب نتيجة لاحتلال السلاف فى القرن السادس لمناطق البلقان وسيطرة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط باستيلائهم على سوريا ومصر وشمالى أفريقيا وأسبانيا * فقد أغلق طريق *Via-Egnatia* وهو الطريق الرومانى القديم الذى يوصل بين القسطنطينية مباشرة وبين دورازو *Durazo* على شاطئ البحر الأدرياتي ، كما أغلق الطريق البرى الذى يصل بيزنطة بالغرب ، وعلى الرغم من سيطرة المسلمين على البحر الأبيض الا أن الطريق البحرى كان أكثر أمانا من البرى للوصول الى الغرب (١٣) *

ومما يدل على عظم التباعد بين الشرق والغرب ان مؤرخى الشرق البيزنطى عندما أرخوا لبابوات روما اكتتفت كتاباتهم وتسجيلاتهم أخطاءا بيّنة تدل على الجهل بحقيقة الأمور ، والتباعد الشديد بين العالمين الشرقى والغربى، فعزى المؤرخ البيزنطى ثيوفانىس *Theophanes* سجل البابا جريجورى الثانى ٧١٥ — ٧٣١ والبابا جريجورى الثالث ٧٣١ — ٧٤١ م على أنهما شخصا واحدا ، زيادة على ذلك أخطأ ثيوفانىس فى حساب سنوات حكم البابا زكريا ٧٤١ — ٧٥٢ م وسجل عهده على انه واحد وعشرون سنة بدلا من أحد عشرة سنة (١٤) *

(13) Mauglais «op. cit.» p.p. 90-91.

(14) Ibid.

واذا رجعنا مرة أخرى الى الغرب ورأينا مدى الجهود التي بذلها شارلمان من أجل تحقيق هدف كبير في رأسه ، فلم يكن غرضه من مساعدة البابا ضد اللومباردين تسليم ايطاليا اليه ، بل كان يطمح أن يكون هو سيدا على شبه الجزيرة كلها (١٥) . لذلك نراه يتوجه بعد هذه الانتصارات المتتالية في شمال ايطاليا الى اخضاع الدوقيات الجنوبية التي حاولت الاستقلال عن سلطان البابا ، فتوجه في عام ٧٧٦ م الى دوقيات فريولى ، واسبوليتو ، وبنفينيتو ، وفي عام ٨٨٧ اخضع سالرنو وجعل حاكمها أرخس بن دسدريوس تابعا له (١٦) .

ولعل هناك موقفا غريبا قامت به الامبراطورية البيزنطية أثناء هذه الفترة فعلى الرغم من هذا التباعد والجفوة التي أصابت الشرق والغرب ، وعندما شعرت بالمكانة الكبيرة التي بدأ يحتلها شارلمان في العالم الغربي ، أرادت أن تقدم على محاولة رأب الصدع وتصفية النفوس بأن تعرض عرضا للمصاهرة بين القوة القديمة « البيزنطية » والقوة الناشئة « الفرنجية الشرمانية » . فقد فكر قنسطنطين الخامس في نهاية حياته ان يخطب لابنه ليو الخزرى ابنة بين القصير وأخت شارلمان الأميرة جيزلا ، ولكن طلبه قوبل بالرفض ، لاختلاف المذهب الدينى بين العالمين الشرقي والغربي ، ولما كان سائداً في الشرق — كما يرى الغربيون — من نزعة اللا أيقونية بل أكثر من ذلك فان البابا هادريان أوقف عام ٧٨١ م تاريخ الأحداث وأعماله الرسمية بسنى حكم الامبراطور البيزنطى (١٨) .

عاد شارلمان الى ايطاليا مرة أخرى في نهاية عام ٧٨٦ م ، وذلك

(15) Pirenne. «op. cit.» p. 230.

(16) Ibid.

(17) Oman «op. cit.» p. 349.

(18) Joseph. Mc. Capé «The Empresses of Constantinople» p. 85.

للمؤامرة التي قام بها أريغيس Arichis دوق بنفينتيو ، وإعلانه العصيان . لذلك قدم شارلمان بكامل قواته وحاصر المدينة مما دفع أريغيس الى مهادنة شارل ، ولكنها كانت هدنة ظاهرية ، اذ توجه أريغيس الى البلاط البيزنطى واتصل بالامبراطورة ايرين ومنها باعادة النفوذ البيزنطى على زوما والغرب فى مقابل أن تتعم عليه بلقب البطريك (١٩) .

وقد بذل شارلمان جهوداً كبيرة فى سبيل احكام سيطرته على بنفينتيو ، الى جانب أنه عمل على حماية الغرب والبابوية من أى هجوم متوقع من قبل البيزنطيين .

شارلمان والسكسون

ورث شارلمان عن أبيه وجدّه واجبات كثيرة وأمورا محتمة حمل أعبائها وأهمها حماية أوروبا المسيحية من المسلمين والآفار والسكسون الوثنيين (٢٠) .

ولعل حروب شارلمان مع السكسون تعتبر من أهم الأعمال التي قام بها والتي ناصرها بها البابوية ، والديانة المسيحية ، لأن السكسون كانوا وثنيين فكانت حروبه معهم حروبا صليبية فى دوافعها وأغراضها .

وتتركز الأهمية السياسية للسنوات من ٧٧٤ - ٧٨٩ م حول أمرين ، الأول : فتح بلاد السكسون والدماج دوقية بافاريا فى النظام العام لمملكة الفرنجة ، وترتب على ذلك أن امتد طرف المملكة شمالا الى نهر الألب ونهر الأيدر ، وامتد الى الجنوب الشرقى حتى بلغ جبال

(19) Mauglais «op. cit.» p. 95.

Pirenne. «op. cit.» p. 227.

(20) Stephenson. «Medieval History» p. 178.

Oman « op. cit.» p. 343.

بوهيميا ومورافيا وبعبارة أخرى صار شارلمان بهذين العاملين السيد المطلق للأراضي التي تكونت منها ألمانيا العصور الوسطى ، وبفضل ما جرى من فرض نظام عام من الإدارة الكنسية والمدنية على سكان هذين الاقليمين ، واخضاعهم لسيادة ملك والجد وسلطة ديانة واحدة وبفضل تحويل أفكارهم جميعا نحو الشرق وتوجيههم لقتال أمم تعتبر نسبيا أمما غير متحضرة ، وهب هذه المجموعة الضخمة من الشعوب وحدة سياسية استحالة تدميرها ، ولذا يعتبر شارل بهذا المعنى مؤسس الأمة الألمانية (٢١) .

انقسم السكسون الى أربع أقسام • الوستفاليين الذين يسكنون بالقرب من جبهة الفرنجة ويسكنون على الايمز والألب وحول توتبورجر وبجانبهم شرقا الانجيريون الذين يسكنون وادي الويزر وشرق الايجيريون يعيش الايستيفاليين الذين يسكنون الألر والأوكر والألب ، والتقسيم الرابع للسكسون هم النورد لبيجينيون الذين يسكنون هولشتين حول الألب وهم أخطر وأقوى أجناس السكسون (٢٢)

تكررت ثورات السكسون منتهزين انشغال شارلمان في حروبه المستمرة فنثاروا في سنوات متلاحقة ، وتعتبر ثورة ٧٧٥ م من أهم ثوراتهم فقد تمكن شارلمان من هزيمة الوستفاليين والايستيفاليين والانجيريان واخضع ملكهم وأرغمهم على اعتناق الكاثوليكية (٢٣) .

الاستطاع شارلمان أن يجمع ثورة أخرى للسكسون عام ٧٧٦ م ، لكنه لم يتمكن من السيطرة على الزعيم الوستفالي فيدكوند الذي رفض الدخول في المسيحية وفر شمالا ليجد له ملجأ وسط قبائل الدانيين (٢٤) .

(٢١) ديفز « المرجع السابق » ص ٨٣ .

(22) Oman «The dark ages» p. 349.

(23) Hulme «op. cit.» p. 261.

(24) Stephenson «op. cit.» p. 175.

Oman «op. cit.» p. 351.

وفى ربيع عام ٧٧٧ م غنّد شارلمان مجلسا فى مدينة باذربورن فى قلب انجريا من أجل تأكيد حقيقة أن أراضى السكسون أصبحت جزءا من مملكته ، وفى هذا المجلس أكثروا من تعميم رجال من السكسون وبعدها أقسموا بأن يفقدوا أرضهم وحريتهم إذا قاموا بثورة أخرى ضد شارلمان (٢٥) .

وعندما عاد شارلمان من حملته على اسبانيا سمع بعودة التأثير السكسونى فيدكند من الدنمارك وسط ثورة عارمة من قوته ضد شارلمان كما حنث عدد كبير من السكسون بأيمانهم التى أقسموها أمام شارلمان وحملوا السلاح ووقفوا فى وجهه (٢٦) .

أخذ شارلمان طريقه صوب أوستريا ، وبعث ببعض قواته لتطهر له ضفة الراين من المحتلين ، وفى صيف ٧٧٩ م توجه صوبه ويستفاليا واستطاع أن يهزم ويحاصر المستقاليين بينما استسلم له بدون قتال الانجيريان والاستفاليين . وقسم أراضى سكسونيا الى أنقسام أشبه بالأبرشيات الكنسية فى مملكة الفرنجة وعين عليها قسسا من أوستريا وأوصاهم بتعليم أهل البلاد تعاليم الدين المسيحى (٢٧) . وبعد أن ترك السكسون تشريعا خاصا بهم توجه شارلمان بعد ذلك مباشرة الى إيطاليا ولم تحدث أية ثورات أخرى فى البلاد من عام ٧٨٠ الى عام ٧٨٢ م (٢٨) .

ظهرت الثورة مرة أخرى فى عام ٧٨٢ م ، وحنث السكسون بأيمانهم وخرجوا على تشريعات وعهود شارلمان ، وظهر زعيمهم فيدكند مرة أخرى ، لذلك خرج عليه شارلمان بحملة كبيرة ، تمكن السكسون

(25) Oman. Ibid. p. 352.

(26) Deanesly «op. cit.» p. 360.

(27) Ibid. p.p. 361-362.

(28) Oman, «op. cit.» p. 354.

فيها من الايقاع بمقدمة الجيش في كمين عند جبل سونتل على مقربة من أونزابردك ، لذلك قرر شارل أن يسحق قوات السكيبون. تملأها ونصب لهم مذبحة ضخمة عند فردان أعدم فيها شارل العظيم منهم أربعة آلاف وخمسمائة أسير جملة واحدة ، وسلم فيدوكتد نفسه لشارلمان حيث عمده على الكاثوليكية (٣٩) .

شارلمان والمسلمون

لم تكن حروب شارلمان ضد السكيبون هي الخدمة الوحيدة التي بذلها من أجل البابوية والعقيدة المسيحية ، بل انه دخل في حروب على الجبهة الأسبانية .

وترجع سبب حملة شارلمان على الحد الجنوبي الى وقت الاجتماع الذي كان قد عقده في بادربورن عام ٧٧٧ م . فقد وصل اليه مبعوثين مسلمين من قبل حكام برشلونة وجيرونا وهيوسكة وهي مناطق الثغر الأعلى الأسبانية . ويمثلهم سليمان بن العريى وقاسمين بن يوسف . وقد طلبوا من شارلمان مساعدتهم ضد الحاكم الأموى على قرطبة عبد الرحمن بن معاوية ، الذى ساءهم وصوله الى الحكم ، وذلك في نظير ولاءهم وخضوعهم لشارلمان (٣٠) .

وافق شارلمان على هذا العرض رغبة في حماية حدوده من المسلمين ، ورغبة في تنفيذ مخططة الصليبيى فى الغرب الأوروبى كله . ورغب فى وضع خط للحدود الاسلامية عند قرطبة والحدود الفرنسية فى الشمال .

قسم شارلمان جيشه الى قسمين ، وتوجه بنفسه عام ٧٧٨ م على

(٢٩) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ص ١٩١ .
(30) Oman. «op. cit.» p. 352.

رأس احداها ، وتقابل الجيشان عند سراجوسا وهناك. تقابل أيضا مع أتباع الثوار المسلمين ، لكنه لم ينجح فى دخول مدينتهم وظل يحاصرها مدة طويلة •

وصلت الى شارلمان أثناء حصاره أنباء تفيد بثورة السكسون بزعامة فيدوكند ، لذلك عاد الى اكتيانيا متخذا نفس الطريق الذى أتى منه ولكن حملته لم تحقق النجاح المنشود ، فقد كان الثوار المسلمين اتباعا غير مخلصين لشارلمان • أما بقية جيش شارلمان فقد هاجم مدينة بنبلونة التى يسكنها عناصر الباسك والنافار ، وبينما كان جيش الفرنجة عائدا عبر ممرات البرانس ، هاجمت مؤخرته عناصر الباسك وشنتوا شمله وغنموا مغانم كثيرة وقتلوا ثلاث شخصيات عظيمة من اتباع شارلمان منهم : أنسم ، ورولان ، وعرف التاريخ الشخصية الأخيرة منهم حيث سقط عند رونسفال ، وأصبح بذلك بطلا للامم كثيرة أشهرها ملحمة رولاند (٣١) •

ولا ننسى دور شارلمان فى اخضاع البافاريين عام ٧٨٨ م ، وعزل ملكهم وجعل بلاده دوقية تسير وفق الادارة الفرنجية ، وفى ذلك الحين كان الآفار قد قدموا للمساعدة لملك البافاريين الأمر الذى أثار شارل ضدهم فغزا أراضيهم فى حوض الطونة الأوسط ست مرات بين سنى ٧٨٠ — ٨٠٥ م حتى حطم قوتهم نهائيا ، وأخضعهم تماما ، وعندئذ اختار شارل أحدهم ليتولى حكمهم على أن يدفع جزية سنوية للفرنجة ، كذلك قام شارل بحروب متفرقة أخضع فيها عناصر السلاف الشماليين بين نهري الألب والأودر عام ٧٨٩ ، والسلاف الجنوبيين فى بوهيميا من عام ٨٠٥ — ٨٠٦ م (٣٢) •

(31) Oman. Ibid. p. 353.

Hulme. «op. cit.» p.p. 260261.

Stephenson. «op. cit.» p. 150.

(٣٢) سعيد عاشور . المرجع السابق ص ١٩٠ .

شارلمان والبابا ليو الثالث

لعل ما قدمناه من جهود لشارلمان فى شتى المجالات تظهره على أنه الصليبي الأول الذى استطاع أن يقهر جميع القوى المعارضة ، والخارجية عن طاعته ، بل كان أكبر قوة ظهرت فى أوروبا العصور الوسطى من العناصر الجرمانية فقد أسدى خدمات جليلة للبابوية ، وقهر عناصر الوثنية خاصة السكسون الذين أدخلهم فى المسيحية بحد السيف ، فدانت البابوية لأفضاله ، وخضعت لارادته ، ونظرت الى شارلمان على أنه منقذها ومخلصها .

انحدر شارلمان من صلب بيبين القصير الذى حصل من البابوية على لقب « ملك الفرنجة وبطريق الرومان » أما شارل فقد حصل على لقب ثالث أعلى من ذلك وهو « ملك اللومباردين » (٣٣) .

عمل شارلمان منذ توليه ملك الفرنجة على الصياء مجد الامبراطورية الرومانية المنصرم فأراد أن يكون هو صاحب السبق فى هذا المضمار ، وان يحصل على لقب امبراطور الرومان ، وأن يكون هذا التتويج الامبراطورى من قبل البابوية صاحبة الصفة الشرعية المقدسة ، وذلك طبقا للاصول والنظم التى سار عليها من قبل ثيودريك ملك القوط الشرقيين وكلوفس ملك الفرنجة (٣٤) .

لم تكن هذه الفكرة تدور فى خلد شارلمان وحده ، لكنها ساورت عقول طبقات المثقفين فى العالم العربى ، حتى أننا نجد تعبيرات كثيرة دالة على هذا المعنى فى كتابات مؤرخى القرن السابع الذين فاضت مؤلفاتهم بالرغبة فى العودة الى أمجاد الرومان القدماء وحكمهم للعالم ، فرأوا أن الشعب الرومانى ومجلس الشيوخ هم ورثة أغسطس

(33) Stephenson «op. cit.» p. 178.

(34) Oman. «op. cit.» p. 369.

وقنسطنطين ، بينما القيصر فى القسطنطينية ما هو الا مجرد حاكم اغريقى (٣٥) أما البابوية فكانت ترغب فى اعادة السلطة الى العالم الغربى مرة أخرى ، حتى لا تكون السلطة الدنيوية فى يد أباطرة الشرق ، الذين عجزوا عن مد يد العون اليهم . . فقد تعرضت البابوية لهجمات واعتداءات متكررة من جانب اللومباردين فوقف أباطرة الشرق عاجزين عن رد العدوان ، لانشغالهم بمشاكلهم الداخلية وحروبهم المتكررة فى الجبهة الشرقية ، فكان لابد أن تولى البابوية وجهها وجهة أخرى وتبحث عن قوة جديدة تحميها وتزود عنها ، فوجدت ضالتها فى دولة الفرنجة وملوكها الكارولنجيين . أضف الى ذلك تذكر علاقة الدولة البيزنطية بالبابوية من الناحية الدينية ، فقد حدثت اختلافات دينية فقد أصبح للشرق مذهب الأرثوذكسى والغرب مذهب الكاثوليكي والى جانب الاختلاف المذهبى ، فقد ساد الشرق كثير من الهرطقات الدينية التى لم يرض عنها البابوات ، خاصة موضوع الأيقونات الذى ساعد على انفصام العلاقة بين العالمين . فأساء كثير من الأباطرة معاملة البابوات ورجال الدين ، ونفوا بعضهم ، وصادروا أملاكهم ، وأبعدوهم عن وظائفهم الدينية (٣٦) .

رأت البابوية منذ عهد البابا جريجورى الثالث فى قوة الفرنجة خير معين لها ، ففي عام ٧٣٩م راسل البابا جريجورى شارل مارتل ، كما راسل البابا زكريا بيبين القصير ، وقام بنتويجه ملكا على الفرنجة القديس بونيفاس عام ٧٥١ م .

ولا ننسى أن البابا ستيفن أنعم على بيبين عام ٧٥٣ م بمرتبة البطريركية الرومانية ومعناه أن بيبين صار من أشرف روما وحمايتها الزادين عن بيضتها ، كما بارك له ولوديه من بعده فى الملك تبريكا

(35) Ibid. p. 371.

(36) Cam. Med. Hist. p. 690.

دينيا للمرة الثانية ، وأخذ على الفرنجة الموائيق والعهود ان يختاروا
طوكهم من أعقابه دون غيرهم (٣٧) .

توفى البابا هادريان حليف الفرنجة عام ٧٩٥ م ، وتم انتخاب
البابا ليو الثالث الذى أثار انتخابه مخاوف الملك شارلمان ، من قبول
سياسته تجاه الفرنجة . لذلك كتب اليه شارلمان عام ٧٩٦ م يقول له .
« أيها الأب ، انك أنت السيد والأب الملك والقسيس والرئيس والمرشد
للعالم المسيحي كله » وبدأ يرسم البابا الخطوط العريضة للسياسة
التي يجب أن يتبعها كما أوضح مدى سلطاته الزمنية الى جانب سلطات
البابا الروحية (٣٨) .

أرسل البابا الى شارلمان علم مدينة روما وبدأ فى تأريخ جميع
المراسيم البابوية بسنوات حكم شارلمان .
« a que - cepit italian. »

والواضح أن البابا كان يعمل على إعادة مجد الامبراطورية الى
الجزء الغربى ، والى ايجاد خليفة لرومولوس أوغسطولوس ، ولتعقيق
ذلك كان لابد من إعادة الامبراطور الى روما ، عندئذ تعود الى البابا
قوته وهيئته . لكن رغم ذلك فانه كان يعمل على أن تكون سلطاته
مستقلة عن سلطات شارلمان ، وقد وضع ذلك من الصورة الفسيفسائية
المعلقة فى مدخل الملائران والتي نرى فيها القديس بطرس يسلم الرداء
البابوى الى ليو الثالث ، والراية الى شارلمان (٣٩) .

لم يلبث البابا ليو فترة فى منصبه حتى تغرض لمؤامرة على جانب

(٣٧) « أوربا العصور الوسطى » ج ١ ص ٧٤ .
(38) Pirenne « op. cit. » p. 230.
انظر نص الوثيقة وما بعدها فى نهاية الكتاب .
Select Documents p. 36.
(39) Pirenne « op. cit. » p. 231.

كبير من الأهمية ، فقد ثار عليه أعداؤه وألبوا ضده الرأي العام المسيحي وتزعم هذه الحركة باسكاليس رئيس الكتاب وكامبولس متولى الخزنة • فالأول ابن أخت هادريان والثاني من أقربائه ، وقد عملوا جميعا من أجل انتخاب بايا آخر يرتبط بتحقيق مصالحهم (٤٠) •

ففى اليوم الخامس والعشرين من ابريل عام ٧٩٩ م انقض أعداء البابا ليو عليه من الفئة المشار اليها الى جانب بعض الرومان الآخرين ، وقرروا سمل يمينه ، وقطع لسانه (٤١) ، ثم أوسعوه ضربا حتى أشفى على المهالك ، واتهموه بالسيمنية والزنا والحنث بالإيمان والتزوير (٤٢)

هرب ليو متخذا طريقه صوب شارلمان ملك الفرنجة عبر جبال الألب ، وتقابل معه فى معسكر بالقرب من مدينة بادربورن فى ألمانيا ولم يتوان شارلمان عن مد يد العون الى البابا والتخفيف عنه من هول الصدمة ، وتقديم الوعود الأكيدة لمحاولة حسم النزاع والوقوف فى وجه المتآمرين (٤٣) •

عند وصول البابا الى شارلمان كان فى رفقته اثنتان من رجال الاقطاع الفرنجة وهما Stark & Arno وقد وجدوا مقرا معدا من قبل شارلمان لاستقبالهم ، وأحاطت بهم القوات المسلحة من جيش الفرنجة لتحميمهم من أية محاولة ضرر قد تحيق بهم (٤٤) •

لم يتمكن أعداء ليو من سمل عينيه أو قطع لسانه نهائيا ، فقد استطاع أن يتكلم بلسانه المجروح ، وذكر المطران المصاحب له أن معجزة من السماء قد أنقذت البابا ليو ، الذى لم يجد مساعدة من أهل

(٤٠) ديفز « شارلمان » ص ١٧٠ •

(41) EinHard «The life of Charlemagne» p. 56.

(42) Oman «op. cit.» p. 372.

(43) Stephenson «op. cit.» p. 178.

(44) Lamb. «Charlemagne» p. 170.

روما ولا من أسرها الغنية ولا من نبلائها ، وعندما امتطى جواده هاربا من اللاتران هاجمته عصا مبلجة بالسيوف والمراوات .

وصلت الى شارلمان فى نفس الوقت رسائل من أعداء ليو فى روما يثبتون فيها الاتهامات الموجهة اليه ، وبأنه قد أجرم فى حق الكنيسة وحنث فى ايمانه^(٤٥) . فحاول شارلمان بكل جهده استرضاء البابا بعد سماع أقواله كلها ، وقدم له الاحترام والولاء الكافى ، وأصر على ضرورة عودته مرة ثانية الى روما ليكون الفصل فى هذا النزاع فى المدينة المقدسة مقر القديس بطرس .

لذلك قرر شارلمان عودة البابا مخفورا الى روما بصحبة المطران Arno وقرر أن يلحق به حتى يعاقب المتآمرين^(٤٦) .

لم يتمكن الكوين من مصاحبة البابا لعدم قدرته الصحية على عبور أراضي السكسون ، فبقى فى مدينة تور يتلقى أخبار البابا من Arno ويقول الكوين فى رسالة بعث بها الى شارلمان : « ان ارادة الله هى التى قادت البابا الجريح الى القلب الحنون شارلمان » . ويقول : « لقد وقع على شارلمان مهمة رآب الصدع ومعالجة الأزمة التى اجتاحت العالم المسيحى ، واعادة الحياة مرة أخرى الى روما . ويستطرد قائلا : ان العالم تتحكم فيه قوى ثلاث هى : سلطة الكاردينال والبابا الرسولى الذى يعتبر حاكما وممثلا للقديس بطرس أمير الرسل ، فعلينا أن نمد اليه يد العون ، والقوة الثانية هى : الامبراطورية صاحبة السلطة الزمنية التى تحكم روما الشرق القسطنطينية ، التى لا تمثل أية سلطة على الشعب ، والقوة الثالثة هى : قوة « الملكية الفرنجية » حيث شاعت العناية الالهية أن تكون أنت « شارلمان » حاكم الشعب المسيحى لأنك ترتفع على منزلتك وقوتك فوق كل القوى

(45) Lamb. Ibid, p. 171.

(46) Oman «op. cit.» p.p. 372-373.

السابقة ، فأنت صاحب المقام الرفيع لأئك تملوهم فى شخصيتك وقوتك ، كما أنك متألق فى مملكك ، ألا ترى معى كيف تعتمد عليك وحدك جيع كنائس الغرب فأنت حاميا ومنقذا « (٤٧) .

وبهذه الروح وهذا الحماس التفت الفرنجة حول زعيمهم راغبين فى إعادة الأمن الى روما ورد الحق الى البابا المطرود ، خاصة وان الدولة البيزنطية فى هذه الآونة كانت تحت حكم الامبراطورة ايرين التى لم يعترف بها المعاصرون ولا بشرعية حكمها لما قامت به من اعمال وحشية ضد ابنها قنسطنطين السادس (٤٨) .

انتظر شارلمان مدة من الزمن فى بادربورن حتى ينجز ابنه الأكبر الحملة التى قام بها على نهر الألب ، وجعل تحت حمايته سكان جزائر البليار الذين اشتد بهم الحرج والضيق ، فأرسل أسطولا لمساعدتهم ضد المسلمين وعند عودته أمضى الشتاء فى آخن يستمع الى ما أرسله له الكونتات من التقارير ، ثم زار بعد عيد الميلاد شمال غاله لاصلاح الموانئ والسفن اللازمة لرد الشماليين عنها ، وقضى القيامة مع انجيلبرت والقديس ريكيه ، ثم سار جهة الجنوب ، وصار فى كل مرحلة يتوقف ليؤدى للمشاهد المشهورة الطقوس والقرايين ، حتى وصل الى دير الكوين فى تور وعقد اجتماعا مع الزعماء البريتون ، واحتجزه فى هذا الموقع الى نهاية يونيه مرض الملكة ليوتجارث ثم وفاتها (٤٩) .

اتجه شارلمان بعد ذلك الى ايطاليا للقيام بمهمة تبراة البابا مما نسب اليه من تهمة ومعاقبة معارضييه ، لذلك أسرع البابا ليو لمقابلته على حدود روما وعلى بعد اثنتى عشر ميلا ، رحب واحتفى به طوال الليل ،

(47) Lamb. «op. cit.» p. 172.

Stuart. C. Easton «The Era of Charlemagne» p. 125.

انظر نص الوثيقة فى نهاية الكتاب .

((48) Vasiliev «op. cit.» p.p. 265-266.

(٤٩) دبفز « شارلمان » ص ١٧١ .

وفى اليوم التالى طاف شارلمان أرجاء روما ، وتسلق مرتفعات القديس بطرس * :

وكان لوجود شارلمان فى هذه المدينة المقدسة أكبر الأثر على حالة الهدوء والسكينة التى عمتها فقد بدت المدينة فى أبهى زينتها وزخرفتها وتألفت المبانى التى شيدها البابا هادريان ، والهبات التى وهبها إياها شارلمان (٥٠) * .

أحاط بشارلمان مجموعة كبيرة من الفرنسكان القادمين من مدينة بنفنتو وهم من سلالة جيش الفرنجة الذين تركهم الملك بين القصير من قبل فى هذه المدينة * .

عقدت فى قصر اللاتران المحكمة التى ستقوم بمحاكمة ليو والمتآمرين ، وفيها جلس الملك شارلمان يرتدى العباءة ومعه الكاهن الأعظم لروما ، وبجانبهم البابا ليو والمتآمرون * .

لم يتدخل شارلمان فى تبرأة ليو ، بل ترك مناقشة الاتهامات تتم خارج قاعة الاجتماعات ، وأخيرا سمع أحد رجال الدين يقف بجانبه يحمل فى يديه الإنجيل الأربعة يهتف قائلاً : « ليو الاول صاحب الكرسي الرسولى لا يجزؤ أحد على محاكمته ولا مقاضاته ، ولا كراهيته ، واننى ومن معى نبرأ أنفسنا من ناحيته » * .

عندئذ لم يجزؤ أحد على اتهام ليو ، بل صمت الجميع ، وأقسم ليو قسماً برأ فيه نفسه من كل ما نسب إليه ، فصمت جميع المتآمرين فثبت بذلك كذبهم وادعائهم على البابا لذلك لعنهم جميع رجال الدين المجتمعين وقرر شارلمان قتلهم ، ولم ينقذهم غير البابا نفسه الذى ذاق العذاب على أيديهم ، اذ توسط لهم عند شارلمان حتى يبدل قرار القتل بقرار النفى الى أراضى الفرنجة (٥١) * .

(50) Lamb. «op. cit.» p. 175.

(51) Ibid. p. 176.

Oman «op. cit.» p. 373.

Stéphenson «op. cit.» p. 153.

تتويج شارلمان امبراطورا

فى يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ م ، وبعد مرور يومين على محاكمة البابا ليو ، ازدحم المسيحيون الرومان فى كنيسة القديس بطرس فى روما للاحتفال بهذا اليوم الدينى المجيد . وكان من جملة الحاضرين شارلمان وولدها بيبين وشارل . وبعد أن انتهى البابا من تلاوة القداس ، ركع شارلمان وولديه أمام المذبح ، عندئذ تقدم اليه البابا حاملا فى يديه التاج ووضع على رأس الملك المنحنية قائلا « الى شارل أغسطس المتوج من قبله الله الامبراطور الرومانى العظيم المحب للسلام اللهم هبه الحياة الطويلة والنصر » (٥٢) .

Carolo Augusto a Deo Coronato Magno et Spacifico, imperatore Romanorum Vita et Victoria.

لم يلبث المصلون أن صاحوا جميعا صيحة رجل واحد بالنداء الذى ناداه البابا ، وهو ما كان متبعا مع جميع الأباطرة الرومان . وما فعله المصلون انما يدل على أن هناك ترتيبا مسبقا لمنح شارلمان اللقب الامبراطورى فى هذا اليوم .

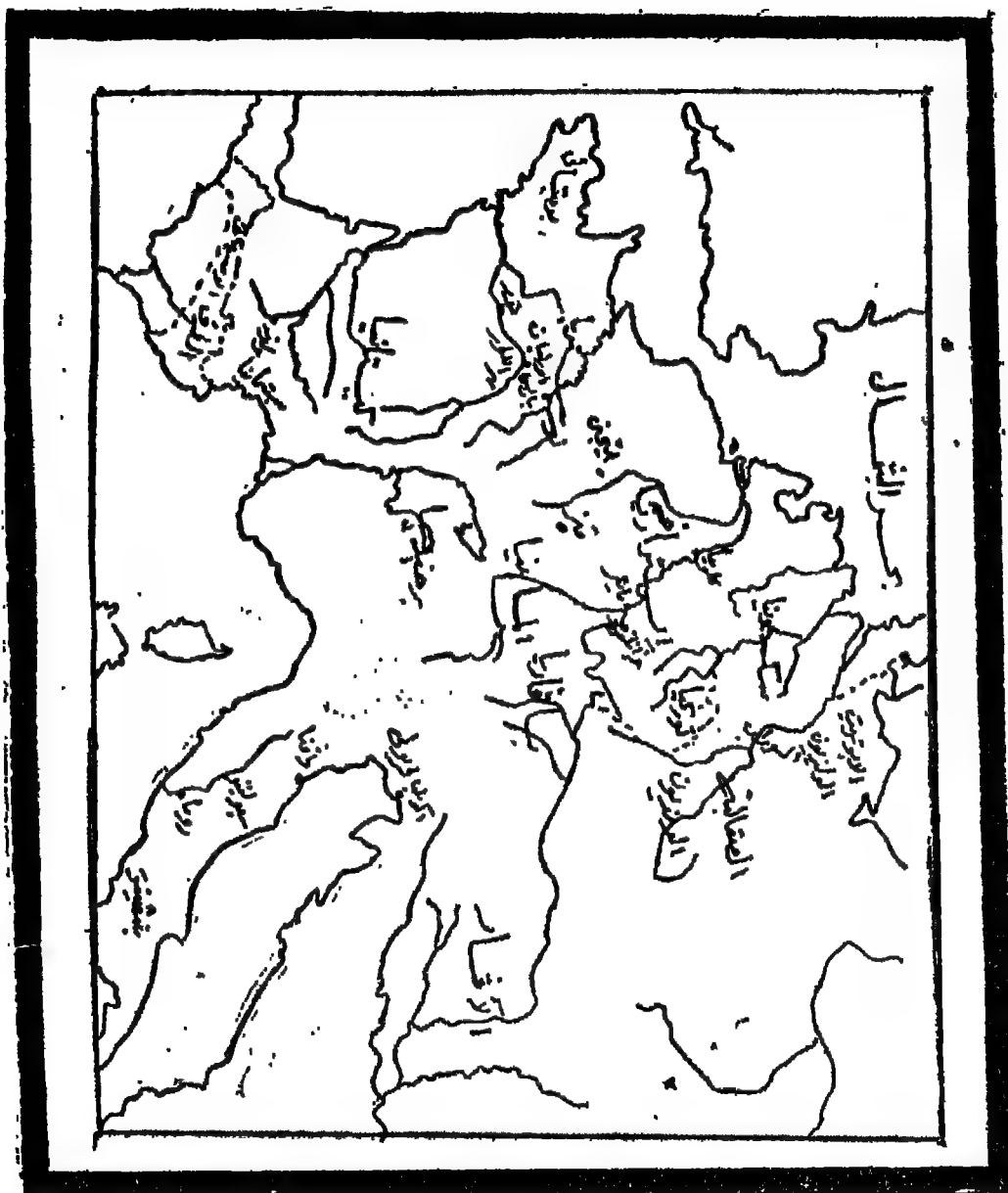
أما ما ذكره لنا مؤرخ حياته اينهارد فيقول « ان سيده شارلمان قال انه لولا أن هذا اليوم هو يوم ميلاد المسيح ، ولو علم مسبقا ما سيفعله البابا ما وطئت قدماه أرض الكنيسة فى ذلك اليوم » (٥٣) .

(52) M. Deanesly «op. cit.» p. 382.

(53) Einhard «The life of Charlemagne» p. 56.

انظر نص حوليات لورث فى نهاية الكتاب .

Marian Wenzel «The Findingout about the Byzantine» p. 68.



(امبراطورية شاراسان)

ويعلق المؤرخ ثورنديك Thorndike على كلام شارلمان هذا بقوله ان شارلمان لم يذكر ذلك الا من قبيل التواضع ومحاولة الاقلال من حالة الزهو والفخار التي أصابته (٥٤) *

وهناك عدد من الباحثين والمؤرخين لم يقبلوا موقف شارلمان هذا ولا الرأي الذي أدلى به مستنديين على الدور الذي لعبه شارلمان منذ بداية حكمه للوقوف الى جانب البابوية ومساندتها ضد اعدائها ، وبذل الجهد في سبيل ارضائها كل ذلك — في رأيهم — كان رغبة في هدف أكبر وهو كسب أعماله شرعية ، فوقف مع البابوية ضد الدولة البيزنطية التي أرغمتها — كما سنرى — على ترك الممتلكات البابوية ، وقضى على مملكة اللومباردين في ايطاليا ، فقيامه بذلك يؤكد أنه كان يسعى ليس لمنفعة دينية بل لمنفعة دنيوية *

ويذكر المؤرخ هيوم « ان عدم اغتباط شارلمان بهذا الحدث ربما يرجع الى أنه كان يخطط مخططا آخر لأحلامه التوسعية أو انه كان يرى أنه من الأجدر به الحصول على منصبه الادارى دون تقليد مباشر من البابوية أو رغب في تتويج نفسه بنفسه حتى لا يجعل للبابا سلطان عليه لأنه هو الذى وضع التاج الامبراطورى على رأسه أو أنه كان يطمح فى خلق الامبراطورة ايرين من العرش الامبراطورى البيزنطى حتى يصبح هو امبراطورا على الامبراطورية الرومانية فى الشرق والغرب (٥٥) *

أما الأستاذ A. Giry فيقول ان السلطة التي حصل عليها شارلمان لم تجعله مجرد امبراطور عادى ، لكنه الامبراطور الأوحد الذى لا يقبل ان يشاركه امبراطور آخر فى حكم العالم الرومانى ، كما كان

(54) Lynn, Thorndike «History of the Medieval Europe» p. 209.

(55) Hulme. «op. cit.» p. 271.

لا يمكن أن يوجد للعالم الغربى اثنان من البابوات ، فقد كان شارلمان هو الامبراطور المرتبط بالكنيسة ، وكان مطابقا لتوقعات البابا فيه ، لأنه يعتبره الممثل للكنيسة الغربية التى يجب أن تسود وتسيطر على جميع ممتلكات العالم الرومانى شرقا وغربا •

فقد كان البابا يقول عنه انه الامبراطور أغسطس المتجلى المتوج من قبل الله ، المعظم المحب للسلام • ويجب أن نلاحظ أنه لم يدع نفسه مطلقا الامبراطور الرومانى ، ولا أغسطس وهى الألقاب التى لقب بها الأباطرة الرومان القدامى •

ولكنه أضاف لقب « حاكم الامبراطورية الرومانية » وهو تعبير غامض حيث كانت الحقيقة تظهر فى لقب ملك الفرنجة واللومباردين • وكان البابا يدعو دائما فى مراسيمه « شارلمان حاكم مملكتنا الامبراطور أغسطس الدائم المتوج من قبل الله المعظم المحب للسلام » •
Imperante domino nostro Carolo Pissimo Perpetuo Augusto a deo Coronato Magno et Pacifico imperatore (56).

أما الأستاذ بيرين فيرى ان شارلمان لم يغتبط بهذا التتويج من قبل البابا لأنه يعتبر البابا أحد الشخصيات التى تقع تحت حمايته ، فكيف ينعم عليه بالمنحة الامبراطورية (٥٧) •

وللأستاذ جيرالد سيمونس Gerald Simons رأى آخر حيث يقول « ان الظروف التى توج فيها شارلمان امبراطورا عاصرت وجود الامبراطورة ايرين التى رفض كثير من حكام العالم الاعتراف بها ، فكان من الممكن لشارلمان فى وسط هذه الظروف أن يطالب بالعرش الامبراطورى ، بل وان يقوم بتتويج نفسه دون أن يدين بالفضل للبابا ولا لمساعدته وبركته • لكن ليو كان أهم منه فأسرع بتتويج شارلمان

(56) A Giry «Manual de Diplomatie» p. 671.

(57) Pirenne «A history of Europe» Vol. p. 76.

حتى يمنح الملك الفرنجى منصب الامبراطور الرومانى ، فجعل بذلك اللقب الامبراطورى منحة من البابوية^(٥٨) .

ويلق الأستاذ موريس كين Maurice Keen بقوله « ان تتويج شارلمان من قبل البابا جعل هناك ارتباطا وثيقا بين الامبراطورية الوليدة وبين الكنيسة الرومانية الغربية ، الى جانب ان شارلمان التزم من جانبه على تقديم العون العسكرى ضد أى خطر يحيق بالكنيسة ، فاذا ظهر أى موقف خداعى من جانب الكنيسة ، فلشارلمان الحق عندئذ أن يأخذ جانب مصلحة الامبراطورية^(٥٩) .

أما بالنسبة للبابا ليو ، فقد سيطر عليه شعور الأنانية ، فقد رأى نفسه أمام خطر جسيم يتمثل فى الحزب الجمهورى فى روما ، فاذا توج شارلمان امبراطورا ، فسيأمن على نفسه الأخطار ، لأن شارلمان ، سيتمكن من بسط نفوذه على مدينة روما ذاتها ، وسيستطيع أن يحطم جهود الحزب الجمهورى اذا حاولوا الاستقلال بمدينتهم^(٦٠) .

ويرى المؤرخ ليندساي « ج » Lindsay J. ان تنصيب شارلمان تم وسط حماس وتصفيق الجماهير المسيحية ، ويعتبر ما قام به البابا من تنصيب شارلمان امبراطورا على الرومان بنفس اللقب القديم استمرارا لما كان عليه الأباطرة الدولة البيزنطية ، فلم يكن الغرض هو اقامة امبراطورية جديدة فى الغرب ، وهذا شئ لا يمكن تحقيقه فى هذه الفترة لكن الفكرة السائدة ، هى اقامة امبراطورية مثل امبراطورية القرن الرابع حينما كان يحكم اثنان من الأباطرة امبراطورية واحدة^(٦١) .

(58) Gerald Simons «The Birth of Europe» p. 104.

(59) Maurice Keen «The Pelican history of Medieval Europe».
p. 32.

(٦٠) إسحق عبيد « الامبراطورية الرومانية » ص ٢١٩ .

(61) Lindsay J. «Byzantium into Europe» p. 390.

أما المؤرخ أوامان Oman فيرى أن شارلمان لم يشعر بعد بتتويجه
امبراطور انه قد ورث حكم امبراطورية قنسطنطين الكبير وثيوديسيوس
لكنه شعر بشعور أكبر من ذلك أنه ورث حكومة دينية سيطرت على
العالم مثل حكومة بنى اسرائيل القدامى من الأنبياء أمثال داود ويعقوب
ويوسف (٦٢) .

وعلى كل ومهما كانت الأغراض النفسية لكل من شارلمان والبابا
ليو من عملية التتويج الامبراطوري ، فان البابا بتتويجه لشارلمان أعاد
للغرب الأوربي مجده الزائل ، وقوت البابوية الرباط الواهي الذي كان
يربطها بمملكة الفرنجة واكسبته قوة تجعله رباطا وثيقا مقدسا ، هذا
فضلا عن أن الطريقة التي تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج
الامبراطوري يبدو في صورة منحة من البابا ، وهي العقيدة التي لها
شأن كبير في النزاع بين البابوية والامبراطورية فيما بعد (٦٣) .

(62) Oman «op. cit.» p. 375.

(٦٣) سعيد عاشور « اوربا العصور الوسطى » ص ١٩٥ .

الفصل الرابع

الامبراطورية البيزنطية

وصدى الاحياء الامبراطورى

✧ الحياة السياسية فى عصر الدولة الأيسورية

✧ الحركة اللايقونية

✧ ليو الثالث والبابوية

✧ قنستنتين الخامس

✧ البابوية

✧ ليو الرابع

✧ قنستنتين السادس وإيرين

✧ استعادة إيرين لعبادة الأيقونات ، مجمع نيقية

✧ الآثار الداخلية لمجمع نيقية

✧ الآثار الخارجية — صدى الاحياء الامبراطورى على

الامبراطورة إيرين *

الفصل الرابع

الحياة السياسية في عصر الدولة الأيسورية ٧١٧ - ٨٠٢ م

آثرت أن أبدأ هذا الموضوع بالتعرض شيئاً ما للظروف السياسية والدينية التي سادت الدولة البيزنطية منذ عصر اعتلاء الأسرة الأيسورية عرش البلاد سنة ٧١٧ م . ذلك لأن السياسة الدينية التي انتهجتها هذه الأسرة ، والتطورات السياسية التي حدثت إبان حكمها مهدتا لعلو نجم شارلمان في الغرب ، وهيأت الفرصة أمامه كي يستأثر على عقلية العالم العربى عامة والبابوية خاصة .

ولعل الحدث الدينى الهام الذى حدث فى عهد هذه الأسرة هو رفض عبادة الصور المقدسة وظهور الحركة اللايقونية .

وتعتبر هذه السياسة هى الأساس الذى تصدعت عليه العلاقات بين روما وبيزنطة ، اذ أشعل أفراد هذه الأسرة نارا لا تهدأ ضد الأيقونات فقد فسر البابوات ورجال الكنيسة الغربية حملات الأيسوريين ضد تبجيل الأيقونات والصور المقدسة على أنها هرطقة جديدة فى سلسلة الانحرافات العقائدية داخل كنيسة بيزنطة .

ولعل السبب الذى حدا بالامبراطور ليو الثالث الى اصدار قرار سنة ٧٢٦ م بتحريم عبادة الأيقونات فى جميع أرجاء الدولة البيزنطية يرجع الى تغالى المسيحيين وسوء استخدامهم لهذه الأيقونات حتى سيطرت على الناس الخرافات والاعتقاد فى المعجزات والنبوءات وبدأ كل مسيحي يستحوذ على أكبر قدر من الأيقونات التى تمثل صور

السيد المسيح والسيدة مريم العذراء والقديسين ، ويحيطونها بهالة من التقديس والاحلال، بل وصلت الى مرحلة أنهم كانوا يسجدون ويركعون لها ويرتلون الأناشيد الدينية ، مما ساعد على تفشي الجهل والتأخر واختلاط التعاليم الدينية بالأوهام والأساطير^(١) .

وقد تصدى كثير من الباحثين الغربيين لهذه الحركة فرأى بعضهم أن ليو الثالث تأثر في الحركة اللاأيقونية بالديانة الاسلامية التي جاورت حدود بلاده ، ومما يؤكد هذا الرأي المؤرخ حنا ميتندورف John, Meyndarff. الذي يرى أن سقوط الولايات البيزنطية في أيدي المسلمين سهل الاتصال الثقافي والروحي بين العالمين الاسلامي والمسيحي ، حتى أن الأباطرة الذين نشأوا في الولايات الشرقية حاولوا تنقية المسيحيين من الشوائب ، وتأثروا كثيرا بتعاليم الاسلام^(٢) .

لكن المؤرخ جوزيف كاب لا يرجع السبب الى ذلك مطلقا لأنه يرى أن هناك اختلافا في نظره بين الاسلام والمسيحية ، واعتبر أن الحركة اللاأيقونية ما هي الا حركة معارضة أو حركة عقلية فهي معارضة ضد الاعتقادات الباطلة ، وضد تكديس الثروات في الكنيسة وتدخّل رجال الأديرة في أمور الكنيسة^(٣) .

ورأى حنا ميتندورف رأيا آخر وهو أن التراث اليوناني الهليني في الشرق كان له تأثيرا كبيرا في نظره لظهور الأيقونية حيث أن المشرق اليوناني كان له تأثيرا وثنيا ، لذلك فإن المونوفيزية ظهرت في الشرق ، وفي رأيه أنها هرطقة ، وليست اللاأيقونية الا ضربا من ضروب الوثنية^(٤) .

تصدى الإمبراطور ليو الثالث لهذه الحركة بكل ما أوتي من قوة ،

(1) Oman «The Byzantine Empire» p.p. 189-190.

(2) John. Meyndarff. «Byzantine Theology» p.p. 42 — 43.

(3) Joseph. Mc. Cape «The empires of Constantinople » .

(4) Jhon Meyndarff, «op. cit.» p. 85.

فأصدر سنة ٧٢٦ مرسوما يقضى بتحريم عبادة الأيقونات ، وأمر بإزالة جميع التماثيل والصور الدينية من الكنائس والأديرة ، وبدأ رجال الامبراطور فعلا فى ازالة الصليب الكبير المقام فوق بوابة القصر الامبراطورى فى القسطنطينية الأمر الذى أثار عامة الناس ، لكن الامبراطور أخضع ثورتهم فى سهولة^(٥) .

وقد تعرض الناس لكثير من أنواع التعذيب خاصة رجال الأديرة حتى أن بعض الناس كانوا يظنون أن هذه الحركة قامت للقضاء على الحركة الديرية . وقد قاوم الرهبان بشجاعة فائقة وعناد شديد « من أجل الحق والعدل » لكن بعضهم استسلم ، وقليل منهم تمكن من الفرار إلى ايطاليا ، حتى أن بعض المعاصرين قد غالوا فى وصف القسطنطينية بأنها قد خلت نهائيا من الرهبان والديرين ، حتى أن ايطاليا استقبلت منهم فى عهد قنستطين الخامس وحده ما يقرب من خمسين ألفا^(٦) .

ولعل ما يهمنا فى أمر هذا النزاع هو مدى تأثير هذه السياسة على علاقة الدولة البيزنطية بكل من البابوية ومملكة الفرنجة .

المعروف أن البابوية فى روما كانت تناصر عبادة الأيقونات ، وكانت تنظر الى الشرق دائما على أنه منبع الهراطقة والحركات الهدامة، وشعروا أن الأسرة الأيسورية تأثرت بالتعاليم الاسلامية واليهودية التى تناهض مثل هذه الظواهر^(٧) لذلك وقف البابا جريجورى الثانى موقفا عنيدا ومتشددا من الامبراطور ليو ، واعتبره خارجا عن الدين ، وحاول ليو مراسلة البابا دون جدوى لأن البابا جريجورى لم يقبل

(٥) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ص ١١٨ .

(6) Diehl «History of the Byzantine empire» p. 60.

(7) Vasiliev «op. cit.» p. 312.

Ostrogorsky «op. cit.» p. 142.

تدخل الأباطرة في شئون العقيدة ، خاصة بعد ما كتبه اليه الامبراطور ليو الثالث بأنه امبراطور وقس ، وان من حقه الشرعى أن يعتنق ما يراه من آراء دينية تتفق مع العقيدة المسيحية الخالصة ، ولعل هذه الفكرة قد ورثها ليو عن الأباطرة السابقين أمثال جستنان والذين رأوا ضرورة سيطرة الامبراطور على الناحية الدينية ، وهو ما يعبر عنه بالقيصرية

البابوية * Caesaro - Papism

لم يعبأ البابا بجميع هذه الآراء ، وعد ليو الثالث خارجا عن الدين ، وحركته هذه ما هي الا هرطقة دينية ، وبعث اليه بقوله « أن الغرب اللاتنى بات يلتف حول خليفة بطرس الرسول ، وان دول الغرب وضعت آمالها عليه ، ولئن جرؤ الامبراطور على أن يقدم على تحطيم أيقونات القديس بطرس كما ذكر فى رسالة له ، فان غرب أوروبا سوف تهب قاطبة للانتقام منه ، وقد بين البابا للامبراطور البيزنطى أنه لا سلطان له على غرب أوروبا المسيحى ، وبأنه عاجز عن الاقتراب من مدينة روما » (٩) *

ورث البابا جريجورى الثالث ٧٣١ — ٧٤١ م الذى خلف جريجورى الثانى على العرش البابوى نفس المشكلة اللايقونية ، بل اشتد فى موقفه مع الامبراطور ليو الى حد أن عقد مجمعا دينيا فى روما سنة ٧٣١ أصدر فيه اللعنة والحرمان الكنسى على الامبراطور ، واعتبر اللايقونين هراطقة خارجين عن طاعة الكنيسة ، ولا بد من طردهم من رحمتها (١٠) ، خاصة وان الامبراطور البيزنطى أصر على عقد مجمع دينى آخر سنة ٧٣٠ قرر فيه تحريم الصور المقدسة ومعاقبة المخالفين خاصة البطريرق جرمانوس الذى رفض توقيع القرار فعزل من منصبه وحل محله البطريرق أنستاسيوس . فأصبح لقرار سنة ٧٣٠ وضع آخر اذ لم

(8) Marian Wengel «The Finding out about the Byzantines». p. 112.

(٩) اسحق عبيد « روما وبيزنطة » ص ٥٠ .

(10) Marian. Wenzel. «op. cit.» p. 112.

Cam. Med. Hist. «Vol. 4. p.p. 10-12.

يوقع قط من قبل الامبراطور ولكن اكتسب شرعية بتوقيع البطريق الكسى عليه (١١) .

بدأت الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا تتعرض للانهايار نتيجة لهذه السياسة الدينية ، فتحررت وسط ايطاليا من السلطة البيزنطية وأصبحت تحكم كلية من قبل البابوية والسلطة الغربية ، بينما ظل جنوب ايطاليا تحت السيطرة البيزنطية (١٢) .

وكاجراء مضاد قام ليو الثالث بمصادرة الضريبة البابوية المسماة بوقف القديس بطرس والتي كانت تفرض على كنائس كالابريا وصقلية وكانت تحصل سنويا ويبلغ مقدارها ما يوازى ثلاثمائة وخمسين أوقية من الذهب .

وفى العام التالى قام بتحويل عدد كبير من الأبروشيات التابعة للكنيسة الرومانية الى تبعيه الكنيسة الشرقية ، وهذه الأبروشيات ليست فى كالابريا وصقلية فقط لكنها شملت معظم المنطقة التى كانت تتبع والى الليريا . وهذه المنطقة كانت تضم شبه جزيرة البلقان تقريبا ما بين دلماشيا وتراقيا والدانوب فى الجنوب وكريت وضمت كذلك جميع مناطق اليونان القديمة مثل سالونيك وأثينا وكورنثه . وكان هذا ايزانا وبداية لعملية انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية كلية (١٣) وبذلك لم يعد سلطان الامبراطور على هذه المناطق سياسيا ودينيا فقط بل أصبح عسكريا واقتصاديا ، فقد كان للامبراطور القدرة على اخضاع البطريك الدينى لسلطانه السياسى (١٤) .

خلف الامبراطور ليو الثالث على العرش البيزنطى ابنه قنستنتين

(11) Vasiliev, pp. 316 — 317.

(12) Vasiliev. ibid. p. 317.

(13) Romilly Jenkins «Byzantium the imperial centuries». p.p. 66-76.

(14) Thompson «op. cit.» Vol. I, p.p. 144 — 145.

الخامس كوبرنيوموس ٧٤١ — ٧٧٥ م • وسار قنسطنطين على نهج أبيه فى السياسة اللاأيقونية ، بل انه تشدد فى هذا الموضوع بصورة كبيرة فلم يحرم عبادة الأيقونات فقط ، بل حرم أيضا عبادة السيدة مريم والقديسين ، وقال بأن الدعوات التى تقدم لهم لا قيمة لها ، وعاقب كل من رجا تدخلهم وشفاعاتهم^(١٥) •

وقد قام كوبرنيوموس بحركات اعدام لعدد كبير من الرهبان الديرين وتصدى لثورات كبيرة قام بها صهره أرتافادوس Artavadus من أجل اعادة الأيقونات المقدسة • وقد نجح أرتافادوس فى حمل قسطنطين على مغادرة العاصمة ، وحل أرتافادوس محله فى حكم الامبراطورية وتمكن فى خلال العام الذى حكم فيه أن يعيد عبادة الصور مرة أخرى ، واستطاع قسطنطين الخامس أن يسترد عرشه مرة أخرى وقمع الثورة بعنف وأطاح بقائدها أرتافادوس^(١٦) •

اضطر قسطنطين الى عقد مجمع دينى آخر سنة ٧٥٤ ليثبت فيه العقيدة المسيحية الصحيحة وهى نبذ عبادة الصور ، وجعل مقر المجمع قصر هيريا على الشاطئ الاسيوى، المثل على البسفور فى مواجهة القسطنطينية •

حضر المجمع ما يقرب من ثلاثمائة أسقف ولم يكن بينهم أحدا من البطارقة وذلك لأنهم جميعا هجروا القسطنطينية ، ورفضت الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس المشاركة فى هذا المجمع ، حتى المندوب البابوى رفض الحضور^(١٧) وقرر المجتمعون أن كل من يعبد الأيقونات سواء أكان من الرهبان أو من العلمانيين سيعاقب طبقا للقوانين الامبراطورية كخارج على أوامر الاله ، وكعدو لعقيدة الآباء الأول للكنيسة ، وقرروا أن يعامل

(15) Baynes «op. cit.» p. 232.

(16) Vasiliev «op. cit.» p. 318.

(17) Ibid.

عباد الأيقونات على أنهم هراطقة وثوار على ناموس الكنيسة وبذلك أصبح للامبراطور قنسطنطين سلطانا دينيا. على البلاد بها آثار البابوية. وفتح السبيل أمامها للاتجاه ناحية الفرنجة^(١٨) .

وقد كان للأحداث التي جرت في الشرق أثرها على الممتلكات البيزنطية جنوب إيطاليا ، ولكن من الواضح أن هذه المنطقة كانت بعيدة عن الاضطرابات الدينية^(١٩) بل ان الظروف السياسية أدت الى انهيار النفوذ البيزنطي هناك ، فانهار معه ما يرتبط بالامبراطورية الرومانية من فكرة العالمية « أى امبراطورية متحدة » فازداد التوتر بين روما والقسطنطينية ، فالمعروف أن البابوية كانت تدرك أهمية مساعدة الدولة البيزنطية لها في مقاومة الضغط اللومباردى — كما ذكرنا — ولذا رأت أن من السياسة السليمة أن تغفل ما يقع بين بيزنطة وروما من اختلافات دينية ، وأن تحافظ على ولائها وطاعتها للامبراطور البيزنطى^(٢٠) .

· رأى البابا ستيفن الثانى ٧٥٢ — ٧٥٣ ان ما يبدله الفرنجة من الحماية للبابوية ضد اللومبارديين لأقوى أثرا ، وأكثر قبولا من حماية البيزنطيين ، ولذا التقى البابا ستيفن بالملك بيبين القصير كما ذكرنا واتفق معه على المساعدة الحربية ضد اللومبارديين وهو ما عرف فى التاريخ باسم « هبة بيبين »^(٢١) .

ولعل هذه الظروف ساعدت على زيادة الهوة بين القسطنطينية وروما فقد حاول الامبراطور قنسطنطين الخامس أن يفسد التحالف بين البابوية وملك الفرنج لتعلو هبة الامبراطورية البيزنطية فوق العالم المسيحى ، ولخوفه المستمر من صعود نجم ملك الفرنجة . لذلك بعث

(18) M. Hussey. «The Byzantine World.» p. 30.

(19) Vasiliev. Ibid. p. 321.

(٢٠) ديفز « شارلمان » ص ٤٧ — ٤٨ .

(21) Diehl «History of the Byzantine Empire» p. 61.

قنسطنطين الخامس سفراء الى الملك بيبين بعد أن انتصر بيبين على اللومبارديين ، وعقد معهم صلحا يقضى بأن يدفعوا جزية للملك الفرنجة ، وأن يعيدوا للبابوية أملاكها ، عندئذ تقدم سفراء قنسطنطين الخامس مطالبين باعادة رافنا للامبراطورية ، لكن بيبين رفض مطلبهم وأخبرهم بأنه لم يدخل الحرب لحساب أحد ، وإنما حمل السيف لخلّاص روحه ، ولارضاء القديس بطرس ومن ثم فإنه سيهب الأراضى التى وضعت فى يده لهذا القديس ، أما الامبراطور البيزنطى — فى رأى بيبين — فإنه لا يستحق املاكا فى ايطاليا بسبب عجزه عن الدفاع عن البابا من ناحية ولأنه مهرطق من الناحية الأخرى . (٢٢) .

ولم تقف جهود قنسطنطين عند هذا الحد بل تجاوز ذلك الى أنه أرسل مع هؤلاء السفراء مشروعا لربط مملكة الفرنجة مع الدولة البيزنطية وذلك لافساد التحالف مع البابوية ، ويقضى هذا المشروع بعرض رغبة الامبراطور قنسطنطين الخامس فى تزويج ابنة ليو الرابع الى الأميرة جيزلا Gisla ابنة بيبين . ولكن هذا المشروع قوبل كسابقه بالرفض لئلا تمسك بيبين بموقفه مع البابوية (٢٣) .

وبذلك نرى أن العلاقة بين الدولة البيزنطية ومملكة الفرنجة بدأت تمر بمرحلة تحدى صريح فرأى البيزنطيون فى ملك الفرنجة عدوا من نوع جديد ، يريد أن يفرض نفوذه على البابوية أو يؤكد لنفسه سلطانا يستطيع من خلاله أن يحقق أحلاما وأطماعا لم يتحدد مداها حتى هذه الفترة .

رأى بيبين بعد دراسة مستفيضة ألا يسفر عن عدائه للامبراطور بصورة قاطعة ، ولم يفصح عنه خطته الذى يسير عليه وهو قطع

(٢٢) اسحق عبيد « الامبراطورية الرومانية » ص ٢٠٣ .

(23) Pirenne «op. cit. p. 227.

العلاقة نهائيا بين البابوية والامبراطورية البيزنطية ليفسح لنفسه طريقا
فرأى تجنب الشقاق بينه وبين قنسطنطين الخامس حتى لا يشك فيه .

ومن ناحية أخرى كان يحرض البابوية ضد الامبراطورية البيزنطية،
ويجسد لها اعتداءات الأباطرة البيزنطيين على ممتلكاتها في ايطاليا ،
ويصورهم على أنهم هراطقة شرقيين ، فبذلك أستطاع أن يحطم السلسلة
الواحية التي كانت تربط الدولة البيزنطية بالغرب ، فاستهل بذلك الانقسام
الذى تحتّم على ابنته أن يتمه ، وما اتخذه بين وشارل من بعده من
وسيلة لاتمام ذلك العمل انما جاء من قبل البابوية (٢٤) .

توفى الامبراطور قنسطنطين الخامس سنة ٧٧٥ م تاركا دولته في
ظروف سياسية لا تحسد عليها ، فقد ساعد بسياسته اللايقونية المتطرفة
التي نشرت الرعب بين الناس الى زيادة العداء بين الدولة البيزنطية
والبابوية وارتفاع نجم ملك الفرنجة الذى ظهر على أنه حامى البابوية
ومنقذها فكان لا بد على من يتولى العرش من بعده أن يعمل اما على
التوفيق بين الدولة البيزنطية والبابوية أو التخلص عن السياسة
اللايقونية .

ورغم ذلك فكان الجيش الذى تركه ليحمى دولته جيشا قويا
والاقتصاد الذى سار عليه كان ثابتا وقويا الى جانب أنه ترك ذرية
من الأولاد يبلغ عددهم ستة أكبرهم ليو الذى ولد من أميرة خزرية. لذلك
نعت باسم « ليو الخزرى » ونصب امبراطورا بعد وفاة أبيه تحت اسم
« ليو الرابع » .

لم يتمتع ليو بشئ من قدرات أبيه الشخصية أو الجسمية ، فقد
كان مصابا بمرض لم يمهله على حكم البلاد أكثر من خمس سنوات (٢٥) .

(٢٤) ديفز « شارلمان » ص ٤٨ .

(25) Romelly Jenkins « Byzantium the imperial centuries » p. 90

تزوج ليو الرابع فى ديسمبر سنة ٧٨٩ « وقبل وفاة أبيه » من فتاة من عائلة نبيلة اثينية تدعى ايرين • وبدأ هذا الزواج شيئاً غريباً وتصرفا تعجب الناس كيف يقدم عليه قنسطنطين الخامس ، فكيف يختار لابنه فتاة مثل ايرين ؟ عرف عنها حبها وشغفها بعبادة الصور المقدسة وغداؤها للالائيقونية ، حتى أنها كانت على درجة من الجراءة لاعلان معتقداتها (٢٦) •

اعتقد قنسطنطين الخامس أن زواج ابنه ليو من هذه الفتاة سيجلب الخير على الامبراطورية خاصة وان اسمها « ايرين » ومعناه السلام ، لكن الحقيقة انها كانت مصدر الشقاء والوبال على الامبراطورية •

كان ليو الرابع أقل اضطهادا للديرين والرهبان ، فأعاد لهم بعض نفوذهم ، وأعادهم الى أديرتهم ، كما أعاد كثير من الصور المقدسة خاصة صور السيدة مريم العذراء حتى عرف بين معاصريه بلقب « صديق أم الاله » (٢٧) •

ويعتبر هذا التغيير فى السياسة الدينية من اللالائيقونية الى الأيقونية بسبب تأثير زوجته ايرين ونفوذ البطريك الجديد نيكيتاس •

لم يمكث ليو فترة فى هذه السياسة التى ما لبث أن عاد بعدها الى اللالائيقونية سياسة أسرته التقليدية، فأمر سنة ٧٨٠م بحبس وجلد طائفة من كبار الموظفين الذين أصروا على عبادة الصور وتمجيدها على أن هذه العقوبة لم تكن فى شدة وعنف ما اشتهر به قنسطنطين الخامس فى معاقبة خصومه ، أضف الى ذلك أن هذه كانت الحالة الوحيدة المعروفة

(26) Ibid.

(27) Ibid p. 91.

من اضطهاد عباد الصور زمن ليو الرابع • لكن ربما لو طال به الأجل
لازددت الاضطهادات (٢٨) •

توفى ليو الرابع سنة ٧٨٠ م بعد خمس سنوات فى حكم
الامبراطورية ، وقد أجمع المؤرخون على أن الفترة التى حكمها ليو
اتسمت بعدم وضوح خطته السياسية وتخبأها • لكنه تمكن قبيل وفاته
من الحصول على وعد من الجيش والسناتو على تنصيب ابنه الطفل
قنسطنطين ليخلفه على الحكم (٢٩) •

قنسطنطين السادس وابوين

أجمع المؤرخون على أن فترة حكم الامبراطور البيزنطى قنسطنطين
السادس ، وأمه الامبراطورة ايرين تعتبر من أهم فترات تاريخ
العلاقات السياسية بين الشرق والغرب من ناحية وبين البابوية ودولة
الفرنجة من ناحية أخرى •

فقد عمل الامبراطور ليو الرابع على أن يخلفه ابنه الطفل قنسطنطين
فى حكم الامبراطورية ، لذلك كان يظهر دائماً بجانبه فى كثير من المراسم
الهامة ، وعمل على تلقيه منذ صغره بعض فنون السياسة ، وقرر ابتعاد
أخوته الأربعة عن التفكير فى تقلد مهام الامبراطورية حيث كانوا أخوة
غير أشقاء من أم تدعى Eudocia كان قد تزوجها قنسطنطين الخامس ،
أما والدته ليو هى ماريا ابنة ملك الخزر كما ذكرنا من قبل (٣٠) •

(28) Theophanes «op. cit.» p. 453.

(29) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 91.

(30) Joseph. Mc. Cape «The Empresses of Constantinople» p. 87.

ظل ليو الرابع قلقا طوال حياته على مصير ابنه قنسطنطين خائفا من أى عمل مضاد يمكن أن يدبر ضده من أعمامه الراغبين فى العرش ، وقد حصل ليو على وعد من رجاله ورجال القصر على أن يعملوا قصارى جهدهم لحماية الابن قنسطنطين ، وقرروا ضرورة اشراك الابن مع الأب رسميا فى الحكم سنة ٧٧٦ م •

قام ليو بتسجيل القسم الذى أقسمه رجال المدينة ورجال القصر على حماية ابنه ، والوقوف بجانبه ، وقام بتعليقه على مذبح الكنيسة الكبرى فى القسطنطينية •

وترجع قصة هذا القسم الى اليوم الذى جمع فيه ليو الرابع جميع الضباط ورجال السناتو ، والعاملين بالدولة ، وطاب منهم جميعا أن يقسموا على الصليب المقدس على ألا يخضعوا لسلطة غير سلطة قنسطنطين وألا ينصبوا على الحكم أحدا غيره • وبعد أن أقسم الجميل سجل هذا القسم كتابة ، وعلق على مذبح الكنيسة وقام على حراسته بطريك القسطنطينية (٣١) •

وفى يوم الأحد التالى ليوم الجمعة الذى تم فيه القسم ، وكان ذلك مصادفا عيد الفصح تزوج قنسطنطين فى الصباح الباكر فى قصر هيپودروم Hippodrome ، وبعدها جهزوا له موكبا حافلا يتقدمه النبلاء والقيصرة ، وتوجهوا الى الكنيسة ، وتبع هذا الموكب مسيرة تتقدمها امه ايرين Iren التى سارت بتواضع وأدب جم يحيط بها مجموعة كبيرة من الوصيفات والحضيان والفساء •

وبعد مرور اثنى عشر شهرا اجتمعت العائلة المالكة وجميع رجال الطبقة العليا فى قاعة جورجىوس Gorgeous فى قصر ماجنورا Magnoura واحتفلوا بتنصيب قنسطنطين مرة أخرى • وفى هذه

(31) Ibid.

الليلة اكتشف ليو خيانة من جانب القيصر نقفور بمساعدة مجموعة من الضباط والحضيان: فأعلن ليو على الحاضرين تفاصيل المؤامرة، وقرر طرد نقفور من الخدمة، وانزله الى طنقة الراهبان: ونفيه خارج البلاد.

توفي ليو الرابع، وآلت مقاليد الأمور وفقا لهذه الوصية الى ابنه قنسطنطين السادس، وكان في العاشرة من عمره، لذلك آلت الوصاية عليه الى أمه ايرين.

وكانت ايرين آثينية الأصل مولعة بالأيقونات كما ذكرنا، لذا لاحت من سياستها، الرغبة في السيطرة على ابنها وتحويل السياسة الدينية في الامبراطورية من الجانب اللايكوني الى الجانب الايكوني، كما أنها اتصفت بالطموح فعملت منذ تولية ابنها العرش على الاستئثار بالحكم والاستحواذ على السلطة لذا كانت لا تسمح بوجود أى عائق أو عقبة تقف في سبيل تحقيق أغراضها.

كثرت أقوال المؤرخين حول مدى شغف ايرين بالأيقونات المقدسة وانها كانت تعتنقها سرا طوال حياة زوجها، وتخفى عنه اتصالها برجال الدولة المؤيدين لهذه السياسة، بل زادوا على ذلك تأكيدهم على أن ليو اكتشف قبل وفاته مؤامرة دبرت لهذا الغرض، كما اكتشف أيقونات تحت وسادته (٣٣).

انتظرت ايرين فترة عقب وفاة زوجها لترى مدى تأثير السياسة الجديدة التي ستفرضها على الامبراطورية، خاضعة على قوات الجيش لأنها قامت بطرد قائده الموالي لللايكونية، وأحلت محله آخر موالي للايكونية.

عندئذ اشتعلت ثورة كبرى في البلاد زعم القائمون بها أن المحرض

(32) Ibid. p. 82.

(33) I bid. p. 88.

عليها هم أعمام قنسطنطين ، لكن الحقيقة أنهم لم يعلموا عنها شيئاً ، وتمكنت إيرين من السيطرة على الموقف ، وقبض رجالها على الأعمام وحولوهم الى سلك الرهبنة . ولم تنتهى هذه الحبركة ثورات الجند المستمرة على سياسة إيرين (٣٤) .

وما يرويه لنا الأورخ جوزيف فى كتابه الذى يحكى قصة « امبراطورات القسطنطينية » عن موقف إيرين من ثورة أولاد Eudicia أن سبب قيامهم بها رفضهم تنصيب امرأة وطفلاً على عرش البلاد ، وقد شارك الأبناء اثنان من القياصرة ، واثنان من كبار النبلاء وبعض الضباط وجلهم اما جلدوا أو حُلق رءوسهم أو نفوا خارج البلاد .

ومن الثورات الأخرى التى يرويها لنا المؤرخ جوزيف الثورة التى قام بها حاكم صقلية اليبديوس Elipidius فقد أمرت إيرين الموظفين المحليين أن يرسلوه اليها مقيداً بالسلاسل ، ولما رفض هؤلاء تنفيذ قرارها أرسلت أسطولا الى صقلية قام بطرد حاكمها من البلاد ليخمد الثورة ، ويسترسل جوزيف ، أملاً : « ان الامبراطورة التى وصفها المؤرخون المتعصبين لها بأنها « أتقى القيات » ، فقدت انسانيته وأخلاقتها عندما قامت بجلد زوجة اليبديوس وأطفاله فطردت المرأة البريئة وحلقت لها شعرها وفتتها الى الذير لتدخل سلك الراهبات (٣٥) .

إيرين وعودة الى الأيقونات

لم ترغب إيرين فى تعديل سياستها الدينية مرة واحدة ، بل استمرت خلال السنوات الثلاث الأولى من حكمها تلوح بالسياسة الجديدة دون أن تعلن ذلك صراحة ، وذلك نتيجة لانشغال الامبراطورية فى هذه الفترة بالقضاء على الثورات الداخلية التى أشربنا إليها ، إلى جانب

(34) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 92.

(35) Joseph. «op. cit.» p. 90.

الحروب الخارجية مع السلاف الذين يسكنون اليونان ، كما رأت إيرين أن اللاأيقونية قد انتشرت بين عدد كبير من رجال الكنيسة وموظفي الحكومة سواء أكان ذلك عن اقتناع بها أم لاتخاذ اللاأيقونية وسيلة لتحقيق أغراضهم ، يضاف الى ذلك أن جانبا كبيرا من رجال الجيش اشتد تعلقهم بهذا المذهب ، بفضل اخلاصهم للامبراطور قنستطنطين الخامس^(٣٦) .

ففى العام الرابع من وصاية إيرين على الحكم بدأت فى تنفيذ سياسة التسامح الدينى مع عباد الأيقونات بشكل لم يسبق منذ بداية سياسة مناهضة تلك العبادة ، وأخذ الرهبان يظهرون من جديد فى العاصمة ، وينشرون آرائهم ومبادئهم ، الأمر الذى كان محرما عليهم لسنوات عديدة مضت .

وقد سنحت الفرصة لايرين عام ٧٨٤ بوفاة البطريرك اللاأيقونى Paul الذى سبق أن عينه ليو الرابع سنة ٧٨٠ م ، وقد كان من رجال الكنيسة المخلصين ، فمهد لها ذلك أن تعين مكانه رجلا من رجال الكنيسة المشهورين باللاأيقونية ، والذين سيعملون على نشر مبادئها مرة أخرى ويدعى تاراسيوس ولم يكن من رجال الكنيسة بل من العلمانيين الذين عملوا فى سلك الادارة المدنية . ويطلق المؤرخ جونكينز عليه بقوله « ان تاراسيوس كان نبيل الأصل ، وله قدرات دبلوماسية لم تتوافر لغيره » وكانت الدولة فى حاجة اليها بمعنى آخر فان تاراسيوس كان جديرا بهذا المنصب^(٣٧) .

لم يصادف رأس الأستاذ جونكينز هوى فى نفس كثير من مؤرخي هذه الفترة الذين شكلت آرائهم اجماعا على سوء سياسة تاراسيوس ، وعدائه الشديد لللاأيقونية .

(36) Vasiliev. «op. cit.» p. 322.

(37) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 94.

ولعل أهم ما قام به تاراسيوس عقب توليه رغبته فى عقد مجمع مسكونى جديد لمناهضة القرارات التى دعى اليها المجمع المسكونى الذى عقد سنة ٧٥٤ م ، وأمر باللائقونية •

ومن أهم النتائج التى لاحت فى المجال السياسى للامبراطورية الشرقية اتفاق تاراسيوس مع ايرين على توجيه الدعوة للبابا هادريان الأول للحضور ورئاسة المجمع ، ولعل هذا الموقف يوضح لنا معالم السياسة التى خطت لها ايرين مع البطريك ، وهى ضرورة التحالف مع البابوية حتى يعيدوا للدولة البيزنطية الرباط الدينى القديم •

وصلت الدعوة الى البابا فى أغسطس سنة ٧٨٥ م ورد عليها فى أكتوبر بالموافقة على ارسال مندوب بابوى لحضور المجمع (٣٨) •

انعقد المجمع المسكونى فى كنيسة الرسل بالقسطنطينية فى ٣١ يوليه سنة ٧٨٦ م الذى حضره عدد كبير يقدر بحوالى ٣٥٠ عضوا وممثلين عن بطارقة انطاكية والاسكندرية وبيت المقدس ، غير انه ما كاد المجمع يبدأ أعماله حتى وقع حادث لم يكن متوقعا ، فلم تقدر ايرين عدااء الجيش ومعارضة بعض الأساقفة الشرقيين •

فقد اندفعت طائفة من جند الحرس بالعاصمة والمواليين لعبادة الصور شاهرين سيوفهم داخل قاعة الاجتماع حتى أرغموا الحاضرين على الانصراف ، ولم تتمكن الامبراطورة من الهرب الى خارج مكان الاجتماع الا بصعوبة بالغة ، وأصبح عليها أن تبدأ محاولتها من جديد ، فعملت على أن تكسب الى جانبها بعض الجنود من الولايات التابعة لها كما وجدت ذريعة لنقل مكان المجمع من القسطنطينية الى مدينة نيقية ، وبدأ

(38) Ibid & Vasiliev «op. cit.» p. 322.

الاجتماع فى سبتمبر سنة ٧٨٧ م ، وهو الذى يعرف بالمجمع المسكونى السابع بل والأخير فى تاريخ الكنيسة الشرقية (٣٩) .

حضر المجمع ما يقرب من ثلاثمائة من رجال الدين وقرر المجمع ضرورة العودة الى عبادة الصور المقدسة ، وكل من يخالف ذلك تقرر قطعه من الكنيسة ، وكذلك تقرر اعادة المخلفات المقدسة مواضعها بالكنائس التى جرى إنتزاعها منها. وتقرر أيضا أنكار ما وقع من تحويل الأديرة الى أغراض دنيوية كل الى سيرته الأولى ، وحرص المجمع على رفع المستوى الخلقى لرجال الدين بأن أنكر بيع وظائف الكنيسة وهو ما يعرف بالسيمونية ومنع قيام أديرة تضم الراهبات والرهبان معا (٤٠) .

على أن أهمية مجمع نيقية لم ترجع الى اعادة عبادة الصور المقدسة فحسب بل الى أنه هيا لأتصار هذه العبادة ما أفتقروا إليه من نظام فى نضالهم من خصومهم أول الأمر ، إذ جمع كل ما حدث من المناقشات الدينية المؤيدة لعبادة الصور التى استُخدمها أنصار هذه العقيدة فيما بعد ضد خصومهم (٤١) .

وطبنا لما أورده ثيوفانيس من قرارات المجمع ما نصه « أننا نحن المجتمعون نوضح بكل دقة وعناية ، بأننا سنعيد الأيقونات المقدسة مرة أخرى مثل أيقونات الصليبان ، وجميع الأيقونات الالرسومة بالزيت والمحفورة من الأحجار والمواد الأخرى المشابهة التى تتناسب مع مقام كنيسة الاله المقدسة ويسمح بالأيقونات أن توجد على الألوانى والملابس وعلى الجدران والألواح الخشبية فى المنازل والشوارع ، ويسمح

(39). Ostrogorsky «op. cit.» p.p. 158-159.

Vasiliev «op. cit.» p. 322

(40) Vasiliev. Ibid. p. 323.

(41) Ibid.

بجميع الصور التي تصور سيدنا يسوع المسيح ، وأمه: أم الاله المقدسة وجميع الملائكة والقديسين المبجلين ، والغرض من ذلك أن من ينظر الى هذه الأيقونات والصور ويلاحظها يؤدي به ذلك الى تذكر صاحبها ومحبه • ولا بد أن نقدم الاحترام للصور والأيقونات وان نركع لها — ليس لغرض العبادة ، لأننا لا نعبد ما بل نعبد الاله ، ويجب أن نوقد لها الشموع ونحرق لها البخور بنفس الطريقة المتبعة للصليب المقدس وللكتاب المقدس ولجميع الأشياء المقدسة ويجب اتباع جميع العادات الدينية التي اتبعها المسيحيون في الأزمنة السالفة » (٤٢) •

نتائج مجمع نيقية

من أهم النتائج التي حققها مجمع نيقية إعادة العلاقات مع البابوية ، فقد أرسل البابا هادريان ، كما ذكرنا مندوبا بابويا لجنوب هذا المجمع الى جانب أنه اعترف بتسميته بالمجمع المسكوني ، فقد حقق هذا المجمع أغراض البابا في ضرورة عودة الصور المقدسة مرة أخرى بعد طول سنين من النضال مع الأسرة الأيسورية ، لذلك رأى البابا في أيرين ضالته الكبرى وباركها ، رغم أن الكنيسة الغربية كانت أقل كثيرا في استخدام الطقوس والصور المقدسة ، عما ألفه الشرق (٤٣) •

أما عن الآثار الهامة لمجمع نيقية ، فمن الممكن أن نجعلها في آثار داخلية وآثار خارجية •

١- الداخلية :

حدث انقسام داخل الكنيسة الشرقية بعد صدور قرار مجمع نيقية ، واتضح هذا الانقسام جليا في مستقبل الأيام • فكان الهدف الأساسي ، الذي يمحى أى هدف آخر لهذا المجمع المسكوني مواجهة

— (42) Theophanes «op. cit.» p.p. 458-463

(43) Lamb. «op. cit.» p. 167.

اللايقونية ، لكن بعد بدء الاجتماع ظهرت بوادر فى الأفق تنذر بوقوع خلافات فى الآراء •

بدأ الخلاف ، واحتدمت المشكلة نتيجة للأسئلة التى أثارها الأساقفة اللايقونيين الذين كانوا على استعداد للتخلى عن مبادئهم ، والانضمام الى الجماعة الإيقونية ، وكان الأسقف تاراسيوس متفهما وعن الممكن أن يعيدهم الى سلك الأيذونيين اذا ثبت حسن نيتهم ، أما الأسقف سافاس Savas فكان متأثرا بسوء نيتهم وبأنهم لن يفعلوا ذلك لكن تاراسيوس قد نجح فى التوصل الى حل وسط يرضى الطائفتين ، ولم يفعل ذلك الا للضغوط التى تعرض لها من قبل اللايقونيين •

والمشكلة الثانية التى أثارها المجمع كانت مشكلة المطارنة اللايقونيين الذين نسبت اليهم تهمة بيع وشراء الوظائف الدينية فى الكنيسة والمعروفة « بالسيمونية » فما كان من تاراسيوس الا أن غفر لهم هذا الذنب بعد أن تابوا عن أفعالهم وقدموا ما يثبت ذلك •

وبعد مرور ثمان سنوات أخرى ظهرت حركة معارضة من جانب رجال الدين حول موضوع زواج قنسطنطين السادس ، وهذا ما سنعرض له بعد ذلك فى قضية زواجه ، وكيفية تدخل أمه فى هذه الموضوعات (٤٤) •

فمن المعروف تاريخيا أن ليو الرابع توفى سنة ٧٨٠ تاركا ابنه قنسطنطين فى العاشرة وتحت وصاية أمه •

لذلك حاولت الأم فى هذه الفترة أن تظهر على المسرح السياسى وأن تثبت لدولتها مكانا فى العالم ، وأن تتصاهر مع القوة العظمى التى لاحت فى سماء السياسة فى هذه الفترة وهى قوة شارلمان الذى حقق فى هذه الفترة أكثر من انتصار فى الغرب ولمع اسمه وحطم قوى اللومبارديين • فأرادت ايرين عندما بلغ ابنها الثانية عشر من عمره وفى

(٤٤) Romilly Jenkins «op. cit.» p. 97.

عام ٧٨٢ بالذات أن تعقد زواجا سياسيا بين ابنها قنسطنطين ، وابنة شارلمان روترود Rotrud (٤٥) .

رأست إيرين شارلمان في هذا الموضوع ، خاصة وأن العلاقات بين الشرق والغرب في هذه الآونة ستوضح موضوعات المناقشة في المستقبل .

وقد اغتبط كل من شارلمان وإيرين لهذا الموضوع الى درجة أن إيرين بعثت الى البلاط الفرنجى فى آخن كاتب العدل إيليساوس Elissaus ليعلم الأميرة روترود اللغة اليونانية والآداب اليونانية ، والطقوس الدينية المعقدة فى القصر البيزنطى (٤٦) .

وبعد مرور أربع سنوات على هذه الاستعدادات أى فى عام ٧٨٦م أصبح قنسطنطين فى السادسة عشرة من عمره ، فأعاد شارلمان بنفسه اعلان موافقته على خطبة قنسطنطين لابنته (٤٧) .

وعندما همت إيرين بعقد مجمع نيقية سنة ٧٨٧ م ، ورأت أن بداية اقتصارها الدينى قد لاح فى الأفق بحضور المندوب البابوى ، فكرت فى الغاء مشروع زواج ابنها من ابنة شارلمان وذلك لخوفها من اتحاد قوة شارلمان مع ابنها الذى بلغ سن الرشد وأصبح من حقه أن يحكم ، ولم تكن عنده أى نوايا للتنازل عن الحكم .

فإذا ما تم زواجه من ابنة شارلمان فسيؤدى ذلك الى تقوية حزب ابنها على حسابها (٤٨) .

ويرى المؤرخ هودجكن Hodkin ان البابا هادريان لعب دورا فى هذا الموضوع ، فبينما كان يتظاهر بتشجيع إيرين فى جهودها لاعادة عبادة الصور ساورته المخاوف — كما ساورت أسلافه من قبل — من النتائج

(45) Pirenne «Mohamed and Charlemagne» p. 229.

(46) Harry Mauglais «op. cit.» p. 95.

(47) Romilly «op. cit.» p. 98.

(48) Mauglais «op. cit.» p. 96.

التي تترتب، على التحالف بين بلاطى بيزنطة وآخن ، ولذا عمى الى
اخطار شارلمان بما جرى من العلاقات بين ايرين والخليفة هارون الرشيد ،
وأشار بالتفصيل الى ما يقوم به البيزنطيون من التآمر فى ايطاليا لا سيما
بين الأمراء المقطعين من اللومباردين فى الجنوب (٤٩) .

وفى سنة ٧٨٧ م أرسلت ايرين سفارة الى أريغيس دوق بنفينتو
لتقلده خلعه البطركية على أنه من أتباع قنسطنطين السادس ، وبادر .
هادريان باخطار شارل بكل ما حدث ، غير أن أريغيس مات قبل قدوم
السفارة ، وخلفه فى الحكم جريموالد فى أغسطس سنة ٧٨٧ م لذلك
أبى شارلمان أن يزوج ابنته من قنسطنطين السادس (٥٠) .

أما عن مصير الفتاة روترود ابنة شارلمان فبعد فشل زواجها من
قنسطنطين زوجها أبوها من فردريك كونت مين *Count of Maine*
وانجبت ابنا سمته لويس الذى أصبح فيما بعد رئيسا لدير القديس
Saint Denis (٥١) .

بدأت ايرين البحث عن زوجة جديدة لشارلمان تتفق مع مطالبها
ورغباتها ، وتيسر لها ذلك ، فأرسلت الى رجل تقى من احدى قسرى
كبادوكيا فى آسيا الصغرى ، عرف بين الناس بسميته الطيبة ، وكرم
أخلاقه وتدينه ، وطلبت منه المواقعة على تزويج احدى بناته الثلاث وتدعى
Maria of Amnia وتبلغ من العمر ثمانية عشر عاما لابنها
قنسطنطين (٥٢) .

وكان نظام الزواج المعمول به فى البلاط البيزنطى فى هذه الفترة
هو أن تصطف مجموعة كبيرة من أجمل فتيات العالم ليختار منها العريس

(49) Hodkin «op. cit.» p. 96.

(50) Bukeler «F.W.» Harun Al Rashid and Charles the Great»
p. 16.

(51) Einhard «The life of Charlemagne» p. 47.

(52) Joseph. Mc. Cape «op. cit.» p. 92.

واحدة ، لكن هذا لم يكن الا اجراءا وتقليدا شكليا ، اذ المعروف أن العروس تكون معروفة مسبقا ومتفق عليها ، وقد اقتبس البيزنطيون هذه العادة عن بلاط الخزر (٥٣) .

تمت اجراءات الزواج من هذه الفتاة البيزنطية فى نوفمبر سنة ٧٨٨ م ، وكان قنسطنطين فى مثل عمر عروسه فى الثامنة عشر .
لم يعيش العروسان فى محبة ووئام ، لخضوع قنسطنطين فى هذا الزواج لرغبة أمه ، فأراد قنسطنطين فى العام التالى أن يثبت شخصيته ويبعد نفوذ أمه عن دولته .

ففى عام ٧٩٠ م ، شارك مجموعة من المتآمرين الرغبة فى التخلص من ايرين ، بنفيها الى جزيرة صقلية ، فعلمت ايرين بالمؤامرة فى مهدها ، فقبضت على المتآمرين ، ومنهم ابنها وجلدتهم بالسياط ، وقامت بنفيهم الى جزيرة صقلية .

ولم يفلت قنسطنطين السادس من العقاب هو الآخر فقد جلد وسجن وقتا طويلا داخل القصر ، وذهبت ايرين الى أبعد من هذا بأن فرضت على الجيش أن يقسم يمينا بعدم الاعتراف بابنها كإمبراطور طالما بقيت على قيد الحياة ، وأصبح بذلك اسم ايرين يفوق اسم ابنها ويوضع قبل اسمه فى المراسم الرسمية (٥٤) .

ولكن اذا كانت جميع الفرق قد أقسمت لها يمين الولاء ، فان فرق أرمينيا رفضت أن تكون السلطة فى يد امرأة ، وأن يستمدوا أوامرهم من امرأة ، لذلك أرسلت ايرين الحصى اليكسيوس ليغرى هؤلاء أو يجبرهم على الطاعة ، ولكنهم تمكنوا من استمالة اليكسيوس الى جانبهم

(53) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 98.

(54) Joseph. Mc. Cape «op. cit.» p. 93.

Romelly Jenkins «op. cit.» p. .

Ostrogorsky «op. cit.» p. 160.

وجعلوه قائدا عليهم ، حتى عمت الثورة بين جميع الفرق وتمكن الجيش من محاصرة القصر ، وأملوا شروطهم ، وقاموا بجلد سستاراكايوس ، وأبعدوه بالقوة الى أرمينيا ونفوا إيرين وعزلوها من سلطاتها ، الى قصر الاليو يثيريان Eleutherian الذي شيدته من قبل وملاّته بالتحف والإموال الأي ظرف سياسى يحقّق بها •

لذا تنازلت إيرين عن العرش فى ديسمبر سنة ٧٩٠ م وترك سستاراكايوس منصبه وتولى قنسطنطين السادس السلطة (٥٥) •

غير أن ما اشتهر به قنسطنطين من الضعف وما تعرض له من الهزيمة فى حرب البلغار سنة ٧٩٢ ، وازدياد نفوذ أنصار إيرين ، جعل قنسطنطين يوافق على توسلات أمه لعودتها للحكم ، لذا استسلم قنسطنطين لسلطاتها حتى اعترف بها شريكة معه فى الحكم الامبراطورى ، مما أدى الى ثورة الفرق الأرمنية مرة أخرى واعترضوا على هذا العمل السياسى مما حدا بإيرين الى أن تقبض على قائدهم الكسيوس — الذى كان موجودا فى هذه الفترة بالقسطنطينية ، وأودعوه السجن ، بل شجعت ابنها على أن يقوم بسمله عينيه (٥٦) •

فشلت إيرين بعد ذلك فى الحملة التى وجهت لحرب البلغار ، لذلك تحركت ضدها مؤامرة قادها الكسيوس ونقفور أعمام الامبراطور وهم أولاد يودوكيا Eudocia ، فأوحت الى قنسطنطين أن يقوم بسمله عينى أحدهم وقطع ألسنة الآخرين ، فأدى ذلك الى ثورة فى رأى العام ضد قنسطنطين ، الى جانب أنها دفعته الى القيام بحملة ضد الجيوش الأرمنية ، وأن يقمع ثوراتهم بطريقة وحشية ، وكان غرضها من ذلك أن تلوّث سمعته وأن تجعل جميع المكاسب المرتبطة باسمها فقط (٥٧) •

(55) Ibid. p. 160.

Joseph. op cit.» p. 94.

(56) Joseph. Ibid. p. 94.

(57) Ibid. p. 93.

وبقى لنا الآن أن نعرف مصير الزوجة التي تزوجها قنسطنطين رغم أنفه ، والتي قدمت من قريتها الى القصر الملكي ، فرغم الكراهية أنجبت ماريا ابنتان توفت احدها وبقت الأخرى التي عاشت في القصر الامبراطوري وقدر لها هي الأخرى أن تحمل لقب امبراطورة بعد مرور ثلاثين عاما عندما تزوجت من ميخائيل الثاني (٥٨) .

بدأت الامبراطورة الأم تبحث عن وسيلة لتؤثر بها على وضع ابنها السياسى فاستغلت سوء العلاقة التي تربط بينه وبين زوجته ماريا الأمنية Maria of Amnia لتدفع اليه في طريقه باحدى وصيفاتها التي اشتهرت بالجمال وبسوء الخلق ، حتى يقع في غرامها ، ويطلق زوجته فينقلب عليه رجال الدين ورجال الدولة •

وفعلا نجحت ايرين في مخططها ووقع في حب الوصيعة ثيودوت Theodote وبدأت أمه تغريه على خطبتها وطلاق ماريا • وفعلا نفذ ذلك وفي ٣ يناير سنة ٧٩٥ م طلق ماريا ، فقامت بارتداء الملابس السوداء وحلقت شعرها ، واتجهت الى سلك الرهبنة (٥٩) •

وقد كان لهذا الحدث دوى كبير في الأوساط الدينية التي كانت تنظر الى الزواج على أنه رباط أبدي يحرم الطلاق ، وأعلن القساوسة معارضتهم ورأس المعارضة الأب Plato رئيس دير سكاديون Saccudion في بثينيا Bithynia ، وقامت الامبراطورة الأم بتشجيع المعارضة ضد ابنها (٦٠) •

وعلى أثر تمادى رجال الدين في المعارضة ، أمر بالقبض على رهبان الدير وعذبهم ونفاهم مما أثار الرأي العام ضده •

تزوج قنسطنطين من ثيودوت وعاش معها • وفي سبتمبر سنة ٧٩٦

(58) Romelly Jenknis «op. cit.» p. 95.

(59) Joseph. !op. cit.» p. 95.

(60) Joseph. Ibid. p. 96.

Ostrogorsky. «op. cit.» p. 160.

توجهت الأم والابن الى الحمامات الساخنة فى بروسا Prusa وتركوا ثيودوت فى قصر بورفير Porphyra * وبعد وصولهم الى الحمامات أرسلت لهم ثيودوت تخبرهم بأنها وضعت وأنجبت مولودا ذكرا *

لذلك أسرع قنسطنطين الى المدينة ، وترك أمه ، فانتهزت هذه الفرصة ، وقامت باثارة رأى العام فى هذه المنطقة ضد ابنها وتمكنت من اجتذاب عدد كبير من الضباط والجنود الى صفها ، وبدأت تجهز لمؤامرة مقبلة *

وفى الصيف التالى خرج قنسطنطين بحملة ضد المسلمين ، وخافت ايرين من عودته ظافرا ، حتى لا تعود اليه شعبيته مرة أخرى * لذلك استدعته الى القسطنطينية فعاد بدون قتال (٦١) ، وبينما هو عائد ليلحق بزوجته التى توفى ابنها اللولود حديثا فى قصر بلاخرناى Blachernaa قام رجال الجيش التابع لأمه بالقبض عليه ، لكنه تمكن من الهرب * واستقل قارباً الى الشاطئ الأسىوى ، حيث لحقت به ثيودوت *

أصبحت هذه اللحظة حرجة جدا حيث لحق بقنسطنطين عدد كبير من الضباط والجنود وقبضوا عليه وساقوه الى قصر بورفيرى Porphyry وسجنوه به (٦٢) *

وفى يوم الثلاثاء ١٥ أغسطس سنة ٧٩٧ م ، وفى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر ، وبناء على أوامر أمه ايرين سملت عيني قنسطنطين السادس وفى نفس الحجرة الارجوانية التى شهدت مولده ، ورأى فيها النور لأول مرة ، حرم فيها من نور الحياة الى الأبد (٦٣) *

ويعلق المؤرخ البيزنطى ثيوفانىس على هذا الحدث بقوله : « ان الشمس أظلمت سبعة عشر يوما بعد حدوث هذه الجريمة البشعة ، وان

(61) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 101.

(62) Ibid, p. 101.

(63) Mauglais «op. cit.» p. 98.

السفن التي تجوب البحار سارت على غير هدى ، فلم تستطع أن ترسو الى مرافئها ، وقالت جميع الناس وأكدت أن الشمس فقدت أشعتها لأن الامبراطور أصبح ضريرا» (٦٤) •

وبذلك تمكنت ايرين من السيطرة على مقاليد الحكم ، وأصبحت امبراطورة على الامبراطورية الشرقية ، ولقبت نفسها بلقب امبراطور Basilieus لا امبراطورة Basilissa

ولا بد أن نحلل الأسباب التي دفعت هذه المرأة والتي نعتت في سجلات التاريخ بأنها أشهر قاتله ، ما هي الأسباب التي دفعتها لارتكاب مثل هذه الجريمة ، هل هي الرغبة الشخصية الجامحة فى الوصول الى مقاليد الحكم حبا فى السيطرة والتحكم ؟ أم غير ذلك •

ان ايرين عندما قامت بفعلتها هذه سببت الرعب فى جميع أرجاء العالم فى الخارج والداخل • فان قيامها بسمل عيني ولدها جعلته أعمى لا يقوى على ممارسة الحكم ولا يصبح قادرا على ذلك : أما رأى ثيوفانيس البيزنطى فى ذلك فهو أنها قامت بسمل عينية من أجل قتله والتخلص منه نهائيا ، ولكن المؤرخ روملى جونكينس يتساءل عن سبب قيامها بذلك فيقول ان هناك تفسيراً واحداً وهو ما سنعتبره علامة نضىء لنا الطريق فى الكشف عن سر هذه الجريمة • وهو السبب الدينى •

فقد عرفت الأم أن قنسطنطين قد بدأ يعمل على إلغاء قرارات المجمع المسكونى السابع « مجمع نيقية » والذي أعيدت فيه الأيقونية الى العقيدة المسيحية ، وسوف يعود مرة أخرى الى اعتناق مبادئ قرارات مجمع هيريا الذى عقد أيام قنسطنطين الخامس سنة ٧٥٣ وفيه قرروا العقيدة اللاأيقونية •

فقد شعر قنسطنطين السادس بأنه سيكسب كثيراً اذا عاد الى اللاأيقونية مرة أخرى ، ولن يحيق به ضرراً اذا تخلى عنه رجال الدين

الأيقونييين الذين بدأوا يلعنوه على أنه فاسق وزانى • فانه لن يكسب كثيرا بمساعدتهم ، ولن يخسر كثيرا اذا تخلوا عنه •

فالمعروف فى التاريخ أن جده قنسطنطين الخامس قد تزوج ثلاث مرات ولم نسمع أى معارضة من جانب رجال الدين اللايقونيين فى هذه الفترة عن عمله هذا ، وزيادة على ذلك فقد تمتع قنسطنطين السادس بشعبية وحب كبير من القوات التى ترابطت على الجبهة الشرقية وكلها أو معظمها كانت تعتنق اللايقونية ، فاذا نجح قنسطنطين السادس — كما تصورت أمه — فى الهرب ، وتنصيب نفسه قائدا عليهم فسينصروه وسيتمكن من الاطاحة بأمه وبالأيقونيين جميعا ، وبذلك لن يتمكن رهبان أديرة ساكوديون Saccaudion من الوقوف فى وجهه^(٦٥) •

أما الذين كرهوا قنسطنطين السادس فى داخل العاصمة البيزنطية ووقفوا فى وجهه فجميعهم من الأرثوذكس •

وهناك شىء هام عثرنا عليه فى الوثائق الغربية وهو يخضع لنا علامة على الموقف فى هذه الفترة ، وهو أنه فى أثناء الفترة التى كانوا سيقومون فيها بسمل عينيهِ ، فان قنسطنطين السادس كان يقوم باتصالات سياسية مع شارلمان فى اكس لاشابل حيث استقبل مبعوث قنسطنطين المدعو ثيوكتيستوس Theoctistus بكل تقدير واحترام^(٦٦) •

ولكن ما هى أسباب هذه السفارة ، وما أغراضها ؟

ه المعروف عن شارلمان أنه أدان الأيقونية والمجمع المسكونى السابع فيما عقده بعد ذلك فى مجمع فرانكفورت عام ٧٩٤ — كما سنرى — والذى شاعت شهرته الشرق والغرب • فكان من السهل على قنسطنطين أن يعمل على عقد تحالف بين الشرق والغرب على أساس تحالف واتفاق

(65) Romelly «op. cit.» p.p. 101-102.

(66) Ibid.

دينى ، وهذا ما سيعنى بالضرورة تحول بيزنطه عن سياستها الدينية الى نفس السياسة اللايقونية والتي خرجت من مجمع هيريا سنة ٧٥٤م لذلك فقد كانت هناك أسبابا قوية أمام ايرين دفعتها الى الاقتصاص من ابنها الذى اعتبرته ليس مجرد عقبة فى سبيل نفوذها السياسى بل اعتبرته متعرج سوف يدفع بمملكته الى طريق الاثم والظلام . وهذا النمط من التفكير سيمكننا من الحكم على هذه الامبراطورة بأنها ليست قاسية وغير طبيعية فقط ولكنها تتمتع بقصور فى التفكير الى جانب النزوات السيئة والمنحرفة (٦٧) .

لذلك فان القوى العظمى فى هذه الفترة والمثلة فى البابوية ، وشارلمان ملك الفرنجة ، رأت أن وجود امرأة تحكم تحت اسم الامبراطورية الرومانية فى الشرق يعتبر عملا غير شرعى ، بل انهم اعتبروا اقضاء قنسطنطين السادس عن عرش البلاد قد أخلى العرش الامبراطورى (٦٨) .

وفى هذه الفترة من التاريخ ، كان اسم شارلمان قد أصبح يدوى عاليا فى الآفاق — كما رأينا — وقد استطاع أن يسدى كثيرا من الأعمال الجلية للبابوية وللكنيسة المسيحية ، فأصبح بحق هو زعيم العالم الرومانى ، هذا فى الوقت الذى نشاهد فيه الامبراطورية البيزنطية تحكمها امرأة ويتحكم فى مصيرها الطواشيء (٦٩) لذلك فقد استحق شارلمان تقدير البابوية بتنصيبه امبراطورا .

آثار مجمع نيقية الخارجية :

لم يتأثر الموقف بين القسطنطينية والبابوية ، بما جرى فى مجمع نيقية من عودة بيزنطة الى الأرثوذكسية ، وما يتبع ذلك من شدة

.(67) Romelly «Ibid».

(68) Mauglais «op. cit.» p. 99.

(69) Ostrogorsky «op. cit.» p. 183.

حماسها لتأييد عبادة الصور ، وما قد يؤدي ذلك الى تسوية النزاع بين كنيستي روما والقسطنطينية • والواقع أن مجمع نيقية لم يكن له أثر كبير في التوفيق بين هاتين الكنيستين ، إذ أن روما توقعت ان ما جرى اتخاذه ضدها من اجراءات أثناء فترة النضال حول الأيقونات سوف يتوقف سواء كان ذلك في المجال الديني أو السياسة الكنسية ، ولذا صارت تتوقع أن تعود الأوضاع الى ما كانت عليه ، فتعود الى البابوية أملاكها التي اغتصبها البيزنطيون ، ويرجع لسلطة البابا ما كان له من السلطة في جنوب ايطاليا والليريا ، غير أن القسطنطينية رفضت أن تستجيب لهذه الطلبات ، ولم يحدث في مجمع نيقية اثارة لهذا الموضوع ، إذ أن رسالة البابا هادريان الى حكام بيزنطة ، والتي تضمنت هذه الحقوق ، جرى فيها استبعاد العبارات التي أشارت الى حقوق البابا في انتقاد ما حدث من مخالفة قوانين الكنيسة بتعيين تراسيوس بطريكا ، والى اتخاذ لقب مسكوني ، والتي أشارت الى ما لكنيسة روما من الصدارة ، وبذلك فقد البابا ماله من نفوذ في الشرق ، مثلما فقد الامبراطور البيزنطي سلطانه في الغرب^(٧٠) •

أما آثار المجمع المسكوني على مملكة شارلمان التي كان لها هذا الوزن العالمي الكبير ، فقد رأينا الصدى العميق الذي أحدثته هذا المجمع وقراراته في نفس شارلمان ورجاله •

فقد رفض شارلمان قرارات مجمع نيقية نهائيا ، وذلك لأن هذه القرارات كما رأينا من قبل قد أعطت قداسة كبيرة للأيقونات الى الحد الذي تصور شارلمان — أنه قد وصل الى درجة عبادة الأيقونية وهذا يعد كفرا وهرطقة • فقد كانت كنائس الفرنجة في هذه الفترة لا تعنى كثيرا بوجود التماثيل والأيقونات ، ويعزو الأستاذ لامب ذلك الى ندرة الفنانين الذين يقومون بصناعة هذه التماثيل وليست الناحية

(70) Ostrogorsky «op. cit.» p.p. 183-184.

الدينية ، كما أنه لا يوجد عند الفرنجة غير رسوم على الحائط غير مقنعة ، وبعض الآثار المقدسة مثل عبادة القديس مارتن Saint Martin الى جانب أن شارلمان كان يريد أن يقوض السيادة الروحية للدولة البيزنطية على العالم الرومانى .

وللوصول الى هذا الهدف قام شارلمان ومستشاره الكوين بهجوم سافر على العقيدة التى نادى بها البيزنطيون . فكلف الدارسين فى قصره باصدار الكتاب الكارولنجى Libri-Carolini ليثبت للعالم المسيحى أجمع أن الكنيسة البيزنطية قد استسلمت للهطقة ليس برفض الأيقونات ولكن بعبادتها (٧٢) .

والمعروف أن قرارات نيقية قد رأت ضرورة التمسك بالصورة المقدسة باعتبارها وسيلة للعبادة والصلاة وأدوات مساعدة لتعليم الأميين تاريخ الكنيسة . وكانت هناك تفرقة بين العبادة والتقديس فهذه التفرقة لم تكن مفهومة عند شارلمان ومستشاره الكوين (٧٣) .

فقد ترجمت كلمة Revere التى تعنى التقديس لشارلمان بمعنى عبادة لذلك ثارت ثائثرته ، ورأى أن معنى ذلك هو العودة الى الوثنية مرة أخرى ، فقد قال ان مجمع نيقية وكذلك البابا هادريان قد وافقوا على موضوع عبادة جميع الشعارات ، فهل من الممكن أن صليبا خشبيا يكون مشابها لله كلية « يجب ألا تحطم الصور » كما « يجب ألا تعبد » (٧٤) .

وقد وافق على رأيه هذا ثيودولف والكوين الانجليز ، وأكسحوا جميعا أن مجمع نيقية الذى عقد بالشرق كان خاطئا ، وكان لغضب

(71) Lamb. «Charlemagne» p. 167.

(72) Mauglais «op. cit.» p. 96.

(٧٣) ديفز « شارلمان » ص ١٤٥ .

(74) Lamb «op. cit.» p. 168.

شارلمان الشديد أثره البعيد المدى ، فقد رأى أن البيزنطيين مخادعين ،
والبابا هادريان قد أنقص من قدر نفسه بتصديقه لقراراتهم *

أرسل شارلمان الكتاب الكارولنجي Libri Carolini مع مندوب
من قبله الى روما حيث قدمه الى الكاهن الأعظم فى سلك الاكليوس .
ويحوى الكتاب خمس وثمانون احتجاجا موجهة الى البابا (٧٥) لذلك
اضطر البابا أن يرسل الى شارلمان مندوبين عنه ليحضروا المجمع الدينى
الذى قرر شارلمان عقده فى فرانكفورت سنة ٧٩٤ م ليناقش قرارات
مجمع نيقية *

والمعروف أن البابا قد مثل نفسه فى مجمع نيقية من قبل بارسال
مندوب عنه ، وقد سبق أن وافق على القرارات ، ولكن الكتاب الكارولنجي
ناقش هذا الموضوع وتوصل الى أن المندوب البابوى وقع تحت التهديد
الدينى ، وكل ذلك أراد به شارلمان ومعاونوه أن يثبتوا أن الهرطقة
كانت مقصودة * وأن البيزنطيين كانوا يعبدون الصور كما أرادوا الحط
من قدر قنسطنطين وايرين فى عين العالم المسيحى (٧٦) *

والثابت تاريخيا أن شارلمان اعتبر نفسه محقا فى الدعوة الى عقد
مجمع دينى لمناقشة أمر من أمور العقيدة ، وهذا أمر جديد على أى ملك
من ملوك الجرمان * . وقد قرر مجمع فرانكفورت تحريم عبادة الصور
والرجوع أى عبادة الثالوث الالقدس فقط ، فلذلك ومن أجل الترجمة
اللاتينية الخاطئة لقرارات مجمع نيقية فقد نصب شارلمان نفسه مسئولا
عن الناحية الدينية للأمة المسيحية بقوله « لقد تسلمت من الله فى صدر
الكنيسة حكومة مملكتنا » (٧٧) فشارلمان يعنى بكلمته هذه أنه رئيس
الكنيسة وحاكم للمملكة ، وقد تبين فى مجمع فرانكفورت ان كلا من روما

(75) Pirenne «Mohamed and Charlemagne» p. 230.

(76) Manglais «op. cit.» p. 97.

(77) Lamb. «op. cit.» p. 168.

والقسطنطينية قد وقعتا فى الخطأ الجسيم ، ولا بد من أن تسود عقيدته
الاصلاحية (٧٨) .

أثار مجمع فرانكفورت قضية دينية أخرى ، وهى قضية Filioque
أى « ومن الابن » فقد أنكرت هذه النحلة نظرية مساواة الابن بالآب وهى
عقيدة تعتبر ضرورية للخلاص فى الشرق والغرب معا .

وأصل هذه العقيدة يرجع الى الأساقفة الأسبان ، وقد وصلت هذه
العقيدة الى البلاط الكارولنجى فى اكس لاشابل ، فوجدت لها مناصرا
ومدافعا فى شخص شارلمان ، وكان جل همه من استخدام هذه العقيدة ،
القضاء على عقيدة الأباطرة البيزنطيين ، لذلك وافق مجمع فرانكفورت
رسميا على عقيدة الابن بدون موافقة البابوية (٧٩) ولكى يبين ابتعاده عن
المهرطقة أمر شارل ترتيل مذهب نيقية فى كتيسته الخاصة مضافا اليه
لفظه Filioque التى معناها ومن الابن . هذا التفسير الذى أجمعت
الكنيسة اللاتينية على قبوله ، لم يلبث أن شاع استخدامه فى فرانكيا
قبل أن يرفع أمر صلاحيته الى روما (٨٠) .

(78) Ibid.

(79) Mauglais «op. cit.» p. 97.

(Lamb. «op. cit.» p. 205

(٨٠) ديفز « شارلمان » ص ١٨٨ .

صدى الاحياء الامبراطورى

على الامبراطورة ايرين

كان للجريمة البشعة التى قامت بها ايرين ضد ابنتها قنسطنطين السادس أن ساد الاستنكار جميع أجزاء العالم شرقية وغربية ، وعلى الرغم من أن الأنبياء لم تنتشر عن هذه الجريمة الا فى بطن فان شارل فيما يبدو تلقى أول خبر عنها حين ظهر فى آخن ورسل ايرين حوالى سنة ٧٩٧ هـ ، ومن القصر صارت الأخبار تنتقل فى بطن الى الأقاليم ، ولم تصبح مألوفة الا بعد طرد البابا ليو ، وكأن الحادثين وقعا فى وقت واحد وكان لوقوعهما معا أهمية كبيرة ، فالبابوية والامبراطورية هويتا سويا الى الأرض اذ تطلخت سمعة البابوية بالعار بينما حل بالامبراطورية الدمار •

وقد بدأت ايرين تمارس سلطاتها الامبراطورية كأنها لم تفعل شئ ، ولم تسبب أذى وعجزا لابنتها الوحيد بقية حياته فقد قامت ضدها فى بادئ الأمر ثورتين داخليتين تمكنت من اخمادهما بسهولة ، وقضت على جميع الحركات المناوئة •

بدأت ايرين تصدر المراسيم الامبراطورية موقعا عليها اسمها ، وحاولت أن تجذب اليها قلوب عامة الشعب حتى تقضى على حركات التمرد ، ولتتمكن من جذب الطبقة الدنيا اليها ، لذلك قامت ببناء وتشبيد المؤسسات الخيرية ، والعت كثير من الضرائب المفروضة ، وقامت بتوزيع الأموال والهبات على الفقراء • وحاولت كذلك أن تثبت مكانتها فى قلوبهم وكانت تركب المركبة الذهبية التى يجرها أربع جياذ بيض عند توجهها الى الكنيسة ، فكان هذا المظهر يثير فى نفوس العامة الهيبة الامبراطورية (٨١) •

'(81) Joseph. «op. cit.» p. 98.

وقد حاولت إيرين في بداية عهدها قبل أن يتوج شارلمان امبراطورا أن تتوحد اليه كثيرا لكي تخفف من حدة الجريمة التي ارتكبتها في حق ابنها كما أنها رأت فيه كما رأى العالم الغربي كله في هذه الفترة الشخصية التي فرضت نفسها سياسيا ودينيا .

وفي عام ٧٩٧ م أرسلت إيرين من قبلها مبعوثان بيزنطيان الى اكس لاشابل ، وقد قابلهم شارلمان مقابلته حسنة (٨٢) .

وفي عام ٧٩٨ م أرسلت إيرين مبعوثا من قبلها وهو الاستراتيجوس ميخائيل حاكم صقلية ، توجه الى شارلمان وحمل معه الهدايا والتحيات ، وأوضح له أن إيرين قد سجنّت ابنها وأنه فقد بصره وأقصى عن الحياة السياسية نتيجة لجرائمه ، وأنها تحكم الآن الامبراطورية البيزنطية وحدها ، وترغب في مصادقة ملك الفرنجة (٨٣) .

وقد حاول المبعوث أن يستميل شعب الفرنجة الى إيرين ، فبدأوا يعرضون صور إيرين وهي تتركب المركبة الحربية التي يجرها الجياد البيضاء الأربع ، ويمسك بلجام كل جواد منهم ضابطا من طبقة النبلاء بينما تنتشر هي الصدقات والأموال على الناس . لكن رغم ذلك فلم يهتم شعب الفرنجة ولا المواطنون في اكس لاشابل بهذا الموضوع ولم تثر انتباههم هذه الصور (٨٤) .

أما عن شارلمان الذي كان يقيم في هذه الفترة في بادربون فقد عامل جميع رجال البعثة ورئيسها الاستراتيجوس معاملة طيبة .

ولكن الظروف سارت على عكس ما كانت تتمنى إيرين التي نجحت الى حد ما في إرضاء البابوية وبعض الفئات ، حتى كان يلقبها بعضهم

(82) Deanesly «op. cit.» p. 380.

(83) Lamb. «op. cit.» p. 170.

(84) Deanesly «op. cit.» p. 380.

بلقب « أتقى التقيات » لكنها تعرضت لثورات على الحدود ولحروب لم تتمكن من صدّها مما لطخ سمعتها في التاريخ خاصة في الشرق مع الخليفة هارون الرشيد وفي الشمال مع البلغار كما سنرى^(٨٥) .

وفي هذه الظروف وبينما كان شارلمان ورفاقه يعملون على أن يجعلوا منه حاميا على المملكة المسيحية اللاتينية ليتساوى بذلك مع الامبراطور البيزنطي الذي يعتبر حاميا للكنيسة المسيحية اليونانية ، فان البابوية في روما كانت تدبر لأن تجعل من شارل حاميا بصورة أخرى على المملكة المسيحية كلها فالبطريرك الروماني سوف يتحول الى امبراطور الرومان^(٨٦) .

فالمعروف — كما درسنا — أن البابوية منذ عهد البابا ستيفن الثاني قد عملت على التحالف مع مملكة الفرنجة ، وملكها شارلمان ، حتى جاء البابا ليو الثالث الذي رأينا سياسته مع شارلمان ، وكيف أنقذه من أعدائه الذين تآمروا عليه محاولين قطع لسانه ، وسمل عينيّه ، فرد له الجميل — كما رأينا — بتنصيبه امبراطورا على الرومان في يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م .

والواقع المتعارف عليه بديهيا في هذه الفترة ، انه لم يكن ثمة الا امبراطورية واحدة ، وأنه اذا تولى الحكم امبراطوران أو أكثر فانهم انما يحكمون دولة واحدة ، ومن الخطأ اعتبار أن الامبراطورية الرومانية الغربية سقطت سنة ٤٧٦ م .

وما قام به حستبيان من سياسة حربية ، انما تخفى وراءها فكرة وجود امبراطورية واحدة ، فظلت هذه الفكرة قائمة الى أن تم تتويج شارلمان سنة ٨٠٠ م في روما ، وبذلك قضى تتويج شارلمان على جميع

(85) Romelly «op. cit.» p. 113.

(86) Deanesly «op. cit.» p. 379.

الأفكار التقليدية وصوب خربة قاصمة للمصالح البيزنطية — اذ أن بيزنطة — روما الجديدة ظلت تعتبر حتى ذلك الحين الامبراطورية الوحيدة التي انتقل اليها تراث الامبراطورية الرومانية القديمة ، وعلى أساس هذه الفكرة لم تعتبر بيزنطة تولية شارلمان عرش الامبراطورية لالا عملا من أعمال الاغتصاب .

أما البابوية فكانت تؤمن بفكرة قيام امبراطورية واحدة ، ولم يكن في نيتها اقامة امبراطورية جديدة ، وانما أرادت أن تجعل الامبراطورية التي نشأت حديثا محل الامبراطورية البيزنطية ، اذ أصبح من المسلم به في الغرب أن عرش القسطنطينية يعتبر شاغرا بعد عزل الامبراطور الشرعى قنستنتين السادس سنة ٧٩٧ م^(٨٧) .

لذلك اعتبر شارلمان نفسه عقب تنصيبه امبراطورا انه ليس امبراطورا على مملكة الفرنجة ولكنه امبراطور الرومان ، ولا يعتبر نفسه خليفة لرومولوس أوغستولوس ، ولكن خليفة لليو الرابع وهرقل وجستينيان وثيودوسيوس وقنستنتين الكبير أباطرة الجزء الشرقى^(٨٨) كما أنه يعتبر نفسه وريثا لقنستنتين السادس الذى أقصى عن العرش — وفي رأيه — ربما يكون قد فارق الحياة . فمن وجهة النظر السياسية الغربية أنه لا يسمح لامرأة أن تحكم الامبراطورية^(٨٩) .

لذلك فشارلمان خليفة لقنستنتين السادس لأن الامبراطورية في نظره ونظر البابا ليو الثالث تعتبر وحدة غير قابلة للانقسام وتضم جميع الشعوب المسيحية ، فانها انتقلت اليه كاملة غير منقوصة ، فبفضل ارادة الله ورضى الشعب الرومانى . أما الفكرة الشائعة عن وجود امبراطوريتين

(87) Ostrogorsky «op. cit.» p. 185.

(88) Bury «op. cit.» p.p. 506-507.

(89) Vasiliev «op. cit.» p. 326.

رومانية وبيزنطية ، ولم يلبث أن جرى التسليم بها ، فلم تكن من رأى البلاط الفرنجى (٩٠) .

أما البيزنطيون ، فمن الطبيعى أنهم لم يعتبروا ارتقاء شارل العرش الا محاولة صبيانية لاحداث الانشقاق ، ويختم مؤرخهم روايته فى ازدراء وسخرية « وعلى هذا النحو قضى السيف بين الأم وابنتها ففصل فى غضب سريع الابنة الجميلة روما الجديدة العتيقة التى شاخت وهرمت ووهن تفكيرها » (٩١) .

والوضع المنطقى عند شارل أن يقرر بأن البيزنطيين بقبولهم قرارات نيقية وتساهلهم فى استبداد ايرين فقدوا كل مالكهم من دعوى فى الامبراطورية ، فالواجب الأول المفروض على كل امبراطور وفقها ليمين التتويج هو الحفاظ على وحدة المذهب الكاثولى كما قررته الأنجيل والآباء والمجالس المسكونية ، على أن الحكام المختارين لم يقوموا بهذا العمل بل ارتكبوا أشنع الجرائم ، فأى برهان أسطع من هذا للدلالة على أن الشعب البيزنطى لم يعد كقوا لأن يختار سادة العالم المسيحى فعليهم اذن اما أن يعترفوا بزعامة شارلمان ، واما أن يجرى اعتبارهم ثائرين على الرسوم الكاثوليكية وخارجين عليها .

أما عن الامبراطورة ايرين نفسها وبجانبها مستشاريها وحكومتها البيزنطية فقد نظروا الى حادث التتويج على أنه لا يخرج عن أى محاولة للثورة على الحكومة الشرعية فى القسطنطينية ، لكن أخذتهم الرهبة من شارلمان الذى ربما يفعل مثل غيره ويحاول أن يتقدم لغزو القسطنطينية فى الظروف السياسية الخارجية السيئة التى يمر بها .

(٩٠) ديفز « شارلمان » ص ١٨٥ .

(٩١) المرجع السابق نقلا عن

Constantine Mauasses «Bouquet, Scriptorum» p. 398.

وربما يقوم باقصاء أيرين عن العرش ويستولى على التاج الامبراطوري بالقوة (٩٢) .

لذلك رفضوا الاعتراف نهائيا بتتويج شارلمان وثاروا ثورة كبيرة على هذا الوضع ، ولم يحرك موقف ايرين ساكننا عند الشعب الملاتيني في الغرب لانهم شعروا ان ايرين امرأة سيئة السمعة تولت مقاليد الأمور بطريق غير شرعى ، وتصور شارلمان انه يستطيع بسهولة بتتصيبه امبراطورا الحصول على اعتراف من البيزنطيين بحكمه بأى طريق شرعى أو غير شرعى حتى لو كان طريق الرشوة (٩٣) .

كما حاول البطريك ستاراكىوس وأتيوس ورجال السفناتو والجيش البيزنطى أن يظهرُوا شارلمان على أنه رجل بربرى غير متعلم لا يليق بهذا المنصب ، وليس له شرعية تولى الامبراطورية الرومانية (٩٤) .

وايرين فى هذه الفترة كانت فى ظروف لا تحسد عليها فقد كانت عند وصول اخبار تتويج شارلمان امبراطورا تعاني من حالة مرضية ، وقد نقل إليها هذه الأخبار رجالها المخادعون ، فشجرت باهانة كبيرة وبأن مركز الامبراطورية البيزنطية ، قد ضرب ضربة قوية ، لأن جميع البيزنطيين — كما ذكرنا — يعتبرون الامبراطورية وحدة واحدة غير مجزأة ، وأن مطالبة شارل بالامبراطورية يعتبر اغتصاب للعرش (٩٥) .

أما الظروف الأخرى التى كانت تمر بها ايرين فهى هزائم جيشها المتكررة ، وفى الجبهة الشرقية استمرت ايرين تدفع الجزية السنوية المقررة عليها بحوالى سبعين ألف دينار للخليفة هارون الرشيد . ولكن السلام لم يستمر طويلا ، فنشب القتال من جديد بين الفريقين ، وذلك

(92) Vasiliev «op. cit.» p. 326.

(93) Stephenson «Medieval history» p. 153.

(94) Lamb. «op. cit.» p. 179.

(95) Deanesly «op. cit.» p. 387.

لعدم احترام البيزنطيين للهدنة المعقودة مع المسلمين ، فاضطرت ايرين
أن تريد من مقدار الجزية التى تدفعها •

أما فى الجبهة الشمالية مع البلغار فقد توالى هزائم البيزنطيين
أمام البلغار مما دفعهم الى دفع الجزية ، غير أن الصلح لم يستمر
طويلا بسبب اصرار البلغار على زيادة ما تدفعه بيزنطة من الجزية ، فلم
يسعها الا أن تدفع ما طلبه البلغار صاغرة ، وذلك يدل على ما بلغت به
الدولة من الذلة والمهانة بعد أن كانت لها مكانة مرموقة زمن قسطنطين
الخامس (٩٦) •

وهناك ظروف داخلية شديدة جعلت ايرين تشعر بالأسى وهو
الصراع الذى دار داخل القصر الامبراطورى بين وزيرها ستاركيوس
وأتيوس •

والمعروف أن الأول قد ترك العمل فى السلك الكهنوتى ، وفضل
العمل مع ايرين التى رفعتة الى أعلى الدرجات وضربت به كثير من رجال
الدولة اللاتقنيين وقد بلغ الصراع بين الرجلين الى درجة أنها لم تجد
حلا لذلك •

وقد تحقق لها حسم الموقف عام ٧٩٩م عندما شعرت بالمرض الشديد،
فانتهاز ستاركيوس فرصة بعدها عن السياسة ودبر محاولة لانتقاذ
ابنها المسجين محاولا اعطائه السلطة التى سوف تشاركه فيها زوجته
ثيودوت التى رافقته فى مجنته • وعندما شفيت ايرين اكتشفت المخطط
لذلك عقدت مجمعا دينيا أدانت فيه ستاركيوس الذى ما لبث أن توفى
وأحلت محله فى جميع المهام السياسية زميله ومنافسه اتيوس (٩٧) •

(٩٦) الباز العرينى « الدولة البيزنطية » ص ٢٠٠ — ٢٠١ •
(٩٧) Joseph. Mc. Cape. «op. cit.» p. 98.

الفصل الخامس

محاولات الوفاق بين الامبراطوريتين
البيزنطية والرومانية الغربية

- * فتح باب المفاوضات مع الامبراطورة ايرين ٠٠
- * مشروع الزواج بين ايرين وشارلمان
- * الاطاحة بايرين على يد نقفور سنة ٨٠٢ م
- * استئناف المفاوضات زمن نقفور
- * فشل المفاوضة
- * مقتل نقفور على يد البلغار ٨١١
- * استئناف المفاوضة زمن ميخائيل رانجابهيه
- * ارسال مبعوثين بيزنطيين الى آخن
- * اعتراف البيزنطيين بشارلمان امبراطورا سنة ٨١٢ م ٠

الفصل الخامس

محاولات الوفاق بين الامبراطوريتين

البيزنطية والكارولنجية

كان شارلمان مقتنعا في قرارة نفسه ، ووفقا للايدولوجية السياسية المعاصرة أن تنصيبه امبراطورا للرومان لا يكتسب صفته الشرعية الا باعتراف الامبراطورية البيزنطية ، وهي التي تمثل الشطر الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، ورأى شارلمان أنه من الممكن أن يقوم البيزنطيون بعزل الامبراطورة ايرين ، وينصبوا بدلا منها امبراطورا رجلا ، وبذلك ينتفى السبب الذي بنى عليه البابا وشارلمان معارضتهم لحكم امرأة للامبراطورية الرومانية ، ثم تحتدم المشكلة وتتعرض ولا يتمكن من فرض سلطانه الامبراطوري على العالم الروماني⁽¹⁾ .

ورأى شارلمان كذلك أن دخوله في حرب ضد البيزنطيين سيؤثر على مركزه كملك على اللومباردين ، لذلك تجاهل في الخمسة شهور الأولى من نتويجه موضوع الاتصال بالدولة البيزنطية ، وبعد ذلك بدأ يفكر في وسيلة جديدة يستطيع بها الحصول على الاعتراف بتتويجه من الامبراطورة ايرين⁽²⁾ .

لذلك اتفق شارلمان والبابا ليو الثالث على ضرورة فتح باب المفاوضات مع ايرين ، وافتهاز فرصة وجودها للحصول على اعتراف رسمي بتنصيبه امبراطورا ، ففكروا في عقد زواج سياسى يجمع بين الشطرين الغربى

-
- (1) Vasiliev «op. cit.» p. 327.
Ostrogorsky «op. cit.» p. 186.
Deanesly «op. cit.» p. 387.
(2) Lindsay J. «op. cit.» p. 390.

والشرقى ، فيتزوج شارلمان من ايرين ، وبذلك يتحد الشطرين ويصبح شارلمان رسميا امبراطورا على العالم الرومانى كله^(٣) .

والواقع أن فكرة ربط الشرق بالغرب عن طريق الزواج السياسى سبق وان فكر فيه ملوك الفرنجة وأباطرة البيزنطيين من قبل بدءا من جيزلا Gisla ابنة بيبين القصير الى روترود ابنة شارلمان . والآن أصبح التفكير فى الامبراطورة البيزنطية ايرين نفسها .

لذلك أعد شارلمان بعثة دبلوماسية من رجال القصر ، وممثلين عن البابوية وتوجهوا فى سنة ٨٠٢ م الى البلاط البيزنطى ليعرضوا على الامبراطورة مشروع الزواج من شارلمان .

وتضاربت أقوال المؤرخين فى حقيقة شعور شارلمان من ناحية هذا الزواج ، فقد ذكر بعضهم بأنها كانت امرأة عجوز دميعة الخلقة لذلك فان زواجه منها سيكون اضطرارا للدافع السياسى فقط وبعضهم قال انها امرأة ساحرة الجمال ، وعلى أى الأحوال ، فان نتائج هذا العرض كان معلوما مسبقا لشارلمان ، وهو أن الشعب البيزنطى لن يرضى مطلقا بأن يتزوج عليه ملكا من سلالة الفرنجة^(٤) .

أما عن رأى ايرين الشخصى ، فقد قابلت هذا العرض بسعادة بالغة وبقي أعضاء البعثة فترة بالقسطنطينية ، وأرسلت ردها على الامبراطور شارلمان مع مندوب من قبلها يدعى ليوس سباثياريوس Leo-Spathiarius ليعلن له موافقتها الشخصية^(٥)

ساد رأى مضاد لرأى ايرين داخل القصر ، كان يحاول أن يفسد العرض فقد حاول الطواشى اثيوبسى الذى تولى السلطة — كما ذكرنا

(٣) Theophanes «op. cit.» p. 475.

Lindsay J. op. cit.» p. 390.

(٤) Lamb. «op. cit.» p. 179.

(٥) Deanesly «op. cit.» p. 387.

بعد ستاركايوس ان يزوج ايرين من قريبه نكيتاس قائد الحرس^(٦) .

طال انتظار رجال البعثة فى القسطنطينية ، وأثناء تواجدهم قامت ثورة فى داخل القصر قادها نقفور أمين الخزانة .

ففى مساء ٣١ أكتوبر سنة ١٨٠٣ م وبينما كانت ايرين ترقد مريضة فى قصر الاليوتيزيان Euthertian طرق بابها مجموعة من النبلاء والضباط بعد أن غافلوا حراسها ، وهناك أبلغوها بالثورة وطلبوها بالتنازل عن الحكم ، واستولوا على ممتلكات القصر وأحاطوه بالحراس .

وفى فجر هذا اليوم توج نقفور فى الكنيسة امبراطورا . والعجيب أن عامة أهل القسطنطينية الذين شملتهم أيرين بسخائها وعطفها وبرها تجمعوا فى الميدان العام ، وصبوا اللعنات على نقفور والأسقف ايتوس فظلوا يهتفون باسم ايرين^(٧) .

وصل نقفور الى حجرة ايرين فتوسلت اليه أن يبعثها تقضى بقية حياتها فى مقر الايثوريان ، فطلب منها نقفور فى مقابل موافقته على هذا الطلب أن تقسم على الصليب وتذكر له جميع الأماكن التى توجد بها كنوز ومقتنيات القصر ، وهذه الكنوز كانت مخبأة ومفرقة فى عدد من قصور القسطنطينية ، حتى انهم اضطروا الى الاستعانة بقسطنطين السادس الأعمى ليدلهم على المائت الذى أخفوا فيه الكنوز عندئذ نقلوها شبه سجينة الى دير كانت قد شيدته من قبل فى جزيرة الأمراء ، « وهى مجموعة من الجزر الصغيرة المواجهة للقصر على بحر مرمرة » ، وبعدها انتقلت الى جزيرة لسبوس ، ولم تمكث الا مدة قصيرة حتى توفيت فى ١٩ أغسطس سنة ٨٠٣ م^(٨) ويومها طويت صفحة فى التاريخ

(6) Joseph. Mc. Cape. «op. cit.» p. 99.

(7) Ibid.

(8) Joseph. Mc. Cape. Ibid. p.p. 99-100.

Ostrogorsky «op. cit.» p. 186.

البيزنطى ، وانتهى حكم أسرة حكمت زمنا طويلا تحت اسم الأسرة
الأيسورية •

استئناف المفاوضات السياسية مع شارلمان

زمن نقفور وميخائيل الأول رانجابه

تقلد نقفور العرش البيزنطى فى ظروف سياسية متقلبة من الداخل
والخارج ، ففى الداخل توترت العلاقات بين حزب الرهبان وبين
السلطتين الكنسية والحكومية ، لا سيما بعد أن عين الامبراطور فى كرسى
البطيركية العالم المؤرخ نيقفورس عقب وفاة تاراسيوس فى ٢٥ فبراير
سنة ٨٠٦ م •

اشتهر البطيريك نيقفورس بما اشتهر به تاراسيوس من التعمق فى
العلوم الدينية والدنيوية ، بل انه فاق تاراسيوس فى كونه مؤرخا
ومؤلفا ، اذ ألف مجموعة من الكتب دافع فيها عن الصور المقدسة ويتفق
نيقفورس مع تاراسيوس فى أن كلا منهما كان من كبار موظفى الحكومة
قبل أن يتولى كرسى البطيركية ، والتزم كل منهما فى سياسة الاعتدال ،
على أن تعيين أحد العلمانيين فى كرسى البطيركية ولد المرارة والسخط
عند رجال الدين المتعصبين ، فقد رأوا أن زعيمهم الدينى ثيودور أحق
بهذا المنصب من الآخرين (٩) •

أما فى الخارج فقد استمرت الحروب على الجبهات الشرقية
والشمالية فقد امتنع نقفور عن دفع الجزية وأرسل رسالة شديدة اللهجة
الى هارون الرشيد فى يولييه سنة ٨٠٣ فرد عليه هارون الرشيد برسالة
وصفه فيها بأنه « كلب الروم » وجهز قواته على الحدود (١٠) ونكاية فيه
دارت اتصالات سياسية بين شارلمان وهارون الرشيد •

(9) Ostrogorsky «op cit.» p. 187.

(10) Romelly «op. cit.» p. 119.

ويرى الأستاذ بكثر « أن ما دفع نقفور بعد ذلك الى تسوية الأمور مع شارلمان يرجع الى أن الحكومة البيزنطية ساورها الشك في قيام تحالف بين هارون الرشيد أو على الأقل حدث شيء من التفاهم بين آخن وبغداد » (١١) .

وأما بالنسبة للجبهة الشمالية ، فقد تولى عرش البلغار ملك اشتهر بالقوة والمكر هو الملك كروم Krum ووجوده على العرش أقلق البيزنطيون لذلك دارت بينهم المعارك الطاحنة التي أدت الى نهاية حياة نقفور .

ومن أهم الأحداث الخارجية التي شملت بالي نقفور موشسوع المفاوضات الذي بدأها شارلمان ملك الفرنجة أيام ايرين ، فكان لابد من استئنائها حتى توضع الأمور في وضعها الصحيح .

لكن نقفور كان عنيدا ورفض الدخول في مفاوضة مع شارلمان رغم أن أساسها كان مخالفة نقفور على أن تبقى الامبراطورية وحدة واحدة لا تنجزاً من حيث الفكرة مثلما كانت أيام دقلديانوس على أن يحكمها أشخاص عذيدون (١٢) .

رفض نقفور هذه الشروط لذلك شن شارلمان حربا بحرية قوية على الشاطئ الدلماشي ، فطلبت البندقية ودلماشيا « التابعتين للبيزنطيين » من شارلمان أن يحميهما من أخطار البيزنطيين ، فسارع شارلمان لتجديتهما وجعل قيادة الحملة لابنه بين سنة ٨٠٩م (١٣) .

نجح بين في تحقيق الهدف العسكري والسياسي من هذه الحملات ورغم ذلك فضل نقفور الاستمرار في المعارك الحربية على الدخول في مباحثات مهينة مع شارلمان (١٤) .

(11) Bukeler «op. cit.» pp. 23 — 24.

(12) ديفز « شارلمان » ص ١٨٦ .

(13) Romelly «op. cit.» p. 121.

(14) Deanesly «op. cit.» p. 387.

والحقيقة أن نقفور كان مخطئا في دخوله الحرب الخاسرة مع شارلمان فلم تكن هذه المعارك متكافئة ، وكان من الممكن أن يحصل على مكاسب كبيرة اذا عقد صلحا مع شارلمان ومن أهم هذه المكاسب ربما استعادة البندقية وايستريا ، وأن يجعل من فرانكيا حدا غربيا يقف أمامها مطامع البلغار^(١٥) .

لكن نقفور كان عنيدا ، ونتيجة لعناده ضاعت البندقية وأصبحت تابعة لشارلمان ، مما دفع نقفور الى الموافقة على الدخول في المفاوضات مع شارلمان . لذلك أرسل البعوثين سباسياريوس Spathiarius وأرسافوريوس Arssafius الى شارلمان في أكتوبر من هذا العام في مدينة آخن ، فاستقبلهم شارلمان استقبالا حسنا .

وقد عرض المبعوثون على شارلمان رغبتهم في الصلح ، فقدم لهم مشروعا بأن يتنازل لهم عن البندقية ، والسواحل الدالمانية وناقلو وكالابريا وصقلية . على أساس اعتراف البيزنطيين به امبراطورا وعلى أن يكون على قدم المساواة مع الامبراطور البيزنطي ، لذلك رغب نقفور هذه الشروط^(١٦) ، والغيت المعاهدة . وذلك لأن البيزنطيين كانوا يرفضون أن يطلق لقب « امبراطور الرومان » على أى شخصية من غير البيزنطيين^(١٧)

والحقيقة أن شخصية نقفور كانت متشددة ، وكان يفكر في أن يطيل الصراع مع شارلمان ، ولا يحقق له غرضه في أى اعتراف به ، ولكن الظروف كانت ضد رغبة نقفور .

فبالظروف السياسية التي صادفت نقفور في البلقان جعلته لا يستطيع أن يستمر في نضاله مع الغرب .

(15) Rómelly «op. cit.» p. 121.

(16) Mauglais «op. cit.» p.p. 99-100.

(17) Ostrogorsky «op. cit.» p. 199.

وفي هذه الفترة اشتدت الأزمة البلغارية بهجوم كروم ملك البلغار على الحدود البيزنطية لذلك قرر نقفور تأديبه ، فخرج اليه في حملة عبر السفوح والجبال • فطلب كروم منه الصلح الا أن نقفور أصر على تأديب كروم ، فتقدم بقواته حتى قارب العاصمة البلغارية • الا أن كروم ، وأتباعه لجأوا الى الجبال وباغتوا البيزنطيين ولقى نقفور مصرعه في هذه الحرب (١٨) •

وفي المعركة التي قتل فيها نقفور أصاب ابنه ووريثه في الحكم ستوراكيوس جراح شديدة ، غير أنه استطاع أن يهرب مع بعض أتباعه الى أدرنه وهنا جرت المناقشة به امبراطورا لما له من أهمية في الحكم ولهذا الاجراء أهميته الرسمية والدستورية على الرغم من أنه لم يكن ثمة أمل في شفاء ستوراكيوس • وأما التسوية النهائية فانها تمت بالقسطنطينية حيث جرى نقل ستوراكيوس اليها ليقوم — برغم اصابته الخطيرة — بتتويج من يخلفه على الحكم • ولما لم يكن لاستراكيوس ابن يرثه في الحكم فمن الطبيعي أن يتولى العرش أقرب الناس اليه وهو صهره ميخائيل رنجابي (١٩) •

ميخائيل رانجابهيه •• ومفاوضات شارلمان : ٨١١ — ٨١٣ م •

أجمع المؤرخون على أن هناك اختلافا كبيرا في المواصفات الشخصية بين كل من نقفور وخليفته ميخائيل رانجابهيه فقد كان ميخائيل شخصية ضعيفة ، لم يتمكن من أن يصمد أمام الصعاب الداخلية والخارجية التي قابلت سلفه ، الى جانب أنه وقع تحت تأثير شخصيات عديدة داخل الدولة (٢٠) •

(18) Bury «History of the Eastern Roman Empire» p. 342.

(19) Ostrogorsky «op. cit.» p. 200.
Vasiliev. p. 327.

(20) Ostrogorsky «op. cit.» p. 199.

والمعروف أن نقفور قد رفض العرض الذى قدمه شارلمان لاستئناف المفاوضات للاعتراف به امبراطورا للرومان الى جانب أن الامبراطور نقفور منع البطريرك نقفور من أن يرسل للبابا قرارات المجمع على ما جرت به العادة ، وظهر العداء الصريح لشارلمان وللبابوية (٢١) .

ولكن عندما تقلد ميخائيل الحكم أرسل الى شارلمان مبعوثين يحملون اعترافا رسميا مكتوبا باللغة اليونانية وذلك مقابل الموافقة على نفس شروط المعاهدة التى سبق أن عرضها شارلمان على مبعوثي نقفور من قبل (٢٢) .

ويرى الأستاذ بكلر أن ما أصاب نقفور من خيبة أمل فى القضاء على التناهم الودى بين هارون الرشيد وشارل هو الذى أرغم آخر الأمر ميخائيل رانجابه على أن يعترف بشارلمان امبراطورا (٢٣) .

وقد أيد اينهارد « مؤرخ حياة شارلمان » هذه الأحداث بقوله « ان أباطرة الدولة البيزنطية : نقفور وميخائيل ، وليو حاولوا أن يعقدوا علاقات صداقة وتحالف مع شارلمان ، فأرسلوا اليه عدة سفارات حتى انه فى أثناء الفترة التى كان اليونانيون « البيزنطيون » يشكون فى أن شارلمان كان يعد للاستيلاء على الامبراطورية منهم لأنه حصل على اللقب الامبراطورى ، فانهم عقدوا تحالفا قويا معه حتى لا يجد سببا فى الهجوم عليهم أو الاستيلاء منهم . وفى الحقيقة أن قوة الفرنجة كانت موضع حسد وحقد البيزنطيين والرومان لأن الحكمة البيزنطية تقول اجعل الفرنجة أصدقائك ولا تجعلهم جيرانك » (٢٤) .

(21) Ibid p. 198.

(22) Mauglais «op. cit.» p.p. 99-100.

(23) Bukeler «op. cit.» p. 27.

(24) Einhard «op. cit.» p. 43.

وبذلك نرى أن عهد ميثائيل رانجاييه وضع نهاية للمفاوضات التي استمرت بين البيزنطيين وشارلمان ما يقرب من اثنتى عشرة سنة . وحصل شارلمان من المبعوثين البيزنطيين على اعتراف رسمى به امبراطورا ، فقد نعيوه على أنه *Basilieus* أى امبراطورا على الرومان باللغة اليونانية (٢٥) .

وذكر مؤرخ الحوليات الألماني هذا الحدث بقوله :

ان المبعوثين البيزنطيين وهم أسقفوا واثنان من الدبلوماسيين هما ثيوغنوتوس *Theognatius* وأرسافىوس *Arsaphius* توجهوا الى الكاتدرائية الكبرى فى آخن وقرروا كما ذكر باللاتينية «*Scriptum Pacti ab eo Charles in ecclesia Suscipientes Mare Sua*» «*id est Graeco Linguo Landes ei Dixerunt Imperatorem eum et Basiteum Appellantes*».

فقد أصبح هناك اثنان من الأباطرة للامبراطورية الرومانية (٢٦) . وبذلك نرى أن اعتراف المبعوثين البيزنطيين بشارلمان فى آخن على أنه باسيليوس أعطى شرعية وقانونية لتعيينه امبراطورا عام ٨٠٠ م ومنذ عام ٨١٢ وما بعده أصبح هناك امبراطوران على الرغم من الحقيقة التى تقول بأنها ستظل امبراطورية واحدة (٢٧) .

ويرى الأستاذ ليندساي *Lindsay* أن عام ٨١٢ يعتبر تاريخا هاما بالنسبة لشارلمان ، فهو التاريخ الذى حدد فيه مركزه الامبراطورى فمئذ هذا الوقت ، وبعد اعتراف البيزنطيين به أصبح امبراطورا على الامبراطورية الرومانية الغربية ، وأعادها للوجود مرة أخرى (٢٨) .

(25) Eastan. «The Era of Charlemagne» p.p. 130-132.

انظر الوثيقة الخاص بالاعتراف بشارلمان نهاية الكتاب

(26) Romelly Jenkins op. cit.» p. 127.

(27) Vasiliev «op. cit.» p. 377.

(28) Lindsay «op. cit.» p. 390.

أما المؤرخ بيورى فيذكر أن ما حدث سنة ٨١٢ م أحيا نظريا
الوضع الذى كان معمولاً به فى القرن الخامس ، ميخائيل الأول وشارلمان
وليو الخامس ولويس التقي يقفون أمام بعضهم مثلما كان أركادىوس
مع هنريوس وفالنشيان الثالث مع ثيودسيوس الثالث ، فقد أصبحت
حدود الامبراطورية الرومانية تمتد من حدود أرمينيا الى شواطئ
الأطلنطى (٢٩) .

الباب الثاني

نظام الحكم بالادارة فى الامبراطوريتين

البيزنطية والكاروانجية

الفصل الأول

نظام الحكم والادارة فى الدولة البيزنطية
على عهد الدولة الأيسورية

- * سلطات الامبراطور
- * التقسيم الادارى
- * كبار المعاونين
- * القوانين والتشريعات فى عهد الأيسوريين
- * الاكلوجيا
- * قانون الفلاح
- * القانون البحرى الرومى
- * قانون الجند
- * الجيش البيزنطى – البحرية
- * النظام النقدى *

الفصل الأول

نظام الحكم فى الامبراطورية البيزنطية

تعتبر الامبراطورية البيزنطية - كما قدمنا - هى الوريث الشرعى للامبراطورية الرومانية المقدسة • والواقع أن التنظيم السياسية التى سادت الامبراطورية الغربية انتقلت الى العالم الشرقى بانتقال الأباطرة اليه ، فأصبحت بذلك استمرارا للماضى واستكمالا له •

كان الامبراطور هو الرئيس الأعلى للامبراطورية ، له السلطة التشريعية كما أنه القائد الأعلى للجيش البيزنطى الى جانب أنه الرئيس الدينى والكنسى •

والمعروف أن الامبراطور فى الامبراطورية الشرقية كان يطلق عليه لقب Basilieus ، وذلك لاصطباغ الجزء الشرقى من الامبراطورية بالصبغة الهلينية^(١) •

وكان الامبراطور البيزنطى يحكم لامبراطوريته حكما لا نستطيع أن نطلق عليه حكما استبداديا دكتاتوريا ، لأنه كان يعتبر حقيقة ممثلا لشعبه ومعبرا عن ارادته لأن هذا الشعب كان له الحق فى تعيينه لهذا المنصب •

ويرى الأستاذ « نورمان بينز » أن جميع السلطات النافذة داخل حدود الامبراطورية الرومانية جمعت فى شخص الامبراطور وهو مصدرها الأوحد الا أن هذه العبارة لا تعبر تعبيرا كاملا عن رأى الرومانى فى الامبراطور •

(1) Diehl. «Byzantium, Greatnes and Decline». p. 39.

فلم يكن الامبراطور « ملك الملوك » Basileus « كما كان يسمى رسميا به دسقوط الامبراطورية الفارسية التي كان حاكمها المنازع الوحيد له على هذا اللقب » مجرد حاكم للمولايات الخاضعة لروما ، فكما قال المسيح انه وارث هذا العالم وخلق نائبه أن يدعى ادخال العالم في دائرة ملكه أليس هو الآخر مخلصا للعالم (٢) .

والآن لا بد لنا أن نعرف كيف كان يصل الامبراطور الى السلطة ؟ الحقيقة أن السناتو والجيش والمشعب كان لهم الحق في انتخاب الامبراطور أما ونحن نعالج نظام الحكم في العصر الأيسوري ، فلا بد لنا أن نعرف كيف تقلد أول امبراطور لهذه الأسرة عرش البلاد .

كان تقليد ليو الثالث الأيسوري ٧١٧ — ٧٤١ م عرش الامبراطورية يعتبر تقليدا عسكريا أي أنه حصل الى هذا المنصب بفضل الجيش الذي كان صاحب سلطة شرعية في تعيين الامبراطور .

ويرجع أصل ليو الثالث الى اقليم ايسوريا بجنوب شرقي آسيا الصغرى وكان لتعيينه قائدا على ثغر الأناطوليك في عهد أليستاسيوس الثاني أن فكر في الوصول الى الحكم خاصة وأن الدولة البيزنطية في هذه الفترة كانت تتلقى الضربات في أكثر من جبهة وأهمها الجبهة الاسلامية (٣) .

بدأ ليو تحديه السافر للامبراطور ثيودسيوس بعد أن بدأت الحملات الأموية الاسلامية بقيادة مسلمة بن عبد الملك تواجه الثغور البيزنطية . فكان لصمود ليو ، وانتصاره أكبر الأثر في قهر قوى ثيودسيوس الذي فر من ثغر الأرمنياك الى نيقومديا حيث قبض عليه .

(2) Baynes N. «The Byzantine Empire» p. 76.

(3) Ostrogorsky «op. cit.» p. 138.

فتنازل عن العرش لليو الذى نادى به الجيش والشعب امبراطورا فى ٢٥ مارس سنة ٧١٧ م^(٤) .

كان النظام المعمول به فى البلاط البيزنطى أن تنصيب الامبراطور لا يكتسب صفته الشرعية الا بعد تتويج البطريرك المسيحى له . وذلك ليصبح ممثلا شرعيا للحكومة البيزنطية المسيحية .

وكان التتويج الكنيسى يتم فى كنيسة القديسة صوفيا ويشهده رجال السناتو وممثلو الجيش والشعب الذين يهتفون للامبراطور الجديد داخل الكنيسة وخارجها^(٥) وكان القوم يحسون أن التتويج يمنح الامبراطور مكانة الهيبة ككاتب لله جلست قدرته على الأرض ، كما كان الامبراطور يشعر شعورا قويا أنه رأس الكنيسة المسيحية . فقد كتب ليو الأيسورى للبابا يقول « انى امبراطور وقس » وأدعى أنه الوكيل « الذى أمره الله أن يطعم قطيعه » ووافق البابا على ذلك ما دام الامبراطور مقيما على مذهب السلف القويم^(٦) كما أن الامبراطور كانت له سلطة تعيين البطريرك ، حيث كان يتم تعيينه بواسطة هيئة الأساقفة ، وكان يعتبر نائبا للامبراطور ، ومن حقه عزله^(٧) . ومن مراسيم التعيين ضرورة تتويج زوجة الامبراطور كامبراطورة ويتم ذلك فى احتفال خاص .

يلى الامبراطور فى السلطة السناتو الذى لم يكن له نفس الصفة الرومانية القديمة ، وكان يتكون من جميع أرباب الوظائف والرتب الحاليين والسابقين الذين هم فوق مستوى معين ثم من ذرياتهم، فكانه كان بذلك هيئة غير محدودة الشكل تجمع بين ذوى النفوذ وأهل الثراء وأرباب المراكز ذات المسؤولية فى الامبراطورية .

(4) Ibid.

(5) Bury «Selected, Essays» p. 114.

(٦) رنسمان « الحداثة البيزنطية » ص ٧٠ .

(7) Bury. Ibid.

وكانت السلطات الفعلية للسنانو غير محددة ، وكان أعضاء طبقة رجال السنانو يستمتعون بحقوق ومزايا معينة ينص عليها القانون الرومانى القديم . ويعتبر السنانو هيئة شبه دستورية تعبر عن آراء أغنى عناصر الدولة وأقواها .

وبذلك اعتبر أخطر هيئات الدولة الدستورية خاصة اذا كان الامبراطور ضعيفا .

ومع أن انتصار ليو الثالث الأيسورى كان يمثل انتصار الأرستقراطية فإن ليو نفسه كإمبراطور لم يسمح للسنانو بأى تدخل فى شئون الدولة حتى ضعفت سلطاته ، وقام بإلغائه نهائيا ليو السادس ٨٧٠ بـ ٨٨٦ م (٨) .

كان هناك مجلسا صغيرا يساعد الامبراطور فى قراراته وهو منبثق من السنانو ومتفرع منه ، الى جانب وزير للخارجية الامبراطورية ، وهو مستشار ووزير يتصل اتصالا وثيقا بالامبراطور ، ويقابله يوميا . ورغم ذلك فكانت سلطاته الخارجية محدودة لتدخل الامبراطور فى معظم هذه الامور . ومن واجبات المستشار اعداد الترتيبات اللازمة لاستقبال السفراء الأجانب وتجهيز البعثات السياسية الامبراطورية الى بلاط الملوك الأجانب واختيار أفرادها (٩) .

وفى القرنين الثامن والتاسع اللذان نحن بصدد دراستهما نرى أن الامبراطورية البيزنطية كانت مقسمة اداريا الى خمس وعشرين لواء منقسمين الى قسمين شرقى وغربى . الأول مكون من الإلوية « الثيمات » البحرية وهما مقاطعتا كينرهايوت وساموس البحرىتان على شاطئ بحر ايجه .

(٨) رنسمان « المرجع السابق » ص ٧٨ — ٧٩ .

(٩) Theophanes «op. cit.» p. 378.

(١٠) Baynes «op. cit.» p.p. 146-147.

وكانت الطائفة الثانية مكونة من الألوية الأوروبية بما فى ذلك الألوية البحرية وهى خيرصون «القرم» ودلماشيا وصقلية وكان قواد الطائفة الأولى «Strategi» يتناولون من الحكومة المركزية راتبا ثابتا ولهم مرتبة تعلو مراتب الطائفة الأخرى التى كان أصحابها يتناولون مرتباتهم من الضرائب المحلية • وكان للقائد العسكرى Strategos لمنطقة خيرصون مرتبة خاصة انفرد بها ، وكان رئيسهم جميعا وهو قائد لواء الأناضول الذى خلفت وظيفته وظيفة سيد الجند *Magister Militum* للشرق ، وكانت له على الدوام مرتبة وأسبقية خاصة وكان فى القرن الثامن وأوائل التاسع صاحب النصب العسكرى الرئيسى (١١) •

وكان ديوان القائد العام به أحد عشر طبقة من الموظفين لمساعدته فى شئون الحكم المدنية والعسكرية ، ولم يكن للضباط العسكريين دور فى الإدارة بل ان الذين هيمنوا عليها هم القضاة والكتاب •

وأهم شخصية فى الولايات هو والى المدينة *Prefect* فهم أعلى شخصية بعد الامبراطور ويعد نائبا له على المدينة والمسئول عن القانون والنظام ، ومن واجبه الاشراف على جميع ألوان النشاط التجارى بالمدينة ، كتثبيت الأسعار والأجور وساعات العمل والترخيص بفتح الدكاكين الجديدة ، ومراقبة تنفيذ القوانين الاضافية الخاصة بالصادرات وكان عليه أن يتحقق من مراعاة الناس ليوم الأحد الرعاية الواجبة (١٢) •

كان ديوان الوالى ينقسم الى قسمين قسم يتولاه محكم *Synodus* بيده ضبط شئون النقابات والاشراف على تنفيذ مختلف التعليمات واللوائح التجارية والواجبات المدنية الملقاة على عاتق السكان وقسم يتولاه مستشار دار الوالى الذى كان موكلا بشئون القضاء والسجون •

(١١) رنسمان « المرجع السابق » ص ٩٩ وما بعده • نقلا عن
Bury «Imperial administration System» p.p. 69-70.

(١٢) العرينى « والى المدينة » ص ٥٨ •

وكان كل من القسمين مزودا بهيئة من الموظفين كافية ومنوعة .
 وكان يساعد والى المدينة فى عملة الكويستور الذى كان يجمع بين وظيفة
 الكويستور باختصاصها القديم وبين نظيره فى عهد جستينان ، وكانت
 بعض اختصاصاته تشريعية حيث كان يعد مشروعات القوانين الجديدة
 كما كان رئيسا لمحكمة الاستئناف فى القضايا المقامة ضد الحكام والنبلاء
 كما كان من ناحية أخرى الوكيل العام للشعب وعليه ختم الوصايا وفضها
 وتولى تنفيذها والاشراف على ادارة أملاك القصر (١٣) .

أما عن الناحية المالية ، فكانت تحت امره عدد من الدواوين يرأسها
 وزير المالية الذى قام ليو الأيسورى برفع مرتبته بين غيره من العاملين
 فى الامبراطورية ، وكان تحت رئاسته عددا كبيرا من الموظفين ومن
 الوظائف الهامة أيضا منصب مراقب الخيول والبريد
 Logothete of the Dromus الذى كان مديرا عاما للبريد ورئيسا
 لوزارة الخارجية ، كما كان يهيمن على الرسائل المتبادلة بين الامبراطور
 وغيره من الوزراء .

وكانت الوظائف ألبحيطة بشخص الامبراطور والامبراطورة ،
 والمتصلة بالخدمة فى القصور يحتفظ بها للحضيان . وكان لكل قصر
 كبير معاونيه الذى يتبعه معاون ثان مهمته الاشراف على ثياب الحفلات
 وعلى أثاث البلاط ، ولم يقيم أحد، بذكر عدد صغار الموظفين فى
 الامبراطورية وواجباتهم ، وكان للامبراطور والامبراطورة مشرفون على
 المائدة وعلى خزانات الملابس ، على أن كبير الحضيان كان كبير الأمناء
 Para Coemomenus الذى صار فى أواخر القرن التاسع وأثناء
 العاشر الوزير الأكبر فى الامبراطورية (١٤) .

(13) Ibid.

(14) Bury «op. cit.» p. 120.

القوانين والتشريعات فى عهد الأيسوريين وحتى سنة ٨١٣ م.

يرى كثير من المؤرخين أن الامبراطورية البيزنطية اعتمدت فى دوامها واستقرارها على التمسك بأصول القانون الرومانى ، وقد عاد هذا بالفائدة على الأهالى الذين كان يمكنهم اللجوء الى حماية القانون ، وأن شعور رعايا الامبراطورية بأنهم كانوا يعيشون تحت حكم قضائى أرفع مما لدى جيرانهم قد أوجد شعور ولاء قوى للامبراطورية بالرغم مما كانوا يعانونه أحيانا من ضرائب باهظة .

ولقد كان تأثير رجال القانون على الادارة عظيما ، وربما اعتبر ذلك أحد العوامل التى أدت الى وجود طابع المحافظة على الحضارة البيزنطية تلك المحافظة التى صارت مضرب الأمثال .

فالقانون الرومانى القديم أدخلت عليه تعديلات كثيرة تحت تأثير العادات الاغريقية والشرقية وتعاليم المسيحية . والواقع أن هناك سلسلة طويلة من القوانين والتشريعات الهامة التى كانت ركيزة كبيرة ارتكزت عليها قوانين الأسرة الأيسورية ، منها ما شرعه لنا الامبراطور جستنيان وهرقل من بعده .

والواقع أن ما أصدره الامبراطور جستنيان من قوانين لم تستطع معظم أقاليم الدولة البيزنطية أن تدرك قيمتها وأن تفهمها نظرا لأنها صدرت باللغة اللاتينية ، وما أصدره جستنيان من المتجددات باللغة اليونانية لم تعالج الا القانون العام^(١٥) فرأى ليو الثالث أن الولايات الشرقية كانت تؤثر العرف حتى على شرائع جستنيان ، كما أن الامبراطورية قد بدأت فى التقلص بعد الفتح الاسلامى وتغلب الصقالمة والبلغار على البلقان ، فسادت اللغة اليونانية وأصبحت هى اللغة الوحيدة فى التفاهم ، فكان لابد من اصدار تشريع باليونانية^(١٦) .

(15) Cam. Med. Hist. oVI. IV. p. 708.

(16) Vasiliev «op. cit.» p. 270.

لذلك قرر نيو الثالث الأيسورى أن يصدر قانونه الذى اشتهر عبر التاريخ ، وذلك ليفى حاجة شعبه ، وليعوض النقص التشريعى فى البلاد .

أ - الاكلوجا

أسند ليو الثالث الى هيئة كبيرة من كبار رجال دولته القانونيين سنة ٧٢٦ م مهمة اصدار مجموعة قانونية جديدة تفى بالحرص المطلوب وقد استعان أفراد هذه الهيئة بالمجموعات القانونية الرومانية القديمة وبقوانين جستينيان وصدرت هذه المجموعة تحت اسم *Ecloga* الاكلوجا . ومعناها المختارات .

ومما جاء فى مقدمتها « أن قوانين الأباطرة قد أصبحت صعبة المنال اما لتفرقها فى الكتب الكثيرة أو لصعوبتها على الفهم أو لقلّة تداولها فى الأوساط خارج العاصمة » المحروسة من الله « ومما جاء فى هذه المقدمة أيضا أنه يجب على القضاة أن يتجردوا من العاطفة أو أن يحكموا بالعقل والعدل وألا يختقروا الفقراء والمساكين وألا يتركوا الأقوياء المجرمين طلقاء الأيدي وأن يمتنعوا عن قبول الهدايا ، وكذلك نصت المقدمة على وجوب دفع ممتلكات القضاة من الخزينة الصالحة حتى لا تتم نبوءة عاموس « لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعلين فتسلط علينا غضب الرب بتجاوز وصاياه » (١٧) .

وبصدور هذا القانون لم يعد فقهاء القانون الرومانى مصادر موثوق بها ، بل صار التشريع والفقهاء قائمين على « الوحي » والتمسست النظرية القانونية مبرراتها من نصوص مستمدة من الانجيل ، وزالت الفكرة القائلة بأن الزواج يعتبر من الأسرار المقدسة ، فتعذر بذلك الحصول على الطلاق ، وتجلّى نفوذ الكنيسة ورجالها فى أمور أخرى

(١٧) أسد رستم « الروم » ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

انظر ترجمة مقدمة الاكلوجا فى نهاية الكتاب .

مثل زيادة العقوبات على الجرائم الجنسية ، واحلال عقوبة التشويه وبتز الأعضاء محل عقوبة الاعدام بوصفها أقصى عقوبة فى القانون رغبة فى منح المذنب فرصة للتوبة (١٨) .

واذا أردنا أن نفصل محتويات الاكلوجا ، فانها تقع فى ثمانى عشر موضوعا وانها ترتبط فى مجموعها بالقانون المدنى ، ولا تمت بصلة ضئيلة للقانون الجنائى ، تناولت الزواج والخطبة والمهر والوصايا وحالة من لا يتركون وصايا قبل وفاتهم والأوصياء وعق الرقيق والشهود والبيع والشراء والقرض والرهن والضمان أو التأمين والاحكار والاقطاعات ونقض العقود وأمتعة الجند وتقسيم غنائم الحرب ، وما يتعلق بالقانون الجنائى لا يتعدى ما جاء فى الاكلوجا عن العقوبات (١٩) .

وتختلف الاكلوجا عن قوانين جستنيان اختلافا بينا فى بعض الأحيان فهى تأخذ بالعرف أحيانا وباجتهادات القضاة السابقين أحيانا أخرى . ويتساوى أمامها الغنى والفقر الأمر الذى لا نلقاه دائما فى مجموعات جستنيان ، والاكلوجا مسيحية أكثر من الدجستا التى صدرت فى عصر جستنيان تحل فيها الاستشهادات بنصوص الكتاب المقدس محل الاستشهادات بالشرع الرومانى القديم ، ولكن مع هذا كله لا يرى رجال الاختصاص فى الاكلوجا ما رآه المؤرخ اليونانى باباريغو بولو الذى صنف فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فانه رأى فى الاكلوجا أساسا لم يتوصل اليها القانون فى الغرب ألا بعد ألف سنة (٢٠) .

ومن أهم مواد الاكلوجا التى تمس بناء الفرد والدولة « ان الكسب

(18) Moss. «op. cit.» p.201.

(١٩) العرينى « الدولة البيزنطية » ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٢٠) أسد رستم « الروم » ص ٢٩٩ .

يورث الجريمة ، وكل فائض ناتج عن عمل الغير ينبغي أن يعطى للضعفاء لا للأقوياء (٢١) .

وتجلت آثار الاكلوجا فى القانون المدنى بما أصدرت من قوانين الزواج بوجه خاص ، فلم يعد يعترف الا بالزيجات المسيحية وحدها وأنقصت أسباب الطلاق الى أربعة ، وان لم يبلغ نهائيا كما رغبت الكنيسة ، كما أن درجات تحريم زواج الأقارب رفعت من أربع الى ست وحرّم أبناء عمومة الدرجة الثانية من الزواج . وفضلا عن ذلك زادت الاكلوجا أحوال النساء تحسينا ، فصار للزوجة نصيب معادل لنصيب الزوج فى أملاكهما المشتركة وفى الوصاية على أطفالهما فى حين زاد الأطفال تحررا من السلطة الأبوية ، وحصلت الكنيسة على حق الهيمنة فى الوصاية على الميتامى (٢٢) .

وبذلك زعم الأباطرة الأيسوريين أن تشريعاتهم تفوق فى الروح الانسانية تشريعات غيرهم من البيزنطيين ، حتى أن هذا التشريع ظل معمولا به طوال القرنين الثامن والتاسع حتى قيام الأسرة المقدونية سنة ٨٦٧ م مع صدور بعض التعديلات والتصويبات الى جانب أن كثيرا من البلاد المجاورة والبلاد الصقلية تأثرت بهذا القانون تأثيرا كبيرا ، فكان مرجعهم الأول فى كتبهم التشريعية (٢٣) .

ب — قانون الفلاح

صدر فى عهد الأيسوريين ثلاثة قوانين الى جانب الاكلوجا من أشهرها « قانون الفلاح » أو المزارعين ، ويرجع صدور هذا القانون الى الوقت الذى صدرت فيه الاكلوجا سنة ٧٢٦ م أو بعد ذلك (٢٤) .

(21) Bury «Constitution of Later Roman Empire» Vol. II p. 414.

(٢٢) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٨٣ .

(23) Ostrogorsky «op. cit.» p. 141.

(24) Vasiliev «op. cit.» p. 244.

ويبين لنا قانون الفلاح كيف روعى أن تسيطر القرية التي أسندت إليها تبعة الضرائب على مقدرة الفلاحين المالية في دائرتها ، ولكن بلغ من ثقل الضرائب أن الفلاح الفقير كان يميل إلى تحويل أرضه إلى كبار ملاك الأرض أو الملاك من رجال الدين الذين كانوا يقيمون على مزارعهم العبيد أو أرقاء الأرض لا يبارحونها مدى الحياة ، هذا برغم التشريعات المتكررة لمنع هذا التحويل ، وهكذا أصبح هو أيضا من أرقاء الأرض ، وتطور الأمر إلى أن هم رق الأرض ، وأخذ يحل محل الرق القديم .

وقد بذل الأباطرة اللاتينيون مافى وسعهم لتحرير أرقاء الأرض لكن لم تغن محاولاتهم شيئا وتكررت مشكلة الضياع الكبيرة *Latifundia* التي جابهت الإمبراطورية الرومانية في الإمبراطورية البيزنطية لكن على نحو آخر ، وكان الفرق أن ملاك الأرض البيزنطية كان إلى حد كبير أكثر زراعة لحقولها لا يستغلها للرعى وحده ، وأن عماله كانوا من أرقاء الأرض الذين كتب عليهم ألا يبارحونها إلا من الرعاة العبيد (٢٥) .

والسبب في اهتمام العلماء بهذا القانون اهتمامهم بظواهر جديدة من الفلاحين كالملكية الفردية الحرة ، والملكية الجماعية أو المشاع أو حرية الانتقال ومنع الخدمة الإجبارية ، كما أشار إلى ما يقع بين الفلاحين من أنواع السرقات مثل سرقة الأخشاب والحقول والبساتين ، ومخالفة رعاة الماشية للوائح وما تتعرض له الحيوانات من الأذى أو ما تجلبه من الضرر (٢٦) .

ومن المغالاة أن نأخذ برأى المؤرخ ثيودور أو سبنسكى بأن هذه

(٢٥) تاريخ العالم « الحركة البيزنطية في بظواهرها المختلفة » تأليف :

F.H. Marshall. p. 707.

(26) Vasiliev. «op. cit.»

الظواهر الجديدة شملت الدولة بأسرها وأن الفلاح زمن الإيسوريين دخل عهد جديد فشكل طبقة جديدة حرة مستقلة . وقد نغالى أيضا إذا قلنا مع شارل ديل وجورج هاسيه أن ليو الثالث وقسطنطين الخامس حاولا بهذا التشريع أن يوقفوا توارى الممتلكات الحرة الصغيرة وأن يحدا من طغيان الممتلكات الكبيرة وأن يضمنوا للفلاح ظرف أفضل ولا يجوز التماهى فى القول مع بعض العلماء أن ليو وابنه اضطرا أن يبدخلا فى شرع الدولة عرفا خاصا صقلييا فى أساسه لكى يستهويوا العناصر الصقلية فى الدولة ، ويوقفوا ميل هؤلاء الى التحالف مع البلغار والتعاون معهم (٢٧) .

وما يصح استخلاصه من قانون الفلاح أنه حدث فى الدولة البيزنطية أن قام الى جانب القنية نوع من الفلاحة الحرة ومجتمع فردى حر ، ويرى فازيليف أنه ليس معنى ذلك إلغاء القنية Serfdom فى الامبراطورية البيزنطية ، بل انها موجودة وهى القاعذة الأساسية فى الكيان الاقطاعى (٢٨) .

وترى الأستاذة هاسى Hussey أن المجتمع القروى عكس صورته قانون الفلاح لأن هذا القانون يصف المجتمع القروى الذى يسكنه ملاك أحرار من الفلاحين ، وهم من الفئة التى استغادت من السياسة الامبراطورية فى القرن السابع والتى منحت الفلاحين الأرض مقابل آدائهم للخدمة العسكرية ، وهذه الأرض يمتلكها الآباء ويورثها أكبر الأبناء فى الأسرة (٢٩) .

وعلى الرغم من أن هذا القانون كان يهتم بهذه الفئة من الفلاحين إلا أنه هناك تفصيلا للحياة الزراعية والرعية :

(٢٧) أسد رستم « الروم » ص ٣٠٠ .

(28) Vasiliev «op. cit.» p. 245.

(29) Hussey «The Byzantine World» p. 130.

فهذا القانون يصور الفلاح الذى يعمل فى حقول الكروم وحقول
التين ومزارع القمح بمساعدة العبيد والعال المرتقة الذين يقوون أيضا
برعى الماشية والابل والخنازير •

ويطرح القانون كذلك العقوبات والأحكام التى تصدر وتوقع فى
مختلف الأغراض ، خاصة وأن جميع الأراضى الزراعية متجاوزة ولا بد
من حدوث النزاع الى جانب الأحكام التى توقع على الرعاة الذين
يبيعون شيئاً من الماشية سرا ، وما يحصل عليه الرعاة من تعويض
فى حالة ما اذا هاجمتهم حيوانات برية متوحشة ، أو حدوث هياج لآى
من الحيوانات والمواشى (٣٠) •

الى جانب ذلك أثار القانون الى كثير من الموضوعات منها أن
الفلاح ربما يتعرض لكوارث يصعب عليه تحملها أو
يتصرف فيها ، فمن الممكن أن تتلف المحاصيل أو تهلك الماشية أو تسرق
خاصة على الحدود الشرقية لآسيا الصغرى حيث يحدهم الفرس
والعرب والأتراك ، الى جانب الغارات الدائمة من جانب بعض العناصر
المسيحية على الحدود التى أدت الى انهيار كثير من ديار الآباء والأجداد ،
أو ربما تتعرض البلاد لاغارات من أسراب الجراد أو أى أنواع أخرى
من الحشرات الضارة أو تتعرض لأوبئة فتاكة ، كل ذلك ربما يؤدى الى
هلاك المحصول ويجعل من الصعب على الفلاح أن يقوم بسداد
المضرائب المفروضة عليه ، حتى ان بعضهم يلجأ الى القديسين
الموجودين فى المناطق المحيطة بهم • ليتبركوا بهم ويطلبوا منهم حمايتهم
من الضر والأذى مثل القديسة ثيودورا فى سيكيون Sykcon
التي تعارف الناس على أنها تمنع الكوارث والأذى الذى يلحق الناس
من العواصف والجراد والنحل الذى يتسبب فى تلف المحاصيل خاصة

الكروم ، كما أنها تحمى جميع الحيوانات المنزلية من أذى (٣١) .

لذلك نرى أن قانون الفلاح تمتع بأهمية هامة فى العالم حتى انه جرى ترجمة هذا القانون الى اللغة الروسية ، وصارت هذه الترجمة تعتبر جانبا بالنسبة للأهمية يحل عنوان « القانون الذى بمقتضاه يقوم جميع الأمراء على تنظيم أمورهم » (٣٢) .

ويعطينا قانون الفلاح صورة لحياة المجتمع الزراعى البيزنطى فى القرن الثامن والتاسع ، يقول « تحف بالقرية البساتين وحدائق الكروم من حولها السياجات وفى خارجها الحقول المزروعة وليس بها سياجات ولكنها تابعة مع ذلك للملاك من الأفراد . وفى الحلقة الخارجية توجد المراعى وهى ملك مشاع للجميع ، ولكنها لو أخليت بما بها من شوائب وعوائق ثم زرعت انتقلت ملكيتها الى يد فالحها ، وكانت تعرض عقوبات فادحة على كل من ألحق الضرر عن عمد أو إهمال بممتلكات القرويين فكان سارق جرس الماشية يعد مسئولا عما يحل بتلك الماشية من ضرر كما كان سارق كلب الغنم مسئولا عن القطيع بأكمله ، والرجل الذى يسمح لسائمة بالدخول الى المناطق المحصودة قبل أن تفتتن جميع محصولات جيرانه كان يعرض نفسه للعرامة ، وذلك لأن السائمة قد تشرد فتؤذى الجيران (٣٣) .

ويرى الأستاذ ديل أن قانون الفلاح كان نتيجة للتأثيرات التى أحدثتها هجرات الأقوام السلافية فى الانظمة الزراعية فى الامبراطورية البيزنطية (٣٤) .

(31) Ibid. p. 131.

(32) Vasiliev «op. cit.» p. 245.

(٣٣) رنسان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٥٠ .

(34) Dichl. «Histoire de l'empire Byzantine» p. 69.

Rhodian Sea Law

القانون البحري الرودى

من أهم ملاحق الاكلوجا القانون الذى صدر باسم القانون البحرى الرودى وهو عبارة عن قانون بحرى تجارى يبحث فى توزيع المسئوليات عند تعرض السلع التجارية لخطر اما من جراء العواصف البحرية أو القرصنة^(٣٥) فالمعروف أن الامبراطورية البيزنطية كانت تتمتع بخط كبير من السواحل ، وعدد لا حصر له من الجزر حتى أن نسبة كبيرة من سكان الامبراطورية كانوا يقيمون على العمل فى البحار ، فبعضهم يعملون بالصيد والبعض بالملاحة فى الشركات البحرية أو الأسطول الامبراطورى وظلوا يتمتعون بهذه الأهمية البحرية فى العالم حتى حلت محلهم الجمهوريات البحرية الايطالية فى القرن الثانى عشر^(٣٦) .

وهذا القانون عبارة عن مجموعة من التنظيمات لفئة التجار الذين يعملون على السفن الصغيرة ، فهو يصف الاستعدادات والسلطات الممنوحة لكل طاقم السفينة والركاب وعلى سبيل المثال « فقد كان يسمح لكل فرد بمكان له للاقامة فى السفينة ، فالرجل يمنح حجرة يزيد اتساعها ثلاثة أضعاف مساحة الحجرة التى تقيم فيها المرأة » .

وقد حدد القانون الرودى كثيرا من الأخطار التى يتعرض لها طاقم السفينة ، وحدد ضرورة تجنبها مثل الحرائق التى تحدث فى السفينة أو استيلاء القراصنة عليها أو تحطمها فى عرض البحر .

ومنع القانون الرودى جميع الركاب من اشعال الخشب أو قلى السمك أو شواءه داخل السفينة ، ومنحوا قائدھا صلاحيات لمنع الركاب

(٣٥) أسد رستم « الروم » ص ٣٠١ .
(36) Hussey «op. cit.» p. 131.

من فعل ذلك ، فلهم أن يحصلوا على ما يريدون من الطعام من المطعم الصغير الموجود بالسفينة ، ولقائد السفينة الحق في ترك الركاب على الشاطئ إذا وجد ذلك ضروريا لسلامة السفينة ، ويسمح لهم بالركوب في الحالات الطبيعية ، وذلك حتى يجنبهم أخطار هجمات القراصنة ، وله الحق في ترك كميات من حمولة السفينة إذا زادت عن الوزن المحدد ، حتى اننا اذا درسنا جميع بنود القانون البحري الرومسي نجد أنها تتشابه مع نظم التأمين البحرية المعاصرة (٣٧) .

ويفرض هذا القانون الخسارة التي قد تتعرض لها بضائع السفينة على التاجر ، وبذلك السفينة وهو عادة القبطان والركاب الموجودين عليها أيضا (٣٨) .

وبال هذا النظام معمولاً به ، حتى يعد إلغاء جميع التشريعات الأيسورية ، ويرى بعض الباحثين أن وجود القراصنة البحريين بمناطق بحر ايجيه الى جانب الخرائط البحرية الخاطئة ، كل ذلك كان يعرض التجار لأخطار كثيرة جدا في الطريق مما سبب ابتعاد الناس عن المغامرات البحرية ، وقد تدخلت الدولة بالتشريع البحري الذي يحفظ حقوق الركاب والعاملين على السفن ، ويجعل حساب الربح والخسارة مفروضا على الجميع (٣٩) .

قانون الجند

يرى الباحثون أن قانون الجند الذي ظهر ملحقا للتكوجا مع غيره من القوانين ليس الا ضرورة للديجستا Degesta التي أصدرها من قبل الامبراطور جستنيان ، والتي تنظم العمليات العسكرية ، وأساس هذا القانون العقوبات التي تفرض على العسكريين الذين

(37) Ibid.

(38) Vasiliev. «op cit.» p. 249.

(39) Ibid.

يتمردون على الدولة أو يفعلون ما يخل بواجبهم تجاه وطنهم ، وعلى الذين يفرون من ساحات القتال أو يخالفون الأوامر أو يرتكبون الفواحش^(٤٠) . والواضح أن ليو حاول السيطرة على دولته الجديدة التي حدد لها مذهباً دينياً مخالفاً لما كان سائداً ، فكان لابد أن يحكم سيطرته على الجيش الذي يعتبر حامياً ومدافعاً عنه ، ففي رأيه أنه ظهر العقيدة المسيحية من جميع الخرافات والأباطيل ، لذلك عمل على تطهير الجيش من أى أعمال تتنافى مع الأخلاق والآداب العامة .

أما نظام الشعور Themes وهي انزال فرق معينة أى تجمعات نظامية معينة من الكتائب للدفاع عن نواح ثابتة معينة ، ثم تعيين قائد تلك الفرق أو Strategus رئيساً للحكومة المدنية أيضاً ومن ثم سميت النواحي باسم ألوية الشعور ، وفي البداية كان كل لواء يسمى باسم الفرقة التي تحتله^(٤١) .

ويرى الباحثون أن ليو الثالث حاول أن يجعل من ثيمات آسيا الصغرى ستاً بدلاً من أربع وذلك خوفاً من تمرد هذه الولايات أو اندلاع ثورات بها ربما تؤدي للسيطرة على العرش مثلما حدث من قبل مع الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث .

وكانت الثغور فى آسيا الصغرى على الترتيب فى الأهمية الأناطوليك ، والأرمينيا ، وتراقيسيا والابنسيق والبكلار والراجح أنه جرى قبل مهاجمة المسلمين لأقاليم الأطراف أن انفصل من ثغرى الأناطوليك والأرمينيا جهات تكونت فيها حكومات الأطراف « كيلرجيات » اتخذت قاداتها من الاجراءات والتدابير ما يستطيعون بها الدفاع عنها مستغلين عن قائدى الثغرين الكبيرين وعلى هذا النحو قام ثغر سيلوقية غرب فيليتييه بغد انفصاله عن ثغر الأناطوليك ، ونشأ

(40) Ibid.

(41) Bury «The eastern Roman empire» p. 322.

ثغر خرسبيانون من بعض جهات منتزعة من ثغر الأرميناك ، ولما ازدادت حدة الاغارات الاسلامية فى القرن الثامن أنليلاذى ، دعموا تلك الجهات بحاميات اتخذت اسم حراس الحدود Akritoi ومهمتها مساعدة قاذة الثغور (٤٢) .

أما الثغور فى أوروبا فلم يتجاوز عدد الثيمات أربعة فى القرن الثامن وهى تراقية مقدونيا هيلاس وصقلية (٤٣) .

الجيش البيزنطى

لعب الجيش دورا بارزا فى جميع مدن العصور الوسطى خاصة فى الدولة البيزنطية التى أحاط بها أعداؤها من كل جانب ، لذلك فإن التنظيم العسكرى للدولة يعتبر الأساس الأول الذى بنى عليه الأباطرة سياستهم ، فقد كانوا يعملون على تحقيق هدفين أساسيين هما الدفاع عن الامبراطورية ورخاء الجيش (٤٤) .

كان تقدم الامبراطورية واتساع حدودها واجتيازها للصعاب رهينا بقوة الجيش وحسن استعداداته وطاعة رجاله للقيادة ، وحسب قول أحد الأباطرة. أن « الجيش بالنسبة للدولة كالرأس من الجسد » (٤٥) .

فلم يكن البيزنطيون بفطرتهم شعبا عسكريا ، أجل أن الجرأة العسكرية كانت تثير أعجابهم ، بيد أنها لم تكن هى الصفة المرغوبة الوحيدة كما كانت فى الغرب الآخذ بسنن الفروسية ، وكان القائد المظفر يظل خادما للدولة يحظى بكل تقدير ، فالضرورة هى التى قضت

(٤٢) العرينى « الدولة البيزنطية » ص ١٦٩ .

(٤٣) أسدرستم « الروم » ص ٣٠٢ .

(٤٤) Diehl « Byzantium, Greatness and Decline » p. 40.

(٤٥) Ibid.

عليهم أن يصوغوا أنفسهم في الوقت المناسب على أسس عسكرية وأن يولوا الشئون العسكرية كل التفاتهم وعلمهم ، وكان ذلك كله في مصلحتهم فكانت بيزنطة طوال القرون الوسطى هي البلد الوحيد الذي كانت تدرس فيه فنون الحرب وأدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش بعناية ودقة (٤٦) .

الجيش وعناصره

١ - المجندين :

منذ العصور الرومانية القديمة والجيش يتكون في أساسه من مجموعة من الرجال الذين يجندون من سكان الامبراطورية ، خاصة وأن الخدمات العسكرية كانت تحتاج الى كل مواطن روماني يتراوح عمره ما بين الثامنة عشر والأربعين وذلك سواء أكان التجنيد اجباري أم تطوعي ، فهؤلاء يكونون الصفوة المختارة وأهل الثقة من الجنود وهذا ليس لأنهم من أحسن العناصر ولكن لأنهم ممثلين لوطنهم ، فهؤلاء هم ورثة الفرق الرومانية القديمة . وهذه الحقيقة تخالف الاعتقاد السائد بأن هذه العناصر الوطنية كانت تمثل في اعدادها نسبة كبيرة في الجيش البيزنطي (٤٧) . وقد كانت الفرق تتألف من مجندين محليين ليسوا على المستوى المطلوب . لذلك فإن القوات المسلحة الممتازة كانت تتألف من الجنود الفلاحين القادمين من تراقيا ومقدونيا ومن سكان جبال كبادوكيا وايسوريا وأرمينيا وهناك فئة أخرى من الفلاحين كانت تنتسب الى الألوان وكانوا من الطبقات الفقيرة. وقد نزعوا من أراضيهم ، وكانوا لا يعلمون شيئاً عن فنون القتال .

لذلك اضطرت الحكومة الى أن تقبل البدل النقدي مقابل الخدمة العسكرية ، وفي بعض الأحيان كانت تشجع كل من هو في سن

(46) Oman «History of the Art of War» p. 37.

(47) Diehl. «op. cit.» p. 41.

الجنديّة حتى يوفى بالتزامه في المجال العسكري • كما أن الحكومة بدأت في الاعتماد على قوات المرتزقة من أجل تقوية الجيش ومساعدة فرق المجندين (٤٨) •

القوات المرتزقة :

لم يجد الإمبراطور البيزنطيّين غضاضة من الاستعانة بالجنود الممتازة الذين كانوا يساهمون في القتال ويقدمون خدماتهم • وقد تلاحت الطلبات من الأجانب المقيمين في الإمبراطورية وعلى حدودها ومعظمهم من الأتراك ومن أهالي ياردين ، وعبيد من مقدونيا ، وآخرين كان يطلق عليهم الحلفاء ، وكانوا أصلا عبيدة عن قوات أجنبية يرسلهم حاكم دولتهم الى الإمبراطور البيزنطي ويعملون تحت امره القيادة العسكرية والضباط القادمين معهم •

وهناك نوع آخر من الحلفاء يسمون «Confederates» هؤلاء هم بقايا المرتزقة من الجنود البرابرة متعددي الجنسيات والذين كانوا يقدمون خدماتهم للإمبراطورية •

ومن ذلك نرى أن الجيش الإمبراطوري كان خليطا من جنسيات متعددة تحت القيادة البيزنطية الموحدة ، وأهم العناصر التي شاركت في الجيش في فترة دراستنا أعنى القرنين الثامن والتاسع كانوا من الخزر والصقالبة والروس والسلاف والإيرانيين ومن جورجيا ومن ماردين والقوقاز والعرب والأتراك ورجال الشمال سكان شبه جزيرة اسكندناوه والنورمان المقيمين بإيطاليا (٤٩) • وكان الإمبراطور يعاملهم معاملة حسنة ، على أنهم أحرار ، وكانت رواتب ضباطهم مغرية قدرت لتكفي احتياجات هؤلاء الجنود خاصة القادمين من أرمينيا والقوقاز ولتكفي نهم وجشع الجنود المغامرين الاسكندنافيين والروس

(48) Ibid.

(49) Diehl. «op. cit.» p. 41.

وزيادة على ذلك فقد منح الأرض لمجموعة من الجنود الذين انضموا تحت لواءه وسجلت لهم ، وأصبحت حقا يحكمه القانون ولا يمكن لأى شخص أن يسلبها منهم ، فهي أقطاع لهم ومن حق ملاك هذا الاقطاع أن يمنحوا لقب « الفارس » .

وبالإضافة الى هذه المميزات فقد تمتعوا باعتباريات خاصة ، فقد أولاهم الامبراطور ثقته التى زادت عن الثقة التى منحها لجنوده الوطنيين . فقد اعتبر الامبراطور أنه اذا دفع مرتبات الجنود المرتقة وأغراهم بالمال فسيكونوا رهن اشارته وتحت طلبه وسيدافعون عن أى عدوان على الامبراطورية ، فلذلك جعل عليهم قيادات قوية ومخلصة لأن هؤلاء الجنود هم عماد أمن الامبراطورية لذلك فان قوات الحرس الخاص الرفقاء Hetaeria كان معظمهم من الجنود الأجانب خاصة الروس الاسكندنافيين والخرز^(٥٠) .

ونتيجة لهذه السياسة فقد اندفع الجنود المرتقة على الامبراطورية من جميع ارجاء بلاد البرابرة .

وتقدر اعداد الفرق المواجهة للمسلمين فى آسيا الصغرى حوالى ٧٠٠٠٠ جندى ، فاذا أضفنا اليهم اعداد الحرس الامبراطورى وقوات الجيش الموجود فى أوروبا ، فذلك يعطينا صورة العدد المقدر للجيش بحوالى ١٤٠٠٠٠ جندى على الأكثر^(٥١) .

وكانت قوة الجيش البيزنطى تقوم على فرسان الخيالة الثقيلة وكانوا يلبسون الزرد من الفولاذ ودروعاً ويقومون بطبع علامات على الجبهة للضباط وصف الضباط وكانت لهم عباءات من التيل والصوف يلقونها على دروعهم تبعا لحالة الجو ، وكان سلاحهم السيف والخنجر

(50) Ibid.

Oman «op. cit.» p. 43.

والقوس والكنانة والرمح • وكانت الخصلة المربوطة بالزرد وراية المزراق والعباءة تلون تبعا للفرقة • وكان المشاة فى معظم الأمر من النابلة الحقيقية ، وذلك على حين أن بعض الولايات كانت تقدم بدلا من ذلك رجالا من حملة الحراب ، ولكن كان هناك أيضا فرق من المشاة الثقيلة يلبسون الدروع ويحملون البلط والرماح والسيوف والتروس وهم الذين يقفون على الممرات الجبلية الوعرة التى لا يكاد الراكبة يصلحون للعمل بها • وكانت النار الاغريقية هى الظاهرة الرئيسية فى الحرب البحرية البيزنطية لا يستخدمها العسكريون الا لدفع المحاصرين عن أنفسهم (٥٢) •

وكانت قوات الخيالة تتلقى تدريبات شاقة ولهم نظام عبر عنه المؤرخون فى كتاباتهم عن الفترة ما بين القرن السادس والعاشر ، وقد كانت هذه الفرق محاربين موسمين ، قادرين على تحمل أى نوع من المشاق والحرب ، وكان تفوقهم الدائم على أعدائهم فى الحروب يرجع الى التطور الدائم فى طرق القتال وأساليبه • حتى أن المؤرخين نعتوهم بأنهم هم ورثة الجنود الرومان القدماء الذين أخضعوا العالم لسلطانهم (٥٣) • وفى المجتمع البيزنطى لم تكن هناك ضياع وعزب ذات مستوى على مثل التى يمتلكها الجنود ، فقد كانوا هم وذويهم يتمتعون داخل اقطاعاتهم بميزات كبيرة ، وفى داخل المجتمع المدنى كان رجال الجيش أعلى الطبقات ، ويمتازوا عن الأشخاص المدنيين (٥٤) وينحدر من فرق الخيالة فرقة « التاجماتا » وهى فرق الحرس الامبراطورى الأربعة كان لها دورها الكبير • فقد ظهرت أهمية هذه الفرق فى القرن التاسع وهى فرقة المدارس Scholae والديادية Excubitors ووحدۃ الجند المساة أريثموس Arthmos

(52) Oman «op. cit.» p. 184.

(53) Diehl. «op. cit.» p. 44.

(54) Ibid. p. 45.

والهيكاناتى Hicarati فكان اذا خرج الجيش البيزنطى بهجوم مضاد خرجت فرق التاجماتا من القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور أو دومستق المدارس فيلحق بها عند نقاط معينة من الطريق العسكرى العظيم الذى يخترق آسيا فصائل من جند الألوية المختلفة^(٥٦) .

البحرية :

ظلت البحرية البيزنطية على أعلى مستوى من اللياقة العسكرية منذ القرن السادس وحتى القرن الثامن . ولكن ظهور العرب وانتشار الإسلام فى الشام ومصر ، وسيطرتهم على سواحل البحر الأبيض المتوسط وهزيمتهم للبحرية البيزنطية فى المواقع المتواصلة على سواحل الشام كل ذلك أدى الى انحسار فن القتال البحرى وانهيائه أمام العبقرية الاسلامية البحرية الممثلة فى الأمويين الذين سيطروا على جزر البحر الأبيض مثل جزيرتى كريت وصقلية . ولم يتحقق النصر البحرى للبيزنطيين فى غضون الفترة التى ندرسها الا على يد ليو الأيسورى سنة ٧١٧ م عندما تمكن بفضل الخدع الحربية من هزيمة جيش الأمويين بقيادة مسلمة بن عبد الملك . وبعدها أهملت البحرية البيزنطية وحتى القرن العاشر^(٥٧) . وكانت السفن الحربية فى العادة تغص برجال البحر على طول الشواطىء الأسيوية وفى الجزر وفى اليونان . وقد بنى رجال البحرية ترسانة كبيرة للسفن صنعت فيها السفن الحربية المسماة Dromons كانت تسع ثلاثمائة رجل منهم سبعون جنديا بالاضافة الى بعض الصنادل والقوارب الصغيرة يحملها من ١٣٠ لى ١٦٠ رجل ، وهؤلاء كانوا يحملون النار الاغريقية التى استخدمت فى الحروب البحرية منذ القرن السابع والخترعها أحد المهندسين من أهل الشام^(٥٨) .

(55) Bury. «Imperial Administration System» p.p. 47-68.

(56) Ibid. p. 53.

(57) Deihl. «op. cit.» p. 51.

(58) Ibid, p. 52.

النظام المالى والنقدى

استلزم الانفاق على الجيش والأسطول نظاما محكما للضرائب ، فقد كان شراء المتطوعين خاصة يتطلب نفقات طائلة ، وكانت الضريبة على الأرض أساس المالية البيزنطية ، وكانت جملة الضرائب التى يراد جبايتها تعلن بمرسوم عام ويحدد الوالى والحكام التابعون له القدر الذى تؤديه كل منطقة من المناطق ، وكانت وحدة الضرائب قطعة من الأرض تسمى Jugun تتفاوت فى الحجم حسب قدرة الأرض على الانتاج ونوع المحصولات التى تزرع فيها ، لكن أصبحت الضريبة تفرض فى آخر الأمر على الفرد (٥٩) .

أما النظام النقدى فهو أهم مؤشر يدل على الاستقرار الاقتصادى فى هذه الامبراطورية ، وعلى أنه كان يضارع النظم النقدية المعمول بها فى أى دولة من دول العالم شرقية وغربية .

وقد قسم المتحف البريطانى النقود البيزنطية الى سبعة أقسام متفرقة أولها يبدأ بعهد الامبراطور أركاديوس سنة ٤٩١ م. ويمتد حتى عصر قنسطنتين الرابع سنة ٦٨٥ . واختيارهم لسنة ٤٩١ كبدائية للعملة البيزنطية أنه قبل هذا التاريخ كانت جميع العملات رومانية وليست بيزنطية (٦٠) ، وحتى العملة التى سكنت حتى القرن السادس الميلادى كانت تغلب عليها الصبغة الرومانية . والقسم الثانى من جستنيان الى ثيودسيوس الثالث ٦٨٥ - ٧١٧ م وقد اتسمت بانخفاض عدد دور الضرب لكثرة الهجمات الاسلامية ، وثانيا نتيجة السياسة التى اتخذتها الامبراطورية لتركيز شئون الدولة بأكملها داخل القسطنطينية .

(٥٩) موسوعة تاريخ العالم « الحركة البيزنطية » تأليف

F.H. Marshall. p. 708.

(60) David. T. Rice. «The Byzantines» p. 142.

والفترة الثالثة تبدأ من عهد ليو الثالث الأيسورى الى عهد ثيوفيليوس ٧١٧ — ٨٤٢ م وتشمل فترة النزاع اللايقونى والتى اتسمت ليس فقط بحذف الصور الدينية من أوجه العملة ، لكنها فى وقت من الأوقات استعاضت عن الصليب المحفور على الوجه الآخر لصورة العملة ، وهذا يدل على الحد الذى وصلت اليه الآراء الدينية فى تلك الفترة • وقد كانت صورة العملة فى هذه الفترة متمسكة بالدين والتقاليد متسمة بالخشونة والجفاف ، ليس لها أى مسحة فنية وهى تختلف كلية عن العملة التى سكت فى الفترتين الرابعة والخامسة (٦١) •

فى الفترة الرابعة ، والتى تبدأ من عهد ميخائيل الثالث الى حنا الأول ٨٤٢ — ٩٧٦ م والخامسة من عهد باسيل الثانى الى قنستطنطين الثامن ٩٧٦ — ١٠٨١ م • والتى ظهرت فيها صور الإمبراطرة على العملة ولاحت فيها روح الأسرة المقدونية •

وبعدها فى القسم السادس تظهر نقود أسرة آل كومنين من الكسيوس الأول الى الكسيوس الرابع ١٠٨١ — ١٢٠٤ م وفيها تظهر ملامح التدهور الاقتصادى والسياسى •

أما الفترة التى حكم فيها الإمبراطرة اللاتين فى القسطنطينية ١٢٠٤ — ١٢٦١ م ، فلم تسك فيها أية عملة ، وكانت العملة السائدة هى العملة البنديقية الفضية ، والتى ليست فيها أية مسحة بيزنطية أما العملة الرسمية فهى تلك التى سكت فى سالونيك ونيقيه وطرابيزون والتى سكها الإمبراطرة البيزنطيون الذين حكموا هذه المناطق ، وبعد عام ١٢٦١ عادت دور الضرب البيزنطية الى عملها فى القسطنطينية ، وبدأت فى سك العملة المحلية ، فظلت العملة التى سكت فى طرابيزون معمولاً بها أيضاً طوال وجود الامبراطور البيزنطى حتى هزمه الأتراك العثمانيون سنة ١٤٦١ م •

(61) David, Rice. «Ibid» p. 143.

أما العملة التي حددوا لها القسم السابع فهي خاصة بالك باليولوجوس ١٢٦١ — ١٤٥٣ م (٦٢) .

احتفظت العملة البيزنطية طوال تاريخها بقيمتها سليمة لم يمسه سوء ، وكانت الامبراطورية البيزنطية تسير على نظام العملة الذهبية ، وكانت وحدة العملة تزن حوالى ٦٠ حبة ، وكانت تعرف فى بادىء الأمر باسم Solidus صوليدوس ، وفى العالم الشرقى باسم النوميما Nomisma وهى تساوى ٧٢/١ واحد على اثنين وسبعين من رطل الذهب فى الوقت الذى كان يتعامل فيه الغرب بالبيزانت ومن بداية الدولة الأيسورية وحتى نهاية عصر قنسطنطين الخامس ٧٤٠ — ٧٧٥ م سكوا عملة تسمى سيمييسيس Semissis تساوى نصف الصوليدس وسكوا عملة أخرى اسمها Tremissis تريميسيس وهى تساوى ثلث الصوليدس . حتى كان عهد باسيل الثانى فبدأوا فى سك أشكال مختلفة من النوميما الخفيفة والثقيلة (٦٣) .

وكانت العملة الذهبية تسك بالقسطنطينية فقط ، أما غيرها من المعادن فتسك بأى مكان بالامبراطورية . لذلك سادت العملة الفضية فى عصر جستنيان فى كل من روما ورافنا وقرطاجة ، والبرونزية تسك فى نفس هذه المناطق بالإضافة الى سالونيك ونيقوميديا ، والخزر وإيطاليا والاسكندرية وصقلية .

ومنذ منتصف القرن الثامن ، تقلصت العملة البيزنطية وخرجت من إيطاليا وشمال افريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط ، حيث دخلت معظم هذه المناطق فى الاسلام وخرجت عن النفوذ البيزنطى (٦٤) .

(62) Ibid. p. 145.

(63) David. Rice. Ibid. p. 145.

(64) Ibid. p. 146.

أما العملة الفضية فكانت نادرة بالقياس بالعملات الذهبية ومن أهم العملات الذهبية التي تداولت في هذه الفترة السهميليساريسيا التي تختلف في وزنها من عصر الى آخر ، وهي تساوى ١٢/١ من النوميisma ، وقد سك الامبراطور هرقل عملة فضية تسمى هيكساجرام ، ولكن قنسطنطين الخامس استبدلها بعملة تميزت بكتابات تؤيد الفكرة والعقيدة اللاأيقونية مع حذف الصور المشخصة عليها (٦٥) .

أما العملة البرونزية فبدأ التعامل بها منذ عهد أنستاسيوس الأول ٤٩١ — ٥١٨ م حيث سك مجموعة كبيرة من الفلسات Follis وهي تساوى ٢٤/١ من النوميisma ، حيث أنتشر التعامل بها في العصر الأيسورى .

وقد اهتم الأيسوريين اهتماما كبيرا بالنظم والتشريعات المالية والرقابة الصارمة على أوجه الايرادات والنفقات ، كما اهتموا بالضرائب المفروضة على الشعب البيزنطى ، ومن أهم القوانين التي اتخذوها لتعود بالنفع المالى على ضريبة الدولة مضاعفتهم لضريبة الحبوب المعروفة باسم Corn Tax وهي معروفة منذ عهد قنسطنطين الكبير (٦٦) .

(65) Ibid.

(66) Deanesly «op. cit.» u. 409.

الفصل الثاني

نظام الحكم والادارة فى الامبراطورية الكلوانجية

- * نظام الحكم فى عهد شارلمان
- * حدود امبراطورية شارلمان
- * حكومة شارلمان
- * مجالس الأعيان
- * النظام الادارى – الكونت – الأسقف – نظام
المبعوثين
- * المراسيم والتنظيمات الامبراطورية
- * القوانين والتشريعات
- * التنظيمات المالية
- * التنظيمات العسكرية

الفصل الثانى

نظام الحكم والادارة فى عهد شارلمان

حكم شارلمان مملكته وامبراطوريته فيما بعد ، على أساس ومبدأ سياسى هام وهو أن الحكم هبة من الله سوف يسلبها منه متى شاء ، وتلقى عن الكوين النصائح الهامة منها « إن الامبراطورية ليست الا مسئولية ضخمة ، فبينما يقوم الملك بسياسة أمة والحدة ، يعتبر الامبراطور صانعا وحافظا لذلك النظام الاجتماعى الذى لم تكن الممالك فيه الا أحداثا عابرة » (١) .

استطاع شارلمان أن يقبض على زمام مملكته المتسعة الأرجاء ، كما أضاف الى حدودها أضعاف ما كانت عليه زمن آبائه ، فاشتملت مملكة الفرنجة على حدود تمتد ما بين الراين واللوار والمحيط وجزائر البليار الى جانب أنها ضمت جزءا من المانيا سكنه الشعب الذى سمي بالفرنجة الشرقيين ، والذى تحده سكسونيا والدانوب ونهر الراين والسال الذى كان يحد بين الثورنجيين والسوربيان . وبين موطن الألمانيين والبافارين (٢) .

تمكن شارلمان من ضم اكيثانيا وجاسكونى ومعظم المنطقة التى تقع على تخوم نهر ابرو حيث يرتفع ويضم نافار ، ويجرى فى معظم الأراضي الخصبة فى أسبانيا ، كما ضمت ممتلكاته كل ايطاليا من أوستا Aosta الى كالابريا Calabria حيث يقع خط

(١) ديفز « شارلمان » ص ١٩٢ .

(2) Einhard. «op. cit.» p. 40.

الحدود بين بنفينتو واليونان الى جانب أن هناك منطقة السكسون « سكسونيا » والتي تعتبر جزءا من ألمانيا وتعتبر من حيث المساحة ضعف المنطقة التي يسكنها الفرنج كما ضمت كلا من بانونيا وداكيا ودلماشيا ما عدا البلاد التي تقع على الساحل فقد تركت للإمبراطور البيزنطى احتراماً للائتماقية المعقودة فيما بينهما^(٣) .

استطاع شارلمان أن يفرض سيطرته أيضا على القبائل الجرمانية التي تسكن ألمانيا بين الراين والفسستولا والمحيط والدانوب حتى أصبحوا يتكلمون جميعا لغة واحدة ، لكنهم كانوا يختلفون عن بعضهم كثيرا فى عاداتهم وملابسهم . وعلى رأس هذه القبائل كانت قبائل الويلاتايان Welatabians والصربيان Sorabian والأبودريتي Abodriti والبوهيميين Bohemians الذين شن عليهم الحرب . أما القبائل الباقية والمتعددة ، فسلمت له من تلقاء نفسها^(٤) .

والآن لابد لنا أن نستعرض الآراء التي عرضها المؤرخون حول أسلوب شارلمان فى حكم امبراطوريته .

يرى الأستاذ ديفز « ان حكومة شارلمان لم تكن استبدادية ، فعلى ارادة أتباعه والجيش الوطنى تركز كل سلطته ، والواضح أنه جرى الاعتراف بالسيادة الاسمية للشعب ، وأنه يلتمس موافقتهم على القوانين ومع ذلك فان حضورهم وموافقتهم يعتبر أمرا مطلوبا من الناحية النظرية »^(٥) .

ويرى الأستاذ طومسون عكس ذلك : ان حكومة شارلمان كانت مطلقة وكلمة الملك فيها قانون ، وكان وزراء دولته هم موظفو قصره الذين تشغلهم واجبات القصر ، والتابعون للملك تبعية مطلقة وكانت تتاط

(3) Ibid. p. 41.

(4) Ibid.

(٥) ديفز « المرجع السابق » ص ٢٢٥ .

بهؤلاء الموظفين أحيانا مهام حربية أو قضائية ، لكن الواجبات التي تفرض عليهم كانت أصلا خاصة بالقصر^(٦) لكننا فى الحقيقة نرى الرأى الذى يقول ان شارلمان قد حكم امبراطوريته حكما شخصيا لا حكما استبداديا ، لأن الامبراطور الذى لم يباشر سلطاته عن طريق جيش نظامى تقوم الامبراطورية على رواتبه ، ولم يعتمد على بيروقراطية منظمة لتصرف شئون الادارة والحكم بل لم تستند ماليته على دخيلة أو ضريبة معينة تأتى الى الخزينة نقداً ولا يستطيع أن يسيطر على أمور الدولة الا من ناحية السلطة الشخصية والنفوذ الواسع ، ولا يستطيع طبعا أن يقوم بدور الحاكم المستبد ومن الدليل على ذلك مجالس الأعيان *Plactia Generalia* ^(٧) .

دأب شارلمان على أن يعقد مجلس الأعيان مرتين فى السنة فى مراكز مختلفة وهى التى حلت محل الاجتماعات الأستراسية التى كانت تعقد فى الأصل فى شهر مارس ، غير أن بيبين *Pepin* فى عام ٧٥٥م غير موعد اجتماعها فجعله شهر مايو ، وفى عهد شارلمان كان الوقت الذى يعقد فيه اجتماع الربيع وفقا لهواه ، وكان يعقد اجتماع آخر فى الخريف ، ولكن كان اجتماعا خاصا بالملك والأعيان يناقشون فيه المسائل الخاصة . ولم تكن تعلن نتائج مداولاته الا فى اجتماع الربيع التالى الذى كان له طابع قومى ، وكان يشترك فيه الكونتات والأساقفة والأشراف وأتباعهم .

كان الملك فى اجتماع الربيع يطرح للمناقشة المراسيم أو اللوائح القضائية التى يكون قد أعدها من قبل ، وكانت المناقشة نفسها قاصرة على الأعيان وكان الكونتات والأشراف المدنيون يتشاورون بمنأى عن الأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار الاحبار فى قاعات مختلفة أو فى

(6) Thompson «The Middle Ages» p. 479.

(٧) فشر « تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى » ج ١ ص ٩٧ .

الهواء الطلق اذا كان الجو ضافيا ، وكانت هذه الاجتماعات تؤجل من يوم الى يوم حتى تنتهى الى قرار وفى هذه الأثناء كان شارلمان مستعدا للاشتراك فى المناظرات اذا طلب اليه ذلك^(٨) .

وفى آخر الأمر كانت ترفع اليه القرارات فيبدي رأيه فيها وكان طول وقت الاجتماع يختلط بالجمهور الذى سحب الأعيان الى الاجتماع بغير كلفة ، ويتقبل منهم ما أحضروا له من هدايا ويشترك فى مناقشات مع كل من قابله ، وقد أظهر فى هذه المناقشات قدرة فائقة على التفاهم مع الجمهور .

وكان اجتماع الربيع فرصة لشارلمان ليقف على حالة البلاد بطريق غير رسمى ، فقد كان يسأل المتحدثين اليه عن مختلف الوسائل ورأيهم فى الأوضاع القائمة ، وعن وجود شكاوى وعن خرق للقانون والنظام وذلك ليضمن فى قراراته التشريعية علاجا لها^(٩) .

أما عن بلاط شارلمان فكان به كل ما تستلزمه الحكومة المركزية من أداة فليديه كبير الأساقفة ، ورئيس القسس يتوليان كل ما يتعلق بالكنيسة من أمور ، والفروض أيهما يشرفان على سلطة الامبراطور فى شغل الوظائف ، ويفصلا فى الأمور الهينة دون الرجوع للامبراطور^(١٠) .

ومن وظائف البلاط أيضا وظيفة حجاب القصر الذين صارت لهم مكانة كبيرة فى الأمور الزمنية كذلك ناظر القصر الذى كان يرأس المحكمة المالية باعتباره من ممثلى الملك . ومن موظفى داره صاحب بيت المال والكونستابل وناظر الاسطبلات الملكية الذين ينفون بخبرهم الى الملكة ويخضعون لاشرافها ، ثم كان لديه ديوان الرسائل الذى يجرى

(8) Thompson « op. iit. » p. 481.

(9) Ibid.

(١٠) ديفز « شارلمان » ص ٢٢٢ .

فيه تحرير القوانين والعهود وفقا لصيغ معروفة ، وصاحب ديوان الرسائل هو المسئول الأول عنه ، وكان يسمى المستشار وهو من رجال الكنيسة^(١١) .

وقد تمتع الموظفون الكنسيون فى بلاط شارلمان بالصدارة وهذا يجيزه الطابع المزدوج لحكم شارلمان .

وقام مجلس البلاط بدور كبير فى خطة حكومة الفرنجة وهو أرسقراطى فى تشكيله لأن الجمع الذى يحضر المجلس الوطنى الكبير لا يدبر الأمور فان ذلك امتياز بل واجب انفرد به الزعماء الذين يعتبرون موظفين بالامبراطورية لأن منهم أساقفة ورؤساء أديرة وكونتات ودوقات وأمراء أطراف « ماركيزات » ولا يتولى العلمانيون وظائفهم الا بمشيئة الامبراطور وارانته^(١٢) .

والمعروف أن طائفة الموظفين المدنيين زمن شارلمان ان صح استخدام هذا المصطلح للدلالة على رجال تابعين لمهنة غير معينة فى ذلك العصر أعوزها العدد والمهارة والأمانة أو لم يكن عملا سائرا حسب أى نظام ، واذا أصر الامبراطور على النظر فى كل شىء بنفسه ، فان كثيرا من المسائل الخطيرة مرت دون أن تسترعى أيما انتباه على حين استرعت أمورا تافهة اهتماما ليس بعده اهتمام . والواقع أن فقدان النظام الثابت أدى الى فقدان الحكم العادل بين الناس والى تهاون الموظفين فى تنفيذ المرسومات الامبراطورية أو تنفيذها على صورة جائرة كما أدى الى قلة الضبط والرقابة على الأساقفة والكونتات الذين بيدهم شئون الحكومة المحلية فى الإقاليم ، غير أن عزمات الامبراطور المهيب خففت من تلك الآفات مدة اذ دأب شارلمان على التنقل فى أرجاء امبراطوريته من جهة الى جهة ومن ناحية الى أخرى ليتفقد أفراد الرعية وأحوالهم ، وينصف شكواهم ويجعل شخصه فى متناول الجميع

(11) Thompson «op. cit.» p. 479.

(12) ديفز « المرجع السابق » ص ٢٢٤ .

من الناس ، حتى اذا لم يستطع أن يقوم على ذلك بنفسه ارسل المبعوثين
الامبراطوريين للقيام على هذه المهام نيابة عنه (١٣) .
ولا بد لنا أن نفصل هذه المقتطفات حتى نصل تماما الى النظام
الذى سار عليه شارلمان فى الامبراطورية .

النظام الادارى :

كان الجهاز الحكومى الذى سيطر به شارلمان على شئون
امبراطوريته الضخمة جهازا غلبت عليه السمة الجرمانية شأن الجهاز
الذى استخدمه الميروفنجيون .

كان يعاون الملك مجلس مكون من أولئك الرجال المخلصين الذين
اختار الملك أن يعتمد عليهم وهم فى أغلبهم حكام علمانيون أو كنسيون
يمثلون الأقاليم التى تنقسم اليها هذه المملكة ممن يحملون ألقاب كونت
ودوق وأمراء التخوم أو الأطراف النائية ، وكذلك من الأساقفة ورؤساء
الإديرة (١٤) .

وكان الأمراء والأدواق يعينون أو يعزلون بمشيئة الملك وحده
لكنهم كانوا فى الغالب رجالا يملكون ضياعا واسعة آلت اليهم بحق
الوراثة وبناء على ذلك فقد كانت مناصبهم الرسمية تنزع الى أن تكون
فى واقع الأمر وراثية أيضا يطالبون بها كأنما هى حق مكتسب لهم
وكانت هذه هى الحال بصفة خاصة فى المناطق النائية التى لم تفقد
الا من وقت قريب ما كان لها من نظام لا يكاد يفتقر عن الاستقلال
على أن هؤلاء الحكام الكبار كانوا دائما معرضين للعزل بناء على ارادة
الملك كما حدث لدوقى اكويتين وسوابيا (١٥) . ومن أهم مهام الكونتات
فى بادئ الأمر أنهم كانوا مندوبين على الملك فى حكم الأقاليم

. (١٣) فشر « المرجع السابق » ص ٩٧ .

(14) Thompson «op. cit.»

(15) Ibid.

فيقوم الكونت بقيادة قوات الأمن وممارسة القضاء وجمع الضرائب في الاقليم الذى يحكمه ويعرف باسم باجوس Pagus وينقسم الى وحدات تعرف بالمئينية Centenae تولى حكمها موظفون أقل رتبة اشتهروا باسم حكام المئينيات وهم الضباط للأقسام الادارية الاقليمية ، على أن حاكم المئينية عند الفرنجة كان يختاره أصلاً ملاك الأراضي وفى العصور المتقدمة كان يرشحه الكونت ، والمئينية تنقسم أيضا الى أعشار أو بلاد العشور Tithing ونسمع أحيانا عن متولى العشر الذى يفتسم مع قسيس الأبروشية حكومة هذا المجتمع الصغير (١٦) .

كان بالاقليم الذى يحكمه الكونت ممثلون عنه عند غيابه من أهمهم الرؤساء Vicars والفيكوتات على الترتيب ، وكان الكونت يدافع فى دائرته المحدودة عن الملك ولا يعتبر مسئولا الا أمام الملك وحده ، على أن التقاليد لم تزال تتطلب منه عند ممارسة القضاء أن يهتدى بمن فى اقليمه من الرجال الأخيار العدول الذين يطلق عليهم « المحلفون » .

وما كان يعقده من المحاكم فى الاقليم وفى بعض المقاطعات « المئينيات » لم تكن سوى مجالس قومية ، اذ أن طائفة من الذين يشهدون المحكمة تستمع الى ما يؤديه المتقاضون وأصدقاؤهم من ايمان وتراقبهم أثناء الحكم ، وتقضى باعتبارها من المحلفين بمقتضى البيئة وتصدر الحكم على أساس قانون العرف .

فالكونت من الناحية النظرية لا يتصرف الا على أنه رئيس المحكمة والمتحدث باسمها وفى المحكمة يجرى كل ما للاقليم من مصلحة عامة ،

(16) Moss. «op. cit.» p. 256.

ديفز « شارلمان » ص ٣١ .

Thompson «op. cit.» p. 480.

فيتم إصدار القوانين والتصديق عليها وتقدير الضرائب وجمعها وإعلان الخدمة العسكرية وتقرير زمنها ومكانها وصفتها (١٧) .

فالحكمة ليست جمعية تنعقد في الهواء الطلق ، إذ يجتمع المتقاضون في مبنى المحكمة والجمعية العامة للاقليم درجت على أن تنعقد في مقر الكونت ، ووجود هذه المراكز والمراكز لا يثير الدهشة عندنا إذ أن أبسط المجتمعات وأصغرها تحتاج إلى ما تلوذ به من الأماكن ، ولم تكن دار الكونت تريد على ذلك .

ومن الدور المقامة على الحدود في بواتو وأوفرني وفي اقليم بريتانى وفي هسي وثورنجيا جرى ذكر عدد كبير منها في الأوقات التي سادت بها الاضطرابات . وهذه اتخذت مواقع ليس لها من امتياز سوى أنها مواقع دفاعية . ويتحدث المؤرخون عنها على أنها حصون ومعسكرات وما كان منها في بواتو أطلقوا عليها صخورا وثقوبا ومنها أماكن اشتهرت بأنها أكبر حجما وأعظم أهمية . ففي غرب الراين يشترك الباجوس مع الاقليم الروماني في الحدود فظهرت عاصمة الاقليم من خلال خرائب مدينة رومانية أو من داخل أسوارها المحطمة . وهذه المدن الصغيرة كانت دائما عظيمة الأهمية ، ولم تكن فورمز وكلن وترييه ومتر وماينز في الشرق وباريس ولاؤن ونوبون وسواسون في نوستريا وليون وهرسيليا وفاربون في الجنوب إلا أسماء تكرر ذكرها في تواريخ هذه الأرملة . ومن هذه المواضع ما يرجع وجوده إلى أزمنة الرومان ، وإذا كان للصينغ والعبارات القانونية أهمية فإن من هذه المواضع بجنوب غالة ووسطها ما احتفظ ببعض آثار دستور البلدية الرومانية إذ نسمع عن مجلس شيوخ المدينة Curia

وعن دار المحفوظات Gasta-Municipalis وعن حامي المدينة Defensor Civitates وهو موظف استحدث وظيفته في القرن الرابع الإمبراطور فالنشيان .

(١٧) ديفز « المرجع السابق » .

أما الموثقون الذين ندين لهم بهذه الاشارات ، فانه بلغ من شدة حرصهم على حرفية قانون ثيودسيوس أنهم استخدموا ألفاظا لاتينية لنظم تيوتونية • فكيفما كان الأمر فليس لهذه الآثار الباقية أهمية تذكر • ففي المدينة الصغيرة أو في الإقليم طغت قوة الكونت الاستبدادية على كل شيء وتشير كل الدلائل على أن المدن الصغيرة اندمجت لأغراض إدارية في الإقليم الذي تنتمي إليه (١٨) •

وبذلك يتضح أن شارلمان سار على نفس النظام الإداري الذي جعل من الكونت حاكما للإقليم ، كما أنه بفضل ما اشتهر به من شخصية قوية وفتوة دافعة استطاع أن يحافظ على ما أقامه من وحدة الإشراف والخبط على أملاكه المترامية الأطراف ، وقد خول للكونتات مراجعة أتباعهم ورقابة أعمال موظفي السادة الاقطاعيين من الكسبيين والعلمانيين سواء (١٩) •

أما عن الأساقفة الذين يعينون في نفس الأقاليم التي يعمل بها الكونت فكانوا يشغلون وظائفهم بتفويض من الملك أيضا • فإذا كان الكونت يشغل وظيفته بتفويض فعلى ، فالأسقف يشغلها بتفويض ضمنى وكان تعيين رؤسيتها من اختصاصهما وحدهما • وكان تقسيم الأبروشيات الى شماسيات وتقسيم الشماسيات الى عمديات تحت إشراف رؤساء القساوسة عرفا متبعا منذ العهد الذي بدأت تنتشر فيه المسيحية من المراكز المدنية الى المراكز الدينية (٢٠) •

نظام المبعوثين :

كان لرغبة شارلمان القومية في احكام السيطرة على مملكته ، وتأكيده من تنفيذ جميع قراراته وحسن تطبيق الكونتات والأساقفة

(١٨) ديفز « المرجع السابق » ص ٣٢ •

(19) Moss. «op. cit.» p. 259.

(20) Thompson «op. cit» p. 481.

لما يصدر اليهم من أوامر لصالح المملكة أن قام بالاهتمام بنظام المبعوثين الملكيين .

لم تكن هذه الوظيفة جديدة على دولة الفرنجة ، اذ عرفت في العصر الميروفنجي عندما كان أي رسول موحد من القصر الملكي في مهمة خاصة يحمل لقب مبعوث *Missus* فقد كان يبين القصير وشارل مارتل قد اعتادوا على ارسال مبعوثين لمراقبة أحوال الدولة كان يطلق عليهم *Missi - dis Currents* (٢١) لكنه حدث في عصر شارلمان أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨٩ م عندما بلغت الدولة الكارولنجية أقصى اتساعها بعد غزو بافاريا أن أصبح لهؤلاء المبعوثين أهمية كبرى بوصفهم مندوبي شارل العظيم الذين يحملون تعليماته ومراسيمه الى الأقاليم والحكام ، ويجمعون أخبار تلك الأقاليم . وهؤلاء الحكام لعرضها على الملك في العاصمة وليتأكدوا من طاعة هذه الأقاليم والتزامها بتعاليم شارلمان (٢٢) .

وبمقتضى ذلك النظام قسمت المملكة بأجمعها الى مجموعات تتألف كل منها من عدة كونتيات يطوف بها اثنان من المبعوثين كل عام أحدهما من رجال الكنيسة والآخر من العلمانيين ويتوليان الشئون القضائية .

وكان مجال واجباتهما كبيرا ومتعددا ، فلم يكن من واجبهما فقط الاشراف على يمين الولاء الذي تقسمه الرعية للامبراطور ، وأن يتحققا من انتظام ورود إيرادات غابات التاج وممتلكاته ، وأن المراسيم مفهومة ومنفذة ، وأن المجرم يلقي جزاءه على جريمته وأن العدالة تجري مجراها وأن الخدمة العسكرية تنفذ على وجهها الصحيح ، بل لقد أمرا .

(21) Oman «The dark ages» p. 378.

(22) سعيد عاشور « التهضات الأوربية » ص ٧٦ .

Oman «op. cit.».

كذلك بالتفتيش على الكنائس والأديرة لكى يتأكدوا أن القسس يراعون نظمهم وأن الرهبان يتبعون باخلاص قواعد القديس بندكت وأن أصدره الامبراطور من لوائح عن ترانيم الصلوات ينفذ وأن كتب الايمان مطهرة من كل خطأ وأن المباني تصان وأن الشعب يحضر القداس في أيام الآحاد ، وأن يعرف عقيدته فيعلم قانون الايمان وبذلك أطلق عليهم لقب Missi Dominici (٢٣) .

والراجح أن المبعوثين في المرحلة السابقة على التتويج (٧٦٨ — ٨٠٠) قاموا بجولاتهم في فترات غير منتظمة الى أية جهة بالمملكة . استرعت من الملك اهتماما خاصا ، فمثلا حدث سنة ٧٩٠ م حين ترتب على افعال لويس التقى الارتباك في مالية مملكة أكتيانيا أن أرسل شارل اثنين من مبعوثيه لتحقيق ما هو مطلوب من الاقتصاد والاصلاح . ويقوم المبعوثون بالطواف بأنحاء المملكة كلها مرة أو مرتين . ففي سنة ٧٨٩ ، ٧٩٠ كلفهم بأن يحصلوا على يمين الولاء من جميع الرجال : « والآن أعد سيدى شارل وأولاده بأننى رجله المخلص . وسوف أكون كذلك كل أيام حياتى » . وفى الجولة الثانية صاروا يتحرون أيضا عما اذا كان الكونتات فى كل اقليم يحكمون بين جميع الرجال وفقا لقانونهم الوطنى ، كما قضت بذلك ارادة الملك . وأول واجبات المبعوثين أن يستمعوا الى الشكاوى ضد الكونت وأن يلزموه اذا دعت الضرورة بأن ينصف هؤلاء الشاكين ، واذا لم يمتثل الكونت لأوامرهم زاروا مقره الرسمى وأقاموا به وتكفل بنفقات اقامتهم حتى يكسب ودهم فيحقق ما طلبوه منه لصالح المدعى المظلوم ، ثانيا : يقومون بمساعدة الكونت اذا قام تابع كبير من أتباع الملك بعرقلة العدالة . ثالثا : يشاركون الأسقف بما يقومون به من زيارات دورية فينزلون العقوبة بكل رجال الدين العلمانيين منهم والنظاميين الذين يتهاونون فى

(23) Lavissee «Histoire de France» Vol. II p. 319.

Stewart C. Eastan «The Era of Charlemagne» p. 142.

نظام الكنيسة ، رابعا : يقومون بالاشراف على كل ما يمنحه الملك من أراضي التاج بالاقليم من الضياع المحبوسة على الخير ويثبتون كل الحالات التي جرى فيها سوء استعمالها أو اهمالها ويقررون الضرائب والخدمات المطلوبة ، خامسا : يتحرون كيف يتحقق شرط الخدمة العسكرية. وعما اذا كان الكونت قام بتنفيذه على ما ينبغى القيام به (٢٤) .

وقد دأب المبعوثون على رفع تقاريرهم الرسمية الى مجلس البلاط الذى كان ينعقد لهذا الشأن فى الخريف من كل عام ، وعلى ضوء ما يتلقاه شارلمان من معلومات يصدر قوانينه ويضع سياسته (٢٥) .

ومع ذلك فان الوظيفة ما زالت فى هذه المرحلة فى مبدئها ومستهلها فلا نسمع فى هذا الوقت عن جولات معينة ، ولم يكن للمبعوثين محكمة خاصة تمتاز عن محكمة الكونت ، فاذا ظهروا حجبوه فترة من الزمن أو جلسوا الى جانبه فى دست المحكمة لينظروا أنه يحكم دون وجل أو محاباة ، على أنه لم يرد فى هذه القوانين المبكرة ما صار لهم فيما بعد من اختصاصات عديدة . فلم يكن المبعوثون يتخذون من فئة ممتازة ، بل جرت العادة باختيارهم من بين فقراء أتباع الملك (٢٦) .

ومن أهم الاجراءات التى اتبعها شارلمان للمحافظة على دقة نظام المبعوثين أنه لجأ الى عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين فى دوائرهم بل نقلهم كل عام قبل أن ينشئوا علاقات ، وتصبح لهم مصالح مع أهالى الدائرة ، وبهذه الطريقة ضمن شارلمان قيام المبعوثين بواجبهم فى التفتيش على الكونتات والأساقفة تفتيشا دقيقا (٢٧) .

كان الامبراطور يزود المبعوثين بالتعليمات والنصائح اللازمة

(٢٤) ديفز « المرجع السابق » ص ١٤٢ .

(25) Stephenson «Medieval History» p. 180.

(٢٦) ديفز ص ١٤١ .

(٢٧) عاشور « النهضة الأوروبية » ص ٧٧ .

التي تمكنهم من السيطرة على أرجاء الامبراطورية ، والتي تساعدهم على تنفيذ تعليمات الامبراطور .

وهناك المرسوم العام الذى أصدره شارلمان لمبعوثيه سنة ٨٠٢ وفيه يتضح أنه كان يختار مبعوثيه من الرجال المسيحيين الأتقياء ومن النبلاء ورجال الدين . وكان يبين لهم أنهم مسئولون عن التحقيق فى جميع الشكايات والمظالم التى تقع على الناس بما يرضى الله ويرضى ضمائرهم . ومن خلال البنود التى شملها المرسوم نلمح أنه حاول أن يطمئن رعاياه بأن العدل والحماية ستشمل جميع سكان امبراطوريته ، فكان يقول : انه لن يتجرأ أحد مطلقا على سرقة أو نهب أية كنيسة من الكنائس ، كما أن الأزمات واليتامى والحجاج الذين يحتاجون من يحميهم من اللصوص والقتلة ، سيجدون الحماية فى شخصه وفى رجال مملكته (٢٨) .

الى جانب أنه حذر الكونتات وحكام الأقاليم من استبعاد أى فرد من الالتحاق بجيوش الامبراطور ، بسبب قرابة أو رشوة أو أى وسيلة من وسائل التملك . الى جانب أنه بين للمبعوثين ضرورة الاهتمام بموضوع الضرائب المفروضة على سكان الامبراطورية ، والتأكد من أنها تجمع وتورد لخزينة الدولة ، وأن جميع من يستحقون دفع الضرائب قد قاموا بتسديدها لا يستثنى منها أحدا لأى سبب من الأسباب .

ولم تكن التعليمات التى صدرت للمبعوثين تخص الدينين فقط بل شملت رجال الدين ايضا ، فقد شمل المرسوم التزام بضرورة امتثال مقدمى الأديرة والرهبان للأساقفة بالطاعة ، والعمل بدستور الكنيسة والدير ، كما أنه أمر مقدمى الأديرة أن تكون لهم مهابة وسيطرة على الرهبان ، وأن يعاملونهم بأسلوب لين ، ويبتعدوا عن الخشونة والجفاف .

(28) Stewart Eastan «The Era of Charlemagne» p. 144.

انظر الترجمة الكاملة لنص الوثيقة فى نهاية الكتاب .

الذى ينفر الناس منهم ، وبذلك ييثون الرحمة والمحبة فى قلوب رعاياهم وتصبح هذه الصفات هى السمة المميزة لهم .

ومن ناحية أخرى طالب الرهبان أن يعيشوا فى أديرتهم حياة صارمة طبقا لقانون الدير ، أنه اذا فتر الدافع الدينى فى قلب الراهب ، فهذا يؤدى الى استياء الرب (٢٩) .

وعلى الرغم من جميع هذه الاحتياطات والتدابير التى اتخذها شارلمان الا أن المبعوثين الملكيين تعرضوا فى كثير من الأحيان للرشوة ومحاولة الاستمالة .

وخير دليل على هذه الحقيقة ما خلفه لنا ثيودولف أسقف أورليان فيما سماه « نصيحة الى القضاة » حيث كان مبعوثا ملكيا فى وقت من الأوقات الى منطقة الجنوب فى فرنسا ، فكان ما كتبه ثمرة الخبرة التى اكتسبها .

يرى ثيودولف « أن أسوأ العيوب هو شيوع استخدام الرشوة للحصول على حكم فى صالح الراشئ فكل انسان فاسد ومرتشى ، الحajib على بواتيه والمستشارون القانونيون على منصتهم ، بل ان زوجة القاضى نفسها قد أغواها فريق له مصلحة خاصة » .

ومن الجلى أن ثيودولف عالج فى حديثه كثيرا من الأشياء التى حاول الكثيرون ارشائه بها منها الألوانى الزجاجية والجواهر الشرقية والنقود الذهبية الرائعة التى تحمل حروفا عربية والديباج الموشى بأشكال الثيران وبنماذج هندسية ذات تصميم أسوى وهناك أيضا الأسلحة والخيل ، على أن أثمن هذه الكنوز جميعا وعاء من الفضة يرجع الى عهد الامبراطورية الرومانية يحمل ظاهره نقوشا بارزة توضح أعمال هرقل اليومية . أما المتناضون من الفئات المتواضعة فلم يكونوا أقل اصرارا على تقديم ما لديهم من هدايا جلود قرطبة المبيضة أو

المصبوغة والمنسوجات الكتانية والصوفية والأحذية والقبعات والقفازيات فضلا عن مناقش الوجه على حين أن شخصا ماكرا عرف فيما يحتمل ذوق الأسقف الأدبي فأخرج اليه لثافة ورق الكتابة الأرجواني مبتسما ابتسامة الظفر بالأرب ، لكن القاضى النزيه يرفض كل هذه الهدايا . على أنه ربما قبل بعض الهدايا الصغيرة من بعض الأصدقاء رغبة فى عدم جرح مشاعرهم مثل ثمار الحدائق والبساتين والخبز والبيض والجبن المصنوع من لبن الماعز وصغار الدجاج اللينة والطيور الصغيرة حجما واللذيذة طعما^(٣٠) .

هذا وقد تعرض نظام المبعوثين فى نهاية عهد شارلمان لأخطار غير الرشوة التى عرضنا لها ، وهى نهوض الأرستقراطية الاقليمية نهوضا أخذ يشكل خطرا على الحكومة ، فقد كان من المبعوثين نبلاء من البلاط الملكى يتولون مناصب الدوقات والكونتات ، ويختارون اختيارا دقيقا من المخلصين للملك وكثيرا ما كان الطموح أو الطمع يغلب على هؤلاء النبلاء ، فأخذوا يثبتون أقدامهم فى المجتمعات الاقليمية ويحولون ألقابهم وممتلكاتهم الحكومية الى ملكية تخضع للارث ، وقام من جراء ذلك مظهر للتفكك السياسى زادت حدته بعد وفاة شارلمان ولم يعد فى موسوع أحد من هؤلاء النبلاء أو النفعيين من أصحاب المصلحة الذاتية أن يقاوم العوامل الحادثة التى عجلت باضمحلال النفوذ الكارولنجى فى القرن التاسع^(٣١) .

المراسيم والتنظيمات الامبراطورية : Capitularies

لم يكن شارلمان بصفة خاصة قائدا عسكريا وحاكما ثيوقراطيا ، وانما بذل جهودا فى اقامة نظام ادارى له من الفعالية

(30) Moss. «op. cit.» p. 263.

(31) كانتور « تاريخ العصور الوسطى » ترجمة على الغمراوى ص ٦٦

ما جعل من دولته دولة لها طابع خاص نهضت فيها بيروقراطية تعتبر من أقوى وأنشط البيروقراطيات •

وتضمنت المرحلة الأولى من اصلاح الحكومة الكارولنجية تأسيس مكتب للمستشارين يتولى العمل فيه علماء ديريون لأصدار الوثائق فى شتى نواحي حياة مجتمع الدولة والكنيسة التى يهتم أمرها الملك • وقد صدرت الوثائق الملكية الكارولنجية هذه فى صور مجموعات شرائع تسمى Capitularia تتناول كل منها تباعا مختلف المشاكل • والمشاكل التى تواجهها الحكومة تلك الكابيتيولاريا التى تعتبر فى الواقع امتدادا للمراسيم الرومانية الامبراطورية فى صورة جديدة مغايرة (٣٢) فعلى سبيل المثال يفرض مرسوم يحض الكنيسة على رجال الدين أن يوفوا بالتزاماتهم التربوية وأن يعيشوا وفق النظام والتقليد الواجب اتباعه بينما تخاطب مجموعة أخرى من الشرائع أولئك القائمين على تدبير شئون الضياع الملكية بالتعليمات الضرورية لإدارة الأقطان المنوط اليهم أمر ادارتها ومدعاة مثل هذه الأوامر أن ممثلات الملك الكارولنجي كانت تمثل المصدر الأول من دخله • ونرى مرسوما آخر يستخدم مقدرات الوعى فى مشكلة دعوة الجيش الى الحرب • فقد كان النظام العسكرى للدولة الفرنجية لا يزال قائما على المبدأ الجرمانى الذى يقضى على كل القادرين على القتال أن يسارعوا بالانضمام الى الجيش الملكى بكل ما يستطيعون حمله من أسلحة الضرب والنزال • ولما كان شارلمان والوزراء يدركون عدم الجدوى فى هذا النظام فقد صدرت هذه الشريعة بقصد أن تتحد القرى وتتكاتف لارسال فرسان بدلا من هذه الجمهرة من الناس لأن هذا يفوق فى جدواه كل

(٣٢) المرجع السابق ص ٦٥ •

• جموع الفلاحين الذين يسارعون بالعصى والمناجل كيفما اتفق (٣٣) •

وقد يكون من قرارات شارلمان على الاطلاق ذلك القرار الذى تناول مشكلة الحكومة المحلية ، فحينما كان الملك يحل مع مستشاريه وبلاطه وجيشه فى أية بقعة من بقاع الدولة ، لم تكن هناك بطبيعة الحال صعوبة فى تأكيد الولاء على أهالى المحل ، ولكن الصعوبة فى تأكيد هذا الولاء كانت تتوافر فيما وراء المناطق التى وصلت فيها وسائل المواصلات والنقل الى درجة من السوء والانقطاع ولذلك كانت مسألة السيطرة على الدوقات والكونتات المحليين شاغلى البلاط الملكى ، ونعرف أن هذه المسألة أرقّت الميروفنجيين وأن انخفاقهم فى مواجهتها كان عاملا من عوامل انهيار السلطة الملكية فى القرنين السادس والسابع ، فظل بذلك عقبة أمام الكارولنجيين ، بل انها ظلت مشكلة قائمة تواجهها الدولة فى العصور الوسطى ، وقد توصل الكارولنجيون الى ارسال ممثلين للبلاط الملكى فى نوبات دورية للتفتيش على الموظفين المعومين. حتى يحولوا دون انضمامهم الى الأرستقراطية المحلية — كما ذكرنا •

ويرى أستاذنا الدكتور سعيد عاشور أن هذه المراسيم التتابعية كان هدفها اقرار النظام والعدالة فى الدولة وكان طابعها العام التسرع وعدم الدقة ، كما يؤخذ عليها أنها على الرغم من سلامة هدفها لم تحاول أن تتعرض لجذور الفساد الحقيقية فى الدولة (٣٤) •

(٣٣) كانتور « المرجع السابق »

Stewart Eastan «op. cit.» p.p. 142-148.

ملحق مترجم فى نهاية الكتاب

عن نماذج من الأوامر والمراسيم التى اصدرها شارلمان الى مبعوثيه ليقوموا بتنفيذها •

(٣٤) سعيد عاشور « النهضة الأوربية » ص ٧٨ •

القوانين والتشريعات فى عصر شارلمان

إذا أردنا أن نتحدث عن جهود شارلمان فى مجال القانون والتشريع نجد أنه يقل كثيرا عن معاصريه من البيزنطيين ، وعن الرومان القدماء الذين كانت لهم يد طولى فى هذا المضمار .

وإذا أردنا أن نقارنه بغيره من المجموعات الجرمانية نجد أن القوط الشرقيين يفوقونه من حيث مجموعات القوانين التى خلفوها لنا والتى نظمت مجتمعاتهم فى ظل الديانة المسيحية .

أما إذا عقدنا هذه المقارنة مع ملوك الفرنجة سواء أكانوا من الميروفنجيين أو الكارولنجهين ، نجد أن شارلمان له الصدارة ، وإن تشريعاته وقوانينه ومراسيمه وتنظيماته ومبعوثيه الذين تحدثنا عنهم يمثلون نظاما دقيقا وتقدما ملموسا فى هذا المجال .

لم يقدم شارلمان تعديلات هامة فى مجال القانون ، وأهم ما قدمه فى هذا المجال أنه اختار مجموعة من القضاة الأكفاء ليقوموا بتنفيذ الأحكام القضائية ، وهؤلاء أطلق عليهم لقب *Scabini* وهم مشرعى القوانين الذين يستطيعون أن يصدروا الأحكام المناسبة لكل موضوع من الموضوعات . وفى داخل إيطاليا نفسها كانت الحكومة الكارولنجية تصدر ملاحظات رسمية لمشرعى القوانين حتى تعطيهم صورة واضحة ومعلومات تخص عادات وقوانين الغزاة الجرمان .

كما كان الكارولنجهيون يصدرن هذه التعليمات أيضا الى البافاريين والألمانى والسكسون والفريزيان وغيرهم . أما فى الأراضى الفرنجية القديمة فانها استمرت على قوانينها المنبثقة من أحكام الفرنجة الأوائل مع بعض التعديلات البسيطة (٣٥) .

والآن لا بد لنا أن نحدد نوعية هذه القوانين والتشريعات التى

(35) Stephenson «The Carolingian Empire» p. 181.

نظمت دولة الفرنجة الكارولنجيون والامبراطورية الغربية على عهد شارلمان •

فالمثبت تاريخيا أن شارلمان كما سماه المؤرخون — الصليبي الأكبر جعل من الدين والكنيسة الأساس الأول في تنظيماته وتشريعاته • فأول مرسوم أصدره شارلمان ارتبط بأمر كنسية وبعدها أصدر مرسوما آخر لاصلاح دستور كنيسة الفرنجة^(٣٦) •

ولم تكن قوانين هذه المرحلة كثيرة العدد ، فمنها اثنان يرتبطان بسكسونيا وثمانى بايطاليا وخمسة تتعلق بكل المملكة ، على حين أن ما وجهه الى المبعوثين من ارشادات عديدة يفسر تفصيل الادارة ولم تجر هذه القوانين أيضا على نظام معين فالاجراءات الهامة ظلت مغمورة فى مجموعات من القوانين الكنسية جرى نسخها حرفيا من المجالس القديمة ومن الالتزامات بمراعاة يوم الأحد ، وحضور القداس ، وحسب العدالة والاعتقاد فى اله واحد^(٣٧) •

ونرى أن نظام المبعوثين من أهم الأعمال التى ترتبط بالقانون والتشريع ، وان صفة الرقابة وتنفيذ القرارات التى يصدرها شارلمان للمبعوثين سواء كانت فى مجال الادارة أم فى مجال الدين كلها تؤكد على أن القانون كانت له السيادة التامة على دولة شارلمان •

ومعظم التشريعات التى يصدرها شارلمان حتى للمدنيين تحمل فى مضمونها أهدافا دينية تحث على الأخلاق والفضيلة وتمنع من مجافاة الكنيسة • كما تدخل كما رأينا فى بعض المسائل الدينية المعاصرة التى عالجناها فى الباب السابق مثل مشكلة اللايقونية التى سادت فى الدولة البيزنطية فى عصره ، والتى رد عليها فى الكتاب الكارولنجى سنة ٧٩٠ م ومشكلة التبنى وهرطقة ومن الابن Filioque بل وأكثر من ذلك

(36) Lamb «Charlemagne» p. 197.

(٣٧) ديفز « المرجع السابق » ص ١٣٩ •

أنه رأس مجمع فراנקفورت الدينى سنة ٧٩٤ م ، الى جانب أنه شرع القوانين اللازمة للكنيسة ووضع لها دستورها (٣٨) .

فمن ناحية الدستور فانه جريا على نهج القديس بونيفاس اعاد السلطة للمطارنة وحدد أقاليمهم ، وأقر ولاية رؤساء الأديرة على رهبانهم وولاية الأساقفة على كهنتهم وجعل دفع العشر واجبا قانونيا يلتزم به جميع العلمانيين ، وجعل الحكم بحرمان الشخص من الكنيسة نافذ المفعول فى القانون ونظم حقوق الاعفاءات وجعل الدعاوى التى بين رجال الدين ، وسائر الأفراد يتولى سماعها الكونت ، والأسقف معا .

أما من حيث النظام فانه منع رجال الدين من الزواج أو اقتناء الجوارى أو دخول الحانات أو حمل السلاح أو ممارسة الصيد . وتطهير الصقور والصيد بها أو الاشتغال بأعمال دنيوية ، وشرح للأساقفة طبيعة أعمالهم ، وأنهى للعلمانيين بالجالالت الثلاث التى يجوز فيها قانونا أن يعملوا يوم الأحد وهى القيام بنقل أثقال الجيش ، ونقل الميره ودفن الموتى ، وغير طقوس الكنيسة والجانها وقرر كتابا جديدا للمواعظ ، وقرر ما اعتبره صالحا من الصوم والصلوات على أنه كلما رجع الى رأى البابا فى كل هذه التدابير ، على أنه فى حالة من الحالات أجاز للبابا هادريان بأن يقوم بتسوية حدود أقاليم اكس وأسبوروم وتارنت ، وفى حالة أخرى سمح له بأن يوافق على نزول رئيس الأساقفة انجيلوم بالقصر بصفة مستمرة ، وللبابا أن يقترح الحيانا اجراء اصلاح من الاصلاحات ، على أنه لا يستطيع أن يأمر به حتى فى المملكة اللومباردية (٣٩) .

ومن أهم الأعمال التشريعية التى خلدت اسم شارلمان هى قيامه بتدوين التراث التشريعى والقانونى لجميع القبائل والشعوب التى

(38) Pirenne «A history of Europe» p. 85

(٣٩) ديفز « شارلمان » ص ١٤٣ .

خضعت لحكمة خاصة السكسون والفريزيان والثورنجيين • وقام بذلك بعد تنصيبه امبراطورا^(٤٠) فكان الغالبون الرومان يسيرون على موجز قانون الريك Breviarium — Alarici وهو موجز قانون ثيودسيوس الذى جرى تصنيفه أصلا للقوط الغربيين بأكتيانيا فى سنة ٥٠٦ م ثم صار اتخاذه فيما بعد مجملا شاملا •

كما قام شارلمان أيضا باصلاح قانون الفرنجة الذى كان ناقصا حتى عهده ، فكان لهم مجموعتان من القوانين الشريعة السالية التى تحذر على الاناث وراثته العرش وشريعة البحريين الخاصة بالفرنجة البحريين •

وهاتان الشريعتان مختلفتان فى كثير من بنودهما • فقرر شارلمان ضرورة تعديل كثير من هذه البنود المتضاربة ، واصلاح جميع القرارات الغير سالحة ، والتي يعتبر وجودها والتعامل بها ضار على مملكته^(٤١) •

ويرجع أساس هذه التعديلات والاصلاحات الى التوصيات التى أوصى بها المبعوثون ، وما أخذت به محاكم الكونتات من اليمين على ألا تتبع من القوانين سوى قانونه ، وأعقب ذلك بأن أصدر مجموعة من الملاحق والمتجددات القانونية للمرسومات القانونية Capitula Legibus addenda لم ينطبق منها على كل القوانين الا مرسوم واحد أما الأخرى فاقترض تطبيقها على قوانين بعض الأمم^(٤٢) •

ومن أهم الأعمال التى قام بها شارلمان وخلفها الأجيال الفرنجة حفظ التراث القومى لشعبه ، فقام بجمع وتسجيل جميع الأغاني التى تغنوا

(40) Einhard «op. cit.» p. 57.

(41) Ibid.

(٤٢) ديفز « المرجع السابق » ص ١٩٩ •

فيها بأعمال ملوكهم وحروبهم وحفظها للذكرى والتاريخ^(٤٣) .

ومن أهم تشريعاته أنه اهتم بلغة الفرنجة القومية فدرس قواعدها الى أنه غير أسماء الشهور الرومانية القديمة — والمتداولة بين الفرنجة بأسماء تحمل لغته القومية ، كما غير أسماء الرياح بأسماء أخرى .

وعلى سبيل المثال أطلق على شهر يناير Wintar Manoth
وفبراير Hornung ومارس Lentzin Manoth ... الخ^(٤٤) .

ويرى أستاذنا الدكتور عاشور أنه على الرغم من جهود شارلمان السابقة في تحسين النظم القضائية وتدوين القوانين وتحقيق العدالة عن طريق التمسك بشهادة الشهود . إلا أن الرشوة ظلت سائدة والعدالة استمرت مهضومة حتى يؤس أصحاب الحقوق وفوضوا أمرهم الى الله ويبدو أن شارلمان على الرغم من حماسه وجلده على العمل كانت تنقصه مواهب المشرع الناجح ، فلم تمس تشريعاته جوهر الحقائق ، ولم ينفذ من قوانينه الا نسبة ضئيلة تكاد لا تبلغ العشر^(٤٥) .

كما أن لثيودولف أسقف أورليان انتقادات شديدة لما فى القانون الجنائى من شذوذ وانحرافات بالغة فبمقتضاء صارت جريمة السرقة عقوبتها الاعدام ولا يعاقب مرتكب جريمة القتل الا بغرامة تافهة وهذه الانحرافات لم يجر مس أصلها ، وتقرر دفع ديات رجال الدين فى كل القوانين ووسيلة الديات تعتبر فى ذاتها مسألة لا تهم الامبراطور^(٤٦) .

المنظمات المالية :

كانت الادارة المالية بدائية ، اذ ان نظام الخدمات العامة المحكم الذى كان لدى الرومان قد اندثر فى عهد الميرفنجيين وجعل نظام

⁽⁴³⁾ Einhard. p. 57.

⁽⁴⁴⁾ Ibid. p. 58.

(٤٥) سعيد عاشور « النهضة الأوربية » ص ٧٩ .

(٤٦) ديفز « المرجع السابق » ص ٢٠٠ .

الضرائب فى أبسط الصور ، اذ اقتصر على رسوم المعديات وعلى مكوس الطرق والدخولية فضلا عن المكوس المفروضة على حيازات فردية معينة ، وكان يطلب من الناس فى بعض حالات معينة صيانة الطرق والكبارى والتحصينات ، فضلا عن استضافة مندوبى الامبراطور ومدهم بالمؤن • على أنه ينبغي ألا نضلنا اللوائح والتنظيمات الكثيرة والتفصيلية التى نجدها فى مجموعات الأوامر والمرسيم التى أصدرها شارلمان رغبة فى تنظيم التجارة وضبط الأسعار تضليلا يخفى عنا الحقيقة المجردة وهى أن المبدأ الذى تقوم عليه مالية الدولة عنده وعند غيره من ملوك الجرمان تقوم على فكرة الخزنة الملكية • وكان الأساس فى إيرادات الدولة هو ما يحصل من الضياع الملكية من ريع تريد فى مقداره الغرامات والمصادرات وغنائم الحرب والهدايا الاجبارية^(٤٧) •

ومن أهم ما ميز عصر شارلمان فى الناحية المالية أنه قام بادخال نظام موحد للموازين والمكايل^(٤٨) •

أما عن النقد والتعامل به فى العصر الكارولنجى فالمعروف — كما سنرى أن النظام الاقطاعى بما يشمله من ضياع زراعية ، بدأ يقضى كثيرا على أهمية النقود فى التعامل التجارى •

ومن أهم العملات التى كانت سائدة فى العالم الغربى فى هذه الفترة الصوليدوس الذى سكه الجرمان وعليه صور ملوكهم ، وشاع استخدامه فى معظم بلاد العالم من سوريا الى اسبانيا ومن افريقيا الى حدود غاله^(٤٩) •

ومنذ بداية القرن الثامن بدأ الصوليدوس فى الاندثار من

'(47) Moss. «op. cit.» p. 257.

(٤٨) ديفز « المرجع السابق » ص ١٤١ •

'(49) Pirenne. «Economic and Social History» p. 107.

الامبراطورية الكارولنجية • خاصة بعد ذبوع النظام الاقطاعى
والاهتمام بالزراعة دون التجارة •

ومنذ عهد بيبين القصير حلت العملة الفضية فى التعامل محل
العملة الذهبية — وعندما تولى شارلمان حكم الفرنجة سار على نفس
النظام النقدى الذى انتهجه آباءه • لكنه أعطى له شكلا نهائيا مميزا •
فقد رأى شارلمان مثل غيره من الأباطرة العظام ضرورة التقيد بنظام
يتلاءم مع احتياجات الدولة •

ويرى الأستاذ بيرين أن ذكاء شارلمان ودقته وأهم تشريعاته لم
تظهر فى أى مجال من المجالات مثلما ظهرت فى الاصلاح النقدى •
خاصة بعد أن تغير وضع المجتمع الى مجتمع زراعى • يعمل بدون
أسواق (٥٠) •

فقام شارلمان بسك عملة فضية جنية يساوى ٤٨١ جرام •
وكان الجنيه ينقسم الى ٢٤٠ دينير Denier أو ما يسمى
بنس Pence وهو من المعدن الخالص •
وهذه البنسات الفضية تزن كل وحدة منها ٢ جرام ، ونصف
البنس يسمى أوبولى Oboli ، وكان يستخدم فى التعامل • والى
جانب هذه العملة وجد Sou. الصو أو الشلن الذى كان يساوى ١٢
بنسا والليبره التى تساوى عشرون شلنا (٥١) •

وأهم ما دفع شارلمان الى سك العملة الصغيرة الحاجة اليها فى
العاملات التجارية البسيطة والتى تتم فى المدن الأسقفية الصغيرة
والتي يتم البيع والشراء فيها بالدينير •

وعمل شارلمان كذلك مافى وسعه للمحافظة على معدل وزن العملة

(50) Pirenne: Ibid. p. 108.

(51) Ibid. p. 109.

لمنع الغش فيها • لذلك فقد منحت الدولة لنفسها فقط الحق فى سك العملة وركزته فى دور سك النقود الخاصة بالدولة والتي تعمل تحت الاشراف المباشر للحكومة •

لذلك شرع شارلمان عقوبات صارمة على المزيفين الذين يمتنعون عن استخدام الدينير القانونى فى المعاملات •

وزيادة على ذلك فان التداول النقدي كان محدودا لأن رصيد معدن الفضة الذى تسك منه العملة كان يأتى من العملة الفضة القديمة ذات الوزن الضئيل والمؤرخة من العصر الميروفنجى أو الرومانى القديم ، وكان يأتى للدولة من حصيلة الغنائم التى حصلت عليها من حروب البرابرة والجرمان أو من منتج الفضة القليل الموجود فى غاله فى منطقة مثل ميل Melle فى اكتيانيا (٥٣) •

أما النقود القديمة فكان يعاد سبكها وضربها مرة أخرى فى دار السك الملكية ، وينقش عليها شعار جديد والغرض من ذلك منع الغش والتزييف •

وقد عملت جميع البلاد الخاضعة للإمبراطورية الكارولنجية بهذا النظام النقدي ، فساروا على الدينير الفضة ، وعلى السو والجنيه كعملة حسابية • ثم أطلقوا بعد ذلك على الدينير لفظ بينى Penny والسو Sou سموه شلن ثم جنيه •

أما عن العملة الذهبية فقد سادت وانتشرت فى المناطق الخاضعة للحكم البيزنطى مثل جنوب ايطاليا وصقلية ، قبل احتلال النورمان ،

وكذلك فى البلاد الخاضعة للحكم الاسلامى مثل أسبانيا^(٥٣) .

أما الضرائب فبالرغم من أنها كانت تفرض على الأفراد لأغراض معينة ، فلم يكن هناك نظام ضرائبى عام للأغراض الحكومية^(٥٤) .

ومن أهم التشريعات المالية اصداره تعليمات تحرم الربا وتحدد سعر القمح وقد استمد كل هذه الأفكار من تعاليم الكنيسة كما أنه أصدر اجراءات صارمة ضد الذين يهاجمون المسافرين على الطرق الرئيسية والذين يجبون رسوما غير مشروعة ، كما أنه عمل على حماية التجار ، كما أرسل انذارات متكررة الى النقابات التى كانت تسير على نظم وثنية^(٥٥) .

التنظيمات والتشريعات العسكرية^(٥٦)

كانت الخدمة العسكرية من أفدح الأعباء التى تفرضها الدولة الكارولنجية على رعاياها ، كما أن نفقات التسلح كانت تبهظ الرجل الحر الفقير الذى كان لا يزال عرضة لحمل السلاح طبقا لما جرت عليه عادة الجرمان ، واتخذت بعض الاجراءات للتخفيف عنه ، فلم يعد يدعى للخدمة بأية منطقة سوى الطبقات الغنية ان كانت الحملة موجهة الى منطقة نائية من الحدود ، وكثيرا ما كان يسمح لاثنين أو ثلاثة من صغار الملاك بالاشتراك معا فى إرسال رجل واحد الى الجيش وتزويده

(53) Ibid. p. 110.

يفكر المؤرخ لامب Lamb أن الظروف السياسية واعتلاء شارلمان عرش الامبراطورية جعلته يصر على ضرب عملة جديدة يسك عليها لقب Carlus - impratori «الامبراطور شارل» وعليها شارات المسيح أيضا انظر

Lamb «Charlemagne» p.p. 184-185.

(54) Thompson «op. cit.» p. 485.

(٥٥) ديفز «شارلمان» ص ١٤٢ .

(56) Eastan «The Era of Chalemagne» pp. 136 — 142.

« انظر ترجمة الوثيقة الخاصة بالتنظيمات العسكرية من واقع مرسوم عسكرى لشارلمان »

بالعتاد على أن ذلك لم يكن كافيا ، فقد ولت منذ زمن طويل تلك الظروف التي كانت تيسر فى الأزمان السابقة البدائية حشد مجموعة مسلحة مكونة من جميع الأعضاء الأحرار فى القبيلة الذين يتساوون على وجه التقريب فى الوضع الاقتصادى اذ تزايد التفاوت فى ثروة الأفراد ، وأخذ القتال يصبح رويدا رويدا الحرفة الوحيدة التى اختص بها السادة الاقطاعيون ، كما يقوم به كل من يملكون الخيل والدروع وينتمى الى الفئة الأخيرة كل من وهب اقطاعا أو توصلوا عن طريق التوصية الى الارتباط بعلاقة تبعية مع السيد الاقطاعى اقتترنت بالالتزام بالقيام بالخدمة العسكرية^(٥٧) .

على أن أهمية نظام شارلمان الحربى تقوم على اعتراف بالملكية أساسا للخدمة ، وبالرغم من أن الحد الأدنى لنصاب الملكية كان يختلف تبعا للظروف المذكورة آنفا ، فان نصاب الملكية كان المظهر الأساسى لهذا الجانب من تشريعاته .

وكان من واجب الكونت عندما يدوى النفير العام أن يتأكد من أن جميع الملاك الأحرار فى اقليمه قد استعدوا للحرب ، وكان الحد الأدنى لنصاب الملكية محدودا بامتلاك عدد معين من الحقول **Manses** فمن امتلك هذا العدد المعين انخرط فى سلك الجيش . ومن ملك أقل منه كان عليه أن يجد أحد أصحاب الملكيات الصغيرة ليكمل النصاب المطلوب وقد ورد هذا الالتزام فى أحد المراسيم هكذا .

« إن كل من يملك أربعة حقول ملكية كاملة أو بصفته من أصحاب

(٥٧) كانتور « تاريخ العصور الوسطى » ص ٦٥ يقول « لما كان شارلمان والوزراء يدركون عدم الجدوى من النظام الجرماني الذى يقضى على كل القادرين على القتال الانضمام الى الجيش الملكى فقد صدر المرسوم الذى يطلب أن تتحد القرى وتتكاثر لأرسال فرسان بدلا من هذه الجبهة من الناس لأن هذا يفوق فى جدواه كل جموع الفلاحين الذين يسارعون بالعصى والمنجل كيفما اتفق .

الاقطاع عليه أن يسلح نفسه من ماله الخاص ، وأن يقدم نفسه للجيش ، ، وأما من يمتلك حقلا واحدا وليعن الثانى الأول لىؤدى الخدمة العسكرية عنهما معا • ومن كان يملك حقليين فليشترك مع مالك آخر لحقلين وليعد أحدهما نفسه بمساعدة الآخر ، أما ملك الحقل الواحد فليؤلفوا من بينهم مجموعة من أربعة وليذهب واحد منهم الى الجيش وليبق الآخرون (٥٨) •

ان مرسوم سنة ٨٠٧ م الذى كان ينطبق على الجزء الجنوبى من شمال المملكة الفرنجية ، والذى جعل الحد الأدنى لنصاب الملكية ثلاثة حقول جعل المبدأ ينطبق على الملكية الفردية لغير ذوى الأراضى ، وأوجب على كل من يملكون خمسة شلنات أن يؤلفوا مجموعة من ستة تكون مسئولة عن اعداد محارب واحد •

وكان على الكونتات أن يحضروا النفيير العام مع كل رجالهم الا القليلين الذين يتخلفون لحماية زوجة السيد ولتدبير شؤونه المنزلية وكذلك الأساقفة ورؤساء الأديرة ، فبالرغم من اعفائهم من الجندية كانوا يرسلون أتباعهم المدينين ، ولم يكن يسمح بالتخلف الا لاثنين منهم فى كل حالة ، وكان المتخلفون على أى حال يؤدون غرامة ثمننا لهذا الامتياز ، وعلى هذا النحو كان الجيش يجند بعض من ضياع الأعيان الذين كانوا تابعين للملك مباشرة (٥٩) •

ولم تكن شروط أداء الخدمة العسكرية وقتذاك ثابتة ، كما أن الطلب للتجنيد كان متناسبا مع الظروف ، لكن النتيجة الحتمية كانت نقل الواجب من الفرد الى الأرض التى كانت فى حيازته ، وعلاوة على ذلك فإن اعتبار القطيعة هبة فى اماكن أى مالك أن ينقلها الى أحد أتباعه ولا اشراف عليها الا للتاج من حيث أن صاحب القطيعة كان ملزما بتلبية

(8) Thompson. «op. cit.» p. 480.

(59) Ibid.

نداء الجيش ، كانت الخطوة الأولى فى تدعيم النظام الطبقي الاقطاعي. الذى كان فيه لكل سيد ، وكان مسئولاً أمامه مباشرة باعتباره مستأجراً للأرضه ، وكان كلما ذهب سيد حر الى الحرب اصطحب معه أتباعه الذين كانوا يحاربون معه ، ومن أجله كانوا مرتبطين به بأوامر خاصة (٦٠) .

وكانت الغرامة المفروضة على أى رجل حر يتخلف عن الحرب تقدر بحوالى تسعين صولداً . كما فرض القانون الكارولنجى على كل الرجال الأحرار أن يزودوا أنفسهم بالهوبرك Houberk أو البرنى Byrnie وهو زدد منسدل من الرقبة الى الركبة ذوكم واسع واصل الى الكوع أما الجزء الأسفل فمسطور الرقبة تيسيرا لركوب الخيل ، وكانت أسلحتهم الرمح والدروع (٦١) .

ومن أهم الأعمال التى قام بها فى المجال الحربى أيضا قيامه ببناء الجسور الحربية من السفن على نهر الويزر ونهر الألب ونهر الدانوب وتشبيد سلسلة من المعاقل التى اهتم بحفر خنادق حولها لحماية الطرف الشمالى والطرف الشرقى من غارات الدنيين والصقالبة . والمعروف أن جسورا أخرى قامت من حين الى آخر بجهات مختلفة من سكسونيا .

ومن مظاهره الحربية أنه اعتاد أن يسير وسط الجيش الوطنى عند توجهه الى مجلس البلاط ، ولا يمتاز فى ثيابه عن سائر نبلاء الفرنجة ، فلا يميزه عن غيره سوى ما يحمله فى يده من قضيب مذهب الرأس (٦٢) .

(60) Moss. «op. cit.» p. 258.

(61) Stewart, Eastan «The Era of Charlemagne». p. 138.

(٦٢) دينز « شارلمان » ص ٢٢٠ .

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية والثقافية

للدولة البيزنطية

في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين

الفصل الأول

حياة البيزنطيين الاجتماعية في القرنين

الثامن والتاسع الميلاديين

✳ « حياة الأباطرة الخاصة — هواياتهم — ألعابهم — حياتهم العائلية »

✳ « القسطنطينية كعاصمة للدولة — وصفها — المنشآت — الشوارع واليادين — ميدان السباق — المقصورة الامبراطورية — المسارح الحمامات »

✳ « السكان — عناصرهم — أعدادهم »

✳ « الحياة الاجتماعية في المجتمع البيزنطي — أسماء العائلة — الخطبة — الزفاف — المرأة — الأطفال — الأغوات — ملكية الأسرة — تعاليم الكنيسة — المسكن والأثاث — الملابس — تطور الثياب — ملابس النساء — الطعام وعاداته — أنواع الطعام — وسائل التسلية — الجنائز والموتى — القبور والمدافن » •

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية فى الدولة البيزنطية موضوع هام ومتجدد والمعلومات التى أمدنا بها المؤرخون كثيرة ومتنوعة ، ووثائق هذه الفترة تبين لنا أن الحياة الاجتماعية التى عاشها البيزنطيون تأثرت تأثرا كبيرا بالبيئة الشرقية المجاورة .

فقد كان التأثير اليونانى والفارسى عميقا وقويا فى كثير من العادات والتقاليد .

وسيرا على خطة البحث أردت أن أبدأ كلامى بعرض لحياة الإباطرة الخاصة ثم نتبعه بالحياة الاجتماعية للشعب البيزنطى عامة .

وقبل أن ندخل فى هذا الموضوع آثرت أن أنوه بالرأى الذى عرضته الأستاذة هاسى Hussey والذى ترى فيه أن المجتمع البيزنطى لم يكن مقتصرًا على طبقة معينة لأن ابن الفلاح يستطيع أن يصل الى منصب الامبراطور ، وابنة الخادمة تتزوج امبراطورا وتصل الى العرش ، فأى فرد يتمتع بقسط من الذكاء والعمل يستطيع أن يتدرج الى أعلى المناصب (١) .

ويؤيدها فى ذلك الأستاذ داود رايس فى أن المناصب العسكرية ربما تفتح لأصحابها الطريق لتولى المناصب العليا ، كما أن المناصب المدنية ربما تؤدى الى هذا السبيل ، وربما تلعب الصدفة دورها فيحصل الفرد العادى على أعلى المناصب .

وعلى سبيل المثال الامبراطورة ثيودورا زوجة جستينان ابنة لاجب السيرك الحقيق ، والتى تمتعت بدرجة كبيرة من الذكاء والجاهلية ، فكانت سعيدة الحظ وتقلدت منصب الامبراطورة (٢) .

(1) Hussey «The Byzantine World» p. 125.

(2) David. «op. cit.» p. 105.

ونبدأ الآن عرضنا لتاريخ البلاط البيزنطى الذى ينقسم الى قسمين
يفصل بينهما حكم أسرة آل كومنين *

القسم الأول : وهو خاص بموضوعنا من القرن الخامس وحتى
ظهور آل كومنين سنة ١٠٥٧ م *

وهذه الفترة كانت فيها التقاليد الرومانية هى السائدة مع بعض
المؤثرات التى وصلت من البلاط الفارسى^(٣) *

كان للامبراطور حياة مقيدة ومضيق عليها أكثر من أى فرد من
أفراد الرعية فكان يسكن القصر الامبراطورى الذى سماه الغربيون
باسم دافينى Daphne وقد تعددت واختلفت قاعات القصر ،
فهناك قاعات فخمة مخصصة للاستقبالات مثل قاعة

Magnauro وقاعة Tribunal, Des Dixneufeits
Chalcé وقاعة

وقد مرت قاعة Magnaure بتطورات عديدة بدءا من عصر
جستنيان وزودها ثيوفيل ببعض الترميمات والأصلاحات لأنها أعدت
لاستقبال السفراء * وكان هناك تقليدا متبعا داخل القصر الامبراطورى
فيقوم الحارس بفتح أبواب القصر مع بزوغ الفجر ، بينما يتوهم الخادم
الخاص بغرفة الامبراطور بطرق الباب ثلاث مرات بمفتاح لا يقاظه ،
وعندما ينتهى الامبراطور من ارتداء ثيابه يتوجه الى قاعة العرش حيث
يصلى ، ثم يجتمع بمسئشاريه أو ببعض الأجانب وعندما ينتهى من
الاجتماع يحرك الحارس اللفاتيج محدثا صوتا لينصرف الجميع ويغلق
باب القصر^(٤) *

عاش الأباطرة داخل القصور متمتعين بحريات تامة ، كما أنهم
كانوا يغادرون القصر ليلا لتفقد شوارع القسطنطينية دون أن ترافقهم

(3) Brehieh. «La Civilisation Byzantine» T. XXXII. p. 61.

(4) Brehier. Ibid. p. 62.

أية حاشية ، كما نجد أنه على الرغم من الجدول الزمني الحافل بالأعياد والالتزامات التي تفرضها الحكومة ، إلا أن الأباطرة كان لديهم متسعاً من الوقت لمزاولة اهتماماتهم الخاصة ، والتي كانت تختلف تبعاً لميولهم علاوة على الاحتفال بأعياد الكنيسة ، فقد كانت العبادات تحتل مكانة كبرى في حياة غالبية هؤلاء الأباطرة ، فقد كان القصر الامبراطوري يتضمن محراباً خاصاً به حيث يقوم رجال الدين باقامة القداس ، وكان الأباطرة يحبون الانضمام الى جوقة المرتلين مثلما كان يفعل ليو الأرمني الذي اغتيل بينما كان يرتل في صلاة السحر ليلة ٢٦ ديسمبر سنة ٨٢٠ م^(٥) .

وإذا أردنا أن ندرس حياة الأباطرة باختصار بدءاً من تتويجهم في كنيسة القديسة صوفيا حتى اعداد الجنازة المهيبة لهم عند مماتهم في كنيسة الرسل المقدسة ، ليس أمامنا غير كتاب « الطقوس » الذي ألفه الامبراطور قنستنتين السابع في القرن العاشر الميلادي ، وفيه يعرض حياة الأباطرة السابقين له بمنتهى الدقة ، والحياة الدينية التي يحيها الامبراطور ، ويتحدث عن نهايته والترانيم والتراثيل الدينية والهنات والمراسم التي تحدث في الاحتفالات والمواكب الرسمية ويتحدث فيه عن كل حركة تصدر من الامبراطور ، كل ايماءة ، وكل تصرف يصدر عن الأباطرة طبقاً لقواعد البروتوكول المحددة ، كما يذكر أن حياة الامبراطور كانت مملوءة بالاحتفالات والمناسبات التافهة كالاحتفالات الدينية والعلمانية ، ففي كل صباح كانت المواكب الدينية تملأ حجرات القصر وفي أيام معينة يتوجهون الى الكنيسة ، ومع نهاية العام تكثر الاحتفالات بأعياد ميلاد المسيح^(٦) .

وكان بالقصر الامبراطوري وسائل مختلفة للتسلية مثلما كان الوضع في بلاط الأباطرة خلال العصور الوسطى ، فقد كان هناك من المعتمدين

(5) Ibid. p. 63.

(6) Diehl C. «Byzantium, Creatness, and Decline». p. 38.

والأقزام واليهود من يبعث السرور في نفس هؤلاء الحكام عن طريق دعاباتهم وطلاقة ألسنتهم ، وكان هناك من الأباطرة من يمارس لعبة النرد للتسلية . وقد عرفت بيزنطة لعبة الشطرنج منذ القرن السادس وهي لعبة قادمة من الهند وانتقلت الى بيزنطة عن طريق الفرس .

ومن أهم الألعاب التي مارسوها لعبة البولو التي وصلت من التبت الى بلاد الصين وبيزنطة ، وهي عبارة عن لعبة كرة من الخشب تلعب على ظهر الخيل .

وأصبحت لعبة البولو هي اللعبة الرياضية المفضلة لدى الأباطرة حيث كانوا يمارسونها بالاشتراك مع النبلاء في ميدان مخصص لذلك داخل القصر .

ولدفع الكرة كان اللاعبون يستخدمون بيزر — (مطرقة خشبية ذات رأسين ، تنتهي على شكل مضرب كرة مقوس) كما كانوا ينقسمون الى فريقين يتبادلان قذف الكرة . وهنا نذكر أن مدرجات مخصصة لهذه اللعبة كانت موجودة في كل من أفسوس ، وطرايبزون^(٧) .

وكانت المصارعة الرياضية والملاكمة والمصارعة اليونانية من الألعاب التي تحظى بنصيب كبير من اهتمام هؤلاء الأباطرة ، ويبدو أن ميدان السباق الواقع في مدخل البسفور في بلدة سانت ماماس كان مخصصا لاستخدام الأباطرة في هذه الألعاب ، وكان هناك منتره خاص بالأباطرة وهو منتره فيلو باتيون Philopation الذي يقع خارج قصر السورس Source تحيط به الجدران كثيرة الأشجار التي يتم ريها بالماء .

كما كان هؤلاء الأباطرة يقومون برحلات الى تراقيا وآسيا الصغرى يرافقهم خلالها جماعة من حرس البلاط وهم من الأجانب المأجورين .

(7) Brehier. Ibid. p. 67.

ولم يقيم الحكام دائما فى القصر الكبير ، بل كانوا يتوجهون الى القصور العديدة التى يمتلكونها فى ضواحي القسطنطينية بحثا عن الراحة وكانت هذه القصور تقع بالقرب من قصر السورس Source أو بجوار القرن الذهبى أو الشاطىء الغربى لبحر مرمره أو فى مواجهة ساحل آسيا الصغرى فى خلقدونيا وهيرا التى عقد بها المجمع الدينى الذى أدان عبادة الأيقونات سنة ٧٥٤ م •

ومثلما كان يفعل المواطنون البيزنطيون ، كان الأباطرة يترددون على ينابيع المياه المعدنية فى المنطقة البركانية الواقعة عند سفح جبل اليمبيا فى بيثينا الذى يقع بدوره بين بروسيا ودوريلي حيث توجد حمامات دلفى التى قام جستنان باعادة بنائها والتى ذهبت اليها ثيودورا يقوم على حراستها ٤٠٠٠ رجل (٨) •

وهناك أدلة كثيرة على أن الامبراطور كان يتناول طعامه مع أسرته فى جو بسيط لا يختلف فى ذلك عن رعاياه ، ولا يقوم بخدمته موظفين بل بعض العبيد ، وذلك باستثناء الولايم الرسمية الموضحة فى الجدول • الخاص بالبلاط • ومن جهة أخرى فاننا نرى أن المائدة الملكية لم تكن أفخم من موائد الرعايا •

ولنترك الأباطرة محاولين أن نتغلغل فى أعماق العاصمة البيزنطية القسطنطينية لنرى مزيدا من الحياة والنظم الاجتماعية التى اتبعها السكان الذين اكتظت بهم هذه المدينة العريقة •

وقبل أن نبدأ حديثنا عن القسطنطينية كعاصمة للامبراطورية البيزنطية والحياة الاجتماعية داخلها أريد أن أذكر أن عناصر السكان التى عاشت فى هذه الامبراطورية كانت من جنسيات مختلفة • وفى بداية التاريخ البيزنطى كان الأباطرة ومن يحيطون بهم جميعا من الرومان يتكلمون اللاتينية ويجرى فى عروقهم دماء الجرمان وغيرهم

من العناصر التي قهرها الرومان في غاله واسبانيا وسوريا وشمال إفريقيا . ولكن بعد انتقال العاصمة الرومانية الى القسطنطينية لعب الاغريق دورا كبيرا في شئون الحكم وعند نهاية القرن السادس حلت اليونانية محل اللاتينية كلغة رسمية في الامبراطورية ، واحتلت الشخصيات التي تتكلم اليونانية مكان الصدارة في الوظائف الحكومية في الامبراطورية ، كما نشأت أسر جديدة نتاج التزاوج في هذه المنطقة مثل مقدونيا والبليونيز وآسيا الصغرى وأرمينيا^(٩) .

والمزية التي امتاز بها التكوين الاجتماعي لسكان الامبراطورية انهم يتمتعون بحقوق المواطن مهما كانت جنسياتهم ، وسواء كانوا أغنياء أم فقراء ، وقد شبهوا بسكان الولايات المتحدة في أيامنا هذه . فقد كانوا يكونون وحدة ثقافية . وقد كانت القسطنطينية هي محور الحياة الاجتماعية في العالم البيزنطي ، ويمثلها جميع مدن الامبراطورية في أن الحياة الاجتماعية والثقافية فيهم كانت بيزنطية محضة^(١٠) .

وقد احتلت القسطنطينية مكانة فريدة في الامبراطورية الشاسعة حتى أصبحت هي العاصمة السياسية والاقتصادية والادارية والأدبية . كما أنها هي المدينة الملكية التي رنى اليها العالم بأبصاره ، فقد كانت في نظر البيزنطيين المدينة التي يحرسها الله^(١١) .

ومن حيث الموقع كانت القسطنطينية في العصور الوسطى همزة الوصل بين القارتين الأوربية والآسيوية ، وذلك بحكم موقعها حيث كانت تعتبر جزءا من كل منهما . وفي الوقت الذي كانت الحياة المدنية قد توارت عن العرب حيث كان سكان روما يتحصنون داخل الخرائب القديمة التي حولوها الى قلاع كانت القسطنطينية هي المدينة

(9) David. T. Rice «The Byzantines» p. 20.

(10) Ibid.

(11) Diehl. «op. cit.» p. 94.

المسيحية الوحيدة الجديرة بأن تحمل أسم العاصمة وداخل أسوارها التي ظلت منيعة كان شعبها هو الشعب الوحيد الذي استطاع أن يخلق حضارة لها طابع جديد خاص بها لتسطع على العالم البيزنطي وعبر حدوده (١٣) .

ويرى الأستاذ ديل أن الطابع الكلاسيكي ظل مميزا للقسطنطينية ويدل على ذلك التماثيل القديمة التي كانت تزين الميادين الكبيرة ، والقصور الفخمة والكنائس حيث كان يطلق عليها « مدينة العجائب » فالمباني العالية ، والأروقة الكبيرة والأعمدة المرتفعة حتى أنهم كانوا يقولون ان القسطنطينية هي أحد عجائب الدنيا السبع (١٣) .

ومن أهم العجائب القصر الامبراطوري الذي لا يضارعه في الروعة أية بناء ، والأبنية الموجودة بالقصر لا تحصى حتى أنهم يقولون ان القصر يعتبر مدينة داخل مدينة . فمنذ عصر قسطنطين الكبير وحتى القرن الحادي عشر كان كل امبراطور من الإباطرة يضيف لهذا البناء جديدا ، لذلك تكدست المباني كما كان به صالات استقبال وأجنحة وقصور وثكنات ، حمامات ، مكتبات وكنائس وسجون وقاعات كبيرة وشرفات تطل على البسفور وبحر مرمرة الى جانب الأدرج والأبراج والحدائق التي صممت بدون تنظيم أو خطة هندسية (١٤) .

وكانت الأسوار تحيط بالقسطنطينية من جميع الجهات ، حتى أنها تشبه الى حد كبير أسوار بابلين ، وقد أقيم عليها عدد كبير من الأبراج التي تتميز بارتفاعها الشاهق ، ولو رأيت كل برج من هذه الأبراج على حدة لكان موضع اعجاب .

(12) Brehier «La Civilisation Byzantine» T. XXXII. p. 78.

(13) Diehl «Byzantium, Greatness and Decline» p. 99.

(14) Ibid.

وفى خطاب مرسل من مانويل كريسولوراس سنة ١٤٠٦ الى يوجنا الثامن ١٤٢٥ — ١٤٤٨ نجد وصفا مسهباً لتاريخ مدينة القسطنطينية فى العصر السابق لهم ، يصف فيه كريسولوراس بلهجة لا تخلو من الفخر آثار القسطنطينية العظيمة وأعمدتها الضخمة ، وأروقنتها وقصورها ، وحلبات السباق فيها وترساناتها ، ومحطاتها البحرية المسورة ، وأبراجها المقامة فى الماء ، وصهاريجها ذات القباء التى تتركز أحيانا على عدد كبير من الأعمدة وحماماتها العديدة ، ونافوراتها العامة ، كما وصف جمال ضواحيها التى كانت أبنيتها تتنافس أبنية المدينة نفسها من حيث الفخامة والعظمة^(١٥) .

وكان بالمدينة القصر الكبير ، وممراته المسقفة . وورائه تقع كنيسة القديسة صوفيا ، وتمتد منه الحدائق حتى البسفور . ثم يجىء السور الضخم المنحنى الذى تقوم عليه كذلك الناحية الجنوبية من ميدان السباق ، وهو يطل على مرفأ القصر المزخرف ، وكنيسة القديس سرجيوس ، والقديس باخوس . ومعهما حتى منخفض ملء بقصور أصغر حجما ، وعلى مسافات متقطعة الى اليسار يظهر السور البحرى بما يعلوه بين حين وآخر من أبراج ، وقد شقت فيه فتحات تسمح بوجود مرافىء صناعية صغيرة ترسو فيها السفن^(١٦) .

ويذكر بنيامين التطيلى أن القسطنطينية كانت تعتبر مدينة هامة لأن بها أعدادا لا حصر لها من الكنائس والأديرة والملاجىء التى أنشأها الإباطرة والأمراء الاتقياء وكثير من أهل القسطنطينية الاغنياء وشيدوا هذه الكنائس للعبادة والتأمل ولحفظ الآثار المقدسة المتبقية من آباء الكنيسة الأوائل ، وآثار الرسل السالفين . كما حفظوا بها أعدادا كبيرة من الأحجار الكريمة والذهبية . وقام الحجاج بزيارة

(15) Brehier «op. cit.» p. 79.

(16) Pearl. «Destruction of the Great Empire» p. 192.

القسطنطينية باعتبارها أثرا مقدسا ، خاصة كنيسة آياصوفيا أو الكنيسة الكبرى كما كانت الشمس في هذه الآونة . كذلك كنيسة الرسد المقدسين التي قلدها البنادقة وبنو مثلها للقديس مرقس . وقد بنيت كنيسة أخرى في القرن الثامن لها قداسة هامة (١٧) .

وكان شارع الميز *Misē* بالقسطنطينية هو الشارع الرئيسي الذي يربط ما بين مدخل المدينة الى أسوارها وبين البوابة الذهبية الى القصر ويبلغ طوله حوالى ٥٧٠ مترا ويطلق عليه اسم أغوارا ، وكان يقع ما بين كنيسة آيا صوفيا وقصر الأباطرة الكبير . ويمتلىء الشارع بالباعة الذين يقفون في صفوف متراسة تحيط بهم التماثيل الجميلة والآثار النادرة ، وأهم الأسواق في هذا الشارع سوق أركاديوس وثيودسيوس ومارسيان وتنسطنطين الذي يعتبر أهمهم جميعا . وعند مدخل سوق ثيودسيوس يوجد قوس النصر المزدان بريش الطاووس — الذى اكتشف عام ١٩٢٧ م — الى جانب المسلة الكبيرة التى أحضرها قنسطنطين الكبير من مصر ، وأقيمت على قاعدة التمثال الموجودة داخل حلبة السباق « الهييودرم » وامتاز هذا الشارع باتساعه واستقامته ورصفه ، وكانت توجد به ممرات فى كل ناحية كما أنه كان قريبا من وسط المدينة (١٨) .

كانت تجارة المعادن الثمينة تتركز فى هذا المكان ، حيث كانت الحكومة تجبر تجار الذهب والفضة على إقامة متاجرهم فيه .

وقد احترق هذا السوق أثناء ثورة النيقا *Nika* فى عهد جستينيان ثم أعيد بناؤه فى نفس المكان فيما بعد ، كما ورد ذلك فى كتاب والى المدينة فى القرن العاشر ، وكان الصرافون يضعون مناصدهم

(17) Diehl «op. cit.» p. 102.

(18) David. T. Rice. «op. cit.» p.p. 34-35.

المليئة بقطع الذهب والفضة Clavija كما كانت هناك سجوناً
يقيد فيها المجرمون تقع فى مواجهة مناظدهم (١٩) .

ومن سوق أركاديوس يوجد طريق يؤدي الى كنيسة الرسل
المقدسین وقصر بلاخرناى والى الأسوار الغربية من القرن الذهبى .
وهناك شارعاً آخر لكنه أصغر يؤدي الى بوابات المدينة الموجودة فى
الأسوار .

وكثير من هذه الشوارع كانت مزدانة أيضاً بالآثار والقطع الفنية
الجميلة .

أما الشوارع الجانبية الأخرى فى المدينة فكانت معظمها ضيقة
ومتعرجة ، والنقل داخلها بواسطة الابل والحمالين ، والناس فيها
يفضلون السير على الأقدام .

وفى هذه الشوارع كانت توجد الأسواق المختلفة تباع مختلف
السلع وهى تتشابه كثيراً مع بعض أسواق الشرق فى أيامنا هذه (٢٠) .
ومما يبعث الحياة فى شوارع القسطنطينية هؤلاء الباعة الجائلون
الذين يلتمسون عملاً أو ينادون على بضائعهم ، وهناك من يقومون
بتكفيت الذهب والاسكافيين ، وبائعى مصل اللبن « وهو السائل الذى
ينفصل عن اللبن الرائب » الذين كانوا يحملون ثمار الكرنيب على
أكتافهم وقد استعملوها كأوان بالاضافة الى تجار النسيج وصانعى
مطاحن الفلفل ، والعتالين الذين كانوا يأخذون قدحاً من النبيذ وقليلًا
من القدير (٢١) كأجر لهم بعد عناء النهار ، وكانت الشوارع تضم كذلك
بعض المنجمين والسحرة والعرافين ، ومدعى النبوة ممن كانوا يثيرون
الهلح بين الناس عندما يعلنون عن اقتراب نهاية العالم (٢٢) .

(19) Brehier «op. cit.» p. 88.

(20) David «op. cit.» p. 25.

(٢١) القدير . يخنه كثيرة التوايل .

(22) Brehier «op. cit.» p. 90 & Pears «op. cit.» p. 195.

ورغم أن الشوارع تبدو ضيقة إلا أنها كانت تسمح بمرور العربات التي تسير بلا محركات ، وذلك من القرنين الخامس والسادس أما عربات الأثرياء فكانت ذهبية اللون تزينها نقوش وتجرها البغال ذات السروج الموشاة بالذهب •

ورغم ذلك فقد وجدت أحياء فقيرة بالقسطنطينية الى جانب الحواري الضيقة المظلمة حيث لا يتمكن المرء من الرؤيا في وضوح النهار حيث كانت جرائم القتل والسرقات شائعة ، كما تواجدت الإكواخ المتواضعة على مقربة من القصور ، ولم تكن هذه الأحياء والحواري تعرف شيئا عن خدمات الطرق ، وقد أدى نقل البلاط الى قصر بلاخرناي الى اقامة حي أرستقراطي جديد صحي وأكثر تهوية من ضواحي القصر الامبراطوري (٢٣) •

وقد انتشرت القصور الضخمة التي قام ببنائها الشخصيات الكبيرة في هذا الحي الذي لم يكن به الا عدد قليل من السكان حتى ذلك الوقت ، حيث وجدت حدائق كبيرة وخزانات للمياه حيث كانت المياه متوفرة بالقسطنطينية حتى نهاية القرن التاسع (٢٤) •

وكانت حركة الشوارع تزداد عبر العصور عند مرور الموكب الرسمية التي كانت تجتذب حشود كبيرة من الجماهير وتتسبب في وقوع حوادث ، ومثالا لذلك نذكر حفل تنصيب البطريرك جيرمان سنة ٧١٥ ، فكانت الجموع تندفع بسرعة حتى ان والده القديس اتيان كانت على وشك الهلاك • وهناك رواية مليئة بالصخب تروي دخول نقفور فوقاس القسطنطينية بعد اعلان بتنصيبه على الامبراطورية

(٢٣) تم نقل القصر الامبراطوري مؤخرا في القرن الثاني عشر في عصر آل كومين • انظر

Diehl «op. cit.» p. 100.
(24) Brehier «op. cit.» p. 91.

سنة ٧٠٧ فقد نزل من السفينة الحربية الامبراطورية فى حى الهيدروروم ، وهناك امتطى جوادا أبيض يزينه رداء أرجوانى محلى بالذهب يتقدمه ستة أشخاص يحملون رايات من النسيج الفاخر ، وكان عليه أن يخرق هذه الحشود الكبيرة التى كانت تهتف حتى يتسنى له مواصلة السير الى القديسة صوفيا مارا بطريق النصر ، وكانت جماهير الشعب كبارا وصغارا أغنياء وفقراء نبلاء وأفراد عصابات قاطنوا الأحياء ، وقاطنوا الميناء ، مئات الألوف من الحرفيين ، وأعدادا لا تحصى من الرهبان جنود وبحارة فلاحو تراقيا وبيثينيا كل هؤلاء كانوا يحملون المشاعل المضيئة على الرغم من حرارة شمس الصيف ويحرقون البخور ويلوحون بأعلام صغيرة كما كانت الأبواق وطبول الخيالة والدقوف والصنج تدق فى كل مكان ، وكانت هتافات جماهير الشعب المستمرة ، والتى لم يسبق لها مثيل تدوى فى أرجاء المدينة ، كيف يستطيع المرء اذن أن يتخيل دخول كل هذه الجموع الكبيرة وهى تهتف وتصيح تحت قباب كنيسة القديسة صوفيا العظيمة. التى كان الضوء يؤثر على درجة ألوان ما تضمه من لوحات منقوش عليها بالفسيفساء ذات أرضية مذهبة الا أن مواكب النصر هذه بما يصاحبها من أبهة كانت استثنائية ، فهناك مشاهد متواضعة كانت تثير فضول الناس منها على وجه الخصوص منظر الحيوانات الغريبة التى جلبها من مناطق وبلاد أخرى مثل الأفيال التى يقودها السائيس أو الزنوج يركبون الجمال ، وغالبا ما كانت هناك مناظر منفرة تمر فى الشوارع مثل طواف المحكوم عليهم بالاعدام أو بقطع عضو من جسداهم من المجرمين والمتآمرين ، وأكثرهم من الشخصيات الكبيرة حيث يركبون الحمير بالقلوب ويضربون على عضو التناسل . ولم تكن الجماهير تهرب من رؤية هذه العروض الكئيبة ، بل كانت تهتم بمشاهدتها وتبدى قظاظة وامتعاض عند رؤيتها ، اما أميرات البلاط ، فلم يكن يستطعن

الظهور علانية ، بيد أنهم لم يكن يجزأ على مشاهدة هذه المناظر الا
فى الخفاء (٢٥) .

ميدان السباق والعروض

كان لميدان السباق أهمية كبرى فى القسطنطينية حتى القرن
الثانى عشر ويرجع هذا الميدان والمسابقات التى كانت تقام فيه الى
قبل ظهور المسيحية ، حيث اعتاد الناس على قيام المسابقات والمباريات
الكبرى المنتظمة ، والتى لعبت دورا كبيرا فى حياة الناس فى هذه
الفترة . وكان ميدان السباق مكانا تعرض فيه الانتصارات الامبراطورية
حيث كان الابطاطرة يضعون الحذاء الارجوانى — رمز السيادة — على
رعوس المنافسين المهورين أو الأعداء المغلوبين ، كما كان محكمة جنابات
يتخذ فيها القضاة مجالسهم بانتظام .

وكان ميدان السباق Hippodrom بالقسطنطينية متسعا
ومستديرا ويحتوى على مدرجات ومقاعد من الرخام تصلح لاستقبال
ما يقرب من ٤٠٠٠٠ متفرج (٢٦) .

وكان سباق المركبات التى يجرها جوادان أو أربع جياذ ترجع فى
الأصل الى أصول اغريقية قديمة ، وتعد الرياضة المفضلة عند الاغريق
والرومان . وكان سكان القسطنطينية أيا كانت طبقتهم الاجتماعية من
الامبراطور حتى أبسط عامل يتحمسون لفوز العربات ، وكانوا يرتدون
ثيابا بنفس الألوان التى يرتديها المتسابقون .

وكان الاهتمام بالخيول والمسابقات من أهم ما يشغل الأوساط
الأرستقراطية والموضوع الرئيسى لأحاديثهم . وكانت المناقشات حول
ألعاب السيرك كثيرة ، أما الفقراء فمنهم من كان لا يملك قوت يومه ،
لكنهم كانوا يبذلون أى شئ فى سبيل تشجيع فرق السباق .

والمعروف أن ولع قنسطنطين الخامس بالخيول أدى الى تلقيبه

(25) Brehier «op. cit.» p. 92.

Depelais «L'Habitation Byzantine» p. 175.

(26) Tamara, T. Rice, «Byzantium» p. 59.

بلقب « كوبرنيموس » وبما أنه من أنصار اللايقونية ، فقد أمر بتحطيم لوحات الفسيفساء الذهبية « وذلك فى العمود الذى أقامه أغسطس فى أحد ميادين روما ، ويبدأ منه عد الأعمال للطرق المؤدية الى قصر الامبراطور » وهى تعبر عن المجمع السكنية ، ووضع بدلا منها صورة لسائقى عربات الخيل المفضلة لديه • ومما يثير الدهشة أكثر ولعه بخيول البطريك حتى أنه كان يقدم لها الطعام بنفسه من قمع وفاكهة ، وكان يبلغ تعدادها ما يقرب من ألف جواد •

وقد حظى سائقوا عربات الخيل بأهمية كبرى فى الدولة ، فكانوا ينالون الكثير من التقدير والاحترام (٢٧) •

كان الاغريق يعززون أصل الفرق الأربعة لانتصار الاسكندر الأكبر فى الألعاب الاوليمبية ، وكان منظر السائق وهو يقود عربته التى تجرها أربعة خيول فى غمرة السباق من أحد المناظر المفضلة لتزيين الأقمشة الفاخرة فى القرن السادس والتى كانوا يجلبونها من آخن « عاصمة شارلمان فيما بعد » •

ويوجد داخل الميدان المسلة التى أقامها تحتس الثالث فى هليوبوليس سنة ١٧٠٠ ق م ، والتى أمر ثيودسيوس الكبير بنقلها الى القسطنطينية سنة ٣٩٠ ، وترتكز هذه المسلة على أربعة أحجار مكعبة من البرونز أقيمت على قاعدة تزينها نقوش بارزة تعبر عن الامبراطور وهو يرأس الألعاب •

كذلك العمود البرونزى الذى تم احضاره من دلفى ، وهو عبارة عن ثلاثة شعبين ملتفة كانت رأسها منتصبه قديما لترتكز عليها الجره ذات الثلاث أرجل المصنوعة من الذهب والتى أهديت الى أبولو بعد انتصار بلاتس سنة ٤٧٩ ق م ، وأخيرا المسلة المصنوعة من الحجارة

(27) Brehier «op. cit.» p. 95.

الصماء وقد غطيت بطبقات من البرونز ، كما أن هناك عدداً كبيراً من التماثيل المنحوتة مثل تمثال الذئبة وهي ترضع رومولوس وتماثيل أخرى تم انتزاعها من المعابد الوثنية مثل تمثال هرقل الذي نحته المثال ليزيبه وذلك الى جانب تماثيل شخصيات البلاط مثل تمثال الامبراطورة ايرين وهي جاثمة على عمود وسط آنية (٢٨) .

المقصورة الامبراطورية والاصطبلات :

كان ميدان سباق القسطنطينية مثل سيرك روما العظيم من حيث أنه كان مجاور للقصر الامبراطوري ، وكان الامبراطور يتوجه اليه مباشرة من مسكنه الى المقصورة المخصصة له .

وأغلب علماء الآثار يرون أن هذه المقصورة كانت تقع أعلى الاصطبلات الواقعة في الطرف الشرقي ، والتي كانت عبارة عن مبنى عمودي ذي مدرجات وكان الامبراطور يغادر قصر دافين ويمر في رواق طويل يحف بمحيط ربع ميدان السباق للوصول الى المقصورة ، الا أن ذلك لم يكن مطابقاً للواقع ، كما أن المقصورة كانت مشيدة على غرار المقصورة في روما وتجاور كنيسة القديس اثيان في دافيني ، وكان لها سلم حلزوني يصل بينها وبين الكنيسة ، الا أن الامبراطور كان يمر من سلم عريض من الأحجار يؤدي الى الأبواب البرونزية لهذه المقصورة (٢٩) .

وفي اليوم المحدد للسباق تفتح أبواب ميدان السباق عند الفجر ليسمحوا للجمهور بالتواجد . وعند شروق الشمس يلبس الامبراطور العباءة وجميع شارات الامبراطورية ويحمل في يديه شمعة مضيئة ، ويتوجه كعادته أولاً الى الكنيسة لأداء الصلاة . في هذا

(28) Tamara, T. Rice, «op. cit.» p. 60.

(29) Brehier «op. cit.» p. 98.

Baynes «op. cit.» p. 33.

الوقت كان على سايس الجياد التأكد من أن الجياد فى أماكنها وأن المتسابقين يعرفون أماكنهم ، وان جميع مقاعد الهبيدروم قد امتلأت ، عندئذ يدخل الامبراطور الى انقاعة ويحييه الضيوف من النبلاء الذين دعاهم لحضور السباق معه ، ثم يدخل قائد السباق ويخطر الامبراطور بالاستعداد ، وبعدها تفتح أبواب المقصورة الملكية ببطء ويمر الامبراطور بجانب الضيوف حتى يصل الى المقصورة ويجلس على العرش ويمكنه من مكانه أن يحيى الجماهير المحتشدة فى داخل الميدان هيبداً بالمجموعة التى تواجهه فيرسم الصليب على الهواء لتحيتهم ثم يلتفت الى الجهة اليمنى واليسرى ويؤدى نفس الحركة ، ويلوح بمندبل لبيداً المتسابقون ، عندئذ تبدأ الجياد الأربع السباق^(٣٠) .

المسارح :

ان الاهتمام الذى حظت به ألعاب ميدان السباق فى بيزنطة ، حمل المؤرخون على اهمال العروض الأخرى خاصة العروض المسرحية ، وعلى الرغم من أن لفظ مسرح كان يستعمل للدلالة على أية قاعة اجتماعات ، فان هناك ما يدل على أنه كان يستخدم كذلك للدلالة على الأبنية المخصصة للعروض المسرحية .

وقد شيد سبتمىوس سفيروس أول مسرح على الطراز القديم فظل موجوداً حتى القرن الخامس عشر وكان البرنامج فيه مخصصاً لاقامة المسرحيات الهزلية والمأساوية والفرق الموسيقية وجميع أنواع العروض ، وكان المسرح التقليدى قد عفى عليه الزمن منذ فترة طويلة ليحل محله التمثيل الصامت ، وهو عبارة عن تمثيلية واقعية ومضحكة فى آن واحد ، وكان الممثلون يقومون بأدوارهم بدون أقنعة حيث أنهم كانوا يلجأون الى حركات الوجه التى كانت تحتل أهمية فى التمثيل ومن هنا ظهرت شخصية Sannio مقطب الوجه .

(30) Tamara, T.R. «op. cit.» pp. 60 — 62.

Baynes «op. cit.» p. 32.

وقد حدثت ثورة أخرى فى هذا المجال بظهور الممثلات على المسرح ، وكذلك الأطفال ، وكان الممثلون والممثلات يخفون حقيقة وجوههم باستخدام المساحيق ، وذلك بهدف تقديم شخصيات كثيرة متنوعة ومتباينة^(٣١) .

وهناك سمة أخرى ميزت التمثيل الصامت ، وهى خلق شخصيات غريبة كانت تظهر دائما بنفس الهيئة ونفس الأزياء ونفس الطباع ونذكر منها على سبيل المثال شخصية أرداليون العجوز العاثر وشخصية سكولاستيكوس مدعى المعرفة والعلم وغيرهم من الشخصيات وكانت موضوعات هذه التمثيلات مقتبسة من الحياة العملية كما كانت تستوحى أحيانا من الأساطير ، وكان هذا النوع من التمثيل يتميز بالضرب والصفير والكلمات البذيئة والمبهمة والتهريج الاباحى ، كما كانت هناك لوحات حية وعروض تقدمها الفرق ومواكب الى جانب ظهور الأسباح مما يوحى باستخدام مجموعة كبيرة من الآلات . وقد عرفنا التمثيل الصامت من خلال نصوص قديمة ومهاجمة آباء الكنيسة لاباحة هذا النوع من التمثيل^(٣٢) .

وقد حاولت المجامع الدينية منع التمثيل الصامت خاصة فى اللوائح التنظيمية التى صدرت بعد المجمع المسكونى السادس ، فقد منع رجال الكنيسة اهلرهبان من مشاهدة هذه العروض ، ورغم هذا الخطر فقد استمر التمثيل الصامت وأثرى بنماذج من الشخصيات النمطية مثل شخصية العربى والأرمنى ، وهذا راجع لتوافد المهاجرين الأجانب^(٣٣) .

الجماليات :

كانت القصور والبيوت الكبيرة تتضمن جماليات خاصة أما بقية

(31) Brehier «op. cit.» p. 105.

(32) Ibid. p. 108.

(33) Ibid.

أفراد الشعب فكانوا يستخدمون الحمامات العامة المعروفة منذ قديم الأزل والتي كان يسمح للنساء بدخولها في ساعات معينة ، ويشهد عدد الحمامات الكبير على حب البيزنطيين الشديد للاستحمام ، وأغلب هذه الحمامات شيدها الإباطرة في القسطنطينية ومدن الإقليم وكان كل منها يحمل اسم مشيده (٣٤) .

وكان حب الاستحمام شديدا جدا حتى ان الناس في القرنين الخامس والسادس كانوا يستحمون عدة مرات في اليوم ، بل أن هناك من رجال الكنيسة أنفسهم من اعتاد على ذلك وهي عادة قد أدانها الأطباء .

الا أنه ابتداء من القرن الثامن كان هناك رد فعل ضد كثرة الاستحمام وقد كان لزيادة النقش والزهد أثر كبير في ابراز هذه الحركة ، وكان الامتناع عن الاستحمام يعد سلوكا ممدوحا وذلك على الرغم من أنه كان يتم تشييد حمامات داخل الأديرة . ونصت الجداول الزمنية على أن يكون الاستحمام ما بين ثلاث وثمان مرات في الشهر تبعا للموسم ، وكان من المفضل الاستحمام حوالى الساعة الثامنة أو التاسعة صباحا ، أما النساء فكان يأخذن حمامهن في الساعة العاشرة فقط (٣٥) .

لم يتغير نظام الحمامات منذ العهد الرومانى الا قليلا جدا ، وكانت الحمامات الكبيرة تتميز بالفخامة الشديدة . فكانت واجهتها تزين بالأعمدة ونقوش أسطورية منحوتة ، أما فى الداخل فكانت الحوائط تزين بلوحات الموزايكو المنقوشة بمشاهد مسرحية أو رياضية وصور الإباطرة والفلاسفة ونجوم على شكل آدميين ، اما حمامات Zeuxippe فكانت تزخر بالتماثيل التى ترجع الى عهود قديمة . وكانت هناك

(34) Hussey «op. cit.» p. 132.

(35) Bréhier «op. cit.» p. 59.

أروقة تؤدي الى حجرات تقع على جوانب القاعات الرئيسية بالإضافة الى حجرات للثياب بل ومراحيض أيضا ، وكان المكان الذي يتم فيه الاستحمام مستدير الشكل وتغطيه قبة مثله في ذلك مثل حمامات البخار القديمة (٣٦) .

وكان الماء يسخن في مرجل من البرونز يوضع على فرن من الحديد أو من الحجارة غير قابلة للاشتعال ، وكان الماء ينساب الى المغطس من حوض يشبه برميل يحتوى على ماء دافئ عن طريق ماسورة تنتهى على شكل رأس آدمية أو رأس حيوان .

وكان الكتاب يتناولون موضوع حمامات البخار التي يتم تسخينها بواسطة الأفران الأرضية ، كما كان متبع في العصر الروماني ، وكانت الحمامات تتضمن كذلك أحواض سباحة ساخنة أو باردة يمكن الاستحمام فيها وهذا النظام بدأ العمل به من عصر جستنيان وظل معمولاً به حتى القرن العاشر الا أنه بدأ في التلاشي بعد ذلك (٣٧) .

السكان

حياتهم . . وعاداتهم الاجتماعية

أولا : عناصر السكان :

تعددت الجنسيات التي سكنت الجزء الشرقي من الامبراطورية ، ويرجع ذلك الى أن هذه الامبراطورية ضمت عناصر مختلفة خاصة من مناطق الشرق . وكانت الأغلبية العظمى من الاغريق الذين يعدون من السكان الأصليين للمدينة ، وكما هو الحال في جميع المدن الكبرى كان هناك كثير منهم ينحدرون عن أهل الإتياليم بل وعن آباء وأجداد

(36) Ibid.

(37) Brehier «op. cit.» p. 59.

من الأجانب المهاجرين الذين ما لبثوا ابتداء من الجيل الثانى أن تأثروا بأسلوب التفكير المحلى ، وأجسوا بالفخبر لكونهم من مواليد المدينة واستأثروا بلقب الريفيين على عكس سكان الأقاليم^(٣٨) .

والواضح أن جميع العناصر والأجناس التى تواجدت فى هذه المنطقة اختلطت بصورة كبيرة ، وطبقا لما أوردته علماء الأجناس . فان الفريجييين الذين سكنوا المنطقة السهلية شرق بحر مرمرة قدموا من الغرب واضطروا الى التوجه صوب الشرق نتيجة للهجمات القادمة عليهم من تراقيا . وكانت هناك هجرات قادمة من مقدونيا الى غرب آسيا الصغرى أثناء العصر الهيلينى ، وقد عملوا على أن يعيشوا بمعزل عن السكان الأصليين لهذه المنطقة ، وساروا على نفس طريقتهم فى الحياة والمعتقدات والعادات الاجتماعية . وأخيرا فى القرن الثامن اندفعت مجموعات من السلاف لتعيش فى منطقة بيتينيا ، لكنهم لم يتفاعلوا فى هذا المجتمع الجديد ، ولم يكن لهم تأثير هام فى هذه المنطقة^(٣٩) .

وفى عام ٨٠٢ منح نقفور الأول الأراضى للبحارة والجنود مكافأة لخدماتهم الحربية ، وهذه الأراضى فى المناطق البحرية ، لكن هؤلاء المستقرين لم يؤثروا فى السكان الأصليين كلية .

ولعل أهم سكان القسطنطينية والمناطق المحيطة يرجع مطعمهم الى عناصر البحر الأبيض ، فقد كانوا اغريقا فى مظهرهم وحديثهم ، وإذا نظرنا الى أخلاقهم ومظهرهم سنستطيع بدون شك أن نميزهم بسهولة عن الطبقات الصغيرة التى كانت تسكن أعلى آسيا الصغرى ، فقد كانوا لا يختلفون عن سكان مناطق شرق أوروبا باستثناء السلاف ، وقد

(38) Brehier «Ibid» p. 84.

(39) David. . «op. cit.» p. 23.

كان هؤلاء السكان يشبهون اليونانيين في هذه الأيام من حيث ولعهم بالجدل والاثارة والحيوية فكانوا يميلون الى النقاش الطويل ، وكانوا دائمي الثورات لآتفه الأسباب مما كان له أكبر الأثر في عدم استقرار القائمين على الحكم • فأنت حياتهم مملوءة بالأحداث والتغيرات والاستقرار لا يعنى في نظرهم الا التبدل والكسل^(٤٠) •

أما سكان مناطق آسيا الصغرى التابعة للدولة البيزنطية فكانوا من الفريجيين والحيثيين والغاليين والايروانيين والساميين الى جانب الصقالبة الذين بدأت هجراتهم تقدر في القرن السادس على الامبراطورية كذلك الأرمن الذين كانوا يكونون الجزء الأكبر من المهاجرين ، فقد كانوا يفرون من اضطهاد الفرس لهم ، وبعد ذلك بدأوا يحتكون مع العرب المسلمين المقيمين على حدود بلادهم • وكانوا يقدمون بدافع من طموحهم للحصول على وظيفة في البلاط الامبراطوري • وهنا نذكر أن البطريك انطوين جاولياس Antoine - Gauleas كان ابنا لأحد الجنود الفريجيين النازحين الى القسطنطينية •

وفي عام ٧٧٨ كان قضاة الشرق الخمس يحملون ألقابا أرمنية ، وقد تم اكتشاف دليل طريف على الجهود التي كان يبذلها هؤلاء المهاجرون لاكتساب الصفة والطابع الاغريقي ، وهو عبارة عن معجم أرمني - اغريقي في شكل كتيب محادثة ، وقد عثر على ورقة بردية اغريقية في الفيوم يرجع تاريخها الى النصف الأول من القرن السابع^(٤١) •

وكان هناك عنصرا هاما من عناصر السكان لم يمتزج بمن حوله بسبب ديانته وهم اليهود الذين لم تحدث زيادة في أعدادهم بعد

(40) David, Ibid, p. 25.

(41) Brehier «op. cit.» p. 85.

القرن السابع^(٤٢) . وقد تعرض اليهود في ظل الحكم البيزنطي لاضطهادات كثيرة وضرائب متعددة ، ولم يتقلدوا أعمالا هامة كالتي تقلدها الأرمن مثلا ، ولا يمكن ليهودي أن يظفر بالمعاملة الحسنة ، ولا الانضمام الى الأرستقراطية الا اذا اعتنق المسيحية ، فنجد مثلا أن شقيقة الامبراطورة ايرين تزوجت من رجل يهودي خرج على دينه اسمه سارانفا بيجيسي^(٤٣) .

كما لا ننسى في غمرة حديثنا أن هناك أعدادا من العرب لا بأس بها تواجدت في الامبراطورية ، والحقيقة أنهم لم يغيروا شيئا في الشكل الهليني للامبراطورية ، الا أنهم كانوا مسئولون عن دخول كثير من الأفكار والعادات والتقاليد الى الامبراطورية^(٤٤) .

أعداد السكان

لقد تغير عدد السكان على مر القرون تبعا للتغيرات التي طرأت على الامبراطورية . ومن الطبيعي ألا نجد في المصادر ما يشير الى أرقام محددة بل أن هناك بعض الدلالات الثابتة التي تسمح بتكوين فكرة عن عدد السكان على وجه التقريب . وتقيد المعلومات الواردة عن هذه المدينة في القرن الخامس أنها كانت تتضمن ٣٣٢ شارعاً ، ٤٣٨٨ منزلاً مخصصين لسكن الملاك ، ٢٠ مخبز عام ، ١٢٠ مخبز خاص .

ولم يكن هناك عقارات للايجار ، يفصل بينها أربع شوارع مثلما كان الحال في روما . وهنا نتساءل عما اذا كان المقصود من منزل مخصص لسكن مالكة هو القصور الأرستقراطية . ومهما يكن من أمر فإن ٢٥ ساكن في كل من هذه المنازل هو ما كان شائعاً يؤدي في النهاية

(42) David. «op. cit.» p. 26.

Theophanes «op. cit.» p. 474.

(43) Brehier «op. cit.» p. 82.

(44) David «op. cit.» p. 26.

الى ١٠٩٧٠٠ ساكن وهو عدد يبدو ضئيلا بالمقارنة الى عدد الخدم والعبيد الذين كانوا يقطنون هذه البيوت * على ذلك ، ينبغي أن يكون عدد السكان قد بلغ ٥٠٠٠٠٠ الى ٦٠٠٠٠٠ على الأقل في ذلك الحين *

وهناك رأى آخر أن عدد السكان كان حتى الفتح اللاتيني سنة ١٢٠٤ م يقرب من مليون نسمة (٤٥) *

ولكن المؤكد أن عدد السكان كان يأخذ في التناقص نتيجة للإبادة والكوارث التي كانت تقع بين حين وآخر منها الزلازل الأرضية والطاعون والحرائق والفتن وما يصاحبها من مذابح ، الا أن المهاجرين كانوا يأتون رغبا عنهم أو طوعية لسد هذا النقص في عدد السكان وقد سجلت خمسة زلازل أرضية من عام ٣٩٨ حتى عام ٧٥١ م وخمسة أوبئة طاعون والعديد من الفتن وحركات التمرد (٤٦) * والمؤكد أنه بعد وباء سنة ٧٤٦ ، ٧٤٧ كان عدد السكان حوالى ٥٠٠٠٠٠ نسمة (٤٧) * ولم يكن عدد السكان موزعا بالتساوى داخل المدينة * بل كان هناك تفاوت كبير جدا ، وكانت السواحل أكثر المناطق كثافة سكانية على امتداد خليج البسفور وبحر مرمرة وفى حى Psamathio ومنافذ شارع الميز والبيادين وفى منطقة التلال السبعة *

فى القرن السابع إتجه السكان نحو حى البلاخرناى الذى أدخله الامبراطور هرقل ضمن مدينة القسطنطينية ، كما اتجهوا الى ما وراء البسفور وإلى ضواحي السبيكييس Sykes .. وعلى العكس لم يكن وادى نهر ليكوس Lycos أهلا بعدد كبير من السكان *

(45) Pears «Destruction of the Greek Empire» p. 192.

(46) Brehier «op. cit.» p. 83.

(47) David «op. cit.» p. 35.

الحياة الاجتماعية فى المجتمع

البيزنطى

ظلت الأسرة الرومانية القديمة هى أساس المجتمع فى الدولة البيزنطية على الرغم من المفاهيم الجديدة التى أنت بها الديانة المسيحية . والأسرة تعد مجتمعاً متكاملًا يتكون من الآباء والأبناء والخدم الأحرار والعبيد الى جانب الخصيان الذين يعيشون تحت سلطة رب العائلة الذى تتأكد سيادته باستخدام اسم العائلة المتوارث .

وقد طبق هذا النظام على الأسر الغنية والفقيرة على السواء فى المدن والقرى وقد عمل العبيد والخصيان فى الأسر الغنية ، وعلى الرغم من محاولة الكنيسة القضاء على العبودية إلا أن هذا النظام استمر الى نهاية الدولة البيزنطية ، أما الخصيان فقد استطاعوا أن يرتقوا الى أعلى المناصب فى الدولة ، حتى أنه كانت لهم وظائف خاصة بهم^(٤٨) .

أسماء العائلة :

كانت هناك عادتان مختلفتان تطبقان فى القسطنطينية بآدىء الأمر ، أولهما العادة الهيلينية وهى فى الأصل عبارة عن تسمية كل فرد باسم علم يليه اسم والده أو اسم أحد أجداده من جهة الأب وهذا العصور القديمة وهذه العادة تقبل إضافة لقب . أما الثانية فهى العادة الرومانية التى كان يتبعها المهاجرون اللاتينيون فى تلك المدينة التى أسسها قسطنطين وهى تشمل الاسم واسم العائلة بالإضافة الى لقب^(٤٩) . وقد بدأت عادات جديدة فى الظهور فى بداية هذا العصر ، فمن ناحية اختفى استعمال اسم العائلة الذى كان يحمله

(48) Hussey «op. cit.» p. 123.

(49) Tamara, T.R. «op. cit.» pp. 56 — 75.

العبيد المحررون • والاسم الوحيد يتبعه أحيانا تنويه بالبلد الأصلي ومن جهة أخرى فقد تعدد استخدام الألقاب التى لم يكن لها فى بادئ الأمر الا قيمة فردية الا أنه منذ العام الألف بدأت هذه الألقاب تتخذ طابعا وراثيا وكانت معظم العائلات تتميز كلا باسم خاص بها •

وظلت العادة الهيلينية القديمة متبعة « اسم فرد يتبعه اسم الأب ، غير أن اسم الأب كان دائما ما يتبعه لفظ « ابن » وهو عرف تتبعه الشعوب البدائية ، والسائد كما هو فى الغرب الأسماء المستعارة ذات الأصل الشعبى وأحيانا العالمى ، فاتباع نفس الأسلوب فى تسمية العائلات فى بيزنطة وفى الغرب يظهر الطابع الأوروبى فى أعماق المجتمع البيزنطى وذلك رغم اتباع الشرقيين له وهى آسيا وخاصة عند العرب فاننا نلاحظ هذا التغيير الذى يظهر الاستقلال العائلى^(٥٠) .

الخطبة :

يعد الزواج الأساس الشرعى لتكوين الأسرة فى المجتمع البيزنطى، وقد اهتم المشرعون بأمر الزواج فقد كانت له قدسية فى القوانين المدنية والكنسية •

وفى بيزنطة كان القانون المدنى الذى يعترف بالطلاق متعارضا مع تشريع الكنيسة ، وقد سمحوا به فى حالات معينة فقط أما الانفصال بدون مبرر والذى يقع من جانب أحد الأطراف فيعاقب بغرامات نقدية وعقوبات معنوية^(٥١) • وقد حدد القانون حقوقا متساوية للزوجة مثل الزوج تماما فى حالة الطلاق^(٥٢) •

{50} Brehier «La Civilisation Byzantine»

Tamara «op. cit.» p. 123.

{51} David «op. cit.» p. 123.

{52} Ibid.

وقد حدد القانون سننا للزواج وذلك ليقضى على عادات البيرنطيين فى تزويج أبنائهم فى سن صغيرة • حيث كانت هناك عائلات تقوم بخطبة الأطفال قبل سن ٧ أعوام ، فحددها القانون باثنى عشرة سنة للبنات وأربعة عشرة سنة للولاد ، وعندما كان الأمر يتعلق بالقصر كان يتم إبرام الاتفاق عن طريق قوانين مكتوبة • وكان الاتفاق على الزواج يتم عن طريق الوالدين حتى ان الاتفاق كان يتم بدون علم الزوجين اللذين يجبران على الخضوع لارادة الآباء • وكان هناك وسطاء وخاصة من النساء اللاتى كن تقمن باتمام زيجات مقابل أجر يحدده القانون (٥٣) •

الزفاف :

فى اليوم المحدد للزواج تقوم العائلة بإرسال الدعوات بصيغ معينة ، وكان تزيين حجرة الزفاف عشية الزواج يعد احتفالاً كبيراً ، وكان يتم فرش الحجرة بأنواع فاخرة من السجاجيد وتوضع تحفا ثمينة ، بينما كانت الجوقة الموسيقية تردد الأغاني الخاصة بالمناسبة وفى يوم الزواج يرتدى المدعوون الملابس البيضاء ، وهو سلوك تفرضه عادات قديمة ، وكان الموسيقيون يصاحبون الزوج عند ذهابه لاحتفال العروس التى كانت تبدو فى كامل زينتها ووجهها مخضب بالمساحيق ، فيكتشف عنها النقاب لميراها لأول مرة ، وحينئذ يبدأ الاحتفال بالزواج ، ووسط حاملى المشاعل والمغنيين وضاربى الصنج تتوجه العروس بخطى بطيئة نحو الكنيسة تحيط بها نساء العائلة والأهل والأصدقاء بينما تنهال عليها الورود وزهور البنفسج من النوافذ أثناء مرورها ، وفيما عدا الاحتفال الدينى ، فإن العادات القديمة ظلت قائمة ، وكانت العروس تدخل بيت زوجها يصاحبها الموسيقيون والمغنون بيد أن

القصاصد الدينية كانت تحل محل أغاني الأفراح الشعبية وذلك تحت تأثير الكنيسة^(٥٤) .

كانت تقام فى حفل الزواج وليمة لهذه المناسبة دون أن يخالط الرجال النساء ، بل ان كلا من الجنسين كان يأكل على حدة ، وعلى أية حال فقد كانت الموائد تزخر بجميع الأواني القيمة التى تمتلكها الأسرة ، وكان القاء القصاصد والأشعار يستمر حتى الليل ، ويتم توصيله العروسين الى حجرة الزوجية ، وفى الصباح التالى يأتى الأهل والأصدقاء لايقظهما مرددين بعض الأغاني ، وتجدر الإشارة هنا الى أنه كانت تقدم أحيانا بعض الروايات والتمثيلات اليمائية خلال اقامة الولائم على الرغم من تحريم الكنيسة ذلك .

ووفقا للقانون الرومانى فانه لا يجوز للزوج التصرف فى المهر . واتما يتعين عليه نقل ملكيته لورثته ، ولم يكن المهر يقتصر على الأموال غير المنقولة فقط ، بل قد يكون من العملات الذهبية والمنقولات والعبيد ، وأما بالنسبة للزوج فقد كان يقدم لزوجته هبة تعد بمثابة ميراث لها منه أو مؤخر صداقها عند وفاته ، وهذه الهبة غالبا ما تكون من المصوغات وغيرها من الأشياء^(٥٥) .

المرأة فى المجتمع البيزنطى :

تعتبر المرأة العضو الثانى فى الأسرة ، لذلك آثرت أن أركز على دورها فى الأسرة ، فرأيت أن أبدأ كلامى بما جاءت به الاكلوجا وهى المرجع القانونى الهام الذى يعيننا فى دراستنا .

« فقد جاء بها أن المرأة لها الحق فى حفظ وصيانة جميع ممتلكات زوجها بما أنها هى أساس العائلة ورئيستها ، وحامية المنزل ، كما أنه

(54) Ibid.

(55) Ibid.

قد جعل للمرأة الحق فى أن ترفض أو تقبل تعيين زوجها. أسقفا • فإذا وافقت على ذلك فلا بد أن تتركه وتتوجه الى الدير ، وإذا لم توافق فله أن يرفض هذه الوظيفة الدينية» (٥٦) •

ولا بد أن نلقى ضوءا شاملا على المرأة فى العصر البيزنطى ، فقد كفلت المسيحية للمرأة حماية فعلية ، فمجنذ عصر جستنيان وحتى عصر آل كومنن حرمت الزيجات المؤقتة والتقليل من نسبة الطلاق وتكريم الزواج • وفكرة تبعية الزوجة لا تختلف عن المفاهيم الغربية فى نفس العصر ، بيد أن هناك فارقا يميز بين الحضارتين وهو حبس النساء البيزنطيات فى خدر الحريم يقوم بحراستهن أحيانا الأغوات ولم يكن الرجال يخالطون النساء فى اليونان القديمة ، كما كان نظام الأغوات قائما فى روما •

والأسرة البيزنطية تنقسم فى ذلك بالطابع الشرقى والآسيوى أكثر من الأسرة اليونانية القديمة وقد نظمت الكنيسة بنفسها العلاقات بين الجنسين بصورة لا تخلو من الصرامة إلا أن هناك نواهي وممنوعات كانت تنطبق على الحياة الخارجية دون أن تمس تنظيم الأسرة وتكوينها ومثال هذه الممنوعات والنواهي تلك التى وردت فى المجمع الدينى المنعقد فى سنة ٦٩٢ م فقد كانت العادات أقوى من القوانين وأرسخ (٥٧) •

وليس من شك أن الحرية الشديدة التى كانت تعترف بها أميرات الأسرة المالكة على مر العصور كانت تثير الدهشة ، ولكن هذا كان يعد استثناء فالعادات والأخلاقيات كانت أشد صرامة لدى أفراد الشعب وغنى عن الذكر أنه فى بيزنطة مثلما فى غيرها كانت هناك بيوت وأسر لم يكن لسلطة الزوج فيها وزن يذكر قبل إرادة المرأة (٥٨) •

(56) Hussey «op. cit.» p. 123.

(57) Brehier «op. cit.» p. 11.

(58) Ibid.

لم يكن هناك أماكن للتسلية تتوجه إليها المرأة البيزنطية • فالرجل يستطيع أن يقابل رفاقه في الأسواق ويتحدث إليهم ، وهذا ممنوعاً على المرأة البيزنطية كما يمكن للرجال التوجه إلى الحدائق العامة وتبادل الأخبار • أما المرأة فقد حرمت من الخروج بمفردها ، ولا يسمح لها بالخروج إلا للصلاة في الكنيسة أو للذهاب إلى الحمامات العامة ، وإذا خرجت لا بد أن يصحبها أحد العبيد •

فكل أسرة حتى الطبقة الوسطى عندها اثنان على الأقل من العبيد يقومان على خدمتها ، فيساعدون الزوجة في شؤون المنزل ، ويشتررون الحاجيات من الأسواق المحلية يومياً ، ويفتحون الأبواب في المنازل ، وكانوا ينامون بعيداً عن أماكن النساء ليلاً (٥٩) •

وكان البيت هو المكان الطبيعي للنساء ، وكن لا يبرحنه إلا نادراً وكن يقضين أوقاتهن في أشغال الأبرة والتطريز ، بينما يلعب أولادهن بجانبهن ، وكانوا يقدمون الدمى للأولاد ليلعبوا بهم ، ويفضلونهم في ذلك عن البنات • ومن هذه الألعاب الجياد والكارت ومنازل من الطين الصلصال والأطواق والكره والصفاره والفلوت بينما تلعب البنات بالشمع والصلصال والعرائس الجصية • وينتهي اللعب بهذه الألعاب عند الاقتراب من المراهقة حيث تنتهي فترة الطفولة (٦٠) •

ويذكر شاهد عيان للمجتمع البيزنطي قائلاً « ان لغة الاغريقيات أنقى من لغة أزواجهن ، وذلك لأنهن لا يتصلن بالأجانب ، ولا حتى ببنى وطنهن ويقولن انهن لا يخرجن أبداً إلا في الليل عندما يذهبن إلى الكنيسة ولزيارة بعض الأقارب المقربين جداً فيغطين وجوههن ويرافقهن بعض الخدم (٦١) •

(59) Tamara. «op. cit.» p. 58.

(60) Ibid.

(61) Brehier «op. cit.» p. 14.

وهناك رأيا آخر يقدمه الأستاذ داود رايس يرى أن المرأة البيزنطية نالت قسما كبيرا من التعليم ، كما أنهم فى أوقات معينة كن يدرن الضياع الخاصة بهن ببراعة كاملة • ودورهن يتضح فى مجموعة السيدات اللاتى حكمن الامبراطورية كأباطرة ، الا أنهم لم يتمكن من قيادة الجيوش فى الحرب ، ولم يحدث الا فى عهد ميخائيل الأول رانجابهيه ٨١١ — ٨١٣ عندما اصطحب زوجته بروكوبيا Procopia معه فى حملة ضد البلغار فأدى ذلك الى استياء عام فى الجيش (٦٣) •

الأغوات :

من أهم ما يميز ظروف المرأة فى ذلك الوقت استخدام الأغوات « الحضيان » فهم الرجال الوحيدون الذين يمكنهم دخول خدر الحرير « أو الدخول على النساء ، ويقل دورهم فى ثبوت أفراد الشعب » •

وكان عدد كبير من هؤلاء الأغوات يجلب من بلاد القوقاز ، وكان ذلك يكلف الدولة الكثير ، وهناك قوانين صارمة تحرم عملية حضاء الأطفال والرقائق الذين يولدون فى الامبراطورية ، لكن نتيجة لكثرة اعداد هؤلاء الحضيان نتأكد أن هذه القوانين لم تراعى وتطبق كما ينبغى وكانت هناك نسبة ضخمة من بطارقة القسطنطينية من الحضيان ، وكان الحضيون يجدون تشجيعا خاصا فى الخدمة المدنية حيث كان حامل لقب من الحضيان يعد سابقا فى المرتبة لزملائه ، وكانت هناك رتب عالية يحتفظ بها الحضيان وحدهم • وحتى الجيش نفسه والأسطول غالبا ما كان لواء الامرة فيهما يعقد لحضى (٦٣) •

الخدم والرقائق :

كان يوجد فى البيت عدد كبير من الخدم الأحرار والمحربين تبعاً

(62) David. T R. «op. cit.» p. ١١٢.

(٦٣) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٤٣ •

للمستوى الاجتماعي لرب الأسرة ، وفى كل العصور كان رجال الدين يثورون على غرور وخيلاء الأغنياء الذين يستخدمون عددا كبيرا من الممتلكين والمتطفلين ، وكان البيت المتواضع تتكون أسرته من الزوجين وأربعة أطفال يستخدم ما لا يقل عن أربعة من الخدم ومرضعة *

وقد استمر نظام الرق حتى العصور الوسطى إلا أن القوانين والحياة العملية قد قللت من استخدامه بالمقارنة الى نظام الرق اليونانى

وكانت عملية عتق العبيد تعد عملا طيبا ، الا أنه لم يلغى وكان للسيد السلطة المطلقة على عبده حيث كان يعاقبه كما يشاء ، ولم يكن جميع الأسياد بنفس الصرامة والعنف للذين تشير اليها قصة شقيق القديس ثيوفانيس الذى أخذ يضرب أحد العبيد حتى أعياه التعب وسقط مغشيا عليه **

وقد ازدهر نظام الرقيق فى الشرق فى نهاية العصور الوسطى بصورة لم يسبق لها مثيل (٦٤) *

ويؤكد المؤرخون على أن العبيد استمروا فى اضطراد حتى نهاية القرن العاشر ، ويحاول الأستاذ داود راييس أن يرفع من شأن هذه الطبقة بقوله : « ان العبيد الذين يعملون مع سادة أغنياء طيبى القلب أحسن حالا الى حد كبير من الأحرار الفقراء الذين يعيشون فى فقر وفاقه داخل المدن » * كما كان يسمح للعبيد بأن يعملوا مع سادة آخرين فى أوقات فراغهم فحصلوا نظير ذلك على مبالغ كبيرة من الأموال تمكنوا عن طريقها من شراء حريتهم (٦٥) *

(64) Brehier «op. cit.» p. 16.

(65) David T. R. «op. cit.» p. 99.

الأطفال :

ان أهم حدث يقع فى نطاق الأسرة هو مولد طفل فيها وكان يصحب هذا الحدث عادات قديمة أدخلت عليها المسيحية بعض التغييرات ، وكانت هناك وسائل لتخفيف آلام الحمل من العقاقير الغريبة التى كانت لا تخلو من الخطر ، وكذلك بعض العمليات التى يدخل فيها السحر . وكان هناك منجمون يتنبأون بجنس الطفل ، وكذلك بطالعه لحظة مولده كما كانت تقوم بالإشراف على عملية الولادة قابلات غير ملهمات بالأمور الطبية لكنهن يتبعن وصفات خرافية^(٦٦) .

وعند ميلاد الطفل يتم تنظيفه بتغطيسه فى الماء ، ثم يوضع فى لفافة من الصوف ، وكان الطفل يلبسها حتى يتم أربعين أو ستين يوما ، وكانت مسألة ارضاع الأم لطفلها موضع نقاش فى بيزنطة . ويتم اصطحاب الطفل الى الكنيسة لتعميده بعد ولادته بأسبوع ، وقد بدأ اتباع هذا التقليد منذ القرن السادس ، أما الأستاذة تامارا راييس فتقول : ان التعميد يكون فى خلال ثمانية أسابيع من ولادة الطفل^(٦٧) .

كان التعميد اجباريا ، وكانت شعائره عبارة عن تغطيس الطفل ثلاث مرات الا أن هناك ما يدل على أن عملية التعميد كانت تتم بترك الطفل فترة فى ماء المعمودية ، وقبل أن يتم التعميد كان القس يمنح الطفل الاسم الذى يختاره له أبوه الروحى الذى يقف بالقرب منه ممسكا بشمعة مشتعلة ، وكان من المفضل اختيار اسم قديس أو اسم عيد مثل باشاسيوس المأخوذ من عيد الفصح أو أسماء فضائل كصوفيا التى تعنى الحكمة ، وكان الفأل يلعب دورا فى اختيار الاسم ، فكان يتم اشعال عدد من الشموع ويطلق على كل منها اسم وتتم تسمية

(66) Brehier «op. cit.» p. 17.

(67) Tamara, T.R. «op. cit.» p. 56.

الطفل بالاسم الذى تحمله آخر شمعة تنطفىء ، وتجدر الإشارة هنا الى أن هذا التقليد كان من القرن الخامس فصاعدا •

وبعد انتهاء التعميد يعود أفراد الأسرة الى البيت فى احتفال كبير ممسكين أحيانا بالشموع المشتعلة وهم يرددون ترتيلا كسبيا خاصا بهذه المناسبة وينثرون النقود طوال الطريق (٦٨) •

وقد كانت هناك مراسم خاصة حين يعهد أحد أفراد الأسرة الامبراطورية ويصف لنا مرقس الشماس تعميدا تم لابن أحد الأباطرة بقوله : « ازدانت القسطنطينية بالأعلام الحربية ، وتلألأت بالذهب ، وازدحمت شوارعها بالناس ، ولبس جميع الناس الذين شاركوا فى الموكب المتوجه الى كنيسة القصر الملابس البيضاء حتى كانوا يبدون وكأنهم ثلجا أبيض تساقط على الأرض • ويصحب الموكب البطارقة وكبار رجال الدين ورجال الامبراطورية وكلهم يحملون الشموع المشتعلة كما لو كانت النجوم تتلألأ على الأرض • بعد ذلك يأتى الطفل يحمله أحد النبلاء وبجانبه والده السعيد مرتديا الملابس الأرجوانية (٦٩) •

ملكية الأسرة :

عرف القانون الرومانى والتشريعات الامبراطورية الملكية بأنها الأساس الاقتصادى للأسرة ، ولم يكن الأب الحائز الوحيد لتلك الملكية : نظام المهر — مؤخر الصداق — الأطفال الذين يخرجون عن وصايته • • الخ • الا أنه كان الوحيد الآهل بتحرير العقود التى تتعلق بها مثل الوصايا والهبات والايجارات وعقود العبيد • • الخ • ومن خلال هذه العقود يمكننا أن نكون فكرة عن ثروة الأسرة •

(68) Brehier «op. cit.» p. 17.

(69) Hussey «op. cit.» p. 124.

وقد حرص البيزنطيون على توفير أملاك دائمة للأسرة غير قابلة للتصرف فيها ، وقد كانت أسرة ثيوفانيس Theophanes كاهن الاعتراف تعد من الأسر الثرية في القرن الثامن ، وقد كان أبويه اسحاق ونيودوت يمتلكان جزيرة في بحر ايجيه ، وعددًا كبيرًا من العبيد ، وكان ثيوفانيس في الثالثة من عمره عند وفاة والده الذي كان من العسكريين في منطقة بحر ايجيه . وفي العاشرة من عمره تمت خطبته وفقا للتقاليد السالف ذكرها على وريثة ثرية تدعى ميچاو وتزوجا نزولا على رغبة والدته عندما بلغ الثامنة عشر . الا أن كلا من الزوجين أقام في دير فأقام هو في دير بوليخينيون Polychenion الذي يدخل ضمن ميراثه ثم شيد دييرا آخر في كالوينهوس Kalo Nymou في أرض كانت ملكا لوالده .

هذه الشواهد تدل على أن الطبقات ميسورة الحال التي تقطن المدن كانت لها أملاك في الريف توفر لها ما تحتاج اليه من تموين (٧٠) .

تعاليم الكنيسة وأثرها على الأسرة :

تركزت التعاليم الكنسية أثرا كبيرا على حياة الأسرة داخليا وخارجيا . وقد عمل أفراد الأسرة على التمسك بتعاليم الكنيسة آملا في الحصول على الخلاص ، والظفر بنعيم الجنة : لذلك فقد كان المسيحيون يمضون جزءا كبيرا من وقتهم في الصلاة ، وقد أمروا بالتوجه الى الكنيسة كل يوم أحد ، وإذا امتنع أحد عن الذهاب الى الكنيسة ثلاث أسابيع متتالية تعرض لتوقيع قرار الحرمان الكنسي عليه (٧١) .

وكانت الكنيسة تقوم بتنصير المولود وتباركه بعد ذلك ، واحتلت

(70) Brehier «op. cit.» p. 28.

(71) Tamara «op. cit.» p. 55.

حفلتى الخطبة والزواج مكانة دينية هامة • أذ تحتتم على البيزنطيين أن ينتظروا قدوم قسيس العائلة الذى كانت له مكانة دينية هامة فى الاحتفالات ، وإذا لم يقيم رب العائلة باستدعاء القسيس تعرض لغرامة كبيرة ، وقد كان القسيس يقوم بتزويج الخطيبان وهو الذى يقوم بالدفن عند موت أحدهم •

المسكن :

كان البيزنطيون حتى القرن الخامس يسكنون فى منازل صغيرة تشبه الأكواخ ، وبعدها بدأوا فى بناء المنازل ذات الطوابق العالية التى ترتفع من خمس الى ثمانية أدوار • وكانوا يقسمونها الى شقق ، لكنه رغم هذه التطورات الا أن هذه الشقق اتسمت بالقذارة نتيجة الفقر والازدحام • وقد ازداد الفقر حتى ان الناس كانت تفضل أن تعيش فى المنازل الصغيرة التى تماثل الأكواخ عن العيش فى هذه الشقق (٧٢) أما السكان الأغنياء فكانوا يعيشون فى شقق فاخرة • وقد عرفنا أشكالاً مختلفة من البيوت البيزنطية عن طريق الآثار الموجودة مثل اطار لوحة Yakto المصنوعة من الموزايكو التى تم اكتشافها سنة ١٩٣٢ م والتى تمثل أبنية ومنازل خاصة فى أنطاكية فى القرن الخامس • وبدلاً من أن تعزل هذه المنازل تماماً عن الطريق ، فقد كانت هناك نوافذ تخلل جدرانها بها فتحات مستطيلة أو ممرات مكشوفة ، وكل منزل منها يحمل اسم مؤسسه ، وكانت واجهته خضراء اللون يتخللها بابان مستطيل الشكل سقفه من القرميد الأحمر منحدر من الجانبين تزيينه أعمدة (٧٣) •

ومنذ القرن الخامس فصاعداً كانت بيوت الطبقة البرجوازية ميسورة الحال مكونة من طابقين أو ثلاثة تبنى اما من القرميد والبش ، واما

(72) Tamora «Ibid» p. 62.

(73) Brehier «op. cit». p. 30.

من الحجارة المحلية بالجص ، والتي غالبا ما تكون متعددة الألوان وهذا مما توضحه الفسيفساء التي تميزت بها لوحة Yakto ولم يكن الرخام يستعمل الا فى القصور ، وأحيانا كانت الواجهة الرئيسية التي تطل على شارع ذى أروقة تزين بالزخارف ابتداء من السطح وعلى الأفاريز التي تفصل بين الطوابق ، وكانت الشرفات المثبتة بالتكثيف تسمح برؤية الشارع كما كانت النوافذ مستطيلة الشكل أو مستديرة وعبرة عن مربعات صغيرة من الزجاج داخل اطار من الجبس ، وكانت هذه النوافذ لها شبكة فى أغلب الأحيان ، كما كانت الأسقف منحدرية الجانبين مثلثة الشكل أو مسطحة ، وكانت نقوش الموزايكو والرسومات اليدوية التي تصور المدن تجمع بين هذين الشكلين للأسقف • أما الأسقف المسطحة فعليها فوانيس صغيرة معلقة فى قباب ، كذلك كانت البيوت الكبيرة تعلوها قباب وكان باب الدخول على شكل نصف دائرة مستطيل ، وهو عبارة عن مصراعين من الحديد يتم تزينهما بمسامير ذات رؤس ضخمة •

وفى واجهة بيوت الأثرياء توجد سلالم خارجية من الحجارة أو الرخام تؤدي الى باب سحرى يفتح من أسفل (٧٤) •

كان نظام البناء البيزنطى يمنع إقامة نوافذ فى واجهات المباني مطلقا وظل هذا النظام حتى القرن الخامس • وكانوا يقيمون فناء حول كل بنيان وذلك لدواعى الأمن ، كما كانوا يقيمون الاسطبلات وحظائر الماشية بجانب المنازل ، وهذه الحظائر كانت كبيرة حتى تكفى جميع الجياد الموجودة (٧٥) •

أما بعد القرن الخامس فصاعدا ، فلم تكن المنازل البيزنطية معزولة أو بعيدة عن الحياة فى المدنية رغم الاحتياطات المسبقة ، وانما كانت

(74) Ibid. p. 32.

(75) Tamara «op. cit.» p. 63.

لها أبواب ونوافذ واسعة تطل على العالم الخارجى وهى فى ذلك تماثل البيوت الغربية ، فى القرن الثانى عشر • وهذا ما تدل عليه قوانين الطرق التى كانت تحظر التعدى على الطريق العام^(٧٦) •

وفحوى هذا القانون أنه ما دامت هناك نوافذ تطل على الشوارع فيتحتم أن يكون عرض الشارع ١٢ قدما على الأقل ، وعندما بدأوا فى إنشاء شرفات بالمنازل قرر القانون أن تكون هذه الشرفة مرتفعة عن الأرض حوالى ١٥ قدما •

والنوافذ كانت تصنع من قطع مستطيلة من الزجاج المثبت فى جدار من الجص ، لكن البيزنطيين لم يجعلوا القطع الزجاجية كبيرة لأن الزجاج كان مكلف جدا ، وكثير من النوافذ كانت تزين بقطع من القضبان الحديدية ، ولدواعى الأمن كانت الابواب الخلفية تصنع أيضا من الحديد ومعظمها من الخشب السميك المثبت بمسامير حديدية^(٧٧) •

أما فى الداخل فكان يتم تقسيم المنزل الى عدة طوابق تتوسطها قاعة كبيرة تقع فى الطابق الأرضى أو الطابق الاول الا أن ارتفاعها كان بارتفاع المنزل نفسه ، وهى قاعة استقبال مخصصة للرجال وكان خدر الحريم يقع فى أحد الطوابق العليا ، كما كانت الطوابق والأسقف ترتكز على أعمدة من الرخام أو من الخشب حسب امكانيات السكان المادية •

وكان لتزيين المنزل أهمية كبيرة حيث كان يتم تزيين الأرض بالرخام أو الموزايكو وتكسية الحوائط بالرخام أو تزيينها برسومات دينية أو دينية كما كانت الأسقف من خشب الارز • الخ • وأحيانا لم يفصل بين الحجرات الا حواجز من ألواح الخشب • اما حجرات

(76) Brehier «op. cit.» p. 32.

(77) Tamara «op. cit.» p. 64.

البيوت الشعبية فكانت تغطى بهيكل خشبى تربط بين عوارضه أعواد من البوص (٧٨) *

وتشهد القوانين ومؤلفات العديد من الكتاب على أن نظام المراحىض كان معمولا به فى جميع البيوت ، وكان يحاط بالمنزل ملحقاته مما يدل على حرص السكان الذين يستعملون عددا كبيرا من الخدم لتوفير الراحة لأنفسهم *

وفى بادىء الأمر كانت هذه الملحقات عبارة عن فناء يطل على الشارع ويتصل بممر عن طريق باب واسع حتى يتسنى للفرد ممارسة بعض تدريبات الفروسية * وفى وسط الفناء يوجد بئر أو صهريج ثم أصبحت هذه الملحقات عبارة عن حديقة يوجد بها أحيانا حمامات خاصة ، كما كانت توجد اصطبلات للخيول وللحيوانات فى البيوت الأكثر فقر ، وكان رسم الصليب على الحوائط والأبواب بل وعلى الاسقف يدل على تدين السكان ، بيد أن المجمع الدينى كان قد منع رسمه على الأرض ، وكانت توجد نقوش دينية على حوائط الممر ، وكثير من البيوت الكبيرة كانت تمتلك كنائس خاصة صغيرة اما العائلات الفقيرة جدا فكانت تمتلك مصلى صغير حيث تعلق الصور الدينية (٧٩) *

الأثاث :

كان الأثاث مريحا جدا وكثيرا * فهناك أسرة لها أربعة أرجل مربعة الشكل ومرتفعة قليلا من ناحية الرأس وهناك خزائن كانت لا تستخدم الا كمكتبات فكان بها أرفف توضع عليها الكتب مستوية ولها بابان لهما قفل وتعلوهما حلية زخرفية وكانت الصناديق تستعمل لحفظ الملابس والأشياء الثمينة كما كان متبعيا فى الغرب (٨٠) وهناك الموائد

(78) Brehier «op. cit.» p. 32.

(79) Ibid. p. 37.

(80) Ibid, p. 33.

بأشكالها المختلفة من مستديرة ومربعة أو مستطيلة الشكل اما الشكل المستدير فكان يبدو أكثر فخامة وهو ما كانت عليه المائدة الامبراطورية التي كانت تستخدم فى اقامة الولائم والى جانب الموائد المصنوعة من الخشب كانت توجد موائد أخرى مصنوعة من مواد ثمينة لا يقتصر استعمالها على قصر الامبراطور بل كانت تستخدم كذلك فى منازل الأغنياء ، اما المائدة المربعة أو المستطيلة فقد كانت شائعة الاستعمال كما أن الكنيسة البيزنطية كانت تستخدمها كهيكل « محراب » وكانت ذات أربعة أرجل تصل بينها أحيانا عوارض وتحملها أرجل على شكل أقواس (٨١) .

أما المقاعد فكان شكلها يختلف بين مقعد له ظهر أو مقعد له ظهر ومساند ويستخدم للجلوس الى مائدة الطعام ومقاعد بلا ظهر أو مساند وهذا النوع هو الأكثر استعمالا آنذاك ، كما كان هناك مقاعد منخفضة بلا ظهر يقوم على حملها ستة أرجل مربعة الشكل يصل بينها أقواس (٨٢) .

أما الاضاءة المنزلية فقد كانت تتم عن طريق مصابيح تضاء بالزيت أو عن طريق الشموع أو المشاعل . وكانت هناك مصابيح لها وعاء يضاء الشكل ، وله يد بدلا من المقابض المفرغة . أما المصابيح القديمة فكان لوعائها فتحة واحدة للتهوية تسمح بمرور الزيت والابرة المصنوعة من البرونز أو العاج التى يتم عن طريقها رفع الفتيلة ، وكانت هذه المصابيح التى تمسك باليد أو تعلق تشبه فى الأصل شمعدان كبير له ثلاثة أرجل أو ثريا مستديرة من البرونز على شكل قرص له ثقب تمسك أو تعلق بواسطة سلاسل .

ومما لا شك فيه أن هذا الشكل الأخير من المصابيح كان يستخدم

(81) Ibid. p. 37.

(82) Tamara, T. p. 65.

فى اضاءة الكنائس وكان يصنع أحيانا من الذهب والفضة ، بيد أن الأحجام الصغيرة التى كان عليها بعض من هذه المصابيح والتى توجد فى المتاحف تدل على أنها كانت تستخدم فى اضاءة المنازل • اما الشمعدان ذو ثلاثة أرجل المطعم أحيانا بالميناء فكان يعد جزءا من أثاث بيوت الأغنياء بيد أنه كان يستخدم فى الكنائس على الرغم من أن القواتين المدنية والدينية لم تكن تمنع استخدام العمامة للشموع والمشاعل فى الحياة اليومية • وقد كانت هناك أدوات للمطبخ وأدوات للزينة • الأولى تشمل الغلاية والغريال والمشعل ، وأدوات الزينة تشمل أداة صغيرة تم اكتشافها لتنظيف الأذن مصنوعة من الذهب عليها كلمات تعبر عن بعض التمنيات الطيبة لصاحبها ومحارق للعطور من مصر مصنوعة من البرونز المشغول والمفرغ وكذلك الموازين والأثقال والساعات الكبيرة (٨٣) •

الملابس

عرفنا من خلال عدد كبير من الوصايا ، كيف أن الملابس كانت لها أهمية كبرى حتى أن الأجيال كانت تتوارثها وتعتبرها جزءا من رأس المال يدخل ضمن تقدير الثروة •

ظل البيزنطيون يلبسون التوجا Toga الرومانية حتى القرن السادس ، ولم يكن هناك ما يميز رجل الدين عن العلمانى فى اللبس •

وكانت التوجا عبارة عن معطف فضفاض طويل ، والى جانب التوجا كان هناك نوع آخر وهو البلانتى Planete وهو عبارة عن غطاء واسع مستدير به فتحة فى وسطه يسمح بمرور الرأس بينما يتم رفع الأطراف على الذراعين • والبلانتى رداء مدنى ، وكان يرتديه

(83) Brehier «op. cit.» p. 39.

René Guerdan «Byzantium, its Triumph and tragedy» p. 99.

عامة الشعب أما زى النساء فانه عبارة عن رداء طويل غالبا ما تكون له أكمام مطرزة يوضع فوقه خمار^(٨٤) .

تطور الثياب :

ظهرت صيحات جديدة فى الثياب من القرن السابع فصاعدا نتيجة الاتصال بالجرمان وبالشعوب الشرقية ، فبعد أن كانت الثياب تقليدية واسعة وطويلة ذات ثنيات أصبحت ضيقة تكاد تلتصق بالجسم وأهمها السكارامنجيوم Scaro Magno اتخذته من بلاد آسيا حيث كان الفرسان يستخدمونه خلال حروبهم مع الفرس . وقد ظل الإباطرة والنبلاء يلبسونها خاصة عند ركوب الخيل وكانت ألوانها جميلة ورقيقة وغالبا ما كانت موشاة بالذهب . وقد انتهى الأمر بارتداء السكارامنجيوم فى جميع المناسبات حتى أواخر الامبراطورية^(٨٥) .

طرا تغيير بين على ملابس الرجال فى الأوساط الشعبية فنجد أن التونيك Tunique أصبح رداء ضيقا ذو أكمام ضيقة بعد أن كان يتميز بالانتساع . أما المونابلون Monaplon فهو نسيج خفيف وضيق نسبيا ، وكانت هناك سراويل ملتصقة بالجسم تغطي الركبة بل وتغطي الساق كله . ومنذ القرن الخامس فصاعدا أقلع الناس عن ارتداء الصنادل القديمة وبدأوا فى ارتداء الأحذية الشرقية والأحذية ذات الرقبة القصيرة^(٨٦) . أما النبلاء فكانوا يرتدون أحذية بدون كعب ومفتوحة من الأمام تسمى كامبايا Campagia والفرسان كانوا يرتدون الأحذية ذات الرقبة الطويلة . وبعد القرن التاسع بدأوا

(84) Tamara «op. cit.» p. 69.

David. T. op. cit.» p. 101.

(85) Brehier «op. cit.» p. 43.

(86) Brehier «op. cit.» p. 71.

Tamara T. «op. cit.» p. 71.

يلبسون أحذية مدببة الأطراف • وكان العمال يرتدون معاطف قصيرة تسمى هيمانيون Himation والمهيبوكاميسوس Hypokamisos أما ملابس الطبقات الراقية فكانت عبارة عن تونيك يلتف حول الجسم وملابس ترندى فوقه تصل حتى القدمين • ولم يكن هناك اختلاف كبير يذّر بين ملابس الرجال والنساء • ويشير ليتوبراند الى أن الاغريق كانوا يختلفون عن الفرنجة في أنهم يرتدون معاطف تصل الى الأرض ولها أكمام طويلة بالإضافة الى شعورهم الطويلة التي كانت تبرز الطابع النسائي لهذا الزي (٨٧) •

أما عن أغطية الرأس فكانت نادرة في العصور القديمة • لكنها انتقلت بعد ذلك الى الدولة البيزنطية عن طريق الشرق حتى أصبح غطاء الرأس أحد سمات النبلاء • ومن ثم صدرت في شأنه قوانين صارمة • وفي الرسم الذي ظهر على واجهة أحد المخطوطات كان المحيطين بالامبراطور نقفور الأول يلبسون أغطية رأس حمراء أو بيضاء تخفى الجبهة ومزينة بالقيطان • وكانت أغطية الرأس للنبلاء وكبار الشخصيات تزين باللآلئ والأحجار الكريمة وتطرز ، ومن هذه الأغطية التوفا Touphe وهو عبارة عن تاج يعلوه ريش يتدلى حول الرأس (٨٨) •

وأما عن مظهر الرجال فقد اعتاد البيزنطيون الأوائل جريا على سنة الرومان أن يحلقوا ذقونهم ويقصرون شعورهم ، أما الفلاسفة فكانوا وحدهم يطيلون ذقونهم • وفي عهد جستنيان أطلق أفراد الطبقة الأرستقراطية ذقونهم وشواربهم وأطالوا شعورهم من الخلف ، وقاموا بقصها على الجبهة اتباعا لطريقة الهون الآسويين مما كان يعد عارا في ذلك الوقت وكان قنسطنطين الرابع ٦٦٨ — ٦٨٥ أول امبراطور يطلق لحيته (٨٩) •

(87) Brehier «Ibid» p. 46.

(88) Ibid.

(89) Tamara, p. 71.

ظل هذا هو الوضع طوال القرن السابع ، وفى القرن الثامن ثارت الآراء والمجامع الدينية ضد الرجال الذين يقومون بتصفير شعورهم مثل النساء أو بتجعيده باستخدام مشابك الشعر واطالته حتى يصل الى الوسط ، وضد اللذين يقومون بصبغ لحاهم وشعورهم باللون الأسود مستخدمين بيض الغربان •

اذلك أصدر الامبراطور قنسطنطين الخامس كوبرينموس أمرا الى الرعايا البيزنطيين بضرورة خلق ذقونهم • وبعدها فى القرن التاسع أصدر الامبراطور ثيوفيل الأصلع أمر الى رعاياه بخلق شعورهم ويعلق المؤرخون على ذلك بأنه أراد أن يتساوى جميع الشعب معه فى المظهر الأصلع (٩٠) • وقد لقي هذا القرار تعنتا كبيرا وضيقا من الشعب والبطاركة لأن اطلاق اللحية بالنسبة للبيزنطيين كانت علامة تميز الرجال عن الإغوات ، كما أنهم اعتادوا على أن يخلقوا للمجرمين شعورهم ولحاهم • اذلك فان قرار خلق الشعر ما لبث أن ألغى بعد وفاة ثيوفيلس (٩١) •

ملابس النساء :

لم تتغير ملابس النساء منذ العصور القديمة بقدر ما تغيرت ملابس الرجال ، على الرغم أنها لم تعد بنفس الاتساع الذى كانت عليه من قبل ، وأضحت أقل توضيحا لتفاصيل الجسم • وتعد الآثار المنقوشة نادرة ذلك أنه لم يكن هناك الا صورا لامبراطورات وأميرات فى ملابسهن الرسمية عبارة عن سيتخاريون تونيك • Sticharion, Tunique له حافة سميكة بمعطف فى أشكال مختلفة ، فتارة يكون عبارة عن قطعة من النسيج مربعة أو مستطيلة الشكل ، وتارة

(90) Tamara, Ibid, p. 72.

(91) Ibid.

Brehier «op. cit.» p. 48.

عبارة عن قطعة مستديرة يرفع طرفها الأعلى على الكتف لينسدل الى
الأممام (٩٢) .

وفى حالة وجود قماش كاف يرفع الطرف المتدلى من الكتف الأيسر
على الكتف الأيمن وطرف الايمن على الايسر أما الطرف الاعلى فيغطي
الرأس وقد أصبح هذا الشكل علامة للمرأة المندنية واستعمل كرمز
للسيدة العذراء ، وهناك نوع آخر من المعاطف يشبه الحرمة التى
يرتديها الرجال ، وكانت تثبت على الكتف بواسطة مشبك .

وكانت جميع هذه الملابس من الحرير مختلف الأنواع ، أما
الأنبيات فكن يستعملن الكتان الذى يتم جلبه من مصر وبونت ومقدونيا
وكن يخترن الأقمشة الرقيقة والمنسوجات الخفيفة على الرغم من انتقاد
الوعاظ لخلاعة الملابس شديدة الشفافية (٩٣) .

أما عن طريقة تصفيف السيدات لشعورهن فقد كانت هناك طرقا
قديمة معقدة تتبعها البيزنطيات ، لكنها كانت موضع انتقاد رجال
الكنيسة ، الذين كانوا يهاجمون النساء اللاتى يجعدن شعورهن
ويزيننه بالحلى المصنوعة من الذهب . وكانت النساء تقمن بتسوية
شعورهن على الرأس لتتسدل من الجانبين بشكل ملتوى . وفى القرنين
الخامس والسادس شاع بين سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس
مبطن من اللباد يمسك بواسطة شرائط من اللؤلؤ الصغير ويقال أنه كان
يوجد شعر مستعار على أن تلك المعلومة غير أكيدة . بيد أن الرجال
والنساء على حد سواء كانوا يستعملون الشعر المستعار على مر العصور
وكانت النساء تفضلن الشعر المجعد على الجبهة وخصلات الشعر
الملتوية التى تتسدل على الصدغين مفروقة من منتصف الرأس ، وأحيانا
كان الشعر يجمع فى شبكة من خيوط الذهب والفضة أو يمسك من

(92) David op. cit.» p. 102.

(93) Brehier «op. cit.» p. 49.

الخلف بواسطة أمشاط عريضة من العاج والصدف أو بشريط من الكتان (٩٤) •

وكانت زوجة فيلاريت Philarté « فى القرن الثامن » تضع على رأسها فاكيوليون Phakialion وهى نوع من عصابات الرأس « تربون » وكانت المرأة المتدينة تغطى رأسها بحجاب عند خروجها من البيت ايا كان غطاء الرأس الذى تضعه ، وكان استعمال العطور والخضاب من المكملات الأساسية لزيئة المرأة • وهنا نذكر أن الامبراطورة كانت تهتم اهتماما كبيرا بصناعة العطور ، وكانت الحواجب الرفيعة المصبوغة باللون الأسود والعيون السوداء التى تبدو أكثر اتساعا باستخدام الكحل الذى يتم الحصول عليه من التفحيم غير الكامل لنباتات ذات أوراق سمكية ولحمية ، كل هذا كان يعد صيحة العصر •

وكان هناك نقدا لاذعا موجهة للسيدات اللاتى يصبغن شفاههن وخدودهن باللون الأحمر وحواجبهن وجفونهن باللون الاسود على أن الهجوم كان بلا جدوى ، كما طلب منهن أن يتزين فى مكان مغلق حتى يتجنبن أية مضايقة •

ومنذ عهد الامبراطورة ثيودورا فصاعدا كانت جميع الامبراطورات والأميرات وسيدات القصر يرتدين ملابس الامبراطور الرسمية • فكن يلبسن قفطان أو تونيك طويل من الحرير يلبسونه تحت ثوب ضيق يسمى الدالماتييك Dalmatic وكان يطرز ويحلى باللالى حول الرقبة والأكتاف والأطراف (٩٥) •

(94) Ibid.

Tamara. «op. cit.» p. 69.

(95) Tamara, Ibid, p. 70.

وقد كان الرجال والنساء على حد سواء يهتمون باستخدام اللآلىء والجواهر والتي كانت تقدر قيمتها وفقا لما تحتويه من شغل دقيق أكثر مما تحتوى عليه من مواد نفيسة نذكر منها المصفايح الرفيعة من الذهب واللالىء صغيرة الحجم والأحجار الكريمة التى كانت رخيصة الثمن آنذاك •

وتتضمن مجموعات المصوغات التى توجد فى حوزة المتاحف أو الأفراد نماذج عدة للحلى التى تتناسب مع نماذج الثياب المنقوشة على الآثار والتى تعد نموذجا لما تضمنته كنوز آسيا الصغرى • وهى عبارة عن عقود تتدلى منها الجواهر أو الحليات وأقراط كثرية الشكل تزينها خيوط من الذهب أو الفضة مجدولة على شكل حيوانات مختلفة (٩٦) •

وكل ما ورد يعد نموذجا لما كانت عليه المجوهرات التى كانت تزين بها الثياب ، ويضاف الى ما سبق ذكره الخواتم المصنوعة من الذهب والتى تحليها نقوش دقيقة وجميلة على شكل أوراق شجر أو حيوانات وتحمل اسم مالكةا ، وكذلك حلى ذات طابع دينى مثل الخواتم ذات رسومات تمثل موضوعات أيقونية والصلبان التى كان يحملها الأساقفة على صدورهم ، بالإضافة الى الصناديق الصغيرة التى تتكون من قطع محاكاة ومشدودة بدبابيس أقل مما كانت تحتله بالنسبة للملابس ذات أنثىيات الكثرة التى كان القدماء يرتدونها الا أنها كانت تستعمل فى الزينة مثل الكبشة على هيئة أقوس أو قرص أو ترس • وكان الشكل الأول المستخدم فى تثبيت الكلاميد على الاكتاف • وكانت هذه المشابك تصنع من الذهب أو الفضة أو البرونز وتطعم بالآلىء والأحجار الكريمة تزينها نقوش وصور وحليات • كما كانت تلك المشابك تعتبر فى أغلب الأحيان شارات ورموز ، وعلى الرغم من أن الكلاميد بطل ارتدائه فى

القرن الثانى عشر الا أنه لم يختفى نهائيا من الثياب الامبراطورية (٩٧) *
ومن أهم الحلى التى استخدموها العقود والأقراط والخواتم ، التى كانت
تشكل على هيئة أسماء صغيرة وطيور بينهما صلبان * وعلى هيئة دائرة
نصف القمر * ومعظم هذه الأشياء تصنع من الذهب ، وعندما ندر وجود
الذهب شاع استخدام الفضة (٩٨) *

الطعام

فى غمار كلامنا عن الحياة الاجتماعية فى الدولة البيزنطية ، لابد
ألا نغفل عادات الطعام التى سار عليها الناس فى هذه الآونة لأن
الطعام وعاداته يعبران بصورة واضحة عن أهم نقاط الحياة الاجتماعية
التي عاشها الناس *

فقد كان أفراد الأسرة يتناولون معا وجبات الطعام الا أن النساء
لم يكن يظهرن على المائدة فى حالة وجود ضيوف غرباء *

عادات الطعام :

هناك ثلاث وجبات عادية للطعام : الافطار والغذاء والعشاء *
وكانت ربة البيت تقوم بتنظيف مائدة الطعام بواسطة قطعة من الأسفنج
ثم تغطيتها بمفرش يتفاوت فى أنماقه تبعاً للمستوى الاجتماعى وجدير
بالذكر أن المفروش الذى كان يغطى المائدة الامبراطورية لم يكن عريضا
بالمره ، وكانت توضع على المائدة مناشف وأقداح لغسل اليدين مما
يدل على حسن التربية * وقد ظلت عادة تناول الفرد للطعام حول
مائدة مستديرة أو على شكل حرف S مستلقيا على متكأ قائما فى
منازل الأغنياء حتى القرن العاشر حيث لم تعد متبعة الا فى الولايم
الرسمية. التى تقام فى القصر (٩٩) *

(97) Brehier «opè cit.» p. 51.

(98) David op. cit.» p. 103.

(99) Brehier «op. cit.» p. 52.

وكان الضيوف يخلعون أحذيتهم قبل تناول الطعام ، وكانوا يجلسون على مقاعد أو دكك ويرتلون صلاة المائدة قبل تناول الطعام ، أما موائد الفقراء فلم يكن عليها الا قطعة من الخشب يعترف منها الضيوف طعامهم بأيديهم • ومن هنا وجب غسل الأيدي قبل وبعد تناول الطعام ، الا أنه كانت هناك ملاعق ألا أن تلك الملاعق التي تم اكتشافها ضمن كنوز ليبسك وكيرينيا كانت تعد من أدوات المائدة الفاخرة حيث كانت مصنوعة من الفضة تزينها نقوش على شكل حيوانات أو على شكل كتابات مزخرفة ومشغولة • ومن ثم لم يكن استعمالها شائعا •

وهناك رسومات تضمنتها بعض المخطوطات تبين لنا ما كانت تترخر به الموائد عند اقامة الولائم من أواني المائدة ، وأواني زجاجية مثل الأطباق المسطحة والاطباق العادية والاقداح والقصعات والاوعية ذات الأحجام المختلفة والكؤوس والقوارير وكلها تسميات أطلقها الكتاب على هذه الأواني وتدل على تنوع كبير فى الأواني فمنها ما يدل على الترف ومنها ما هو شائع الاستعمال (١٠٠) •

أما فى البيوت ميسورة الحال ، فلم يكن يستخدم على موائدها سوى الفخار المطفى الذى يرجع أصل استخدامه الى الشرق •

أنواع الطعام :

كانت هناك رسميات كثيرة تصاحب وجبات الطعام فى بيوت الطبقة الميسورة ، حيث كانت هناك ثلاث أطباق كبرى تقدم ، أحدها يحتوى على المشهيات لفتح الشهية والثانى عبارة عن لحم مشوى أما الطبق الثالث فكان خاص بالحلوى الذى يتكون من الفواكه والحلوى • وهناك لوحة من الموزايكو اكتشفت بالقرب من أنطاكية نقشت عليها الأطباق المسطحة المصنوعة من الفضة ومعدة على مائدة من الرخام لتناول الوجبة

(100) Brehier op. cit.» p. 54.

René «op. cit.» p. 112.

التالية « خرشوف كبير وأثناء يحتوى على صلصة بيضاء وأرجل خنزير مشوية وبيض موضوع فى كؤوس ذات ميناء زرقاء ومعها ملاعق ذلقة يد طويلة بالاضافة الى سمك من نوع القبطان ذى اللحم الأبيض وفخذ خنزير مملح وبسط مشوى وقطع من الحلوى « جاتوه » مصنوعة من طبقات من البسكويت والفواكه الحلوة ، كما كان يوجد على المائدة أيضا خبز مستدير الشكل ، وكأس كبير له عروتين ملئ بالنبیذ الا أن هذه الوجبة الفاخرة ذات الطابع الحديث لا تعطينا فكرة عن الأكلات المفصلة وطرق الطهى عند الطبقات البورجوازية^(١٠١) وقد أضاف الطبيب هيروفيل « عاش فى القرن العاشر » الى نظام خاص استوحاه من مذهب ابقراط عددا معينا من وصفات الطعام المميزة التى يمكن استكمالها بالأكلات الموجودة فى هجاء كبار رجال الاديرة وهو هجاء نسبت كتابته الى ثيودور برودروم * ومن هذه المعلومات يتبين لنا أن الطهى كان يتميز بكثرة التوابل خاصة الفلفل الأسود والقرفة والخردل والثوم كما توضحه أكلة الخنزير المشوى المسقى بالنبیذ المعسل * وقد كان الزيتون المخل فى ماء مملح وصلصة السمك التى يتم اعدادها من دُم سمك البحر من الأكلات المحببة *

وكانت قوائم الطعام تضم لحم المواشى والطيور بالاضافة الى لحم الصيد المشوى * وقد ذكر هيروفيل من أنواع السمك ما يأتى
 سكوربياس Skorpiaa سلطان ابراهيم صخرى وبياح وهو
 من فصيلة البوريات والمرجان الذى يتبل بالتوابل * ويتم قلى هذه
 الأسماك بدقيق الخردل ، ويرش حولها صلصة مصنوعة من الناردين
 والكزبرة ومعظم الأسماك تؤكل مسلوقة مع صلصة غليظة تصنع من
 سمك النازلى المهروسة كما كانت الأسماك المملحة شائعة الاستعمال الا

(101) Ibid. p. 55.

ان هذا النوع لم يلق اقبالا من الطبقة الراقية مثله فى ذلك مثل الكافيار (١٠٣) .

وعلى العكس كانت هذه الطبقة تقبل اقبالا شديدا على الضفادع والحفش واللممزة « وهو نوع من سمك موسى » أما التونة فقد كان آكله شائعا بين جميع الطبقات .

وقد أوصى هيروفيل بأكل الخضر وأنواع السلطة بالإضافة الى اللحم ، ولم يشر الى الرجلة المطبوخة وصلصة السمك والخس والسلق والكرنب والشمام والتين الأبيض المملح والفول والحلبة والفاصوليا التى تطحن وتحول الى دقيق . والعدس والهليون وعش الغراب . أما بالنسبة للحلو فهناك الفواكه الجافة والعنب واللوز والمفتق وجوز الصنوبر وكوز الصنوبر والتفاح المطبوخ . أما بالنسبة للذواقة فقد كان هناك السفرجل المطبوخ بالسكر « كمبوت سفرجل » والرمان والبلح والقشدة بالعسل . أما كبار رجال الدير فكانوا يختصون طعامهم بالتبيلة المكونة من قلب الكرنب والسمك المملح والمدخن ، و ١٤ بيضة وأنواع كثيرة من الجبن والزيت والفلفل الأسود ، ١٢ رأس ثوم ، ١٥ سمكة جافة من نوع الأسقمري ويثم سقى هذه التبيلة بالتبيذ الحلو الذى يوضع فى قصعة . وفى أيام الصوم الكبير الذى لا يؤكل فيه اللحم والدهن كانوا يحترمون احتراماً كبيراً ، حتى أنهم كانوا يحرمون أكل الأسماك باعتباره غذاء ثميناً ، بينما كانت القشريات والمحارات تعتبر من الأكلات التى لا لحم فيها ولا دهن كما كان مسموحاً بأكل الجبن خلال الأسبوع الذى يعقب أحد الخمسين أى الأحد الواقع قبل ابتداء الصوم الأربعين وهو ما يسمى بأسبوع الجبن الا أنه كان مجرماً ابتداء من أول أحد فى الصوم الكبير .

وقد كان النبيذ مفضلاً وأفضل أنواعه نبيذ قبرص وسوريا

(102) Hussey «The Byzantine World» p. 126.

René Guerdan «op. cit.» p. 113.

وفلسطين وشمال افريقية • الا أنه بعد انتشار الاسلام فى هذه البلاد قتلوا من زراعة الكروم فقلت نسبته •

أما الخبز فقد كان هناك اقبالا شديدا على الخبز المصنوع من دقيق الحنطة الخالص الذى كان يوضع على كل الموائد البيزنطية فيما عدا موائد الفقراء • وهناك ثلاثة أنواع من الخبز يختلف النوعان الأولان منهم حسب نعومة غريلة الدقيق والثالث يتميز بلون الفخالة والمصنوع من أنواع من الدقيق غير المحلية فكان يعتبر نوع من الخبز غير النقى • أما كبار رجال الدير فكانوا يأكلون الخبز المصنوع من الشميز « جريش قلب الحنطة » أما الرهبان فيأكلون الخبز الخشن المصنوع من الرده النخالة والذى يدحرج فى الرماد (١٠٣) •

كانت الأطعمة تطهى على الفحم وتطهى بعناية وانتان • وقد صدر قانون يحتم على جميع المواطنين أن يحفظوا كمية من المؤن فى مخازن المنزل تكفيهم مدة ثلاثة شهور ، على سبيل الاحتياط خوفا من تعرض المدينة لأية حصار فى وقت من الأوقات (١٠٤) •

وقد اهتم البيزنطيون بتنقية المياه المستخدمة للشرب ، وشعروا بأهميتها فى منازلهم • وقد وصلت المياه الى المنازل عن طريق قنوات وما زالت أحد هذه القنوات التى أنشأها الامبراطور فالتر موجودة ضمن الآثار المتبقية فى قلب مدينة استنبول • وقد تيقن البيزنطيون أنه من السهل على أى عدو لهم أن يقطع المياه عنهم ومن الممكن أن يجبرهم على الاستسلام • لذلك قاموا ببناء مجموعة من الصهاريج الكبيرة تحت الأرض تتسع لحفظ كميات كبيرة من المياه •

وكانت هذه الصهاريج كبيرة ومحكمة البناء وجدارها محمى بأعمدة

(103) Berhier «op. cit.» p. 58.

(104) Tamara «op. cit.» p. 65.

وقواعد كانت مثارا للاعجاب مثل الكنائس • ومن أهم هذه الصهاريج المقامة ، ما شيده بالقرب من كنيسة القديسة صوفيا حتى أن الأتراك بعد أن استولوا على القسطنطينية سموه « قصر تحت الأرض » (١٠٥) •

لسنا فى حاجة الآن أن نعدد وسائل التسلية والمتعة التى عاش فيها البيزنطيين خاصة وأن القسطنطينية كانت تسمى مدينة المتعة • وأول ذلك كان ميدان السباق حيث كان مكانا للنزهة واجتماع الناس الى جانب أنه كان ميدانا للمنافسة والمسابقة • والألعاب والمسابقات التى كانت تقام فى الميدان ، كانت شائعة ومعروفة وكانت المقاعد تسع ما يقرب من ٤٠٠٠ • متفرج وظل هذا الميدان للمسابقة حتى القرن الثانى عشر (١٠٦) •

كان الأباطرة مولعون بالسعاد الناس ، وبذلوا قصارى جهدهم فى زيادة وتنويع العروض • فهناك مسابقات الجياد ، والصيد والقنص للحيوانات البرية ، المهرجين ولعبوا الأكروبات والعروض المسرحية خاصة المسرحيات الهزلية وأدوار التهريج وعروض السيرك وأخيرا المباريات بين الفرسان والألعاب السحرية وكل هذه الوسائل كانت لازمة للبيزنطيين فكما ذكر أحد المؤرخين : « أنه بدون هذه الأشياء فالحياة لن يكون لها طعما » (١٠٧) •

وقد احتل الصيد أهمية كبيرة كرياضة مفضلة وشائعة حتى ان منظر الصيد كان شائعا فى لوحات الموزايكو المتبقية عن المباني العلمانية ، وقد كان الرمح والقوس والسهم هم الأسلحة المستخدمة فى الصيد ، الى جانب أنهم كانوا يستخدمون كلاب الصيد (١٠٨) •

(105) Ibid.

(106) David. T. R. «op. cit.» 109.

(107) Diehl «op. cit.» pp. 108-109.

(108) David «op. cit.» p. 110.

وقد كانت الحمامات العامة الى جانب أهميتها التي تعرضنا لها •
الا أنها كانت لها أهمية اجتماعية اذ أنها تعتبر مكانا هاما لاجتماع الناس
والتسامر والتسالى مع بعضهم البعض ، وقد كانت هناك الحدائق العامة
التي يتلاقى فيها الرجال ، كما كانوا يتخذون من الأسواق مكانا للتلاقى
والتحدث وسماع الأخبار اليومية (١٠٩) •

وقد كانت شوارع القسطنطينية مكتظة بالناس وقد أتى اليها الناس
من كل فج وصوب منهم من أتى للتجارة أو لعمل قانونى أو للمتعة •

وكانت الشوارع والميادين تعج من الصباح حتى المساء بأشكال
وأوان مختلفة من الناس • فاذا زارها أحد فانه يتذكر الكوبرى الكبير •
كما أنه يرى اختلاف الأشكال والملابس والتجار ، فمن الناس من يلبس
الملابس الحريرية الموشاة بخيوط الذهب ويركبون الجياد الأصيلة
ويشبهون الأمراء والتجار المحتشدون من كل بقاع العالم وهناك
العبيد المغامرون من الأرض والاسكندنافيين ، والجنود فى ملابس
عجيبة الأشكال والألوان والحراس شديدي الطول أمثال النخيل وهم
من الروس والخزر الى جانب الجنود الزنوج ، والمرترقة اللاتين الذين
يتقلدون السيوف الطويلة وأشكالهم كالبرونز ، الى جانب نساء جميلات
يلبسن أحدث الملابس ويتحلين باللالىء ، يسرن فى الشوارع على
الأقدام أو فى محفات ، الى جانب الباعة الجائلين الذين يحملون
بضائعهم (١١٠) •

كل هذه المناظر والأشكال المختلفة تضى الحياة على شوارع
القسطنطينية وأبهة لا تنتهى • وتزداد المدينة جمالا عندما يقوم
الامبراطور بالتوجه الى أى كنيسة من الكنائس المشهورة فكان يخرج

(109) Tamara «op. cit.» p. 57.

(110) Diehl «op. cit.» p. 109.

فى موكب ويمر فى المدينة ممتطيا جواده • كانت الشوارع تزين وتعلق
الأعلام وتضاء وتنتثر الزهور ويلبس الحراس الملابس الرسمية
ويتقلدون السيوف المصنوعة من الذهب •

ومن المناسبات التى تتلأأ فيها المدينة عندما يرزق الامبراطور
بمولود ولد ، فتحفل المدينة احتفالا يستمر سبعة أيام يستطيع المرء
خلالها أن يأكل ويشرب ما يشتهى فى أى ميدان أو شارع من الشوارع
على نفقة الامبراطور ، كما كانت هناك عروض أخرى واحتفالات ،
ومهرجانات كبيرة فى بعض المناسبات الخاصة مثل زواج الامبراطور
أو فى أثناء تتويجه امبراطورا (١١١) •

والى جانب هذه المزايا كانت هناك متناقضات فى حياة الناس
بالعاصمة البيزنطية فهناك بيوتا يسكنها أناس سيئى السمعة والسلوك ،
هناك من يسبون الأديان فى الطرقات ومن يقامرون ، الى جانب حانات
الخمير التى اضطر البوليس الى اصدار قرار باغلاقها من الساعة
السابعة مساء حتى يمنع أولئك الذين يقضون يومهم فى الشرب حتى
يصلون الى حالة من التمل تجعلهم يدخلون فى مشاجرات دامية
ومصادمات ، كما كانت الشوارع غير آمنة مساء لتكاثر اللصوص
الذين غفلت الشرطة عنهم ، كما كانت توجد نسبة من الفقراء الذين
سكنوا دورا غاية فى البساطة والفقير ، فعلت الحكومة على أن تزود
الفقراء الذين يعملون فى خدمة الدولة بالخبز المجانى مثل الذين
يشغلون فى صيانة الحدائق وسقايات المياه أو من يساعدون فى العمل
فى مخازن الدولة (١١٢) •

كما قامت الحكومة بتشجيع دور للصدقات ومستشفيات للشيوخ
والعجزة يرأسها فى العادة الامبراطور أو أحد الأشراف وتلحق عادة

(111) Diehl, Ibid, p. 110.

(112) René Guerdan «op. cit.» p. 110.

بأحد أديرة الرجال أو النساء وهو الذى يديرها • وكانت الدولة تنشئ ملاجئ الأيتام للأطفال الفقراء • وقد أصبح مدير ملاجئ الأيتام منذ زمن مبكر موظفا هاما فى سلك وظائف الدولة ووضعت تحت تصرفه مبالغ ضخمة • وفى عصر الأسرة الأيسورية التى سارت على سياسة اللاأيقونية تولت الكنيسة ادارة ملاجئ الأيتام الى حين (١١٣) •

الجنائز والموتى

رغم أن القانون الرومانى كان يحرم دفن الموتى داخل المدن إلا أن الكثيرين كانوا يرغبون فى الرقاد بجوار القديسين ، فازدادت عدد المدافن والقبور حول الكنائس •

ومن ناحية أخرى كانت جميع الطبقات تحترم التقاليد الجنائزية التى ترجع الى عصور الوثنية القديمة منها استئجار النادبات والنساء مشعات الشعر اللاتى كن يرددن قصائد منظومة مسبقا خاصة بتلك المناسبة • ومن المحتمل أن تكون هذه الظاهرة التى تتسم بالطابع المسرحى للأحزان تدور داخل الكنيسة نفسها كما كانت الجموع تشارك فيها أحيانا وبعد ذلك وقبل أن يحمل النعش يأتى الحاضرون بدعوة من المقدس ليقبلوا الميت قبله الوداع •

وهناك تقاليد أخرى يمكن ارجاعها الى تلك العصور الوثنية القديمة منها على سبيل المثال قص شعر الميت واغلاق بيته طوال العام إلا أن أهمها تقليد قبلته الكنيسة وهو اجتماع الأهل والأصدقاء فى يوم محدد حول قبر الميت للبكاء عليه من جديد ، وتقديم القرابين وتقديم فطائر من الحلوى ، بينما كانت هناك عادات ما زالت قائمة فى سوريا وأرمينيا — ورغم تحذيرات رجال الدين ضدها — مثل عادة تقديم الذبائح من الثيران والخراف على قبور الموتى •

وبينما كانت هذه الاجتماعات تتم فى الغرب فى اليوم الثالث والسابع والأربعين بعد الجنازة وفقا لتقليد مأخوذ عن اليهود ، وكان احياء هذه الذكرى فى الشرق يتم ثلاث مرات كذلك فى اليوم الثالث والتاسع والأربعين(١١٤) *

وقد فرض الشعب على الكنيسة احياء الذكرى فى اليوم التاسع والتي لم يرد ما يشير اليها فى الكتاب المقدس ، كما لم يرد شيئا عن ذكرى الأربعين لا فى الكتاب المقدس ولا فى العادات الوثنية *

وقد أثبت فرانز كومون أن هذه العادة ترجع الى الديانة البابلية ، التى كانت تقوم على التنجيم حيث كانت أرقام ٣ ، ٧ ، ٤٠ تعد أرقاما تامة لأنها تشير الى اتمام دورة قمرية وقد استند فى ذلك الى نص كتبه فيثوس فالناز فى أنطاكية فى القرن الثانى الميلادى وقد كانت الأميرة المتعلقة « برجم المرأة » خاضعة لحسابات القمر حيث كان يتم حساب الظواهر الشهرية التى تطرأ على المرأة ، وفقا لظهوره ، كما كان يستعان به فى حساب مدة تكوين الجنين فى الرحم * وهناك ما يؤكد أن القديس الثلاثى على أرواح الموتى كان يقام منذ القرن الرابع حيث نصت عليه الدساتير البابوية الصادرة فى أنطاكية والداعية الى قيام الصلاة وتقديم الصدقات والتى كانت لا تحرم اقامة المأدبة الجنائزية ، وقد كان لكل من شراح التوراة والعلماء ورجال الدين تصورات فيما يتعلق بتفسير هذا التقليد دون أن يستطيعوا الرجوع الى المصدر الحقيقى ، وكان الشعب يعتقد أن روح الميت تبقى على الأرض حتى اليوم الثالث وتحاسب فى التاسع ، وتتمثل أمام العرش الالهى فى اليوم الأربعين حيث تظل الى يوم البعث(١١٥) *

وفىما عدا الحداد الملكى ، فان المعلومات عن الحداد عامة غير

(114) Brehier «op. cit.» p. 19.

(115) Brehier, Ibid, p. 20.

كافية ، فكان الامبراطور يظل مرتديا ملابس الحداد البيضاء ولا يخلعها الا مع قداس الأربعين ، بينما يرتدى الرعايا الملابس السوداء ويخلعونها فى اليوم التاسع ومن مظاهر الحداد أيضا قص الشعر والجلوس أرضا وتمزيق الثياب ♦

القبور والمدافن :

كان يتم وضع جثمان الموتي فى توابيت من الحجارة أو الرخام أو البورفير « حجر السماق » وقد تكون مزينة بنقوش تبعا للطبقة الاجتماعية التى ينتمون اليها ، وأعظم هذه التوابيت ، توابيت الأباطرة التى تم وضعها فى كنيسة الحواريين ، والتى اكتشفتها بعثة الآثار بمدينة القسطنطينية سنة ١٩٢١ ، كما كانت هناك أحواض مزينة برسوم تشير الى بعض قصص الانجيل ، ومخصصة للشهداء والقديسين والأسر الراقية وعلى مر العصور تم دفن شخصيات كبيرة فى مقابر فخمة أقيمت فى الكنائس وهى عبارة عن بناء مستدير الشكل يتم حفره فى الشبيست وهو صخر بركانى صفائى ، ويبلغ طول قطره حوالى ١٥ مترا. ♦

وكان يتم تقسيم هذا البناء الى أربع حجرات بواسطة صليب يونانى ويغطى بسقف على شكل قبة نصف اسطوانية ومقابر محفورة فى الأعمدة لحماية التوابيت ، وقد تم تزيينها بالحروف اليونانية ، بيد أن هناك قبورا أخرى وجدت داخل حفر ووجدت بداخل أحداها تابوت عبارة عن صخرة كبيرة من الرخام الأبيض منحوتة ومزينة بنقوش على جوانبها الأربعة ، وأهمية هذه القبور المقامة تحت الأرض ترجع الى أنها ملحقة بدير ♦

أما قبور عامة الشعب فكانت تتميز بالبساطة الشديدة حيث كانت عبارة عن حفر فى الأرض (١١٦) ♦

الفصل الثاني

الحياة الثقافية في الدولة البيزنطية
في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين

* الحياة الثقافية في الدولة البيزنطية في القرنين الثامن والتاسع *

* أ - اللغة - ب - الفلسفة واللاهوت *

* « أصول الحركة اللايقونية » - « الثقافة الدينية » -
« الاتصال بالدول الإسلامية » - « وراثة الروح الهلينية » -
« العقيدة الأرثوذكسية للصور المقدسة » *

* « يوحنا الدمشقي والمجمع المسكوني السابع » - « ثيوثانيس
المعترف » - « ثيودورس الاستوديوني » - « نيقفورس المعترف »
- « جرجس الراهب » *

* ج - الأدب - « النثر الأدبي » - « البلاغة » -
« القصص » - « التاريخ » - « الرسائل والخطب » - الشعر
وفنونه *

* د - العلوم العلمية - « الرياضيات » - « الفلك »
- « الكيمياء » - « الطب والجراحة » *

الفصل الثانى

عنيت الامبراطورية البيزنطية طوال تاريخها بالاهتمام بالناحية العلمية والثقافية وقد تعددت ألوان العلوم والثقافات بتعدد العصور المختلفة ، وما يهمننا منها هو ما ساد القرنين الثامن والتاسع الميلاديين •

فالمعروف أن الامبراطورية البيزنطية تقع عند نهاية الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فى منطقة هلينية بين العالمين الرومانى والشرقى حتى ان ثقافة الامبراطورية تأثرت بجميع هذه الأصول •

وحاول الكتاب التركيز على أن كل منطقة من المناطق المحيطة بالامبراطورية تركت أثرا مباشرا على الثقافة ، لكن الحقيقة التى يجب أن ينتبه اليها الباحثون هى اننا لا نستطيع أن نعطى لأى مؤثر من هذه المؤثرات درجة أعلى من الآخر ، فلا المؤثر الشرقى الهلينى ، ولا الرومانى الغربى كان مسئولا وحده عن تكوين الأسس الثقافية فى الدولة البيزنطية ، لأنها كانت عالم ثقافى متكامل دائت للشرق والغرب والوسط بدرجات متساوية (١) •

وطوال العصور الوسطى ، كان الانسان فى العالم البيزنطى — مثلما كان فى العالم القديم — لا يستطيع أن يصل الى المناصب العليا الا اذا حصل على قدر من التعليم يؤهله للمنصب الذى يريده ، فقد اعتمدت الوظائف على الكتابة المنمقة والمحادثة اللبقة ، فأقبل الأولاد والبنات على التعليم لكنهم لم يصلوا جميعا الى سلك الجامعة ، لأن التعليم العالى كان يحتم ضرورة الاستعانة بمدرسين خصوصيين وهذا لا يتاح الا للأبناء الطبقات العليا (٢) •

(1) David, Rice «op. cit.» p. 30.

(2) Hussey «The Byzantine World», p. 134.

ويرى الباحثون أن الفترة الممتدة من القرن الرابع الى أوائل السابع يمكن اعتبارها فترة تفاعل بين القيم الوثنية والمسيحية تمخضت عن اصطباغ التراث الهليني بلون مسيحي أرثوذكسى ، هذا مع العلم بأن المسيحيين انقسموا على أنفسهم حيال الثقافة الهلينية ، فمنهم من رأى امكانية الاستفادة من ذلك التراث فى دعم العقيدة ، وفريق ثان رأى عكس ذلك . واستمر الحوار بين الاثنى طوال القرون الثلاثة الأولى للمسيحية ، وشهد القرن الرابع محاولات جديدة للتوفيق بين الاتجاهين وهكذا ، بدأت المسيحية فى امتصاص التراث الوثنى تدريجيا^(٣) .

وقد احتلت المدارس فى المدن المكانة الكبرى كمركز للاشعاع الثقافى فى العالم البيزنطى ، ومنذ القرن السادس كان الصبى يتعلم اما فى المدارس الخاصة أو الحكومية . أو فى ملاجئ الأيتام التى كان يؤسسها الأباطرة ، وافتتحت أعداد كبيرة من المدارس لتستوعب الحشد الهائل من التلاميذ بغض النظر عن جنسياتهم أو طبقتهم الاجتماعية . الى جانب المدارس الكنسية الموجودة منذ عهد المسيحية الأولى الى جانب الأكاديميات الموجودة بالبطيركية الكبرى بالعاصمة وغيرها من الأقاليم التى توجد بها كنائس ، وكذلك المدارس الديرية . وهذه المدارس الدينية كانت تؤهل المدارس بها للالتحاق بالسلك الكهنسى ، وكان المدرسون الذين يقومون على التدريس بها معظمهم من الرهبان ، واللاهوت هو مادتهم الدراسية الأولى^(٤) .

وكانت هناك أكاديميات لها سمعة عالمية ، فجامعة أثينا حصلت على شهرة عالمية منذ عهد قنسطنطين الكبير وثيودوسيوس ، لكنهما

(3) Vasiliev «op. cit.» p. 291.

(4) Tamara T. «op. cit.» p. 56.

Hussey «op cit.» p. 136.

أغلقت فى عصر جستنيان ، وحلت محلها جامعة القسطنطينية التى ورثت التراث العلمى الزاخر ، والموجود بالولايات الشرقية خاصة الاسكندرية وانطاكية وبيروت ، والذين دخلوا فى طاعة الاسلام .

وقد قلت عدد كراسى الدراسات اللاتينية بالتدريج فى عددها حتى انتهت نهائيا ، وظلت الجامعة هى مكان التدريب على المهام المدنية والادارية ، ودعمت بموظفين ماليين ، واداريين ، وكان قمة ازدهارها من منتصف القرن الثامن وحتى نهاية القرن الثانى عشر .

وقد عمل الأباطرة البيزنطيون على تكريم المدرسين سواء الذين يعملون فى التعليم العام أو الخاص ، وبدأوا يروجون لأهمية التعليم فى الامبراطورية وشجعوا عليه وأثبتوا أهميته ليس فقط للأفراد الذين هم فى حاجة اليه بل للمواطنين سواء^(٥) . كما كانوا يقوّمون بدفع مرتبات المدرسين وعزلهم اذا ثبت تقصيرهم ، وكانوا يفتشون على الفصول بين حين وآخر ليختبروا التلاميذ ويستمعوا الى ما يلقى بها من محاضرات .

وقد كانت النساء تقمن بتعليم أولادهن فى المنازل بدلا من الذهاب الى المدارس ، فكن يستيقن ابنائهن من الجنسين حتى سن السابعة ويعلمنهم بأنفسهن ، مثلما كانت تفعل والدّة بسيللو ، وثيودوت فقد كانت تمنع خادمتها من أن تقص قصصا خيالية مليئة بالوحوش المخيفة ، وانما كانت تحكى لهم قصصا من الكتاب المقدس فتسحر الأطفال ، ومن هذه القصص ما يتناول طاعة اسحق لوالده ، ومباركة يعقوب لطاعته أمه ، وقصة طفولة يسوع^(٦) .

(5) Hussey Ibid.

(6) Brehier «op. cit.» p. 18.

أسلوب التعليم بالمدارس والجامعات :

عندما يبلغ الطفل سن الخامسة أو السادسة ، يبدأ في تعلم القراءة والكتابة . وكان يتم ذلك على أيدي مدرسين متخصصين . ومما يدل على اهتمام البيزنطيين بالتعليم أن الوعاظ كانوا لا يكفوا عن تحذير الآباء من القيام بمسئولياتهم تجاه أبنائهم بتوجيههم الى العلم ، فمن السهل على أى انسان أن يترك كل شئ في حياته ، ويهب نفسه لمعلمه . لأن الدولة البيزنطية — كما رأينا — اهتمت بهؤلاء المدرسين وأولتهم مكانة مرموقة (٧) .

وعندما يبلغ التلميذ العاشرة أو الثانية عشر من عمره يبدأ في دراسة النحو ، وهى كلمة تعنى كثيرا . وأكثر مما نتصوره لهذا العلم فلا يقوم التلميذ بعرفة تصريف الأفعال وتركيبها ، وبناء الجملة فقط بل يدرس كذلك العلوم الكلاسيكية . وبعد أن ينتهى من قراءة كل صفحة من صفحات الكتاب يبدأ في تحليلها ، وتفسير كلماتها الصعبة والنادرة ودراسة أصول هذه الكلمات ، والفائدة من دراستها ، والهدف الذى يهدف اليه كاتبها (٨) .

ومن أهم الكتب المحتتم على التلميذ دراستها أشعار هومر فبيدا بدراسة الأوديسا وحفظها عن ظهر قلب ثم يتحول الى دراسة الالياذة ، والتلميذ النابه يستطيع أن يحفظ ما يقرب من خمسين سطرا يوميا من هومر ، ويتمكن من معرفة وفهم أى اقتباس يصادفه من قصائد هومر في أى كتاب يقرأه (٩) .

ومما يدلنا على مدى الاهتمام بدراسة كتابات هومر أن حدود

(7) N. Baynes «op. cit.» p. 152.

(8) Ibid.

(9) Tamara «op. cit.» p. 56.

المعرفة التي كان يحصل عليها التلميذ كانت لا تخرج على هذا النطاق ويتضح لنا ذلك من هذا الحوار في شكل أسئلة وأجوبة في المدرسة :

س : من هو والد هكتور ؟

ج : بريام •

س : ما أسماء اخوته ؟

ج : الكسندر وديفوبوس •

س : ما اسم والدته ؟

ج : هيكيوبا •

س : من أين عرفت ذلك ؟

ج : من هومر • لكن هلينيكوس وغيره من الكتاب عرضوا ذلك

الموضوع — انتهى (١٠) •

وعندما يبلغ التلميذ الرابعة عشر أو الخامسة عشر من عمره ، يترك دراسة النحو الى دراسة البلاغة ، وبلغت كثرة كتب البلاغة التي يدرسونها الى درجة أن كان الأبناء يستعينون بخدامهم ليحملوا لهم الحقائق الثقيلة المملوءة بالكتب ، والتي كان الآباء يضجرون من كثرتها • وكان على التلميذ أن يدرس أعمال مجموعة كبيرة من الأدباء أمثال ديموستينيس وهيردوت وثيوكوديدس ، وايسوكرايتس ، وليسياس فأعمال ايسوكرايتس كانت سائغة ، بينما كان عليهم أن يحفظوا كتابات ديموستينيس وسيكوديدس عن ظهر قلب • وكان على التلميذ أن يقرأ بصوت مرتفع ليحسن من نطقه ، وليمرن صوته على الالقاء الحسن ، الى جانب أن قراعتهم للبلاغة كان يشترط فيها ضرورة تنعيمها بنعمة جيدة (١١) •

(10) René Guerdan «Byzantium its triumph and Theology»,
p. 69.

Baynes «op. cit.» p. 152.

(11) Ibid.

أما الواجب المنزلى ، فكان تحت اشراف المدرسين ، ويقسم التلميذ باعداده فى المنزل ومن شروطه أن يقرأ كل علومه فى المنزل بصوت مرتفع جدا الى حد أن الجيران المحيطين بهم كانوا لا يذوقون النوم ، وأصيب بعضهم بالأرق من شدة الضوضاء التى يسببها التلميذ .

وبعد أن يحذق التلميذ دراسة الأدب اليونانى ، يبدأ فى كتابة التمرينات ، وصياغة الموضوعات الأدبية والانشائية ، مثلا يصفون مدينتهم ، ويناقشون بعض الأسئلة الهامة مثل : هل يجب أن يتزوج الرجل أم لا ؟ ثم يدخلون فى مناقشات أصعب . وكان المدرسون يجلسون على كراسى تعلو الأماكن المعدة لجلوس التلاميذ ، ويمسك كل واحد منهم بعصا ينهال بها على رؤوس التلاميذ فى حالة الخطأ .

أما عن مواعيد الدراسة فكانت تبدأ فى فصل الخريف ، وتستمر بدون توقف حتى بداية الصيف ، وبعدها يأخذ التلميذ أجازة أثناء شهور الصيف الأربعة ليتجنبوا الحر الشديد .

وكانت الدراسة تبدأ من الصباح بالنسبة للصغار ، أما الكبار فكانت محاضراتهم تمتد حتى المساء . ولم تغلق المدارس أبوابها الا فى الأعياد الدينية الرسمية كأعياد الميلاد مثلا ، وفى هذه الأجازة يمكن للتلميذ أن يتوجه الى السيرك لمشاهد الألعاب المختلفة باذن من مدرسه أما الأعياد الغير رسمية ، فكانت تمنح فيها أجازات قصيرة ، ورغم ذلك كلن الآباء يشتكون من أن الوقت قد ضاع على أنائهم بدون دراسة . الى جانب أنهم خصصوا أياما محددة كانت تقام فيها مسابقات أدبية فتلقى الخطب ، وتعرض المسرحيات الأدبية يحضرها الآباء والأصدقاء (١٢) .

وفى هذا السن أيضا كان على الأولاد ضرورة حفظ الإنجيل عن ظهر قلب ، ودراسة أساطير ايزوب ، وفى السنوات النهائية للدراسة كانوا يدرسون العلوم التى يتكون منها المجموعة الرباعية من الفنون السبعة الحرة ، وهى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى (١٣) .

وهناك حقيقة لابد من الإشارة إليها وهى أن العلوم اللاهوتية لم تدرس فى جامعة القسطنطينية ، بل فى المدارس الدينية كما ذكرنا ، ولابد أن نعرف أن التعليم الذى تكلمنا عنه وجد صعوبة فى تنفيذه فى عصر اللايقونية ، فنجد العالم باخوميوس يقارن فى القرن الثامن بين علم اللاهوت الصائب الحق وبين العلم المدنى الذى يضل كثيرا من الناس ، ويشبه البطريق نقفورس العلم الأول بسارة والثانى بهاجر زوجته ابراهيم عليه السلام » .

وجاءت مناعب الكنيسة فزادت الشكوك تأججا ، بيد أن الأمور كانت أكثر استقرارا عند حلول القرن التاسع ، كما أن السلطات الكنسية كانت أقل مظنة وارتيابا (١٤) .

وفى عهد الأسرة العمورية ارتفع شأن التعليم العالى فى مختلف فروع ففى عهد ميخائيل الثالث ألف عمه القيصر باراداس مدرسة عليا فى القسطنطينية ، وكان مقرها فى القصر الامبراطورى ، وكان يدرس بها الفنون السبعة الحرة التى أشرنا إليها . وقد درست فى هذه المدرسة جميع الأعمال الأدبية والفلسفية القديمة ، وكان التعليم متاحا بها لجميع المواطنين وكانت معفاة من المصروفات ، وتقوم بدفع مرتبات الموظفين من ميزانية الدولة . ومن أهم أساتذة هذه المدرسة فوشيوس البطريك (١٥) .

(13) Tamara. T. «op. cit.» p. 56.

(14) Theophanes «op. cit.» pp. 189 — 190.

(15) Vasiliev, «ou. cit.» p. 296.

أنواع العوام السائدة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين :

أولا - اللغة :

خلال اللغة اللاتينية عدة قرون هي لغة البلاط والحكومة : ولغة
الطبقات العليا في المجتمع البيزنطي * وفي عهد ايو الثالث كانت

(16) Ibid.

(17) Bury «op. cit.» loc. III, p. 445.

اليونانية هي لغة الإدارة والتحدث ولغة الكنيسة • لكننا لا نقول ان جميع سكان القسطنطينية كانوا من أصل يوناني ، فقد كان معظمهم رومان اما ديانتهم فهي المسيحية على المذهب الأرثوذكسى • لكنهم اعتبروا أنفسهم يونانيين •

وفى عهد ليو الثالث احتل اليونانيون مكانة مرموقة فى الدولة وأصبحت معظم الوظائف العليا فى أيدي الآسيويين ، خاصة الأرمن الذين أصبح معظمهم قادة للجيش • ويرجع ذلك الى أن جميع الأباطرة الآيسوريين كانوا من أصل آسيوى ، ليس فيهم الا الامبراطورة ايرين وهى التى كان يجرى فى عروقتها دم يونانى ، أما ميخائيل رانجابه فكان من أصل آسيوى يونانى^(١٨) •

وبذلك نرى أن القرن الثامن شهد انهيار اللاتينية تماما فى الابهراطورية وحلت محلها اليونانية كتابة وتحدثا ، ولم تستخدم اللاتينية الا فى العملة وفى الصيحات اللاتينية المحرفة والمبتذلة التى يصاح بها فى الاحتفالات الرسمية •

أما اللغات الأخرى التى كانت تدرس ، فكانت قليلة ، أجل ربما كان هناك كثير من علماء العبرية ، كما أن البلاط له المترجمون الذين يخدمون غاياته الدبلوماسية واحتياجاته ، ومن الجلى أن هناك بالقسطنطينية أعدادا كبيرة ممن يجيدون العربية وأرمنيون لا جدال فى أنهم كانوا يتذكرون لغتهم القومية • لكن رغم ذلك كان البيزنطى لا يحب أن يتفقه فى لغات غيره من أهل البلاد الأخرى ، فكان لا يريد أن يحمل نفسه على اعتبار أنلسن المتبربرة مادة تليق بالتخلع العلمى الجدى^(١٩) •

(18) Finlay «The Byzantine Empire» p. 185.

(١٩) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٨١ •

الفلسفة واللاهوت :

كانت الفلسفة من أهم العلوم التى أولاهها البيزنطيون عنايتهم ،
فهى واحدة من الفنون الحرة التى سادت العصور الوسطى ، كما أن
بيزنطة — كما رأينا — ورثت كثيرا من العلوم الهلينية القديمة • وأولها
الفلسفة •

فالليونان هى التى أنجبت الفلاسفة الكبار أمثال سقراط —
وأرسطو ، وأفلاطون ، لذا فإن دراسة هذه الفلسفات تعد من أهم
علوم العصر • فكانوا يدرسون فلسفة أرسطو كهدية لدراسة افلاطون
خاصة فى القرن الثامن الذى شهد احياء للدراسات الفلسفية • وكان
يتحتم لدراسة وفهم أفلاطون ضرورة الايام بأصول الحساب
والهندسة^(٢٠) وقد ارتبطت دراسة الفلسفة فى الفترة التى نغنى
بدراساتها ارتباطا وثيقا بالعلوم الدينية اللاهوتية ، وتنوعت الدراسات
فيها حيث كانوا يعتبرونها مادة مساعدة لدراسة دستور الكنيسة وعلومها
وكانت المناقشات الفلسفية تعود بفائدة كبيرة خاصة فى أثناء الفترات
التي يزعمون أنها « فترات هرطقة » والتي استمرت حتى عصر يوحنا
الدمشقي الذى يعتبر من أهم فلاسفة هذه الفترة رغم القصور الذى
اعتري الدراسات الفلسفية قبل ذلك^(٢١) •

ولعل الحركة اللايقونية قد نمت هذا الفكر ، وفتحت مجالا كبيرا
للمجادلات الدينية ، وشرح وجهات النظر ، وفتحت السبيل أمام
المعارضة لتفلسف وجهة نظرها ، وقد أرجع فلاسفة هذه الفترة أصول
الحركة اللايقونية الى ثلاث أسس هامة •

(20) Baynes «op. cit.» p. 158.

(21) Hussey «op. cit.» p. 138.

أولا — الثقافة الدينية :

ورث المسيحيون اليونانيون الذين سلكوا الامبراطورية محبة الصور المقدسة والأيقونات من ماضيهم الوثني . وعندما أعدمت الكنيسة في عصورها الأولى هذا الفن الذى يتشابه مع الوثنية ، اختفت الأبعاد الثلاثية ، وظهرت في صورة جديدة مسيحية في نسختين من الكتاب المقدس .

وهناك مسيحيون شرقيون آخرون في سوريا وأرمينيا كانوا أقل اهتماما — نسبة لثقافتهم السابقة — بعبادة الصور ، لذلك فإن الأباطرة الذين حاربوا هذه العقيدة ، كانوا أصلا من أرمينيا وأيسوريا زيادة على ذلك ، فإن العالم الشرقى الذى لا يتكلم الاغريقية كان منذ القرن الثامن مونوفزيتيا في عقيدته ، لذا فأننا نرى أن المونوفزيتية أسهمت بفكرها الدينى في ايجاد أسس للجدل اللاأيقونى (٢٢) .

ثانيا — الاتصال بالدول الاسلامية :

بعد انتصار العرب واستيلائهم على فلسطين وسوريا ومصر ، وجدت الامبراطورية البيزنطية نفسها على اتصال دائم مع العالم الاسلامى عسكريا وفكريا ، وبدأ كل من الاسلام والمسيحية في فرض دينه على المنطقة (٢٣) .

لذلك ظهر تقاج بين بعض العلماء الأرثوذكس والكاثوليك وبين بعض علماء المسلمين ، وكان الداعى لهذا الجدل أن الخلفاء اعتادوا عند توليهم عرش الخلافة أن يوجهوا الى الملوك المعاصرين كتباً يدعونهم فيها الى الدخول في الاسلام ، فلم يكن بد من الرد على هذه الكتب ومن

(22) J. Meyndorff «Byzantine, Theology, p. 42.

(23) Ibid.

أسباب هذا الجدل أيضا أن خطر التحول عن المسيحية تحول بترديد تقدم العرب في جميع نواحي حياتهم ، فكان من الضروري أن تنظم مناعة في العقيدة للمسيحيين في الشغور وفي جميع الأقطار الشامية وفي مصر أيضا ، وكان سكان هذه الأقطار من الأرثوذكس وهم لا يزالون يستعملون اللغة اليونانية في أرض الاسلام . وفي زمن يوحنا الدمشقي أيام الأمويين وفي زمن أبي قره في أوائل العهد العباسي فجاءت تأليف هؤلاء في الجدل باليونانية ، ولكن أبا قره في ميماره بدأ في استعمال العربية ، وكتب بها أبوكاليس بحيره الحوار بين عبد المسيح الكندي ، وبين عبد الله الهاشمي .

أما يوحنا الدمشقي فقد ناقش بعض آيات القرآن الكريم . وانتقد وحى القرآن وعادات المسلمين في العبادات والأخلاق . ورفض أبو قره بعثة محمد رسولا ، وجادل فكرة الخلق المستمر ، ونصيب الله في أعمال المخلوقات ، واعتبرها أقوالا يجر إليها الدخول في الاسلام . ومما قاله أبو قره انه اذا قيل بخلق المسيح لزم أن يكون الله قد بقي زمنا دون كلمة وروح وبالتالي لزم أن يكون القرآن الذي هو كلمة الله مخلوقا ، وظهرت رسالة بحيره الراهب في عهد المؤمنين . ثم كان هناك هجوم اسلامي قوى على أثر ما فعله ميخائيل الثالث اذ أرسل مقاتلين احتج في احدهما بمبدأ السببية فرفض المسلمون فكرة وجود ابن الله مشارك له في الخلود وفي الصفات ، فظهرت رسالة للجاحظ قال فيها صاحبها الى تأييد سياسة المتوكل الشديدة نحو أهل الذمة ، وعرض أبو القاسم ابن ابراهيم البلخي لفكرة النبوة وألف أبو عيسى الوراق كتابا ضخما نقد فيه عقائد النصارى بمذاهبهم الثلاثة (٢٤) .

(٢٤) ارمان آبل تحتاج أهل الأدبان في القرنين الثامن والتاسع . الملحق السادس لكتاب فازيليف « الروم والعرب » تهريب د / عبد الهادي شعيره . ص ٢٦٨ — ٣٧١ .

وقد حاول أباطرة القرن الثامن أن يحرروا العقيدة المسيحية من الأفكار والعقائد الوثنية ، وقرروا ضرورة تنقيتها حتى يجعلوها تصمد في مواجهة الاسلام . لذلك فان هناك تأثيرا اسلاميا على الحركة اللاأيقونية ، لكن هذا التأثير ما هو الا جزء من الحرب الباردة المشتعلة ضد الاسلام (٢٥) .

ثالثا - وراثة الروح الهلينية :

وجد اللاأيقونيون في العادات المسيحية اليونانية مجادلات جديدة ، لا تتصل مباشرة بهدم المونوفثية ، أو بالتأثيرات الثقافية الأجنبية . أما الوجهة الفكرية لللاأيقونية فهي العودة بالمسيحية الى طبيعتها الأولى . والذين دافعوا عن هذه الفكرة استندوا الى وثيقة قديمة وجدوها تمنع تصوير أو تجسيد الاله (٢٦) .

أما الفلاسفة الذين يدينون بالافلاطونية الحديثة ، فقد رأوا في جعلهم في العقيدة المسيحية ضرورة وجود الصور والأيقونات ، والتي وجدت من قبل في وثنية الاغريق . فطوروا سياستهم وقربوها في مفهوم جديد وهي أن الصورة في المسيحية تعتبر وسيلة للوصول الى النموذج والأصل الديني ، وليس المقصود بها العبادة .

وقد كتب بورفيرى Porphyry على سبيل المثال :

« اذا كان بعض الاغريق لهم أفكار مستتيرة اعتقدوا بها أن الاله تجسد في الصور والأيقونات الدينية ، فان أفكارهم هذه لها آثار ايجابية وسليمة عن هذه الفئة من المسيحيين الذين يعتقدون أن الاله دخل رحم السيدة العذراء حتى أصبح جنينا ، ثم ولدته ودثرته في الملابس ، وكان مملوءا بالدماء ، وغشاؤه متقيح » (٢٧) .

(25) J. Meyndorff «op. cit.» p. 43.

(26) Ibid.

(27) Ibid, p. 44.

العقيدة الأرثوذكسية للصور المقدسة

أ — يوحنا الدمشقي ، والمجمع المسكوني السابع :

ثارت مناقشات عديدة حول عبادة الصور المقدسة في القسطنطينية بعد المجمع المسكوني السابع ، ومن أهم هذه الآثار ما خلفه يوحنا الدمشقي ٦٧٦ — ٧٦٠ م الذي كتب كثيرا عن الأيقونات المقدسة . وعندما كان يعمل في دير القديس سابا St. Sabas في فلسطين خاف مجموعة كبيرة من الأعمال الدينية والعقائدية والتاريخية والفلسفية والخطابية والشعرية ويعتبر كتابه « ينبوع المعرفة » من أهم الآثار التي تركها^(٢٨) وهو يعتبر تفسير دقيق للعقيدة الأرثوذكسية . وعن طريق هذا المؤلف منح يوحنا مؤيدي الأيقونات سلاحا قويا دافعوا به عن عقيدتهم ضد الفئة اللاأيقونية . وهذا السلاح اغتفروا اليه عند بداية ظهور هذه الحركة المضادة . ويعتبر هذا المرجع هو الأساس الذي استقى منه ثوما الاكوينى فى القرن الثالث عشر أسس حركته اللاهوتية فى مؤلفه عن Summa, Theological . ونظم يوحنا التراتيل الروحية ولحنها ولا سيما ما يرتل منها يوم عيد الفصح وجاءت هذه التراتيل أعمق وأقوى مما نظمه رومانوس المرتل . وهو مؤلف عدد كبير من المؤلفات الكنسية ومنها ما يخص الأعياد المسيحية ، وقصص العذراء المقدسة وتكريم الرسل ولم يخلف يوحنا أحدا من الكتاب فى كتابه الشعر البيزنطى الكنسى^(٢٩) .

ثيوفانيس المعترف ٧٤٨ — ٨١٨ م :

كان ثيوفانيس ابنا لأحد ولاة جزر الأرخبيل ، وقد دعى ثيوفانيس

(28) Vasiliev «op. cit.» p. 294.

(29) Ibid, p. 294.

للاشتراك في المجمع المسكوني السابع وأهم ما خلفه تاريخه الشهير ، بدأه من عهد دقلديانوس ، ووقف به حتى نهاية حكم ميخائيل الأول ٢٨٤ — ٨١٣ م . وتاريخه مفيد جدا لأنه يحفظ لنا بعض ما ورد في مصنفات فقدت من بعده ، ولأنه أسهب فيما دون عن حرب الأيقونات (٣٠) .

وقد كان ثيوفانيس عدواً للالأيقونية خاصة في دورها الثاني ، وقد حاكمه ليو الخامس الأرمني وسجنه فترة طويلة ، ثم نفاه بعد ذلك الى إحدى جزر بحر إيجه حيث توفي سنة ٨١٨ ، وتاريخه هام جداً لأنه استمدته من مصادره الأصلية ، كما أنه كان معاصراً للحركة الأيقونية (٣١) .

٣ — ثيودورس الاستوديوني ٧٥٩ — ٨٢٦ م :

يعتبر ثيودورس الاستوديوني هو العلامة البارزة في الدور الثاني للأيقونية ، فقد وقف مدافعاً عن عبادة الصور المقدسة * وقد كان ثيودورس هو مقدم الدير الكبير في القسطنطينية والذي اضمحل دوره أثناء حكم قنستنتين الخامس ، لكنه عاد الى وضعه الطبيعي تحت رئاسة ثيودورس * وقد سار على نظام الحياة الجماعية داخل الدير وقام بتأسيس مدرسة ديرية كبيرة لتقوم بسد الحاجة الثقافية للرهبان وقد اشتغل رهبان الدير في القراءة والكتابة ونسخ المخطوطات ، وقراءة الإنجيل المقدسة وكتابات آباء الكنيسة (٣٢) .

وألّف ثيودورس مجموعتين من النظم التي يجب على الرهبان اتباعها ، وهاتان المجموعتان سميتا بالصغيرة ، والكبيرة وفيهما أسس الحياة الديرية منها الطاعة لمقدمي الأديرة ، وحياة العزوبة ، والعمل الدائب ، والفقر الشخصي ، وهذه الأسس اختلفت كلية عن حياة الزهد

(٣٠) اسد رستم « الروم » ص ٣٤٣ .

(31) Vasiliev «op. cit.» p. 291.

(32) Ibid, p. 295.

الكامل • كما اقتبس بعض الأسس من انظمة باخوم وباسيل^(٣٣) •

وأسهم نيودورس اسهاما كبيرا فى تطور العقيدة المسيحية الشرقية خاصة فى كتابه عن « طبيعة المسيح وشخصه » وكتابه عن « نظام الصوم الكبير » وكتاب « الأنعام الثمانية » • ومن أهم كتاباته دفاعه عن الصور المقدسة وكتب مجموعة من الخطابات لمعاصريه المهاجمة اللايقونية ، كما قدم مجموعة كبيرة من المقترحات فى هذا الموضوع^(٣٤) •

٤ — نيقفورس المعترف ٧٥٨ — ٨٢٨ م :

كان نقفور بطريركا للقسطنطينية فى بداية القرن التاسع ، وقف موقفا معاديا لللايقونية ودافع بكل حماس عن الصور المقدسة ، كما قام برفع قرار الحرمان الذى صدر على القس يوسف الذى بارك من قبل زواج قنسطنطين السادس ، والذى اعتبره رجال الدين « زواج زنا » كما قام بتنظيم هيئة الاكليروس ملزما كل منهم بالسلوك فى الحدود التى يرسمها له القانون ، لذلك تأججت المشاكل بينه وبين نقفور وثيودوسيوس وجميع رجال الأديرة • مما دفع ليو الخامس الى نفيه سنة ٨١٥ م • وتوفى بعدها سنة ٨٢٨ م وترك مجموعة من الكتابات بعضها لم ينشر الى الآن • كلها دفاع عن الصور المقدسة^(٣٥) • منها كتاب فى دحض قرارات مجمع تحطيم الصور المنعقد سنة ٨١٥ ، كما كتب أيضا فى التاريخ فأرخ الفترة من حكم الامبراطور موريس سنة ٦٠٢ الى ٧٦٩ م • وهو يحوى حقائق هامة خاصة بالتاريخ السياسى وتاريخ الكنيسة فى هذه الفترة وهناك تشابه بين كتابات نيقفورس وثيوفانىس بما يؤكد على أن هذين المؤرخين استقيا معلوماتهما من

(33) J. Meyndorff «op. cit.» p. 47.

(34) Ibid. p. 48.

(35) Ibid, p. 49.

مصدر واحد^(٣٦) .

٥ - جرجس الراهب :

كان عدوا لدودا للملأيقونية — ترك لنا تاريخا مطولا من عهد آدم حتى وفاة ثيوفيليس سنة ٨٤٢ م بمعنى آخر الى الانتصار النهائي لعبادة الصور المقدسة وتاريخ جرجس الراهب له أهمية كبرى فى دراسة التاريخ الثقافى لهذه الحقبة لأنه يحوى مناقشات عديدة خاصة بالأديرة البيزنطية فى هذه الفترة ، وعلى الأخص الحياة الديرية نفسها ، وانتشار اللا أيقونية ، والعقيدة الاسلامية على الحدود الشرقية^(٣٧) .

الأدب

هزمت روما جميع البلاد الآسيوية التى كانت ضمن مملكة الاسكندر الأكبر ، لكنها لم تنجح فى فرض الحضارة اللاتينية على الأراضى التى تقع شرف البحر الأبيض المتوسط لأن الثقافة الهلينية كانت واسعة الانتشار ، ومتأصلة بجذور عميقة^(٣٨) .

لذلك فان الأدب فى القسطنطينية كان أدب يونانى ، كما ورث البيزنطيون عادات الدراسة الهلينية ، لذلك فان النشاط الأدبى كان كبيرا ، فبعضه لم يكتشف والبعض لم يطبع ، وعلى سبيل المثال فان تاريخ العلم والتعليم والعلوم التطبيقية والفنون الحرفية لم يهتم به الباحثون الا فى هذه الأيام ، وما زال فى أيدي الكتاب والباحثين فى أيامنا هذه تعليقات هامة على الدراسات البيزنطية فى العصور المختلفة^(٣٩) .

(36) Vasiliev «op. cit.» p. 292.

(37) Ibid, p. 292.

(38) Baynes «op. cit.» p. 165.

(39) Hussey «op. cit.» p. 138.

والمعروف أن اللغة اليونانية كانت تعلم تعليماً وافياً ، وكانت أعمال المؤلفين الكلاسيكيين تقرأ وتقدر سواء أكانت نثراً أم شِعراً وتبين قائمة قرارات فوشيوس في النثر مجالا متسعا اتساعا خارقا يمتد بين هيردوت وسنيسيوس مع تعقيبات تتجلى منها الإلمعية والذكاء . مع أن البيزنطيين كان يخامزهم رغبة في الاختصار والتنقيح ، والشرح كما كانوا يجدون مشقة في دراسة الشعر الاغريقي من حيث أنهم كانوا ينطقون حسب النبرة المكتوبة ، كما كانوا مضطرين الى تعلم النطق القديم لكي يقدموا ما في الشعر من ايقاع ووزن موسيقى وبحور (٤٠) .

أما عن الأدب في عصر اللاأيقونية فقد اندثر بعد انتصار عبادة الصور ولم يبق الا جزءا من تفاصيل المجمع الديني الذي عقد سنة ٧٥٤ م . وقد بقيت بعض شذرات من كتابات قنستطنطين الخامس ضد عبادة الأيقونات وهي محفوظة في أعمال البطريرك نقفورس الثلاثة . وقد ألف هذا الامبراطور بعض الأعمال الأدبية الأخرى أيضا كما أمر مجموعة من الكتاب المؤيدين لللاأيقونية باعداد كتابات تعتمد أساسا على الانجيل وكتابات آباء الكنيسة ، وذلك لتكون ضمن جدول أعمال المجمع الديني الذي عقد سنة ٧٥٤ م ، لكن جميع هذه الكتابات اندثرت بعد انتصار الأيقونية (٤١) أما عن الأشعار اللاأيقونية ، والتي بقيت فهي محفوظة ضمن أعمال ثيودور الأستوديونى .

وقد أمر المجمع المسكونى السابع بالقضاء على الأدب اللاأيقونى وفى البند الثامن قرروا « ضرورة تقديم جميع المسرحيات التافهة ، والكتابات الرديئة التى كتبت ضد الصور المقدسة الى أسقف القسطنطينية ، كما أوجبوا ذلك بالنسبة لكتب الهرطقة ، وإذا ضبط

(٤٠) رنسهان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

(41) Vasiliev « op. cit. » p. 292.

أى شخص عنده كتب من هذا النوع وقام باخفائها حتى واو كان أسقف أو قسيس أو شماس فسيتعرض للطرد من وظيفته سواء كان راهبا أو علمانيا ، وسيطبق عليه قرار الحرمان الكنسى (٤٢) .

النثر الأدبى :

رغم أن الدولة البيزنطية لم توفق الا الى انتاج قليل من المؤلفات الأدبية الخالدة ، فقد كانت تستطيع أن تقاخر بوجود سلسلة طويلة من الكتاب المقتدرين الأذكياء تفوق كثيرا عدد من ظهر لدى أى شعب آخر معاصر .

وقد كانت صعوبات اللغة تعوق الأدب البيزنطى منذ عهوده الأولى وكانت هناك أشكال ثلاثة للاغريقية معروفة بالقسطنطينية هى الرومية وهى الاغريقية المتداولة بين طبقات الشعب وهى لغة مقتضبة مطبوعة بالاهمال بها مجموعة ألفاظ مخلطة وأجرومية بسيطة ساذجة ، ثم اليونانية التى تتحدث بها الطبقات المتعلمة ، وهى اللغة التى كانوا يكتبون بها أدبهم . وكانت اللغة تختلف من زمان لآخر فهى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أقرب شبها الى الاغريقية الفصحى الكلاسيكية منها فى القرنين الثامن والتاسع (٤٣) .

ولنرى أن مراعاة الأوزان الكلاسيكية فى الكتابة ظل متبعا طوال عهد الامبراطورية البيزنطية ، وكان ثيوفانيز هو أول كاتب فى القرن التاسع استعمل بصورة قاطعة اللغة المتكلمة ، وهى لغة بسيطة ومملوءة بكلمات من أصول مخلطة منها اللاتينية والسلافية والشرقية ، وبعد ذلك بقرن صنف قنسطنطين السابع الكتب بلغة الكلام بيد أنها لغة لا شك

(42) Ibid, p. 293.

(٤٣) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٩٢ .

أن أى فرد من قدماء الاغريق كان يفهمها أكثر (٤٤) .

البلاغة :

ورثت بيزنطة اهتماما كبيرا بالبلاغة التى كونت النظام التعليمى والانتاج الأدبى . فكانت هى الوسيلة التى تمكن الكاتب أو المتحدث من تقديم أفكاره فى صورة حية وسليمة .

وترجع أصول البلاغة الى السفسطائية الوثنية فى العصر الهلينى . فقد كانت هناك فجوة كبيرة بين لغة التحدث والكتابة ، فان النطق المتعدد للعالم القديم اندمج فى لغة عامية سميت الكوينى *Koine* وهى لغة التحدث فى اليونانية وفى جمع بلدان البحر الأبيض المتوسط وجميع أرجاء العالم الهلينى .

ولم تستخدم الفئة المثقفة فى العالم الهلينى هذه اللغة الحية والتى تعتبر لغتهم العامية ، لكنهم رجعوا مرة أخرى الى اليونانية الفصحى وحاولوا الكتابة مستخدمين اللغة التى كان يستخدمها ثوكوديدس وغيره من المؤلفين القدامى (٤٥) .

وقد كان هذا الاتجاه جزءا من خطتهم فى حماية الثقافة اليونانية القديمة والمحافظة عليها ، لكن هذا الاتجاه لاقى نتيجة سيئة لأنهم عندما بدأوا يدمجون القديم بالحديث خرجت كتاباتهم مملوءة بأخطاء نحوية ، وتعبيرات فاسدة ، ولم تستخدم الكنيسة اللغة العامية . لكن معظم كتابتها الأدبية خرجت بلهجة الكوينا لتمييز عن اللغة الغصحية القديمة ، كما أنها تقدمت فى أسلوبها خاصة فى شعرها الدينى وما يصاحبه من موسيقى ، حقا فانهم أحيانا يستخدمون نسبة كبيرة من النثر الموزون . وجنحوا الى العامية فى بعض الأعمال الأدبية الاخرى خاصة فى التاريخ

(٤٤) المرجع السابق .

(45) Hussey «op. cit.» p. 138.

وكتابة حياة القديسين ، فكانوا يكتبونه بلهجة بسيطة ، وكانوا يستعينون بهومر وغيره من الأدباء المحبين لديهم^(٤٦) . ومن أشهر هذه الكتابات التاريخية التي كتبت في هذه الفترة بهذا الأسلوب العامي ما سطره نيوفاينز في القرن التاسع في مدونته الاخبارية المسهبة ، وكان ثيوفانيز يكتب متأثراً بتحيز الرهبان القاطع ، بيد أنه قد احتفظ لنفسه بحكمه على الأشياء ، ولا يزال عمله هو المرجع الثقة الوحيد عن القرون السابقة لعصره وكان معاصره نيقفور البطريق مؤرخاً — كما كان لاهوتياً — ذلك أنه شاء لمدونته الزواج وسعة الانتشار أكثر من أى مدونة أخرى . ولذا لم يدرج فيها إلا ما ظن أنه يسلى الجمهور أو يملؤه بالتحيز الى الاتجاه الصائب^(٤٧) .

القصص :

لم يعرف البيزنطيون الكتابة القصصية بمفهومها ومقوماتها بل ان قصص القديسين وحياتهم هي التي أمدت الأدب بمادة وفيرة خرجت في صورة قصصية ، حيث امتزجت فيها تفاصيل حياة الناس في العالم البيزنطي الى جانب صور من ليالى العرب الخيالية ، وكان ذلك خاصة بالنسبة للقديسين الذين يعيشون في الجهات الشرقية^(٤٨) .

وقد ارتبط اسم يوحنا الدهشقي ارتباطاً كبيراً في هذه الفترة بالأدب القصصي حيث قدم رواية رومانسية دينية وهي رواية « برلام وجوزافت » Barlaam and Josaphat والتي لاقت شهرة كبيرة وترجمت الى جميع اللغات في العصور الوسطى . ولا شك أن هذه الرواية أخذت من أساطير بوذا الهندية المشهورة . والمعروف أن هذه القصة نسخة من حياة بوذا اقتبسها المسيحيون الشرقيون ، حتى

(46) Ibid, p. 139.

(٤٧) رنسمان « المرجع السابق » ص ٢٩٧ .

(48) Hussey « op. cit. » p. 139.

ان المؤلف نفسه أشار على أن هذه القصة وصلت اليه من الهند ، لذلك فقد ذاعت شهرة يوحنا الدمشقي كقصصى رومانسى منذ العصور الوسطى حتى الآن ، وحاول بعض المؤرخين أمثال المؤرخ المستشرق الفرنسى هـ • زوتنبرج H. Zotenberg تقديم أدلة على أن يوحنا الدمشقي ليس هو مؤلف هذه القصة ولكن المؤرخين المحدثين أثبتوا أدلة على أنها من تأليفه وأضافوا اسمه على صفحات تراجمهم لهذه القصة^(٤٩) .

التاريخ :

لم تسير كتابة التاريخ وفق منهج علمى مرسوم ، بل على النقيض من ذلك ، وبناء على ما نشهد من عدد المؤرخين ، بل وأكثر من ذلك عدد مدونى الأخبار الشعبيين ، ومن كثرة الطبوعات التى صدرت من مدونات الأخبار المروية chronicles فكان ذلك يثير اهتمام الناس ، ولقد أحب البيزنطيون قراءة أمجاد الامبراطورية السالفة ، وكان أحب كتب الأخبار الى قلوب الناس يمتد فى أعماق الماضى حتى الى خلق آدم وحواء ، ويتضمن قصص طزوادة ، وكانت للباطرة السالفين والقديسين الدارجين صورة مشرقة الفصاعة أمام نواظرهم^(٥٠)

ويرى الأستاذ ديل : أن التاريخ كان عند البيزنطيون من أهم العلوم فهو عبارة عن سرد لأحوال الماضى تختلط فيه الأخبار الهامة بالتافهة ، وتتحدث عن أديرة آباء العمودية ، وكان المؤلف يحدد نفسه دائماً فى اطار تقليد الأسلاف ، والكتاب الدينيين كانوا من أهم الذويعات فيتحدثون دائماً عن كلام آباء الكنيسة^(٥١) .

أما الأستاذة / هاسى فتؤكد على اتهام البيزنطيين بالتاريخ ،

(49) Vasiliev «op. cit.» pp. 294 — 295.

(٥٠) زنسهان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٨٢ .

(51) Diéhl «Byzantium, Greatness and Decline», p. 56.

وكيف كانوا شغوفين بـماضيهم ، وكانت كتاباتهم متأثرة بتقهمهم للاتصالية والاستمرارية التاريخية^(٥٢) .

وقد أحب اليونانيون طريقة ونظام أجدادهم فى التأريخ خاصة هيردوت وثيركوديدس ، وفى الفترة الأخيرة تأثروا بأسلافهم من المؤرخين الذين ظهروا فى القرن السابع أمثال أجاسياس Agathias الذين كانوا يعتبرون التأريخ من خلق اليونانيين^(٥٣) . وفى رأيهم أنه ليس سردا للأحداث بل هو يختص بالمضى والحاضر ، وأفعال الانسان ، وآراء المثقفين فى طبيعة الأشياء ، ومدى خطأ وصواب هذه الآراء ، وذلك على حد قول نقفور جريجوراس Nicephorus — Gregoras الذى يرى أن قدرات المؤرخين والكتّاب البيزنطيين اختلفت من واحد الى آخر ، لكنه لم يتمكن أحد منهم أن يصل الى مرتبة سكوديدوس واكسينيفون^(٥٤) .

أما المؤلفين أمثال ليو الشماس ، وأنا كومينا فى العصور الوسطى ونقفور جريجوراس فى القرن الرابع عشر قدموا تواريخ أفراد واضح ومميز لا يظهر الا فى المجتمعات المتحضرة .

وكان كتّاب السير والتراجم أشبه الناس بالمؤرخين تماما ويفوقونهم عددا أو يكادون ، وتكاد معظم هذه التراجم أن تكون خاصة بالقدسين دون غيرهم ، وكان الاضطهاد الذى صلب تحطيم الصور هو الذى أنتج أول محصول ضخم من التراجم ، وكان الشهداء المتواضعون من عباد الصور والبطاركة المستمسكون بسنة السلف ، بل حتى الامبراطورة ثيودورا نفسها يجدون بين المعجبين بهم المخلصين لدينهم من يتطوعون لتسجيل أعمالهم ، وسرعان ما تزايد عدد التراجم التى ظهرت ، فأخذ

(52) Hussey «op. cit.» p. 140.

(53) Nicetas Chonitas History p. 768.

(54) Nicephorus Gregoras Roman History, vol, II.

أصحاب التراجم يتحدثون عن النساك المعمودين وعن أساقفة وبطاركة .
وبعض هذه المؤلفات ذات قيمة أدبية عالية^(٥٥) .

الرسائل والخطب :

عنى البيزنطيون بكتابة الرسائل التى تمثل جانبا من فن النثر الأدبى ، ولعل الرسائل المتعددة التى حوتها مكتبة فوشسيوس البطريرك لتبين لنا كيف كانت هذه الرسائل تعبر عن الذوق الأدبى والاسلوب المتبع فى المكتبات . ورغم العداء الدينى بين الاسلام والمسيحية الا أن فوشسيوس عقد صداقات وطيدة مع بعض حكام المسلمين أمثال أمير كريت فكان فوشسيوس يرأسله باستمرار ، وقام نيقولا مستيكوس Nicolaus, Mysticus بمراسلة ابن الأمير وكتب اليه يقول « يجب أن تعلم أنه رغم الخلاف الدينى بيننا وبينكم ، هذا الخلاف الذى يقف سدا منيعا ، الا أننا تجمعنا وياكم المحبة ، والوئام ، فأستأذى فوشسيوس يجب والدكم جدا ويجله ، فالطبيعة الانسانية تثبت أن الحب هو السبيل الى المعرفة^(٥٦) .

كما احتلت الخطابة مكانة كبيرة ، فقد كانت هناك توارىخ للعالم كتبت للمستمعين من عامة الشعب ، فكانوا يسجلون الأحداث العامة بتسلسل زمنى ويضيفون اليها بعض أشياء تجذب السامعين وتخيفهم فى نفس الوقت ، وهى أخبار تروق لقاعدة الشعب العريضة ، فيكسبون عن طريقها الذوق العام والعقلية المعاصرة ، لكنهم لم يحتلوا المكانة التى احتلها المؤرخون^(٥٧) .

وهناك خطبا أخرى تمثل نموذجا من الأدب البيانى ، وهو خير ما خلفه لنا القرن التاسع من هذه الخطب ، فكانت خطب التآيين التى

(٥٥) رنسمان « المرجع السابق » ص ٢٩٨ .

(56) Vasiliev «op. cit.» p. 297.

(57) Hussey «op. cit.» p. 40.

يلقيها الأصدقاء والأهالي عند الموت ، وهناك خطبة لثيودور الاستديوني على قبر أمه وخطبة الأسقف يونيميوس ، والخطب الكثيرة التي ألقاها بسلوس على أمه^(٥٨) .

الشعر :

كان حظ البيزنطيين قليلا في ميدان الشعر ، فلم يرق لهم غن من فنون الشعر الا الشعر الديني ، ولم يتركوا تراثا الا في ذلك فقط .

معنى ذلك أن كتابات آباء الكنيسة ، والفكر الديني الذي سيطر على عقلية البيزنطيين طوال العصور الوسطى ساعد على تنمية كتابة منظومات شعرية دينية .

وفي الفترة التي نعنى بدراستها برز يوحنا الدمشقي — الذي عرضنا له في أكثر من عمل ثقافي — كشاعر ديني فلسفي ، وجميع أعماله كانت تنصب على مدح المسيح ووصف آلامه ومعجزاته ، وتثوق في نوع من الشعر الديني يسمى القانونات وهي عبارة عن أشعار غنائية ذات تقاعيل مختلفة تجمع معا في وحدة واحدة مطولة^(٥٩) .

ويبرز لنا في مجال الشعر الديني ثيودور الاستوديوني فقد ترك ثيودور مجموعة من المنظومات الشعرية والقصائد والتراثيل الدينية . ولم يتمكن الباحثون نهائيا من دراسة وتحليل التراثيل التي خلفها لأن معظمها لم ينشر حتى الآن ، والبعض الآخر ظهر في طبقات قليلة مثل « كتب الطقوس بالروسية » ولابد أن يهتم الدارسون بهذه المجموعات الكبيرة التي تركها ثيودور في نظم الكنيسة والطبيعة الاجتماعية لأنها ذات فائدة كبيرة في تصوير التاريخ الثقافي للفترة التي عاصرها^(٦٠) .

(58) René Guerdan «op. cit.» p. 70.

(59) Ibid.

(60) Vasiliev «op. cit.» p. 295.

وفي هذه الفترة برزت الشاعرة الديتية كاسيه Kasia ذات الموهبة الشعرية العالية .

ويرجع تاريخ كاسيه الى الفترة التي فكر فيها الامبراطور ثيوفيلوس في الزواج ، وكعادة البيزنطيين — فقد اختاروا مجموعة كبيرة من أجمل فتيات الامبراطورية ، وتجمعوا في العاصمة ليختار منهم الامبراطور واحدة . وكانت كاسيه احداهن . وكان على الامبراطور أن يخترق صفوف هؤلاء الفتيات حاملا في يديه تفاحة ذهبية ، يعطيها للفتاة التي تروق له ويختارها زوجة .

وقد أعجبته كاسيه اعجابا شديدا أكثر من أى فتاة أخرى ، وكان على وشك أن يعطيها التفاحة ، لولا ردها الجريء على السؤال الذي وجهه اليها . فقد جعله يغير رأيه ، واختار ثيودورا « التي أعادت الصور المقدسة مرة أخرى » .

عندئذ تركت كاسيه الحياة ، وأسست ديرا حيث قضت به بقية عمرها . وبدأت تؤول قصائد دينية معينة تجلى فيها حاسة معينة من الجمال والأصالة والتقوى الصادقة^(٦١) . وبناء على دراسات المؤرخ كرامباخر الذي عكف على دراسة شعرها فقد وجد أنها امرأة فذة جمعت بين حساسية المرأة الى جانب شدة التدين والصراحة النادرة^(٦٢) .

وكان كتاب التراثيل البيزنطيون يؤلفون بأنفسهم الحانهم التي لا تزال هي وبعض الأنغام الشعبية المنقولة بالتواتر تؤول الموسيقى البيزنطية الوحيدة التي بقيت لنا حتى اليوم .

(61) Vasiliev, Ibid, p. 295.

(62) Ibid, p. 296. &

Bury «op. cit.» p. 81 — 83.

وكانت موسيقى التراتيل من النوع الشكلي والتناوبى الذى ينبغى أن يتغنى به مصحوب بالآلات موسيقية ، شأن موسيقى الكنيسة الأرثوذكسية بأجمعها •

وعلى حين صيغت التراتيل البيزنطية فى قالب القانونات ، فإن الشعر البيزنطى العلمانى كان يقع فى ثلاثة بحور شعرية رئيسية ، ولم يزدهر فن الشعر الغنائى نتيجة لما يسمى بالاتجاه الموضوعى للكتاب البيزنطيين ، وكان أقرب الأشياء الى الشعر الغنائى هو شعر الحكم والأمثال الذى وجدت فيه رشاقة العاطفة العلمانية البيزنطية وغرورها أنسب سبيل للتعبير عن نفسها ، وقد كتب جورج من أهل بيسيديا فى القرن السابع مقتطفات من شعر الحكم تناول أحداث زمانه منها ما هو مطول تطويلا تجاوز الحد • ثم ان ثيودور الاستديونى كتب طائفة سلسلة من مقطعات شعر الحكم والأمثال حول حياة الدير وأحداثها ، وكتب كاشيه كثيرا من شعر الحكم (٦٣) •

العلوم العلمية :

تألق البيزنطيون فى بعض العلوم العلمية ومن أهمها الرياضيات التى ارتبطت بالدراسات الفلسفية ، وبعض الباحثين أمثال ميخائيل بيسلوس اعتبروا أن الرياضيات نافعة جدا لأنها تربط بين الأشياء المادية والأفكار النظرية (٦٤) •

واذا كان البيزنطيون قد برعوا فى هذا المجال ، فإنهم لم يزدوا على ما قدمه الاغريق القدامى ، وقد غل أيديهم فى الحساب أرقامهم العقيمة ، وكان الاغريق قد تقدموا فعلا بقدر ما أمكنهم كلما استخدموا حروف الأبجدية بدل الأرقام من غير الطريقة العشرية ولم يكن هناك

(٦٣) رنسمان « المرجع السابق » ص ٣٠٥ .
(٦٤) Hussey «op. cit.» p. 40.

أعدادا انما كانوا يستخدمون الحروف الهجائية فى العد والحساب^(٦٥) .

وقد بدأ البيزنطيون يتطوروا فى علم الحساب حتى ان العرب اعتمدوا عليهم فى هذا العلم خاصة ما كتبه اقليدس ، وقد راسل الخليفة العباسى المأمون الامبراطور البيزنطى ليو الأرمنى . وطلب اليه أن يأذن لبعثة اسلامية بالحصول على بعض المصنفات اليونانية فى الفلسفة والهندسة والطب ، فأجابه ليو الى ذلك ، فأنت القسطنطينية بعثة ثقافية عباسية كان أعضاؤها الحجاج بن قنطر . وابن البطريق وصاحب بيت الحكمة ، وعاد هؤلاء بكتوز ثمينة الى بغداد فشرع قسطنطين ابن لوقا على ترجمتها^(٦٦) . ولما تراهى الى المأمون نبأ ليو الرياضى راسله يستدعيه الى بلاطه وأغراه بالعطاء ، ولكن ثيوفيلوس علم بهذه الدعوة فى حينها ، فأبقى ليو فى القسطنطينية . وعينه مدرسا فى احدى الكنائس ثم عاد المأمون يرجو ثيوفيلوس أن يسمح بأن يزوره ليو مدة قصيرة ، وذكر فى رسالته أنه يعد قبول هذا الطلاب عملا وديا ، وانه يعرض لقاء ذلك ألف قطعة من الذهب ، وعقد صلح دائم ، غير أن ثيوفيلوس رفض واعتبر علم ليو واختراعاته سرا من الأسرار كالنار الاغريقية مثلا ولا يسمح بانتشاره^(٦٧) .

وقد برزت أنشطة ليو الرياضى فى القرن الثامن ، واتسعت دائرة اتصالاته وارتبط مع جميع مدارس وجامعات القسطنطينية ، وأهدم بأبحاثه فى العلوم الرياضية^(٦٨) .

أما الهندسة فان حدود البيزنطيين فيها لم تتعد حدود هندسة اقليدس ، اما الميكانيكا فقد كان للبيزنطيين مؤلفات قديمة من أهمها مؤلفات أوتولوكس Autolycus ، فقرأها واعدوها عليها فى

(66) René Guerdan «op. cit.» p. 66.

(٦٧) اسد رستم «الروم» ص ٣٤٥ .

(66) Bury «op. cit.» pp. 436 — 438.

حياتهم العلمية ونقلوها الى العرب الذين طوروها وزادوا عليها (٦٩) .

أما علم الفلك ، فان نظريات البيزنطيين فيها لم تخرج عما قرره بطليموس السكندري ، وكانت أفكارهم تدور على أن الكون يتكون من مجموعة من الأفعلاك تتوسطها الأرض ، والنظرية التي كانت تتنافى مع هذه النظرية هي أن الأرض عبارة عن مستطيل له جوانب مسطحة مثل الحجرات أو السماء بالنسبة للأرض كالسقف بالنسبة للحجرة ، والشمس عبارة عن دائرة صغيرة تختفى في المساء خلف جبل مخروطي ، ويحيط بها المحيطات من كل الاتجاهات ، وتخفى عنا الأرض التي سكنها الانسان قبل الطوفان (٧٠) .

وقد شارك ليو الرياضي بأبحاثه في علم الفلك ، وركزها في مدينة طرابيزون التي كانت ترتبط مع المدن الايرانية حتى القرن الثالث عشر (٧١) ولم يتمكن البيزنطيون من تصحيح الأخطاء التي وقع فيها بطليموس وقام العرب بتصحيحها بعد ذلك .

ودور البيزنطيين في مجال الكيمياء لم يتعد اختراعهم للنار الاغريقية وهي ذلك السائل القابل للاشتعال الذي كان يمكنها من ادراك النصر في معاركها ، بيد أن سر تركيبها احتفظوا به سرا دفينا لدرجة لم يمكن معها جعله نقطة بداية لتجارب أخرى جديدة (٧٢) .

أما في مجال الطب والجراحة ، فكان هناك تقدما ملموساً فيهما فان كتابات القرن السادس والتي كان يمثلها الكسندر تراليس Alexander of Tralles وفي بداية القرن السابع Paul of Aegnia

(69) Hussey «op. cit.» p. 138.

(70) René Guerdan «op. cit.» p. 67.

(71) Hussey «op. cit.» p. 137.

(٧٢) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٨٧ .

الذين ذكروا ان بيزنطة كانت هى الرباط بين مدرسة جالينوس وبين الدراسات المتقدمة فى ايطاليا والعالم الاسلامي^(٧٣) .

وكانت النظرية الطبية عندهم أن الجسم يتكون من أربع عناصر الدم والبلغم والصفراء والسوداء . وان صحة الجسم السليمة تعتمد على اتحادهم مع الدرجات الأربع : الجفاف والرطوبة — والحرارة والبرودة ولم يعبأ البيزنطيون بفائدة علم الصحة والنظافة^(٧٤) .

وكانت علومهم الطبية عبارة عن مجموعة من التجارب التى تحفظها وترويبها السيدات ، همثلا فان محلول « ملح جريجورى » المصنوع من الفشار والزنجبيل والبقدونس والنفاردين والفلفل يشفى من مرض النفرس الذى كان شائعا فى الدولة البيزنطية ، الى جانب السعال وأمراض العين والطحال والصلع .

وملح الجامبل يخلط بالسبك أو اللحم الجاف ويؤكل مع بيض نقيء وهذا الخليط يؤدى الى تحريك المعدة وتنشيطها ، ويشفى من نزلات البرد ، اما اذا أراد الانسان أن يشفى من الصداع أو يحسن من قوة ابصاره فعليه أن يأخذ خليطا من التوابل المضاف اليها « ملح القديس لوقا » وهى مخلوطة بالينسون والجزر والشمر والعنبر الى غير ذلك^(٧٥) . وقد استخدم البيزنطيون الاحتجام والكي وهما علاجان شديدان الى حد ما دون أن يؤديا على الدوام الفائدة المرجوة^(٧٦) .

(73) Hussey «op. cit.» p. 137.

(74) René Guerdan «op. cit.» p. 67.

(75) Ibid.

(٧٦) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٨٨ .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية في غالة

على عهد شارلمان

- * الحياة الاجتماعية في غالة على عهد شارلمان .
- * حياة شارلمان الاجتماعية .
- * العاصمة .
- * القصر .
- * شخصية شارلمان .
- * ملبسه .
- * تربيته لأولاده .
- * طعامه - شرايه .
- * حياة الفرنجة الاجتماعية داخل المدن .
- * الحياة الاجتماعية في الريف .
- * اللبس .
- * المسكن .
- * المأكل .
- * المجاعات والأوبئة .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية في غالة

على عهد شارلمان

لا شك أن الحياة الاجتماعية التي سادت هذه البقعة من العالم تأثرت تأثراً مباشراً بنوعية الحكم السياسي الذي ساد ، وبالبيت الحاكم ، الى جانب أنه برز فيها سمات لسكانها من الفرنجة وغيرهم من الأمم الوافدة عليهم •

ولابد أن نعرف أن ضياع البيت الكارولنجي ونفوذه السياسي تركز في الأراضي الواقعة بين نهري الراين والميز ، إذ أن بروم ومتر واستابلوا ، واخترناخ تعتبر من المواضع التي ارتبطوا بها ، وذلك اعتماداً على الأدلة الواردة في أقدم ما هو معروف من وثائقهم^(١) •

وقبل أن نخوض في حياة هذا الشعب الاجتماعية ، يجب أن نعطي صورة لشارلمان امبراطور الفرنجة الذي يعتبر المؤسس والبناني للحضارة الكارولنجية ، والذي يعتبر نموذجاً لشعبه في أخلاقه وعاداته ومثلاً للخلق الجرمانى الوافد على الرومان •

اتخذ شارلمان من مدينة آخن « اكسي لاشابل » عاصمة لامبراطوريته وبذلك بعدت الامبراطورة الرومانية عن عاصمتها القديمة الأم « روما » • وقد كانت آخن تسمى قديماً اكسيجرانوم *Aquisgranum* وكانت تقع بين نهري الراين والموز بالقرب من الحدود الغربية لأستراسيا في مكان متوسط صالح بالنسبة للأجزاء الشمالية من مملكته •

وفي هذا المكان أشرف بنفسه على بناء المدينة التي رأى فيها رجال حاشيته روما ثانية في عنفوان الشباب ، وقد وردت العبارة

(١) ديفز « شارلمان » ص ٢٨ •

التالية فى قصيدة لاثينة تعزى الى الكوين « هنا ستقوم السوق العامة ، ومجلس الشيوخ المقدس الذى سيتضى بين الشعب بالعدل ويشرع له القوانين ، وشييد الملك القصر والمسرح ومباني من الرخام تحيط بالحمامات الساخنة التى عرف فضلها رعايا الامبراطورية السابقة^(٢) » .

وقد كان قصر الامبراطور رهادى اللون يقع على ربوة عالية ، وامتلا بالأعمدة ذات الأحجار الأرجوانية والاعمدة الخضراء فى شكل يضاهاى ما كانت عليه روما ورافنا^(٣) .

وان نظرة على الشكل العام للعاصمة ، نجد أن نهر ورم Wurm الصغير ينساب ليكون على جنباته واديا أخضر ، كما أن البحارة والصيادين يأتون بالأسماك من هذا النهر ويغمررون به الأسواق التى تقام على جنباته . وهناك الكنيسة الكبرى للقديس فيتالى St. Vitale التى شيدت وجلبت لها الأعمدة الرخامية والأفاريز والفسيفساء من قصور أرخونات رافنا ، الى جانب كرسى العرش الرخامى الموجود فى البهو المعمد والذى نحت وصمم صغيرا جدا الى درجة أن شارلمان قد حشر أرجله بصعوبة داخله ، كما توجد كنيسة للقديسة مريم لكنها لم تكن فى مساحة القديسة فيتالى فى آخن^(٤) .

ويذكر المؤرخون كذلك أن قصر آخن الجديد يقع فى وسط بقعة غنية بالغابات تنتشر فيها أسراب الخزلان وتنشقها الجداول التى ترتادها الطيور المائية المختلفة ، ونسمع من أوصافهم أصوات العربات وهى وهى تجلب الكتل الحجرية البيضاء ، ونسمع صوت الأحجار وهى تقطع وتسوى على حين ترتفع الكنيسة شيئا فشيئا حتى تطل قبتها المذهبة على المباني المنخفضة الممتدة التى يشغلها الملك ، وأفراد أسرته

(2) Thompson «The middle ages» p. 478.

(3) Lamb «Charlemagne» p. 183.

(4) Ibid.

العديدون ، وتشرف على الفناء الذى يقع فيه تمثال لثيودريك فى هيئة فارس ، وهو أعظم أسلاف حكام الرومان والجرمان ، وقد نقل التمثال من رافنا ، وتطل أيضا على حملات السباحة فى الهواء الطلق التى تحيط بها درج الرخام والتى تستطيع أن تستحم فيها فى أى وقت واحد شارلمان ومعه مائة من الرفقاء ، وهناك كثرة موفورة من الذهب نجدها فى آنية من الذهب الخالص الموجودة بالكنيسة . وعلى المائدة الامبراطورية فى أيام الحفلات وفى السلاسل والخواتم الذهبية وفى الذهب المصنوع فى حملات السيوف ومقابضها^(٥) .

ويذكر المؤرخ لامب Lamb أن العاصمة كانت تعج بالناس من جميع الجنسيات ، وكانت الوفود والهدايا تأتي الى شارلمان . ويخص بالذكر الفيل الذى أرسله الخليفة هارون الرشيد الى شارلمان . والحقيقة أن لامب يذكر ما سطره لنا المؤرخ اينهارد من أن هذا الفيل الذى لقب بأبجو العباس وصل الى شارلمان من ملك الفرس . لكنه أراد أن يمحى جهله بحقيقة هارون الرشيد فقال « ملك الشرق — ما عدا الهند »^(٦) .

ويلحق راهب القديس جال على ذلك بقوله « ان اسحق التاجر اليهودى أحضر هذا الفيل من أفريقيا فى أكتوبر الى ميناء لييجوريا Liguria ، وبما أنه لا يستطيع أن يعبر ممرات الألب فى العواصف فقد قضى الشتاء فى Vercellae بإيطاليا^(٧) » .

وقد أرسل هارون الرشيد هدايا أخرى الى شارلمان عددها لامب وذكر منها الروائح ، والتوابل والبضائع المختلفة الى جانب صينية من

(5) Moss «op. cit.» pp. 267 — 268.

(6) Lamb «op. cit.» p. 185 &

Einhard «The life of Charlemagne» p. 41.

(7) The Monk of Saint Gall «The life of Charlemagne» p. 82.

الذهب الخالص وفسطاطا كبيرا أدهش الرهائن السكسون لروعته ومتانته ، وأهم من ذلك الساعة المائية البرونزية التي أذهلت شارلمان لجمالها ودقة مواعيدها ، وانضباط أجراسها^(٨) .

وشهد القصر الامبراطوري بأخن مبعوثي الامبراطورة ايرين الذين قدموا من الشرق لعرض مشروع الزواج بينها وبين الامبراطور شارلمان^(٩) . وإلى جانب ذلك فان قصر شارلمان قد اعتُبر قبلة للعلماء والأدباء والمؤرخين الذين قدموا اليه من مختلف بقاع أوروبا ليشاركوا في النهضة العلمية الكبرى ، وليكونوا نواة النهضة الفكرية التي شهدتها أوروبا فيما بعد^(١٠) .

وقد اعتاد شارلمان ألا يقيم بأخن طول العام ، لكنه كان يتخذ عددا كبيرا من الحواضر ، حتى يستطيع أن يستطلع أحوال مملكته بنفسه ، ويعمل على اظهار حكومته في كل منطقة من مناطق الامبراطورية ، فكانت له عواصم في اكيثانيا وبافاريا ، وميلان ، وبافيا ، وفيرونا وغيرهم الكثير .

لذلك فعندما يترك شارلمان آخن ، ويتجه الى إحدى هذه العواصم كانت العاصمة الأم تصبح كأنها خراب خالية من سكانها كل شيء فيها صامت ، وعند عودة الامبراطور تدب فيها الحياة مرة أخرى فتزدحم الشوارع ، وبوابات القصر بالمواطنين الذين يقيمون الحوانيت في الأسواق والأكواخ بجوار التلال العالية ، وكان الحراس يتفنون ليهنئوا هؤلاء الناس من الاقتراب من الآثار الدينية المقدسة في الكاتدرائية الكبرى ومن الاقتراب من مقابر اليهود^(١١) .

(8) Lam «op. cit.» p. 186.

(9) Ibid.

(10) Oman «The dark ages» p. 379.

(11) Lamb «op. cit.» p. 183.

وإذا حاولنا أن ندقق في الحياة الداخلية داخل قصر آخن . نجد أن الإمبراطور اشتهر ببساطة أهوائه ، واعتبر الأبهة ضرورة متعلقة بالدولة ، ومع ذلك ، فإن حياته الخاصة ، وحياة أصدقائه شابها قدر كبير من الخشونة والاستهتار ، فقد اشتهر قصر شارل باستهتار بعض كبار أفرادها ، وحفلت الطرق الواقعة بأطراف القصر بشخصيات ذوى سمعة سيئة ، ومن الطبيعي أن تنحط الحفلات والمآدب وتتحول إلى عريضة وسكر . وقد ينكر سيد البيت مريح أتباعه ، لكنه لا يجروء على منعه ، وتجمعت البيوت المتنافسة ، وتقاتلت في كل ظرف من الظروف في سبيل المحافظة على تقليد من التقاليد .

كما خضع شارلمان في كل مراحل حياته لتأثير النساء ، وكان التأثير أحيانا بريئا ، وأحيانا غير برى ، وكان شارل ابنا يقدر الواجب عليه وزوجا متيما بزوجته ووالد شديد التهاون مع أبنائه ، ذلك أن نساء القصر كن يصبحن في جميع أسفاره ، ويقمن الى جانبه سواء أقام حفلة عيد الميلاد في المعسكر في بافيا أو بين مستنقعات وغابات سكسونيا ، وكانت ملكاته يعتبرن وزراء الدولة كان لكلمتين عنده من الوزن ما ليس لكلمة زملائهن من الرجال ، أما بناته فلم يكن على درجة الملكات من النفوذ غير أنهن شاركن أيضا فيما جرى بالابلط من التآمر (١٢) .

ويذكر المؤرخ موس Moss في هذا الصدد أن قصر شارلمان كان يستوعب الأنظار ، ففي داخل أسواره يختلط الحجاج والتجار والجنود والرهبان والنبلاء العلماء والسيدات المرحات والعلمان الرشقاء ، وعلى الرغم مما قد ينشوب بينهم من خلافات في بعض الأحيان (١٣) .

(١٢) ديفز « المرجع السابق » ص ٢١٠ — ٢١٢ .

(13) Moss «op. cit.» p. 269.

ويجول بنا اينهارد ليطلعنا على أن شارلمان تزوج عندما كان مشاركاً لأخيه كارل من ابنة دسدريوس ملك اللومباردين بناءً على نصيحة أمه ، ثم عاد وطلقها في نهاية العام لأسباب غير معلومة ، وتزوج من هيلدجارد Hildegard وهي فتاة من أصل سوابي ، وتتنسب الى عائلة عريقة ، وأنجب شارلمان ثلاثة أبناء ، شارل وببيين ، ولويس ، ومجموعة من الفتيات منهن روثرود ، وروديد ثم تزوج من زوجة ثالثة تدعى فاسترادا Fastrada من الفرنجة الشرقيين أنجب منها ابنتان ، ثم أنجب ابناً من إحدى محظياته^(١٤) .

وما يدعونا الى ذكر هذه الأخبار الشخصية البحتة أن شارلمان كان شخصياً هو مؤسس حضارة الكارولنجيين فقامت هذه الحضارة على شخصه وليس على المجتمع ، فبذلك نرى أن الحياة الخاصة التي كان يعيشها الامبراطور ينعكس من خلالها النظام الاجتماعي السائد في المجتمع الغالي في هذه الفترة .

ويروى لنا اينهارد أخباراً أخرى تعكس لنا صورة من أخلاق شارلمان وصفاته ، فيروى أن هذا الامبراطور الذي ذاعت شهرته الشرق والغرب ، وشهد بقوته السكسون وغيرهم من العناصر الجرمانية ، كان يحمل بين جنباته قلباً يفيض حناناً ، فكان يفقد اتزانته وصلابته في مواقف السوء خاصة عندما فلتد ابنه بيبين فكان يجهش بالبكاء على رحيله ، وأصابه نفس الشعور عند وفاة البابا هادريان الذي أحبه كثيراً ، فبكى عليه كأنما قد فقد أحد أخوته أو ابناً عزيزاً عليه . وكان شارلمان سريعاً في عقد الصداقات ، ومن عادته أنه كان دبلوماسياً في معاملة أبنائه وبناته الى درجة أنه لم يتناول طعاماً قط دونهم أثناء تواجده في القصر ، ولم يخرج برحلة من الرحلات دونهم ، ومن عاداتهم الاجتماعية أن الأبناء يركبون الى جواره يتبعهم البنات ، ويقوم

(14) Einhard «op. cit.» pp. 45 — 46.

على حراستهم بعض الحراس^(١٥) .

ومن أخلاق شارلمان أنه عرف بالتروى والتفكير الذى يعالج بهما خططه الكبيرة ، فضلا عن العزم الذى يبديه فى تنفيذها ، وما زال مشهورا بقوة الاقتناع اذا طلب منه النصيحة ، وبالحكمة الخالصة التى يبذلها لمن يطلبها فى اخلاص ودقة^(١٦) .

ويصف لنا اينهارد ملابس شارلمان وهى تعطينا صورة عن نوعيه الملابس التى سادت بين الفرنجة ، يقول « اعتاد شارلمان أن يلبس الملابس القومية وهى ملابس الفرنجة فيلبس قميصا وسروالا قصيرا وقواتهم سترة ، وكلهم مصنوعين من الكتان ويشد عليهما عند الوسط حزاما يضع فيه سيفه ويلبس حذاء طويل الرقبة ، وعلى أكتافه وصدره فى الشتاء يلبس سترة محكمة من جلد الثعلب ، وغوق هذه الملابس كان يضع عباءة زرقاء ، وأحيانا يحمل سييفا مرصعا كان يستخدمه فى المناسبات الرسمية والأعياد العامة وعند استقبال سفراء الدول الأجنبية .

وكان شارلمان يكره الملابس الأجنبية مهما كانت جميلة ولم يلبسها فى حياته الا مرتين فى روما ارتدى فيهما السترة الرومانية والعباءة والأحذية . كانت الأولى بناء على طلب البابا هادريان والثانية استجابة لدعوة خليفته البابا ليو .

وفى أيام الأعياد كان يلبس الملابس المطرزة ، والأحذية المرصعة بالأحجار الكريمة ، وكانت عباءته تثبت برباط مذهب ، وكان يظهر متوجا بتاج مرصع بالذهب والجوهر ، وفى الأيام العادية كان يلبس ملابس الفرنجة التقليدية^(١٧) .

(15) Ibid.

(١٦) ديفز « المرجع السابق » ص ٢٠٦ .

(17) Einhard «op. cit.» pp. 51 — 52.

وانتبع شارلمان فى تربية أولاده نفس عادات الفرنجة ، فعندما يشب الصبى عن طوقه يعلمه الفروسية وفنون الحرب والصيد والقنص أما الفتيات فكان يدرهن على حياكة الملابس والغزل اليدوى حتى لا ينتشأن كسالى ، وكان يقوى فيهن روح الفضيلة والمروءة والاحسان (١٨) . كما اشتهر شارلمان بالاعتدال فى تناول الطعام والشراب وكان اعتداله أكثر فى موضوع الشراب ، فقد اشتدت كراهيته لأى انسان يدمن الشراب ، أما الطعام فتهافته عليه لا يضارعه الا كراهيته للشراب ، وطالما اشتكى بأن الصيام يضر بصحته . وفى وجبة العشاء لا يجرى تقديم أكثر من أربعة أصناف فضلا عن لحم الصيد الذى يعده له الصيادون مشويا . وأثر شارل هذا النوع على سائر أنواع الطعام ودرج أثناء الطعام على سماع القراءات والموسيقى . وموضوعات القراءة كانت تشمل قصص الإندما وأخبارهم ، وكان مولعا كذلك بكتب القديس أوغسطين خاصة كتاب « مدينة الله » ، ولم يسمح لنفسه أثناء الطعام بأكثر من ثلاث أقذاح من النبيذ ، وفى الصيف كان يتناوله بعد طعام الغذاء ، ويأكل بعض الفواكه ، ويخلع ملابسه وأحذيته فى المساء ، ويرتاح لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات الى جانب اعتياده على الاستيقاظ أربع أو خمس مرات أثناء النوم (١٩) .

حياة الفرنجة الاجتماعية

داخل المدينة

قبل أن ندخل فى تفاصيل حياة الفرنجة الاجتماعية داخل المدينة ، نرى أن الامبراطورية الكارولنجية ضمت بين جنباتها عناصر جرمانية ورومانية مختلفة ، وكل عنصر من هذه العناصر حاول أن يحيا الحياة الاجتماعية التى نشأ عليها وتعارف عليها بين قومه ومما يدل على أن

(18) Ibid, p. 47.

(19) Ibid, p. 47.

هناك اختلافا في التشريعات الاجتماعية والعادات والثقافات ما ذكره اجوبارد الليونى الذى كان يدافع عن ضرورة وحدة النظام القانونى والاجتماعى فى امبراطورية الفرنجة ، يقول « لو أن خمسة رجال يجلسون أو يمشون معا ، لما كان لأحدهم من القانون ما لزميله ورقيقه » (٢٠) .

لكن الحقيقة التى عاشتها المملكة الكارولنجية أن المدن الرومانية القديمة أخذت فى الاندثار نتيجة للأخطار والحروب الطاحنة التى تعرضت لها الامبراطورية مما دفع سكان المدن الى طلب الحماية من السادة الكبار — فأدى ذلك الى نشأة النظام الاقطاعى — كما سنرى — فأصبح المجتمع فى أوروبا فى العصور الوسطى وغالة بوجه خاص يعتمد اعتمادا كبيرا على الأرض ، لذلك تقلصت أهمية المدن وقلت مساحتها . وإذا كانت بعضها قد احتفظت بشئ من الأهمية فى العصور المظلمة ، فمرجع ذلك أنها أصبحت مراكز أسقفية ، وبعبارة أخرى ، فإن أهميتها أصبحت تنحصر فى الدور الذى قامت به فى التنظيم الكنسى ، بعد أن فقدت مكانتها فى التنظيم الادارى . أما أهالى المدن الرومانية القديمة فقد أصبحوا أقنانا وأن استمر كثير منهم يعملون كصناع وخاصة فى الأديرة ، وهكذا لم تعد المدينة الرومانية التى قدر لها البقاء تحت نفوذ رجال الدين أكثر من مركز دينى لا تمتلك من آثار النشاط التجارى أو الصناعى الا القدر الذى يكفى حاجة المؤسسات الدينية ورجال الدين وأتباعهم (٢١) .

ومن الثابت أن الاقتصاد الأوروبى اتخذ طابعا زراعيا بحثا منذ نهاية القرن الثامن ، فأصبحت الأرض هى المصدر الرئيسى للثروة واعتمدت جميع الطبقات فى المجتمع على ما تدره الأرض من خيرات ،

(20) Moss «op. cit.» p. 286.

(٢١) سعيد عاشور «النظم والحضارة» ص ٩٢ .

وبذلك قل النشاط التجارى ، وأصبحت الأرض وحدها هى الأساس الذى قام عليه بناء الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا . أما النشاط التجارى الذى وجد فى أوروبا بين القرنين الثامن والعاشر ، فقد اقتصر على التجارة المحلية الضيقة من جهة والعلاقات التجارية بين بعض المدن الايطالية والدولة البيزنطية من جهة ثانية ، ثم على النشاط التجارى الذى قام به الفيكنج فى بحر الشمال والبحر البلطى وسهول روسيا من جهة ثالثة . وربما ساعد على انحطاط التجارة فى هذه الفترة موقف الكنيسة نفسها التى ظلت تنظر الى الكسب التجارى على أنه غير حلال ، وأن الأرض الزراعية وحدها هى المورد الطيب الذى يمكن أن يعيش عليه الانسان^(٢٢) لذلك فان مدن الفرنجة كانت هدنا صغيرة ليست لها أهمية ولم يكن عدد السكان بها كبيرا فمثلا باريس التى تعتبر أهم مدينة فى نوستريا لم تزد مساحتها على المساحة الصغيرة التى يشغلها ما هو معروف فى باريس باسم Ile de La Cité وطغى عليها ما يقع على الضفة الغربية من النهر من ضيعة الملك والحدائق ، وفى آخن وانجوليم كان البلاط هو كل شيء ، ولم يجر ذكر البلد الا على أنه من ضياعه ومخصصاته أما أهمية لاؤن وسواسون فانها ترجع الى أسقفيتها . وفى أماكن أخرى كان للكونتات كما هو معروف من المرسومات من حرية التصرف ما يجعلهم يعتبرون المدن الصغيرة ملكا خاصا لهم ، ويعتبرون أهل المدينة أتباعا لهم^(٢٣) ، ولذا لم يكن للمدينة الصغيرة أهمية .

وقد كانت الحياة داخل المدن خليطا عجيبا من الحياة البربرية القوية والحضارة القديمة الزاوية . كما أن المدينة لم تعد مركزا تجاريا أو موطنًا اقتصاديا للقرى المجاورة لها ، ولم يكن لسكانها طابع سكان

(٢٢) المرجع السابق ص ٩٣ .
(٢٣) ديفز « شارلمان » ص ٣٣ .

المدن الذى كان معروفا زمن الميروفنجيين ، ولم تعد للمدينة أهمية عند المجتمع العلمانى الذى عاش حول ادارة الضياع ، وليس ثمة من الأدلة ما يشير الى أن الدولة التى قامت على أساس زراعى توافر لديها من الدواعى ما يجعلها تهتم بمصير المدن . ومن الملحوظ أن قصور الكارولنجيين لم تقم بالمدن ، انما قامت بلا استثناء فى الريف فى ضياع الأسرة فى هرسيتال وميرش وفى وادى نهر الميز وفى أنجلهم وفى وادى نهر الراين وفى ألتيجنى وفى وادى السين أما شهرة آخن فينبغى ألا تضللنا عن طبيعة موقعها إذ أن تألق مجدها زمن شارلمان انما يرجع الى ما واتاها من الحظ ، بل كانت المقر الأثير عند الامبراطور شارلمان ، ولذا فان أهميتها لم تلبث أن تداعت بعد حكم لويس النقى ، ولم تسترد مكانتها الا بعد أربعة قرون (٢٤) .

ولم تستطع الحكومة بمباشرة سلطتها الادارية أن تسهم فى استمرار بقاء المدن الرومانية ، فالأقاليم التى تألفت منها الوحدات السياسية للامبراطورية الكارولنجية لم يكن لها حواضر « عواصم » ولم يكن للامبراطورية ذاتها عاصمة ، فالكونتات الذين تولوا الاشراف على هذه الأقاليم لم يقيموا فى منطقة معينة بل دأبوا على الطواف بأحاء الأقاليم ، فتولوا رئاسة المجالس القضائية المحاكم ، وجمع الضرائب وحشد العساكر فكل مكان يحلون به يعتبر مقرا لهم ، ونظرا لأن هؤلاء الكونتات كانوا يختارون من كبار ملاك الاقليم أقاموا بمزارعهم فى قلاعهم التى كانت أشبه بقصور الأباطرة (٢٥) .

وفى داخل هذه المدن الصغيرة اتجه الناس الى الارتباط سويا على هيئة نقابات ، وهذه النقابات لم ترض عنها الحكومة مع أنها لم تكن

(24) Pirenne «Medieval Cities, their origin and the revival of trade» pp. 43 — 44.

(25) Adelson, Medieval Commerce, p. 104.

الا جماعة الغرض منها التأمين الجماعى ضد الحريق واللصوص وتحطم السفن بالبحار ومنها ما تألف لمد يد المعونة والاحسان للفقراء والأرامل واليتامى . وكثير منها تغلب عليه صفة إقامة الحفلات والمآذب ، وجرت القاعدة بأن يكون لكل نقابة راع من القديسين يحتفل أفرادها بعيدهم بما يقيمونه من المراسيم والشعائر التى تعتبر غريبة ولا تمت للمسيحية بسبب ولا تدعو الى اصلاح روحى . ولهذه النقابات أهمية بما أدخلته فى الحياة الاجتماعية من التنوع وما جعلت لها من صفة خاصة (٢١) .

وقد ظهرت المدن الدينية فى العصر الكارولنجى وأصبحت لها أهمية تفوق أهمية المدن السياسية . فعلى الرغم من أن المدن فقدت وظيفتها فيما يتعلق بالادارة المدنية ، فلا زالت تعتبر مركز الادارة الدينية . فكل أبروشية اشتملت على القرى الواقعة حول المدينة التى تقع بها الكاتدرائية ، فظلت على اتصال مستمر بها (٢٢) .

وكان سكان مثل هذه المدن من رجال الدين بالكاتدرائية والكنائس القريبة منها ومن الرهبان بالأديرة التى تكاثرت فى داخل حدود الأبروشية بعد القرن التاسع ، ومن المعلمين والتلاميذ بالمدارس الكنسية ثم الخدام والعمال سواء كانوا أحرارا أو أقنانا الذين لا غنى عنهم لسد حاجات المجتمع الدينى وللحياة اليومية فى المجتمع الكليروسى .

وجرت العادة بأن ينعقد بكل مدينة سوق أسبوعية يحمل اليها الفلاحون من الجهات المجاورة ما لديهم من منتجات ، وفى بعض الأحوال تنعقد بها سوق سنوية ، وعلى أبواب المدينة يجرى تحصيل العوائد التى يؤديها كل من يدخل الى المدينة أو يخرج منها ، ويقوم أيضا بداخل الأسوار دار للضرب ، وبعض الأبراج التى ينزل بها أتباع الأسقف وقائده والقسطلان « نائبه » يضاف الى كل هذا الأجران المخازن التى

(٢٦) ديفز « شارلمان » ص ٣٣ .

(٢٧) العرينى « الحضارة والنظم الأبرشية » ص ١٥٠ .

يحمل إليها المستأجرون والفلاحون فى أوقات معينة المحصولات من ضياع الدير وفى الأعياد السنوية يهرع الى المدينة سكان الأبروشية فيزداد بها النشاط ويكثر الضجيج بضعة أيام^(٢٨) .

وهناك الى جانب هذه المدن الأسقفية مدن عسكرية مسورة ، قد احتفظت هذه المدن زمن شارلمان بالشكل الذى كان زمن قنسطنطين . والقاعدة العامة أن المدن اتخذت شكل مربع أو مستطيل يحيط به أسوار تتحكم فيها أبراج وتتصل بالخارج بأبواب يبلغ عددها أربعة فى معظم الأحوال . أما المساحة المحصورة داخل الأسوار فكانت محدودة ولا يتجاوز طول أضلاعها ٤٠٠ — ٥٠٠ ياردة ولم يشغل البناء كل هذه المساحة فيقع بين المساكن ساحات وحدائق . أما الربض الذى امتد زمن الميروفنجيين خارج السور فقد اختفى ، والواضح أنه عند حدوث غارة من الغارات يهرع الى المدينة سكان الجهات المجاورة^(٢٩) .

الحياة الاجتماعية فى الريف :

أخذ المجتمع فى الريف يتركز حول كبار الملاك وبرز فى داخل الضيعة الزراعية ثلاث طبقات طبقة رجال الدين ، وطبقة الفرسان المحاربين — والفلاحين الأقنان^(٣٠) .

تمتع رجال الدين فى داخل الضيعة بمكانة سامية الأمر الذى أحاط أشخاصهم وممتلكاتهم بمسحة من القدسية ، لذلك كانت معظم المنح التى أنعم بها ملوك الجرمان من نصيب الأسقفيات الكبيرة ، ثم الأديرة العظيمة فيما بعد حتى يكتسب هؤلاء الملوك تأييد رجال الدين وعظمتهم^(٣١) .

(٢٨) العرينى « المرجع السابق » ص ١٥٢ .

(٢٩) المرجع السابق ص ١٥٣ .

(30) Stephenson «Medieval Leudalism» p. 45.

(٣١) سعيد عاشور « التنظيم والحضارة » ص ٤٨ .

وقد حصلت الكنائس والأديرة في داخل هذا المجتمع على إعفاءات كثيرة ، وامتلكت لذلك أجزاء كبيرة من الأرض حتى أصبحت بذلك دولة داخل الدولة . واما عن حياة رجال الدين الخاصة سواء في الكنائس والأديرة فيعبر عنها القديس بونيفاس اذ نعتهم بأنهم ليسوا الا جبابرة ضرائب ودعاة دعارة ، وينعى عليهم بأنهم يمارسون الصيد واللعب بالصقور ولا يمنعهم اليمين من أن يلعبوا القمار شأنهم في ذلك شأن أخط العلمانيين وأحققهم . ولم يكن مرعوسوهم أقل حظا منهم . وصار من المحتم منع القس من الاحتفاظ بأكثر من زوجة ومن أن يجوبوا البلاد ومن أن يترددوا على الحانات والأماكن ذات السمعة السيئة . أما الرهبان فصاروا يتخذون من النعوت ما يلائم الأحوال فتارة يعتبرون أنفسهم علمانيين ، وتارة يجعلون أنفسهم من رجال الدين ، وفي كلتا الحالتين لا يلتزمون بقاعدة أى الطائفتين . واشتهرت الكنائس ، بما يحدث بها من سوء الخدمة . اذ تسبب عن الإهمال والجهل أن فسدت الشعائر فلا تؤدي بها الطقوس والشعائر بانتظام (٣٢) .

ونتيجة لأن الكنيسة كان لها اقطاعات من الأرض فقد أصبحت صورة من الدولة الاقطاعية بها سادة وأتباعا . والمعروف أن التبعية أساسا تعنى الخدمة الحربية والمشاركة في القتال . والدليل على ذلك أنشودة رولان وهي الملحمة التي كتبها قسيس نورمانى تصور عودة جيش شارلمان منهزما من حرب المسلمين في أسبانيا ، وفيها لقي رئيس الأساقفة ثبريين مصرعه ، وفيها دلالة على اشتراك رجال الدين في الحروب كأتباع لسادة كبار .

فلا بد اذا أن هؤلاء كانوا يدخلون الحرب على هيئة فرسان ، وينطبق عليهم كل أحوال الفرسان المحاربين .

والطبقة الثانية فى المجتمع الفرنجى كانت تتمثل فى الفارس المحارب • فقد ارتبطت حياة أبناء الطبقة الاقطاعية بالاعداد المقتسنة وممارستهم الحرب ، ونظرا للاعتقاد بأن والدى النبيل الصغير لا سيما أمه يسرفان فى تدليل الابن — جرت العادة بأنه متى بلغ السابعة أو الثامنة من عمره تقرر ارساله بسيدهما ، كيما ينشأ ويتربى فى دار أمير اقطاعى آخر هو فى معظم الأحوال السيد الاقطاعى للأب أو أقرب الناس اليه • فيتعلم الصبى منذئذ الاهتمام بأدوات الحرب الدروع — وخيول الحرب ويتدرب عليها فيمارس من الحياة الخشنة ما يعتبر خير وسيلة لاعداده لحياته المقبلة باعتبارها فارسا ، فإذا ثبت أنه أضحى مستعدا الآن يتخذ موضعه فى المعركة ويجرى ذلك عادة حين يبلغ العشرين أو الحادية والعشرين من عمره تقرر توليده بأسلحته فى احتفال مهيب بأن يركع أمام فارس مجرب ويتلقى ضربة من صفحة السيف وكانت هذه الضربة فى الأيام الغابرة فيما يبدو بالغة العنف المقصود منها قهره اذا وجد الى ذلك سبيلا ثم أضحت فيما بعد ضربة رمزية حقيقية تقمع عاى الكتف ، وهذا الاجراء هو المعروف بتنصيب الفارس وهى تقلد الثساب سلاحه وتلقى الضربة أضحى فارسا كاملا ، وليس فى استطاعة الملك أن يتولى الحكم وليس فى وسع ورثيه أن يباشر اقطاعه ما لم يتم تنصيبه فارسا • لأن ذلك يعتبر دليلا على بلوغ سن الرشد (٣٣) •

والفارس ينبغى أن يكون شجاعا الى درجة المجازفة والتهور ويقاثل وفقا لقواعد خاصة دون أن يلجأ الى الخديعة والأساليب الخسيسة للتغلب على خصمه ، هذا بالاضافة الى ما يجب أن يتحلى به الفارس من وفاء لأصدقائه وتبجيل للمرأة واحترام للعهد (٣٤) •

(33) Stephenson «Feudalism» p. 45.

(٣٤) سعيد عاشور « النظم والحضارة » ص ٦٤ .

أما الطبقة الثالثة فهي طبقة الفلاحين الأرقاء الذين كانوا يمثلون أكثر عناصر السكان وأحطها قدرا في أوروبا العصور الوسطى • ومع أن أفراد هذه الطبقة تشابهوا إلى حد كبير في ظروفهم وأحوالهم إلا أنهم تفاوتوا إلى درجة ما في أصولهم وفي مدى الحرية التي تمتعوا بها (٣٥) •

وقد كان القن يعيش على قطعة من الأرض تبارة عن حصص صغيرة مبعثرة يمنحها إياه سيده اللورد صاحب الدومين ، وهو مرتبط بهذه الأرض ارتباطا وثيقا بهوجب واجبات التبعية التي لا تعرف حدا • إذ جرت العادة أن يقدم التابع بين يدي السيد المتبوع يمين الطاعة والتبعية ، ثم يؤدي بعد ذلك يمين الولاء والاخلاص وذلك في احتفال واحد ذي شقين ، يبدأ الشق الأول بأن يركع التابع أمام سيده واضمعا يده في يده معتبرا نفسه رجلا متعهدا بالدفاع عنه ضد الجميع في الحياة وحتى الموت • بعد ذلك يقول السيد أنه قبل فلان تابعا له • وبعد هذه الإجراءات يؤدي التابع يمين الولاء والاخلاص ، وهي أن يحلف على الكتب المقدسة والذخائر الدينية بما يؤكد العهد الذي قطعه على نفسه • ولم تكن هناك بطبيعة الحال صيغة معينة لهذا القسم ، وإن كان لا يخرج في جدلته ومضمونه عما ذكرناه •

وكانت إجراءات التبعية معروفة عند الفرنجة ، ولعلها كانت أقدم من ذلك • ويبدو أن الاحتفال كان في جوهره خاضعا للتقاليد الوثنية القديمة الخاصة بالعناصر الجرمانية المتبربرة التي تنقضي بدخول الفرد تحت رئاسة زعيم القبيلة أو العشيرة ، أما يمين الولاء والاخلاص فقد استحدث نتيجة التأثير المسيحي ومع ذلك لم يكن هذا اليمين وحده كافيا لإيجاد رابطة التبعية • إذ نعرف أنه كان يطلب الرعايا الأحرار في عهد

الكارولينجيين ، كما كان الحال فى عصر متأخر أداء يمين الولاء للحاكم حتى ولو لم يكونوا أتباعا له • ونخلص من هذا أن يمين الولاء بمفرده لا يبنى التبعية ، فى حين أن المباشرة والتبعية كانتا تدلان ضمنا على الولاء والاخلاص للسيد المتبوع (٣٦) •

الملبس :

سبق أن أعطينا صورة للملبس التى كان يرتديها الامبراطور شارلمان كممثل لامبراطورية الفرنجة ، وهى تعكس لنا صورة الملابس التى كان يرتديها كبار الشخصيات فى مجتمع الفرنجة فى العصور الوسطى ، واستكمالا للصورة رأيت أن أركز على الملابس التى كان يرتديها الفارس المحارب فى هذا المجتمع •

كان النبلاء والفرسان يرتدون عادة القميص والجوارب الطويلة • الأول عبارة عن صدر يربطه حزام من الوسط ، والثانية أشبه شئ بسراويل مشددة على الساقين والفخذين بإحكام • وأحيانا فى حالات البرد أو الاحتمالات يرتدى الرجل معطفا يربط من أعلاه حول الرقبة أو حول الكتف الأيمن حتى لا يعوق مقبض السيف • وكان الرجال يقصرون شعور رؤوسهم ويحلقون ذقونهم • أما المرأة فكانت ترتدى ثوبا بسيطا يمتد من أعلى الرقبة حتى الأرض وتربط شعرها بعصابة بعد تصفيفه ، وكثيرا ما كان الرجال والنساء يلبسون عباءة فى الشتاء يطوى طرفها الأعلى فوق الرأس للوقاية من شدة البرد • ومن هذا يبدو أن الملابس طبقة المحاربين — حتى الأغنياء منهم كانت بسيطة (٣٧) •

« أما رداء الحرب فكان أيضا بعيدا عن التقيد والتأنق ، فالفراس يكسو الجزء الأسفل من ساقيه بأريطة من القماش أو الجلد تمتد من الركبة الى أسفل الساق لتقوم مقام الجرموق « الألسين » فى الأزمنة

(36) Stephenson «op. cit.» p. 18 — 19.

(٣٧) عاشور « المرجع السابق » ص ٦٦ •

الحديثة أما الجزء الأعلى من جسم الفارس فكانت تكسوه صورة مزردة تتألف من حلقات متداخلة من المعدن ، ويراعى فى هذه الصورة أن تكون مشقوقة طوليا من أسفلها حتى لا تعوق الفارس عن امتطاء فرسه ، وأخيرا كان يلبس الفارس على رأسه خوذة حديدية مخروطية الشكل عندهم قدما إلى أسفل ليحمى أنف الفارس ، هذا كله عدا الدرع الذى يحمله الفارس فى ذراعه الأيسر وهو مستطيل الشكل يبلغ طوله أربعة أقدام تقريبا (٣٨) .

أما ملابس الفلاح فكانت عبارة عن عباءة قصيرة تربط بدبوس أو مشبك ، أما بقية جسمه فيترك عاريا (٣٩) .

المسكن :

ذكرنا سابقا وصفا لحياة الامبراطور فى القصر ، وكيفية الاهتمام ببناء القصور ، وكيف كانت تشيد فى المدن والضياح .

لذلك نجد أن النبلاء والفرسان اهتموا اهتماما كبيرا بتشيد منازلهم ، وبدأوا يحاكون الكونتات ورجال القصر ، فى أسلوب حياتهم ، وقد اشتهرت منازل هذه الطبقة من المجتمع باسم الدوار «Manor, house» وكان هذا الدوار مشيد من جذوع الأشجار أو الحجارة ، ويقع فى منتصف مجموعة من المساكن أو بالقرب منها . وأحيانا نجد مجموعة كبيرة من هذا الدوار فى القرية . وكان الدوار متميزا فى وسط الأكواخ المحيطة به والتي يسكنها الفلاحون ولا يرجع ذلك لجمال ببنائها فقط ، ولكن لأنها صممت خصيصا لتكون قلعة دفاعية . وذلك لأن الاغنياء والنبلاء كانوا يعملون دائما على حماية السكان من الهجمات كما كان

(٣٨) المرجع السابق ص ٦٧ .

(39) Marc-Block, Feudal Society, Vol. II. p. 302.

فى الماضى وشهد على ذلك الضياع المحصنة والتي يدل مظهرها على أنه من القرن الرابع فصاعداً بدأ انحسار السلام الرومانى نهائياً ، وحلت محله الحروب المستمرة ، واستمرت هذه الظاهرة فى عصر الفرنجة ، ولكن كانت هناك بعض المباني التى يسكنها الأغنياء الى جانب القصور الملكية لا تتبع نفس التقليد الدفاعى فى البناء . وظلت هكذا حتى توالى هجمات الفيكنج على البلاد فبدأوا فى إعادة بناء التحصينات فى كل منزل وبناء داخل الضيعة الزراعية^(٤٠) .

وفى داخل هذا الدوار توجد القاعة الكبيرة ، التى اتصفت بالجمال والراحة فيها الشموع للاضاءة والمواقد المكشوفة للتدفئة وعلى حيطانها علقت بعض الأسلحة والأعلام ونحوها فى حين فرشت أرضها بالحصر ، وفى هذه القاعة كان يجلس السيد الاقطاعى ليقبل التبعية والخضوع من أفضاله أو ليعقد معهم مجلساً قضائياً أو غير قضائى^(٤١) وكان الدوار يمثل مظاهر الترف والثراء وتحيط به حديقة مسورة بها أشجار الفاكهة وخلايا النحل والمخازن التى يخزن فيها انتاج الضيعة فضلاً عن الآلات والعربات والعدد المستخدمة فى فلاحه أراضيها .

أما الفلاحون ، فكانوا يعيشون فى أكواخ من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سقوفها وأرضها بالطين والمتش دون أن تكون لها نوافذ وتميزت هذه الأكواخ بالقذارة وحقارة أثاثها الذى تألف من سرير عبارة عن صندوق خشبى عليه وسادة محشوة بالقش وأوراق الأشجار الجافة ومنضدة صغيرة ، وبعض المقاعد الخشبية ذات ثلاثة الأرجل وصندوق وقليل من الأنية الحديدية والفخارية ولم تستخدم أية وسيلة لضاءة هذه الأكواخ لأن الشموع اقتصر استعمالها على الكنائس ودوار صاحب الضيعة وقد كان الفلاح هو الذى يبنى دوره ويضع أثاثه^(٤٢) .

(40) Marc-Block, «op. cit.» p. 300.

(٤١) زيادة : « الاقطاع والعصور الوسطى » ص ٣٢ - ٣٣ .

(٤٢) عاشور « المرجع السابق » ص ٧٧ .

الطاعون الذى يجلب الذعر والخوف والاضطراب فى أرجاء البلاد • وقد قام شارلمان باستدعاء جميع معاونيه وطلب منهم جميعاً أن يكونوا على أهبة الاستعداد لحين الحاجة اليهم • وقد تعرض هؤلاء لكثير من الصعاب وعندما بدأت تصلهم الأوامر بالاستعداد من أبراج القتال ، أخذوا حذرهم • حتى ان شارلمان كان يأمر الكونتات وحكام الأقاليم بتنفيذ تعليماته ورغم ذلك فان المجاعة ظلت مستمرة ، ولم تتمكن جميع هذه الفرق من جمع المؤونة والطعام اللازمين لوقفها •

لذلك فقد قاموا بجمع الأسماك التى قامت سفن الصيادين الفريزيان بصيدها من أعلى الراين ، كما قاموا بتجهيز فرق مسلحة لحراسة مخازن القمح ، وحظائر المواشى • وقاموا بتوزيع المؤن على الأهالى • فأعطوا كل مائة من الرجال كمية من الطعام تكفى لقريتهم • وقام أهالى القرى بالاستغاثة والصراخ حول هذه الفرق يقولون : ان البلاء على الأبواب ،، وبدأوا فى التجمع ، واتجهوا الى الكنائس للصلاة والاستغاثة ، وقاموا بحمل المياه الى المزارع • فما كان من المبعوثين الملكيين الا أن قاموا بالتفتيش حتى يمنعوا الناس من تخزين كميات من المؤن تزيد عن حاجتهم ، وقاموا بالاستيلاء على كثير من الكميات الزائدة ووزعوها على الأهالى الذين لا يجدون شيئاً ، لكنهم لم يتمكنوا من القيام بمهمتهم لتسابق الناس عليهم ، لخوفهم من استمرار المجاعة مع عدم الحصول على المؤنة^(٤٥) •

وقد أصدر شارلمان بعض القرارات من أجل حل هذه المشاكل منها عدم بيع القمح بأعلى من السعر المقرر ، وآلا تصدر أى نوع من البضائع اللازمة للشعب ، كما هدد الملاك الذين لا يقدمون المعدات للجيوش بأن يسلبهم اقطاعاتهم^(٤٦) •

(45) Lamb «op. cit.» p. 201.

(46) Ibid, p. 204.

انتشر وباء الطاعون عقب هذه المجاعة فى كثير من القرى ، مما دفع شارلمان الى التجول فى أرجاء البلاد ، حتى يطمئن على أحوال الناس ، فكان يجوبها من أعالي الميز والراين مصطحبا عائلته ، وبصحبته جوقة الغناء ، تطلب من الله تعالى الرحمة ورفع البلاء ، لأنهم يعتقدون أن هذه المحنة ما هى الا غضب من الله ، فكان شارلمان يعرف أنه مطالب برفع العناء عن كاهل الناس ، وكان يطلب منهم عدم الخوف لأن الخوف يؤدي الى التواكل وأن يعملوا من أجل رفع البلاء ، وكان يذكرهم بقصة مدينة بيت المقدس وكيف قاست وتحملت ، ويبين لهم وضعها الدينى .

وعند الشتاء بدأ البلاء فى الانحسار ، وانتظمت البلاد وتتوقلت الأخبار بأن الأحوال بدأت فى التحسن فى نهاية العام ، وان الملك عقد هدنة مع مسلمى أسبانيا ، فبدأ التجار يتجهون الى الجنوب وطلبوا البضائع ، وعم الرخاء (٤٧) .

ويحدثنا المؤرخ جيرالد سيمونس عن أن شارلمان عندما أحس بقرب انتهاء حياته وبوطأة المرض عليه لم يجزع لذلك ، رغم أنه كان فى ظروف نفسية سيئة فقد تعرضت بلاده مرة أخرى لمجاعة عام ٨٠٩ م ، ثم توفى ابنه بيبين سنة ٨١٠ ، وابنه الثانى شارل سنة ٨١١ ، الى جانب المساومات المستمرة مع الدولة البيزنطية من أجل الاعتراف باللقب الامبراطورى والغارات المستمرة التى كان يشنها الفيكنج ، كل ذلك كان من الممكن أن يؤدي الى انهيار روحه المعنوية ، لكنه صمد وجابه الظروف بشجاعة (٤٨) .

{47} Ibid, p. 207.

{48} Gerald Simons «The Birth of Europe», p. 112.

الفصل الرابع

* الحياة الثقافية في الامبراطورية الكارولنجية على عهد شارلمان .

* مؤسسو الحركة العلمية في عصر شارلمان .
« الكوين ، ومدرسة القصر والعلوم السائدة بها »
آينهارد – ثيودولف – انجلبرت .

* المدارس الاقليمية .

* أ – الأدب ب – النثر .

« التاريخ – الحوليات – الكتابات اللاهوتية – الكتابة وتطورها – نسخ المخطوطات – حركة الاحياء للدراسات القديمة » .

ب – الشعر .

« الرومانى الكلاسيكى – اغانى المآثر – الملاحم » .

* المكتبات .

* العلوم العلمية .

الفصل الرابع

الحياة الثقافية فى الامبراطورية الكارولنجية

على عهد شارلمان

يعتبر المجال الثقافى فى النهضة الكارولنجية من أهم المجالات التى يستطيع الباحث أن يجول فيها وأن يشبع منها جميع رغبات البحث والتقصى ، كما يتمكن من الحصول على نتائج ايجابية ، تثبت أن عصر شارلمان هو العصر الذى سطع فيه نجم التعليم ، وظهرت فيه حركة الاحياء الكبرى للدراسات الثلاثينية التى اعتراها الفتور فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن .

كان شارلمان شخصيا هو الجاعث الأول على حركة الاحياء العلمى فقد كان ليو له العلمية ، وارتباطه بالكنيسة والفكر الدينى ، الأثر المباشر وراء هذه الحركة العلمية الكبرى . فكما يقول مؤرخ القديس دنيس « ان شارلمان كان حسيفا فى الحديث حتى ليخيل للناس أنه حبر كبير أو أستاذ عظيم »^(١) كما كان شارلمان شغوفا بالقراءة والخطابة ويستطيع أن يعبر عن جميع الخواطر التى تدور فى خلداه بفصاحة ووضوح ولم تكن قدراته اللغوية منحصرة فى اتقانه لغته الجرمانية فقط ، لكنه كان مهبا للغات الأجنبية على الخصوص اللغة اللاتينية التى كان يجيد التحدث بها مثلما يتحدث بلغته القومية . وكان يحسن فهم اليونانية ولكنه لا يجيد التحدث بها بنفس القوة ، وكان يجلس الى الأساتذة ليتعلم منهم النحو والبلاغة^(٢) .

ولا بد قبل أن ندخل فى تفاصيل الدور الذى قام به شارلمان

(1) Thompson «op. cit.» p. 489.

(2) Einhard «op. cit.» p. 53.

لاحياء العلم فى مملكته لابد أن نقدر الصعاب التى واجهته قبل أن يبدأ برنامج التعليم •

ففى القرن الثامن كانت أحوال الغرب الثقافية تدعو للأسى فقد تعرضت البلاد لحروب وغارات مما أدى الى ضياع أعداد كبيرة من المخطوطات القديمة ، والمؤلفات الكلاسيكية • وكانت هناك عقبة أخرى ثقاف أمام العلم من أهمها اللغة ، حيث كانت هناك مجموعات مختلفة من اللغات واللهجات ، كما أن شارلمان نفسه نشأ فى بيئة غير رومانية وكان يتكلم لغة جرمانية وهى التى يتحدث بها الفرنجة الشرقيون أما الفرنجة الغربيين فكانوا يتكلمون اللاتينية القديمة ، فكان عليه أن يتعلم هذه اللغة حتى يفهم اخوانه من الفرنجة الغربيين • وكانت اللاتينية صعبة التعلم لأنه قد قل استخدامها وتحتاج الى دراسة مركزة ، اما اللاتينية الحديثة فقد انشقت منها اللغات القومية كالفرنسية والايطالية والبرتغالية وغيرها (٣) •

أما الآن فلا بد أن نعرف أصول الحركة الثقافية التى تميزت بها هذه الفترة من تاريخ الدولة الكارولنجية •

كانت القوانين الخاصة التى حاول بها شارلمان احياء العلم كثيرة الأهمية ففى سنة ٧٨٦ م جلب شارل من ايطاليا مرتلين لاصلاح صلوات الكنيسة ، وأقامهم فى متر وسواسون ، وبعث اليهم المرتلين من الكنائس المختلفة ليتعلموا عليهم ، وهذا الاصلاح فكر فيه بيبين القصير غير أنه لم ينفذه ، وعلى الرغم من أنه لم يكن بالغ الأهمية الا أنه يفسر أساس الطابع الرومانى للنهضة الكارولنجية (٤) •

ويتضح لنا من الوثائق العديدة التى وصلتنا عن عصر شارلمان مدى اهتمامه الشخصى باحياء الحركة العلمية فى غالة وجعلها مركزا

(3) Gerald Simons «op. cit.» p. 107.

(4) Ibid.

للدراسات الدينية الصحيحة حتى نراه قد بعث الى مقدم الدير الراهب بوجولف Baugulf سنة ٧٨٠ — ٨٠٠ م يطلب منه الاهتمام بالتعليم ويبين له أن مرضاة الله بممارسة العقيدة الصحيحة لا تكتمل الا بارضائه بحسن التلاوة والقراءة الصحيحة ، كما أن السلوك السليم يعتبر أثمن من المعلومات والثقافة الا أن المعلومات والأفكار السليمة والصحيحة هي التي تربي سلوك الانسان^(٥) .

كما أرسل شارلمان خطابا الى مرثلى الكتيبة سنة ٧٨٦ — ٨٠٠ قال فيه : « اننا نعنى كثيرا باصلاح أحوال الكتيبة ، كما اننا نعمل مافى وسعنا لنرفع من شأن التعليم الذى أهمله أجدادنا .. واننا نعمل على تصحيح جميع نسخ الكتاب المقدس بعناية خاصة وان العهد الجديد أفسده جهل النساخ الذين قاموا بنسخه فى الماضى .. واننا بذلك لن نشعر بمعاناة فى أيامنا هذه من الأخطاء النحوية ، والتعارضات التى تنتسك الى الدروس الدينية المقدسة فى جميع الكنائس المسيحية ، لاننا نعمل مافى وسعنا لتصحيحها وتقويمها »^(٦) كما قام شارلمان بتتدعيم المكافآت ، والعون المادى للمدرسين والدارسين فى داخل مملكته وخارجها — حتى كون حوله مجموعة كبيرة من العلماء العالمين^(٧) .

فقد وصل الى ميناء غالة اثنين من الاسكتلنديين قادمين من ايرلنده بصحبة بعض التجار الانجليز . وقد عرض هذان الرجلان أن يبيعا الحكمة فى أسواق غالة ، مما أدهش الناس فسمع بهم شارلمان واستدعاهم اليه لأنه كان دائما يبحث عن الحكمة ، فعندما سألهما عن حقيقة الأمر عرف منهم أنهم يبيعون الحكمة بدون مقابل لأن يبحث عنها ، ولا يطلبون غير مكان يقدمون فيه هذه الحكمة للناس ، وعقلية تستوعب فهم ما يقدمون ، وطعاما يتعيشون منه .

(5) Ashour, Rabie «Fifty documents in medieval history» p 34.

(6) Ibid, p. 35.

(7) Gerald, Simons «op. cit.» p. 107.

لذلك عين أحدهم ويدعى كلمنت فى غالة وبعث اليه بعدد من أولاد النبلاء ، وآخرون من فقراء القوم ، وسمح لهم بكميات من الطعام كل على حسب طلبه ، وهيات أماكن مناسبة للدراسة ، وأرسل الثانى الى ايطاليا وعين فى دير القديس أوغسطين بالقرب من بافيا (٨) .

والمعروف تاريخيا أن الهدف الدينى كان هو المحرك الأول للحركة العلمية لذلك نجد شارلمان قد جعل من رجال الكيسة والشمامسة أسساً لهذه الحركة ومن أهم هؤلاء بطرس البيزى ، وبولس الشماس فطلب من بولس الشماس أن يجمع أعمال أخلص الآباء اللاتين فى كتاب للمصلاوات ليحل محل ما سبق استخدامه فى شمال أوروبا من مختارات ساء اختيارها . كما أن شارلمان كان يقدر هذين الرجلين لكفايتهما فى المنحو اللاتينى وقدرتهما على تدريسه ، وقد ترك كلاهما بعض كتابات فى هذا الموضوع (٩) .

وبلغت محبة شارلمان للدين وولعه باللاهوت بصفة خاصة أنه تصور الملكية على أنها ثيوقراطية مسيحية لها جانب عملى لا يتجلى فيما صحب فتوحاته من تحويل الناس الى المسيحية فحسب بل يعطى أيضا فيما قام به من نصيب فى القضاء على بدعة التبنى التى حاول فيها فيليكس Felix أسقف أورجل Urgel أن يوفق بين لاهوت المسيح وناسوته بقوله بأن المسيح انسان اتخذ الله ابنا (١٠) الى جانب الدور الذى قام به فى كتابة الرسائل الشارلمانية libri-carolini وهى للرد على المجمع المسكونى السابع الذى عقد فى القسطنطينية .

(8) Ashour, Ziada «Select documents» p. 256.

(٩) عاشور « النهضة » ص ٤٩ .

(10) Thompson «op. cit.» p. 489.

مؤسسوا الحركة العلمية فى عصر شارلمان

زخر تاريخ شارلمان بأسماء لامعة حملت لواء النهضة العلمية وعلى رأس هؤلاء الكوين واينهارد ، وانجلبرت وثيودولف وغيرهم . وترجع أهمية هؤلاء العلماء الى الدور الذى قاموا به ، والى مدى التشجيع الذى لاقوه من الامبراطور شارلمان الذى حاول أن يجمع بين الرغبة فى نشر الثقافة الدينية ، وبين حفظ التراث الكلاسيكى ورعاية المخطوطات القديمة ودراستها . وقد اتخذ شارلمان خطوات ايجابية فى هذا الصدد فقام أولا بتدعيم مدرسة القصر ، وبعدها عمت المدارس فى الأقاليم وأقام المكتبات العامة التى خلدت هذا التراث وحفظته للأجيال . وترجع أهمية الكوين الى أنه تلقى تعليمه فى مدرسة يورك الشهيرة وعلى يد الأساتذة الذين تتلمذوا على يد العالم القديم فيدا مما كان له أكبر الأثر على تكوين شخصياتهم العلمية .

بدأ اتصال الكوين بشارلمان عندما عهد اليه ملك نورثمبريا أو رئيس أساقفتها برسالة لملك الفرنجة ، وبعدها تقابلا مرة ثانية فى بارما سنة ٧٨١ م ، وفى هذه المرة تمكن شارلمان من اقناع الكوين بالقدوم والاقامة فى آخن . وفى سنة ٧٨٢ م وفى الكوين بوعده وكان فى السابعة والأربعين من عمره ، واحتل مكانة كبيرة فى قصر الامبراطور . وأصبح هو حامل لواء النهضة العلمية فى الدولة الكارولنجية (١١) . الى جانب أنه أسهم بالقسط الأوفى فى نقل أهم مظاهر النهضة الايرلندية الى غالة حيث تعهدا برعايته (١٢) .

الكوين ومدرسة القصر :

قام الكوين فى المرحلة الأولى من حياته ٧٨٢ — ٧٩٠ بتنظيم مدرسة القصر وسائر المدارس التى من هذا النوع . وفى المرحلة

(11) Guizot, M. «Histoire de la Civilisation en France» p. 88.

(12) عاشور « النهضة » ص ٥٢ .

الثانية حارب هرطقى التنبى والملايقونية وانتصر عليهما وفى المرحلة الثالثة أنشأ فى تور مدرسة ديرية أصبحت نواة لمدارس أخرى كثيرة ، وغدت النموذج الذى سار عليه هذا النوع من المؤسسات قرونا عديدة . وفى هذه المراحل الثلاث يعتبر المستشار لسيدته اذ صار مركز حلقة أدبية والمرجع الأصلى الذى يلجأ اليه العلماء ورجال الدين^(١٣) .

ويرجع تأسيس مدرسة القصر التى حمل لواء العلم بها الكوين الى الأيام الاولى من حكم شارلمان قبل أن تتبلور فكرة بعث الامبراطورية الغربية ، وقبل أن تنتقل الى حيز التنفيذ بسنين كثيرة^(١٤) ولا بد أن نعرف أيضا أن هذه المدرسة لم تكن وليدة عصر شارلمان أيضا بل أن أصولها تمتد الى العصر الميروفنجى الا أنها كانت تنقصها النظام والتبلور والعلم الحقيقى ، مما ترتب عليه بقاء الأرستقراطية الفرنجية على جملها بأبسط مبادئ الثقافة وهكذا حتى استطاع الكوين أن يجعل من هذه المدرسة عاملا فعالا فى حياة الدولة بعد أن نظمها على أسس سليمة^(١٥) ، حيث كانت فى الماضى لا تدرس الا فنون الحرب فقط^(١٦) . وكانت مدرسة القصر فى آخن مركزا للنشاط الثقافى الذى كان يشهده أفراد الأسرة الملكية وأبناء النبلاء الفرنجة ، وكثيرا ما كان تلاميذها يتولون رئاسة الأديرة فى بعض أراضى الراين ومواطن أخرى من الدولة ، حيث أصبحت مراكز للعلوم والفنون^(١٧) .

ويذكر اينهارد أن شارلمان كان شخصا من أهم تلاميذ الكوين وأنه كان يقضى معه معظم وقته فى دراسة البلاغة والمنطق والفلك ، كذلك تعلم شارلمان الحساب الذى كان يستخدمه فى حساب حركات

(١٣) ديفز « شارلمان » ص ١٥١ .

(14) Thompson «op. cit.» p. 489.

(١٥) عاشور « النهضة » ص ٥٥ .

(16) Gerald Simons «op. cit.» p: 107.

(17) Ibid.

النجوم والأجرام السماوية بدقة بالغة ، كما حاول شارلمان أن يتعلم الكتابة ولهذا الغرض كان يضع تحت وسادته ألواح الكتابة والقرطيس والأقلام ليحرب يديه على الكتابة فى ساعات الفراغ^(١٨) كما كان يضع دائما بجانبه الكتاب الذى طلب من الكوين أن يصنفه له ، وأمره أن يكون مختصرا وعمليا وهذا الكتاب كان يحوى الطريقة الصحيحة للصلاة والترايل ، كما طلب من الكوين أن يعد له تقويما صحيحا للأيام ليحمله معه فى رحلاته وسفرائه ، ويعد هذا التقويم أول تقويم مختصر^(١٩) . ولعل جهود الكوين تتمثل خير تمثيل فى خطوط الكتابة السلسلة على خلاف ما كان الحال عليه فى المخطوطات والوثائق الميروفنجية التى كتبت بطريقة لا يمكن أن نقرأها فى يسر ، ولعل هذا هو ما دعا أوائل الناشرين فى القرن الخامس عشر أن يجعلوا من الخطوط الكارولنجية طريقة الحروف لطبوعاتهم ، ولا تزال فى الحروف اللاتينية حتى اليوم ملامح كثيرة منها . وكان أهم تطوير أحدثوه فى الكتابة أبداع الحروف الصغيرة المنيوسكولا Minuscula بعد أن كان الرومان يكتبون بالحروف Capitalis-quadrate والروستىكا Capitalis-rustics . وقد قام الكوين بجهود كبيرة فى مسألة إعادة كتابة المخطوطات الدينية فقد نفذ جميع التوجيهات التى أمر بها شارلمان واستعان بعدد كبير من الرهبان ، ورجال الدين المهرة خاصة فى مدينة تور ، ورأى الكوين أنه ما دام لكل دير مكتبته الخاصة المملوءة بالكتب ، فليست هناك حاجة لأن يستعير أحد من الآخر لأنه ربما تضيع الاعمال الخالدة للرومان أمثال شيشرون وتاكييتوس خاصة وأنه لا توجد نسخ

(18) Einhard «op. cit.» p. 54.

(19) Lamb «op. cit.» p. 187.

(٢٠) كانتور « تاريخ العصور الوسطى » ص ٦٤ . ترجمة على الغبراوى .

Gerald Simons «op. cit.» p. 108.

الروستىكا هى اللهجة الدارجة أو الشعبية .

أخرى • وبهذه الطريقة ، فقد وجدت كثير من الأعمال النادرة خاصة المخطوطات الكلتية للبريطانيين طريقها لبلاد الفرنجة ، بينما كان شارلمان يحمل معه دائما الى آخن كثيرا من الكتابات والمؤلفات النادرة من لومبارديا ومن مكتبة القديس بطرس (٢١) •

والحقيقة أن شارلمان والكوين استطاعا بهذه الطريقة أن يرفعوا من شأن مدرسة القصر ، وأن يجعلوا منها نموذجا يحتذى بل لم يتوقعا أنهما سيتهكنا خلال هذه الفترة القصيرة من انشاء مركز ثقافي حتى في أرض الفرنجة للكتاب القدامى والآباء الكنيسة ، فكثير من المخطوطات النادرة التي كانت ملقاة في غياهب مكتبات القديس جان Saint, Gall أو في ليندسفارن Lindis Farne كانوا يتداولونها في مدارس شارلمان حتى أن مكتبة ليندسفارن احترقت مرة في أحد غزوات الفيكنج ، ولم ينقذ من تراثها الا ما حوته مدرسة شارلمان (٢٢)

وكان الكوين نسغوا بأن يدهش صديقه شارلمان بحصوله على كتب جديدة أو بتصحيحه لنسخ قديمة ، فقد قدم الكوين الى آخن في منتصف أشهر الصيف ، ووصل الى شارلمان الذي كان يجلس على كرسي العرش ، ويحمل في يديه الانجيل وهو نسخة مصححة لانجيل القديس جيروم خالية من الأخطاء ، فتوجه إليه متسائلا : « والآن يا صديقي داود لن نقول مطلقا أن شعبي يستخدم ألفاظا خاطئة في الصلوات ، فاننا قد قمنا بتصحيح الانجيل وجعلنا غلافه من الخارج من الفضة عليه لوحة من العاج منقوش عليها المسيح وهو مصلوب على الصليب ومن أعلى صور الملائكة ومن أسفل صور الحداث على ما حدث للمسيح ، كما جعلنا على الأطراف صور للرسل الاربعة يجلسون مهمكين في الكتابة (٢٣) •

(21) Lamb, op. cit.» p. 187.

(22) Ibid.

(23) Ibid.

وأضاف الكوين قائلاً : « لن نقول يا سيدى داود مطلقاً بعد ذلك أن القديسين يقرأون كلمات خاطئة ، لأن جميع حروف الانجيل كتبت خطأ ، لكنى قمت بتصحيحه ، ثم قدم اليه أجزاء من صفحات الانجيل جميع حروفها تبهر العين ، ولونت بألوان زاهية ، وجميع الحروف كبيرة وسليمة ومتباعدة عندئذ ابتهج شارلمان ، وأمر بنسخ عشرين نسخة أخرى ليقوم بتوزيعها على جميع ولايات الامبراطورية^(٢٤) .

ونتيجة للاهتمام بالدراسات الكلاسيكية فقد قام علماء مدرسة القصر بإطلاق اسم روما الثانية ، وأثينا الثانية على مدينة آكس لاشابل وأطلقوا تسميات على العلماء مأخوذة من الانجيل ومن التراث القديم^(٢٥) فقد أطلقوا على شارلمان اسم داود ، وعلى الكوين اسم فلاكوس وانجلبرت هومر ، ويرجع ذلك الى أنهم أرادوا أن يتشبهوا بالسلف من أعلام الحكمة والأدب^(٢٦) .

العلوم السائدة في مدرسة شارلمان :

من أهم العلوم التي شاع تدريسها في مدرسة القصر الى جانب الدراسات الدينية والملاهوتية ، الفنون السبعة الحرة التي سبق أن ذكرنا أن شارلمان اعتمد ضرورة تدريسها لأبنائه وأبناء الفرنجة جميعاً . وقد اشتملت الفنون السبعة على مجموعتين . مجموعة رباعية ومجموعة ثلاثية . الرباعية الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، والأخرى النحو والبلاغة والمنطق^(٢٧) .

ويرى الأستاذ جيرالد سيمونس أن هذه العلوم لم تدرس كما ينبغى فالمجموعة الرباعية كانت تدرس دراسة روتينية تقليدية لأن هذه

(24) Ibid, p. 183.

(25) Gerald Simons «op. cit.» p. 109.

(٢٦) عاشور « النظم والحضارة » ص ١٢٩ .

(27) Thompson «op. cit.» p. 490.

العلوم كانت معظمها باليونانية ولم تكن لها ترجمات صحيحة باللاتينية خاصة وأن دراسة اليونانية كانت قد بدأت في الانحسار في أوروبا ، فأصبح الطلبة يجدون صعوبة في فهمها ، أما المجموعة الثلاثية ، فكانت أنجح لأنهم كانوا يدرسون اللاتينية كما اهتموا بالادب الروماني (٢٨) .

أما عن الكوين نفسه ، فنحن نريد أن نعرف الى مدى كان علما بهذه الفنون ، وقد وجدنا أنه لم يعرف منها أكثر مما استخلصه من المصنفات الضئيلة التي ألفها كاسيدروس ومارتيانوس كابيلا وموسوعة ايزيدور الاشبيلي ، ومن الترجمات غير الكاملة لكتابي أرسطو ، وهما التفسير والكميات ، ولم يعرف من الفلك شيئا على الاطلاق ، ولم يكن حظه في الحساب والهندسة الا قليلا ، ولم يدرس كتب اقليدس وبطليموس ، ومنظمتها كان يسوده الاضطراب وبلاغته ليست الا قاموسا للمصطلحات الفنية (٢٩) .

وقد خاض الكوين في موضوعات متعددة ، حيث استمرت مدرسة القصر مجالا لكثير من المناقشات والمحاورات التي تحوى قسطا وافرا من المعلومات العامة . ومعظم هذه المحاورات كانت تدور حول الدراسات الدينية ، وذلك لاعتقاد العلماء وطلاب العلم أنها الهدف النهائي الذي ترمى اليه بقية الدراسات (٣٠) .

وقد اهتم الكوين بجمع عدد كبير من الكتب والمخطوطات والمراجع القديمة من جميع البلاد وذلك لتنمية الدراسة داخل المدرسة ، الى جانب أنه ألف كثيرا من الكتب الدراسية وقوائم المفردات ، ويمكن أن نلمس أثر هذا الانتاج في عدد من المؤلفات الأدبية والوثائقية الضخمة التي

(28) Gerald, Simons «opy. cit.» p. 109.

(٢٩) ديفز « المرجع السابق » ص ١٥٢ .

(٣٠) عاشور « النهضة » ص ٥٧ — ٥٨ .

وصلتنا من العصر الكارولنجي ، ويظهر في كمية المؤلفات الكلاسيكية التي تم نسخها في مخطوطات تتميز بالدقة والروعة ، وفي اسهام رجال الكنيسة في تطوير الطقوس الدينية^(٣١) .

واذا كنا تحدثنا عن جهود الكوين في نشر الثقافة ، واحياء الدراسات اللاتينية وتصحيح المخطوطات ، الى جانب اهتمامه بالنواحي الفلسفية والأدبية والتاريخية فلا ننسى في هذا المجال غيره من العلماء الذين أسهموا في هذه النهضة الثقافية اسهاما كبيرا ، وعلى رأسهم يطل علينا اينهارد . الذي ولد في الأراضى الفرنجية في منطقة وادى نهر المين سنة ٧٧٥ ، وتربى داخل دير فيلدا Fulda الذي كان شعلة ومنازة العلم داخل أراضى الفرنجة . وفي عام ٧٩١ أو ٧٩٢ أغرى رئيس الدير شارلمان بأن يضم اينهارد الى مدرسة القصر . وعند وصول اينهارد الى المدرسة تركها الكوين واعتزلها الى دير بالقرب من مدينة تور . حتى أن شارلمان وجه الى الكوين بعض الاستفسارات فيما يخص الآداب الكلاسيكية ، فرفض الاجابة ، وطلب منه أن يسأل اينهارد .

ورغم المكانة الكبرى التي احتلها اينهارد عند شارلمان ، الى جانب أنه قد نفذ كثيرا من أمور الدولة الهامة الا أنه لم يحتل المكانة الكبرى كما لم يصل الى مركز مرموق في عهد شارلمان لكنه عين سكرتيرا خاصا لابنه لويس الثقي فيما بعد . وحصل على مهام شرفية كبيرة^(٣٢) .

وترجع أهمية اينهارد في أنه يعتبر هو مؤرخ الامبراطور شارلمان ، وصاحب كتاب سيرة حياة الامبراطور . فقد ترك اينهارد مجموعة

(٣١) كانتور « المرجع السابق » ص ٦٠ .

(32) Sidney, P. «Foreward to the life of Charlemagne» p. 10.

من الأعمال أهمها Vita-Caroli-Magni وقد أرخ هذا الكتاب فيما بين ٨١٧ — ٨٣٦ أو من ٨١٧ الى ٨٣٠ ، وقد استعان اينهارد في كتابه عن حياة شارلمان بكثير من الحوليات الملكية التي استمد منها كثيرا من المادة التاريخية خاصة فيما يخص الحملات العسكرية التي قادها شارلمان ، وكثير من الأنشطة السياسية ، كما أنه ناقش كثيرا من الأمور مع زملائه داخل مدرسة القصر كما استعان بالوثائق الموجودة في الأرشيف الملكي أثناء قيامه بالعمل كسكرتير خاص للويس التقي .

ورغم أنه قد وقع في أخطاء كثيرة أثناء تفسيره لهذه المعلومات إلا أن عمله التاريخي ككل يعتبر صحيحا ومكاملا إذا ما تأرنا به غيره من المصادر التاريخية^(٣٣) . كما أن اينهارد يعتبر خير مؤرخي العصور الوسطى المبكرة كما أنه أورد الحقائق في بعض الحالات قصدا أو عن غير قصد ، ولابد لنا عند قراءته ومطالعة أن نتذكر دائما العامل الشخصي ، إذ أن اينهارد انغمس في كل ما حدث في عصره من مظاهر الضعف ونواحي التعصب^(٣٤) .

أما ثيودولف فكان قوطي الأصل أسباني أو ايطالي المولد ، كان أسقفا لأورليان . فقام باصدار أوامره الى مجموعة من القسس في بعض القرى والضياح المجاورة بأن يقوهوا بفتح فصول في كنائسهم لأهالي مناطقهم بدون مقابل ، ورغم أن نتائج هذا الجهد كان ضعيفا إلا أن ثيودولف يعتبر مؤسس التعليم الحر في الدولة الكارولنجية^(٣٥) .

كما كان ثيودولف من أبرز شعراء عصره لا سيما في شعر المراثي ، وقد نظم قصيدة من تسعمائة وستة وخمسين بيتا عنوانها « نصيحة الى

(33) Ibid.

(34) Gerald Simon «op. cit.» p. 107.

(35) Ibid, p. 109.

القتضاة « تعتبر من أروع ما نظمته من الشعر »^(٣٦) وفى هذه القصيدة تتجلى ذكريات ثيودولف الشخصية ، وهى ثمرة الخبرة التى اكتسبها فى أثناء جولاته فى الجنوب ، وهو يصف بلمسات من قلمه ضروب التباين بين مناظر بروفانس كالتلال الصخرية الوعرة المشددة الانحدار والسيول المندفعة والخنادق ، وينصح القضاة بقوله : « ينبغى للقاضى ألا يتكلم بسرعة شديدة ولا ببطء شديد ، وينبغى له أن يوجه المتقاضين ويساعدهم على شرح قضاياهم أمامه ، فيشجع الخجول والوجل ويشكم الوقح ويسكت الثثار ، ويسيطر على ضجيج الصائحين باستخدام صوته القوي على أنه ينبغى مع ذلك أن يلزم مكانه ، وأن يمتنع عن استخدام العصى يقرع بها الاكتاف والرؤوس كما ذاع عن بعض ضيقي الصدر من القضاة »^(٣٧) .

أما انجلبرت فقد كان زميلا لاينهارد فى الدراسة ، وأضحى كاتما لسر الملك ، وتزوج من الأميرة برتا ابنة شارلمان ، وسلك طريق الرهبنة هو وزوجته ودخلا الى المدير معا . وبعدها هجرته زوجته برتا ورجعت الى القصر ، اما هو فقد أصبح رئيسر تساوسة الملك وقد اتسعت شهرة انجلبرت الأدبية حتى أطلق عليه لقب هومر .

ومع هؤلاء الأساتذة والأساليب العلمية التى اتبعوها داخل مدرسة القصر يبرز لنا الامبراطور شارلمان الذى اشتهر بدقة اختباره لأثر قوانينه التعليمية . اذ نجده تارة بمدرسة القصر يسأل التلاميذ ، فيطرح عنهم الخمول والكسل ويعطيهم درسا صارما فيقول لهم ان العمل لا النسب هو السبيل للحصول على رضاه ، وتارة بالكاتدرائية يشهد الأطفال محمولين الى نبع التجميد ، فيوقف ما يجرى من طقوس ويسأل الأطفال فينتبين أنهم يجهلون مبادئ العقيدة فيردهم الى منازلهم حتى يتلقوا

(٣٦) عاشور « النهضة » ص ٦٦ .

(37) Lavissee « Histoire de France » Vol. II, p. 61.

من قس الإبروشية مزيدا من التعليم^(٣٨) •

المدارس الاقليمية :

امتد أثر الحركة العلمية التي أذكاهها شارلمان داخل قصره وفي مدينته آخن لتعم أرجاء امبراطوريته ، حتى أصبح التعليم هو الأساس الأول لتقييم الفرد ، وأصبحت الصفوة التي تلازم شارلمان جلها من المتعلمين ، حتى ان شارلمان قد أمر جميع من بيدهم السلطة في البلاد أن يلتصوا بمدرسين ، وأن يراعوا بأن يتلقى أولئك الذين في رعايتهم وتحت اشرافهم التعليم السليم • حقيقة أن هذا التعلم كان في أساسه تعليما دينيا لكنه تطور بعد ذلك وعمل على دراسة الأدب اللاتيني والدراسات والفكر القديم •

وتعتبر مدرسة الكوين في تور من أولى المدارس الاقليمية التي نشأت على غرار مدرسة القصر في آخن ، ولعل الفترة التي قضاهها الكوين هناك بعد اعتزاله بلاط شارلمان كانت هامة في اذكاء الحركة العلمية في هذه المنطقة ، فقد قام الكوين بتنظيم دير سانت مارتن وعنى فيه بتعليم الرهبان أسس الحركة العلمية التي شاعت فيهم بدراسة الفنون السبعة الحرة^(٣٩) •

وإذا كان فضل الأديرة على العلم في العصور المتأخرة موضوع مبالغه ، فلا يجوز أن نشك في فائدتها من هذه الوجهة في العصر الكارولنجي واستتالة الكوين من البلاط ليرأس دير سانت مارتن في تور لا تعنى هبوطا في جهوده العلمية ، كما أن النشاط العلمى في أبروشيات أساقفة من أمثال ثيودولف ورؤساء الأديرة من أمثال انجلبرت

(٣٨) ديفز « شارلمان » ص ١٦٣ — ١٦٤ •

(39) The Monk of Saint Gall, «op. cit.» in Selected Documents pp. 255 — 256.

رئيس دير سانت ريكويه من تشجيع للتعليم فى الأديرة قد بسط أثر القصر خارج رحابه وملا الامبراطورية بمراكز الثقافة^(٤٠) .

ونتيجة لذلك نجد أن الأميرة جيزلا أخت شارل وروتروود ابنته أسرعتا بالكتابة الى الكوين تطلبان منه تفسير عبارات غامضة من الانجيل الرابع وأخبرته بأنه منذ أن تلقيا عليه الدروس اشتدت رغبتهما فى التعمق فى الدرس والتحصيل ، فأرسل اليهما بدوره مجلدين ضخمين عن التفسير ، ورأى ضرورة الاعتذار لأنه لم يرسل لهما أكثر من ذلك^(٤١) .

وقد قام ثيودولف رئيس دير أورليان بتنظيم التعليم فى ابروشيته ، وأصدر منشورا لأتباعه من رجال أسقفيته يحثهم فيه على تعليم الأهالى بصفة عامة سواء فى المدن أو فى الريف ، وهناك مرسوم آخر صدر سنة ٨٠٢ ينص على أن يبعث كل فرد ابنه ليتعلم القراءة والكتابة بشرط أن يبقى هذا الابن فى المدرسة حتى يكتمل تعليمه . اما المرسوم الصادر سنة ٨٠٥ فينص على أهمية الحساب الذى يجب أن يتعلمه كل فرد على الوجه الصحيح^(٤٢) .

وكان جميع الرهبان والقساوسة ورجال المدن الذين يدخلون هذه المدارس ويتلقون فيها هذه المناهج العلمية يصبحون عادة رؤساء للأديرة الفرنجية أو الجرمانية وأشهرهم رابان Raban Mauer ويرجع أساس شهرته الى أنه أنشأ مدرسة فولدا ، أما المدارس الأخرى التى نشأت غرار مدرسة تور أمثال مدارس أديرة كوربى والقديس واندرل . والقديس جال فكانت من غير استثناء مدارس ديرية المقصود

(40) Thompson «op. cit.» p. 490.

(٤١) ديفز « شارلمان » ص ١٥٣ .

(٤٢) عاشور « النظم والحضارة » ص ١٣٠ .

منها تعليم رجال الدين ، وقد أدت هذه المدارس خدمة كبيرة .
للأجيال ، فقد أحييت اللغة اللاتينية وأعادتها الى مكانتها حيث أنها لغة
أدبية فقاومت من ناحية طغيان الألفاظ الجرمانية وقاومت من ناحية
أخرى اللغة الغالية الرومانية ، وما اشتهرت به من فساد النحو
والصرف (٤٣) .

ولم تقتصر المدارس الاقليمية على منطقتى تور وأورليان فقط ،
بل انها امتدت الى جميع أرجاء المملكة ، ويشهد على ذلك الرسائل العديدة
التي بعث بها شارلمان الى الأساقفة ومقدمى الأديرة يستحثهم فيها
على فتح المدارس والعناية بتعليم الصغار والكبار ، وقد حققت مدرسة
القصر والمدارس الاقليمية الغرض الأسمى لشارلمان ، فقد أمدت
الدولة والكنيسة بالموظفين المتعلمين ، وأثمرت هذه المدارس فى خلق
جيل متعلم واع سواء من الطلبة أو المدرسين (٤٤) .

وأبرز مثال على حب شارلمان الحقيقى للعلم الى الحد الذى
جعله يرفع من مكانة المتعلمين حتى ولو كانوا من فقراء القوم ، أو من
أسر متواضعة ، بل انه كان يعفى كثيرا من أبناء النبلاء من مناصبهم
الدينية اذا لم يسيروا على نهج العلم ، ويهتموا به وماحدثنا به راهب
القديس جال حينما قال : « أهر شارلمان التلاميذ الذين بعث بهم الى
كلمنت ليتعلموا عنده فى غالة أن يقدموا اليه ، ويقدم كل واحد منهم اليه .
كتابات من النثر والشعر من انشائهم فوجد شارلمان أن الأولاد الفقراء
الذين ينتمون الى أصول متواضعة قدموا اليه كتابات قوية ومدعمة بالحكم
والعلم وأعلى بكثير مما كان يتوقعه ، بينما قدم اليه أبناء
النبلاء مجموعات ناقصة ليست لها أى معنى وقام شارلمان
بتحكيم القضاة المحليين فيما قدمه هؤلاء ، وجمع المجموعة الأولى والتي

(٤٣) دانتون : « المراجع السابق » ص ١٥٨ .

(٤٤) Thompson « op. cit. » p. 491.

قدمت فكرا ثميناً ، وأمرهم بالوقوف فى الناحية اليمنى وأثنى عليهم وقال لهم « يا أبنائى ، انكم ستجدون منى كل عناية وعرفان بالجميل لأنكم بذلتم كل ما فى وسعكم لتنفيذ أوامرى وللحصول على مكافأتى كذلك أطلب منكم المزيد من العلم لتصلوا الى الكمال ، وسأمنحكم الأسقفيات والأديرة وستكونون دائماً أهلاً للاحترام والتبجيل » * .
وبعدها التفت الى المجموعة الثانية التى وقفت على يساره ، ونظر اليهم بحدة وصرامة وعاملهم باحتقار شديد ووجه اليهم كلمات نابية نزلت عليهم كالصاعقة قائلاً « أما أنتم أيها النبلاء يا أبناء السادة الكبار يا من تأنقتم وتزينتم ، واعتمدتم على شرف مولدكم وعلى مهلكاتكم ، وقد استخففتكم بأوامرى من أجل مصلحتكم ، وأهملتكم العلم ، واعطيتم أنفسكم مزيداً من المتعة واللهو ، — عندئذ رفع رأسه وأقسم بعزة السماء بأنه لن يعبأ بشرف مولدهم ومظهرهم الذى يجعل غيره يهتم بهم ، وأوعدهم بأنهم اذا لم يبذلوا الجهد فى سبيل تنفيذ أوامره ، بالاهتمام بالتعليم فانهم لن يحصلوا على أية منفعة أو فزيلة منه مطلقاً » (٤٥) *

ومن هذا النص نرى أن شرف المولد كان لا يغنى عن شرف العلم فى عصر شارلمان ، فقد وصل عدد كبير من هؤلاء المتعلمين الى مركز الصدارة طوال عصره *

الأنب :

يرجع الفضل الى النهضة الكارولنجية فى انقاذ الأدب اللاتينى من الهوة السحيقة التى تردى فيها فى القرن السابع ، كما أنها منحتة قوة دافعة ظهر أثرها بعد ذلك فى النهضة الأوتية أو السكسونية فى ألمانيا وفى المدارس الديرية العظمى التى انتشرت فى القرنين التاسع

(45) The Monk of Saint Gall «op. cit.» in «Select Documents» p. 257.

والعاشر (٤٦) •

ولعل أبرز انتاج أدبى فى هذا العصر هو تاريخ جريجورى التورى وهو من تراث العصر الميروفنجى • اما فى العصر الكارولنجى فقد كثرت المدونات التاريخية ، وكان أسلوبها اللاتينى أكثر التزاما بالقواعد القديمة من أسلوب جريجورى التورى ، وحوليات دير لورش مرجع هام لتاريخ الملكية الكارولنجية السياسى (٤٧) •

وهناك نوع آخر عرف باسم الحوليات الملكية التى دونت تحت إشراف رجال البلاط ، وتناولت تاريخ الكارولنجيين منذ تقسيم شارل مارتن مملكته بين أبنائه ، كذلك لم تهمل الكتابات التاريخية فى هذا العصر سير القديسين ، هذا زيادة على الكتب التاريخية المتعددة التى تناولت أخبار الحروب والحوادث مثل كتاب « تاريخ الحروب الأهلية » لمؤلفه نيثار Nithard فى القرن التاسع (٤٨) •

ويمدنا مؤرخ دير القديس دنيس وراهب القديس جال بكثير من المعلومات عن عصر شارلمان وبلاطه وسيرة شارلمان Vita Carolini لاينهارد المبينة على معرفة شخصية ، كما قدمنا والتى تعتبر من أقدم سير القرون الوسطى المأثورة ، فانه لم يهدف فيها الى تاريخ عصره ، بل الى تصوير الامبراطور ، وبيئته تصويرا بارزا (٤٩) •

وقد كانت الكتابات اللاهوتية فى هذه الفترة موضع اهتمام كبير ، لكنها كانت كتابات ضعيفة ، خاصة وأنها كانت تبحث فى قضايا المعنى

(٤٦) عاشور « النظم والحضارة » ص ٢٣٣ •

(47) Thompson «op. cit.» p. 799.

انظر النصوص الخاصة بحوليات دير لورش فى الملاحق المترجمة فى نهاية الكتاب •

(٤٨) عاشور « النظم والحضارة » ص ٢٣٥ •

(49) Thompson «op. cit.» p. 799.

الخفى للتعميد ، وطريقة التجسيد ، والفيض الصادر عن الروح مهما قابلنا من صفحاتها فلا نعثر على فقرة تشير فى وضوح الى مزايا العرض الثابت والمنطق السليم أو اللغة المفهومة (٥٠) .

أما عن الكتابة فانها لم تنتشر وتتطور فى العصور الوسطى الا تطوراً بطيئاً ، وذلك فى الأديرة وبعض أمانات السر الخاصة بالقصر فقد كانت معظم هذه الأديرة متفرقة ، وكل منها تعمل على أن تخط كتابات خاصة بها ، ولكن كان هناك نموذجاً لا بد أن يسبوا على نهجه ، فقد كان الكتبة ينسخون الكتب بالأقلام ويعملون داخل حجرات سيئة الاضاءة ويجلسون على فرش من وبر الجمل وكانوا يكتبون ما هو سهل عليهم ، وليس ما هو سهل للقراءة ، فالكاتب غالباً ما يتمكن من قراءة ما يكتبه ، لكن غيره لا يتمكن من ذلك ، وكانت الحروف اللاتينية القديمة كبيرة جداً وقد عرفوها عن طريق الكتابات المتبقية فى الآثار على جدران المعابد وشواهد القبور حيث نحتت هذه الحروف الكبيرة ، لكن هذه الطريقة فى الكتابة كانت سقيمة ومتخلفة ، فاذا أرادوا أن يؤلفوا كتاباً كبيراً مستخدمين هذه الحروف الكبيرة ، احتاجوا الى كمية ضخمة من الأوراق الغالية الثمن والباهظة التكاليف كما احتاجوا الى عدد كبير من النساخ لينسخوا الكتاب المطلوب (٥١) .

وقد بقيت مجموعة من هذه الحروف الرومانية القديمة فى ايرلنده حتى أصبحت هى الحروف السائدة فى ليندسفارن *Lindisfarn* أما الأديرة الأسبانية فكانت تسير على طريقة مختلفة تماماً فى الكتابة وهى طريقة كتابة القوط الغربيين ، بينما أديرة بنفينتوم حول مونت كاسينو فسارت على طريقة الكتابة بالحروف الصغيرة . أما المشكلة التى صادفتهم فى كتابة هذه الحروف أنها كانت تأخذ أشكالاً

(50) Cam. Med. Hist. Vol. III, p. 506.

(51) Lamb «op. cit.» p. 187.

مختلفة فى كتابتها من مكان الى آخر ، فبينما قام الابرلنديون بنشكيل حروف خاصة انتشرت فى جميع أرجاء امبراطورية الفرنجة على أيدى المبشرين والرهبان الكنسيين أمثال القديس جال والقديس كولمان Columban . أما فى أديرة كوربى حيث تعلم أدلهارد ، فقد ابتكروا طريقة جديدة فى الكتابة ، وهى مشتقة فى أجزاءها من الرومانية القديمة وفى الأخرى من التأثير الكلتى . « وذلك فى الوقت الذى كانت الكتابة فى القسطنطينية واضحة ومقروءة الى درجة كبيرة وتسير على النمط اليونانى المعروف لكن أهل الغرب لم تكن لديهم خبرة بهذا الفن اليونانى ، وعجزوا عن قراءته » (٥٢) .

وبينما كان النساخ يقومون بنسخ الكتب فى أديرة كوربى اكتشفوا طريقة المينوسكولا وهى الحروف الصغيرة جدا فى الكتابة كانت لها مزايا كبيرة ، فقد كانت صغيرة وتكتب بسهولة لذلك تركوا الحروف الرومانية الكبيرة ، وأصبح كل فرد بعد فترة من التمرين فى امكانه كتابتها ببسر وسهولة .

وقد وجدت طريقة نسخ المخطوطات فى أديرة كوربى سبيلها . وسارت على نهجها أديرة تور ، حيث قام النساخون باستخدام نفس طريقة الكتابة مع بعض التطوير ، فكانوا يجعلون الحروف متباعدة وواضحة (٥٣) .

لذلك فقد كثر عدد نساخو أديرة تور ، حيث أنهم احتلوا مكان الصدارة داخل مدرسة القصر فى آخن وفى الفترة التى كان فيها الكوين يدرس داخل هذه المدرسة كان كتاب القداس والانجيل الذى يقرأ فيه شارلمان داخل الكنيسة مذهباً وصفحاته ارجوانية كما أعد شارلمان

(52) Ibid, p. 191.

(53) Lamb, Ibid, p. 191.

والكوين كتابا لمزامير التوراة التى تتلى فى الكنائس ليعثا به الى البابا هادريان ، وقد كتب هذا الكتاب بطريقة الحروف الصغيرة الجديدة ، وصفحاته ذهب بماء الذهب .

لذلك انتشرت هذه الطريقة الجديدة فى الكتابة من أديرة آخن وكوربي وتور الى جميع أرجاء مملكة الفرنجة ، ويتقن جميع النساخ فى كل مكان أن الطريقة الموحدة فى الكتابة أفضل فى القراءة ، وأمعن فى حفظ التراث . لكن مهمة تدريب هذه الأعداد الكبيرة عن الكتاب على الطريقة الجديدة كانت صعبة لذلك أخذ شارلمان ورفاقه على عاتقهم تنفيذ هذه المهمة ، فأمرؤا النساخ بإعادة نسخ الإنجيل ، وكتب المزامير والقنداس والقوانين بنفس طريقة كتابة الحروف الصغيرة ، وبهذه الطريقة انتهى عهد الحروف الرومانية العتيق ، وانتهت العصور المظلمة لتحل محلها عصور من النور والثقافة ، كما تمكنوا من حفظ كميات هائلة من التراث القديم أفاد منه الباحثون والمعاصرون .

ونتيجة لذلك عرفت هذه الكتابة باسم الكتابة الكارولنجية ، وقام باحثو عصر النهضة باستخدام هذه الخطوط فى كتابة مطبوعاتهم ولا تزال فى الحروف اللاتينية حتى اليوم ملامح منها (٥٤) .

وهناك بعض الأعمال الأدبية الهامة مثل دائرة المعارف التى ألفها هرابانوس Hrabanus تلميذ الكوين ، فكانت فى متناول كل يد فى أوربا العصور الوسطى لأنها مفتاح للعلوم القديمة والمعاصرة وقد سجل هؤلاء الأدباء كتابتهم على الجلود بعد أن كانوا يكتبون على البردى — لكن بعد استيلاء المسلمين على شرق البحر المتوسط منع وصوله اليهم (٥٥) .

(54) Ibid, p. 192.

(55) Gerald Simons «op. cit.» p. 110.

وبذلك نرى أن أهم ثمار النهضة العلمية الكارولنجية أنها قامت باكتشاف كثير من الأعمال العلمية والأدبية القديمة ، وبفضل تشجيع شارلمان كما رأينا قام مدموا الأديرة بأحياء كثير من الكتب الرومانية النادرة ، وهذه الكنوز القديمة حملها الرهبان عبر أسفار ورحلات طويلة الى أديرة بعيدة للدراسة والنسخ ، ولم يضع أى عمل من الأعمال الرومانية حملته أيدي تلامذة شارلمان ، ونحن ندين لهم بالفضل ، لأنهم هم الذين حفظوا لنا تراث قيصر وتاكيوتوس وجوفينال ومارتيال وغيرهم من الكتاب القدامى .

ولابد أن نعرف أن هؤلاء العلماء لم ينسخوا فقط هذه المؤلفات لكنهم قاموا بتصحيحها ، فكانوا يقابلون نسخ المخطوطات المتشابهة على بعضها البعض حتى يصححوا النسخ المنقولة من أى أخطاء دخلت عليها ، كما أنهم كانوا يكتبون الحروف الأولى بخطوط عريضة ، وتلون بألوان جذابة^(٥٦) .

الشعر :

ألف الشعراء ، فى هذه الفترة مقطوعات شعرية على النسق الرومانى الكلاسيكى ، وبينما كان معظمها لا يصل الى درجة الجودة ، الا أن هناك مقطوعات ألفها الأسقف ثيودولف ، كانت متأخرة وتعبر عن الأحداث المعاصرة^(٥٧) .

والحقيقة أن الاتجاه السائد فى هذه الفترة استعمال الشعر فى مختلف شئون الحياة ، وكان الطابع الغالب عليه دينيا لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة . زيادة على أن شعراء ذلك العصر استلهموا أشعارهم من شعراء المسيحية مثل برودنتوس

(56) Ibid, p. 111.

(57) Ibid, p. 109.

وفورتناتوس^(٥٨) . وكانت معظم أشعار هذه الفترة سقيمة جافة : خاصة شعر الكوين اللهم الا بعض القطع التي تمس الطبيعة أو الروح التهكمية أو العاطفة الذاتية ، وإذا كان ثيودولف قد اشتهر عنهم في هذا المضمار لكونه من أسبانيا أو إيطاليا ، قادته طبيعته الى المزاح مع أقرانه ، وجعلته يستنكر المفاصد الموجودة في الدولة^(٥٩) .

أما عن أغاني المآثر فكانت عبارة عن قصص لاحصر لها فكان الشعراء ينشدون الوقائع المثيرة مثل حصار بافيا والهزيمة في رونسيفال ، وألفوا منها مقطوعات قصيرة مثيرة اعتبرها السامعون لها موجزا لما وقع من الحوادث ، وتركزت حلقات من الأناشيد حول أسماء كبار الفرسان . على أن المؤلفين لم يقنعوا بالحقائق المجردة ، بل أضافوا إليها حلقات من نسج خيالهم أو من قصص تتعلق بالأبطال المتقدمين ، وجرت رواية الحكايات القديمة بأسماء جديدة ، وبذلك تطورت التقاليد الشعبية منفصلة ومستقرة عن المصادر الأدبية فالأناشيد المعروفة بأناشيد المآثر تتيح لنا الاطلاع بتاريخ البلاط والوقوف على كتاب اينهارد عن حياة شارلمان ، غير أن ما استمدته هذه الأناشيد من معلومات من هذه المصادر تعتبر شديدة الغموض وبالغة الشيوخ ، إذ تناولها من التعبير ما جعلها تتناسب مع حاجات الشعر ومقتضياته^(٦٠) .

وإذا كان البلاط الكارولنجي قد شجع نمو أدب لاتيني جديد جدير بانبعاث الامبراطورية الرومانية ، فلا ينبغي أن ننسى أن الأدب العلمى بدأ يشق له طريقا في هذه الفترة نفسها في الأغاني الشعبية وأصبحت شخصية الامبراطور محور ملحمة تدور حولها ، وقد اتخذت هذه الأناشيد شكلها النهائي في الأقاليم الجنوبية الغربية من امبراطورية

(٥٨) عاشور « النظم والحضارة » ص ٢٣٥ .

(59) Lavissee «op. cit.» T. II, p. 320.

(60) Thompson «op. cit.» p. 802.

شارلمان ، وليس أدل على موطن نشأتها من أن حوادث الملحمة لا تدور على انتصاراته فى حملته الأسبانية ، وسميت ملحمة رولاند
 * Chanson de Roland (٦١)

المكتبات :

رأى شارلمان المكتبة الغنية القائمة فى مونت كاسينو والتي أشار إليها بولس الشماس فى تاريخه عن اللومبارديين * فقد كانت مملوءة بالأرفف الكبيرة ، زاهرة بالكتب النادرة القيمة والتي وضعت فوق بعضها البعض بعناية كبيرة ، لذلك قام شارلمان بإنشاء مكتبة مماثلة لها فى قصره بآخن (٦٢) .

كانت مكتبة القصر تشرف على الطريق المؤدى الى كنيسة القديسة ماري ، وعندما يقف الانسان أمام أدراج القراءة تعكس القبة الذهبية بريق الشمس فى عينيه ، وحول جدران المكتبة توجد المخطوطات التي أحضرها إيركامبالد Ercambald ، واينهارد ، وقواعد النحو التي ألفها الكوين الى جانب نسخ من كتابات آباء الكنيسة على الأخص كتاب مدينة الله للقديس أوغسطين الذي جلد بالفضة وحلى بالأحجار الكريمة (٦٣) .

كما امتلك شارلمان شخصيا عدداً ضخماً من الكتب أوصى ببيعها عند وفاته والاحسان بثمنها على الفقراء والمساكين ، وامتازت الأديرة المعاصرة بمكتباتها الغنية — حتى ان مكتبة دير سانت ركوير ضمت أكثر من مائتين وخمسين كتاباً مخطوطاً ، وليس من الضروري أن يكون كل ذلك العدد نسخه الرهبان بأيديهم اذ أن جزءاً كبيراً من الكتب التي وجدت بأديرة ذلك العصر آلت اليها عن طريق الهبات والهدايا (٦٤) .

(61) Ibid.

(62) Lamb «op. cit.» p. 186.

(63) Ibid.

(٦٤) عاشور « النهضة » ص ٧٢ .

العلوم الطبيعية :

لم تحظ العلوم العلمية بالعناية الكبيرة في عصر شارلمان ، ولم يأت الكارولنجيون باكتشافات جديدة أو بنظريات حديثة ، بل ساروا على القاعدة السائدة في ذلك العصر .

وفي مجال الفلك مثلاً وهو أحد الفنون السبعة الحرة — نجد أن شارلمان شخصياً أهتم به ، ولو أنه لم يتخذ من قاعدة بطليموس دليلاً له ، ومما خلفه كرة مصنوعة من المعادن النفسية نثس عليها البروج والنجوم ، وأما في مجال الطب فقد جعله مادة إجبارية في المدارس ، على أنه ظهر ما هو معروف به من الحكمة في أن لم يجز لأطباء القصر أن يرتبوا قانوناً لأمراضه ، ولدينا قصة تتعلق بطبيب من أطباء القصر ، ولم يرد فيها عن مهارته إلا النذر اليسير ، واشتور هذا الطبيب باسم وينتر ، إذ توجه وينتر ليقوم بمعالجة رئيس الدير شتورم من مرضه فأعطاه جرعة غريبة ومنذ تلك اللحظة ازدادت حالة رئيس الدير سوءاً بدلاً من أن يتحسن ، فصاح أخيراً بصوت حزين لقد اشتدت بى العلة ، ولم يلبث أن لفظ نفسه الأخير^(٦٥)

ومن هذا العرض نرى كيف نجح شارلمان في الارتفاع بشأن التعليم ، وكيف قام هو شخصياً بتشجيع هذه الحركة واذكائها وتموينها بكافة الوسائل المادية والمعنوية ، حتى ترك للأجيال تراثاً علمياً استفادت منه الأجيال . فإذا كان بعض الدارسين قد حاولوا أن يبينوا أمر هذه النهضة العلمية قد قيدها الجدل الديني واللاهوت ، وكانوا يعتبرون كل تفكير حر نذير لعاصفة من الكبرياء والاضطهاد ، إلا أن كل هذه الأمور لا يمكن أن تقلل من هذا الجهد الجبار الذي بذله علماء هذه الفترة .

الباب الرابع

حياة البيزنطيين الاقتصادية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين

- ١ — الزراعة « القرية البيزنطية » الزراعة في آسيا الصغرى
— الزراعة في مناطق بحر ايجه — الضرائب والاقتصاد
النقدي *
- ٢ — الصناعة « مجالات الصناعة — سياسة الدولة — المناجم
والتعدين *
- ٣ — التجارة — أهمية القسطنطينية التجارية — أهم موانئ
الامبراطورية — السياسة التجارية للامبراطورية — الطرق
التجارية والأسطول — أنواع السلع والمتاجر *

الفصل الأول

حياة البيزنطيين الاقتصادية في القرنين

الثامن والتاسع الميلاديين

يلعب الاقتصاد الدور الأول في تشكيل المجتمعات وصيغتها بالصيغة المميزة وهذا الموضوع بالذات له أهمية كبرى خاصة وأن الدولة البيزنطية تميزت باقتصاد مستقر متقدم ، ولها في ذلك باع وتاريخ طويل •

ولا بد لنا أن نبدأ دراستنا بتقسيم الاقتصاد الى عناصره الثلاثة الرئيسية وهي الزراعة والصناعة والتجارة •

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نقلل من شأن أى عنصر من هذه العناصر أو أن نجعل لأحدهم فضل أو تفوق لأن كلا منهم مكمل للآخر بل وأساسى لا غنى عنه •

أولا — الزراعة :

كانت الأرض موردا رئيسيا لخزانة الدولة البيزنطية وقد كتب أحد أباطرة القرن العاشر معبرا عن اقتصاد الدولة البيزنطية بقوله « هناك ثسيان هامان تعتمد عليهما الدولة البيزنطية الزراعة التى تغذى الجنود وفنون الحرب التى تحمى الفلاحين من العدوان — أما ما عدا ذلك فجميع الأعمال قليلة الأهمية⁽¹⁾ » •

(1) Diehl, «op. cit.» p. 91.

لذلك بذل الأباطرة البيزنطيون جهدهم فى حماية الزراع ، وحثوا
حكام الولايات على أن يكونوا حذرين فى معاملتهم لعمال الأراضى ،
وأن يجنبوهم الأعمال الشاقة •

وكانت الغالبية العظمى من سكان الولايات البيزنطية يعملون فى
الزراعة ومثلت ضرائب الضياع والعزب أعلى مستوى فى إيرادات
الدخل القومى ، وليس من السهل توقع الوضع الحقيقى للزراعة فى
الامبراطورية ولا النظام الذى كانت تسير عليه وظروف سكان الريف •
فالوضع هناك مثلما كان فى جميع بلاد العصور الوسطى — يشوبه
اضطراب فى التحول الذى يهدف الى جعل الأرض ملكا للملك واحد ،
ويلغى الضياع والملكيات الصغيرة — مما يؤدى الى خلق طبقة من الملاك
الكبار التى تضم مجموعة من الفلاحين الأحرار ، ويدمجوا مع هؤلاء
الذين يرتبطون عن طريق الميراث بأراضى سادتهم^(٣) •

ولا بد أن نوضح اذا مضمون هذا الموضوع فقد كان يشغل
المناطق الريفية مجتمعات قروية من نوعين هما الأرقاء العبيد والأحرار
وكان القروى الرقيق أى مولى الأرض مرتبطا بها ، وكان سيده مالك
الأرض يدفع الضرائب ، لكنه يأخذ ثمار الأرض ، وكان أبنساء مولى
الأرض موالى مثله تماما • وان أمكن أن يخادروا الأرض عن تفضل من
السيد ويلتحقوا بحرف أخرى كالكنيسة مثلا ، وكان هناك أيضا مزارعون
مستأجرون فى كثير من مزارع الأغنياء • وكان هؤلاء يدفعون الإيجار
نقدا أو عينا ويعتبرون من الأحرار ، ولكن الواقع أنهم كانوا يجدون
من المحال عليهم أن يغيروا أحوالهم الى أفضل منها فهم ثابتون حيث
كانوا ، أما القروى الحر فلم يكن أقل ارتباطا بالأرض من رقيقه سالفى
الذكر ، وذلك لأن السلطات المركزية كانت تكره للناس هجران الأرض
الزراعية بأى شكل من الأشكال^(٣) •

(2) Ibid, p. 91.

(٣) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٤٨ •

وقد ساعد على زيادة تكديس الملكيات فى أيدي فئة معينة أن الدولة كانت تمنح الأرض كمكافأة لأداء الخدمة العسكرية ، وبذلك خلقت طبقة من صغار الملاك الوراثةيين العسكريين^(٤) . ولم يلبث أصحاب الأرض الكلية أن ظهروا رويدا رويدا مع استتباب الأمن والنظام من جديد ، فعندئذ يتحمل الغنى على كاهله التزامات الفقير ، فيدفع عنه الضرائب مقابل استيلائه على محصولاته وبذلك يحيله الى مستأجر أو الى مولى أرض ، وقد يخفق المحصول أحيانا ، وعندئذ لم يكن مالك الأرض الصغير ليستطيع أن يعيش كرجل حر ، أو لعل قرويا يقضى نحبه تاركا للكنيسة ما ملكت يداه وذلك فضلا عن أن الكنيسة كانت شأن النبلاء تحاول استثمار أموالها فى الأرض الزراعية ، وهكذا ظهر أغنياء أرض عظام جدد منهم العلماني ومنهم الكنسي^(٥) .

والحقيقة أن الفترة التى ندرسها تعتبر من أوضح فترات التاريخ البيزنطى فقد ظهر فيها قانون الفلاح الذى أصدره الامبراطور ليوس الثالث وكان ملحقا للاكلوجا ، والذى سبق وان عرضنا له — فكان هذا القانون هو الأساس الذى يفسر لنا هدى الجهود التى بذلها الأباطرة لحماية الممتلكات الصغيرة الخاصة بالفقراء من جشع الأقوياء ، وتحسين أحوال عمال الزراعة ، وزيادة عدد القرى مما أدى الى منح عدد كبير حرياتهم وممتلكاتهم^(٦) .

القرية البيزنطية فى القرنين الثامن والتاسع •

يميز لنا هذا القانون الفرق بين القرية الحرة ، والقرية المملوكة لواحد من كبار الملاك . فقد كان الفلاحون فى كلتا القريتين مرتبطين بالأرض التى يزرعونها سواء بسواء ، لكن بينما كانت الأرض فى القرية المملوكة ملكا للسيد وهو المسئول أمام الدولة عن جميع الضرائب بالنيابة

(4) David, T. Rice «op. cit.» p. 22.

(5) Finlay «History of the Byzantine Empire» p. 198.

(6) Diehl «op. cit.» p. 92.

عن عبيده ممن ليس لهم الحق فى امتلاك الأرض فهى تحت تصرف سيدهم ، كانت الأرض فى القرية الحرة التى يسكنها المعمرون تخص جماعة القرية أو المزارعين انفسهم وكان هؤلاء أحرار فى امتلاك الأرض أو التصرف فيها • ولو أننا دخلنا قرية حرة من أراضي الدولة البيزنطية لرأينا أن الأرض تشتمل على الكروم وأراضي البساتين التى كانت تزرع فيها الخضر وكذلك الأراضي المفلوحة والمراعى^(٧) وكانت أراضي المراعى هى تلك التى لم تكن صالحة للزراعة كالأراضي التى لم تقطع أشجارها والأراضي الوعرة ، وكانت هذه تقع على أطراف القرية بعيدة عن مركز الحياة فيها ، وكانت على الأغلب ملكا للجماعة ثم يمتلكها المزارعون قطعة قطعة — ثم تتظف وتعد للزراعة ، ثم تقسم وبهذا تدخل قطعة جديدة فى ملكية الأفراد • وقد تكون الأحرار ملكا للأفراد ، فإذا أراد أحد من المزارعين أن يزرع قطعة منها ، طلب الى صاحبها أن يأذن له بزراعتها ويستطيع بذلك أن يستثمرها ويحتفظ لنفسه بغلتها ثلاث سنين تعود بعدها الى صاحبها ، لكنه اذا زرعها دون إذن فله الحق فى المطالبة بمحصولها •

وكان رعاة الماشية يسوقونها فى الصباح الى هذه الأحرار العامة لترعى وبصحبتهم كلابهم القوية الشرهة ، حتى اذا اصطبغ الأفق بحمرة الشفق عادوا بها الى حظائرهم • وكان كل خروف أو ثور يحمل جرسا حول عنقه لئلا يضل ، وإذا تجرأ لص وقطع الجرس وتسبب عن ذلك ضلال الحيوان وضياعه الزم بدفع تعويض مقابل الخسارة^(٨) •

وكانت دعامة ثروة جماعة القرية هو ما يملك من قطعان الماشية بأنواعها ، وكان الراعى يأخذ أجره على عمله فيعهد اليه المالك الصغير بثوره الخاص وخروفه فيرعاهما مع القطيع • فإذا شرد حيوان وأحدث ضررا للأرض المزروعة أو الكروم لم يضع على الراعى أجره بل الزم

(7) Baynes «op. cit.» p. 85.

(8) Ibid, p. 86.

بتعويض الخسارة ، وكانت الحيوانات المفترسة تحوم حول القرية كالذئاب التى كانت تترصد الخراف والحمير لتفترسها ، واذا هاجمت هذه الوحوش القطيع ليلا فالويل كل الويل للص الذى يتضح أنه سرق كلب الحراسة اذ كان يلزم بدفع قيمة الخسارة ، فيدفع تعويضات عن القطيع جميعه والكلب •

وكان يسمح للماشية بعد حصاد الأرض أن ترعى بقايا الزرع ، الا أنه لم يكن يسمح لرجل أن يطلق ماشيته فى أرضه الا اذا فرغ كل جيرانه من حصادهم • ويمكننا تصوير الحياة لجماعات الفلاحين مما بين أيدينا من المصادر ^(٩) • ولا يسمح لنا المجال هنا الا باضافة بضع نقط أخرى أولها يختص بمكانة المزارع • فقد يكون صاحب حصة من الأرض ، ويستطيع فى هذه الحالة أن يتصرف فيها تصرفا مطلقا فى حدود دائرة جماعته • وقد يكون مستأجرا للأرض وهو فى هذه الحالة أحد اثنين اما مزارع لزراعة فى حالة جيدة أو مستأجر لأرض لم تكن تزرع على شريطة أن يعيدها بعد أجل معين •

ففى الحالة الأولى يقوم المالك بتقديم المال الرئيسى لاقامة ما يلزم من الأبنية فى المزرعة ، ولا تؤجر المزرعة فى هذه الحالة الا لمدة قصيرة قد تكون سنة ، فيدفع المزارع للسيد أجرا باهظا يبلغ نصف المحصول السنوى وهو ما يقابل فى حسابنا أكبر أجر يمكن دفعه ، وعلى المؤجر فى الحالة الثانية أن يقدم رأس المال أى أنه يقوم فى واقع الأمر بإنشاء مزرعة جديدة • ويكون استئجاره للأرض فى هذا اما للأبد أو لعدد كبير من السنين وما يدفع عادة أجرا يساوى عشر المحصول • وربما كان يلزم بمقتضى شروط أخرى ، أن يؤدى لصاحب الأرض خدمات أو أن يؤدى اليه أجزاء من المحصول • أما المزارع المالك لأرضه فقد كان حقه فى حرية التصرف فى أرضه خاضعا لشروط جديد ^(١٠) •

(9) Ibid, p. 87.

(10) Ibid.

وكانت روابط القرية فى الجماعات القروية متينة جدا بطبيعتها ،
 وإذا وجدنا هناك فلاحين مشتركين فى ملكية أرض ، فلا بد أن نجد
 أنهما متصاهران فى نفس الوقت غالبا ، فإذا أراد أحدهما بيع نصيبه
 كله كان لقريبه حق الشفعة إذا دفع ثمننا مساويا لما يدفعه أى غريب
 عندهما ، وحتى إذا لم يكن المتجاورون أقرباء وكانوا شركاء تمتعوا بحق
 مشابه .

وبعد فترة من الزمن أصبح هذا المبدأ يستند على أساس جديد
 فيما بعد واتسع ميدان تطبيقه ، فجماعة القرية كما نرى مسئولة معا
 أمام الدولة عن الضرائب ، فإذا بقيت قطعة من الأرض المنزرعة بدون
 زراعة بسبب طارئ كهروب صاحبها مثلا أجبرت الدولة مالكا قادرا
 على أن يتولى زراعة تلك الأرض ، وألزمته بالأموال المقررة عليها ،
 وذلك لكى تؤمن الدخل ، ولا يشترط فى هذه الحالة إلا أن تكون مساحة
 هذه الأرض متوسطة إذا قورنت بأملاتها الأولى ، وأخذ كل عضو من
 الجماعة تبعا لذلك يهتم بإيفاء دين الآخر ، وأصبح حق الشفعة فى
 النهاية من حق كل فرد فى القرية بل أصبح يعتمد على مصلحة المجموع
 المالية لا على القرابة والمجاورة^(١١) .

ويرى الأستاذ ديل أن نجاح هذه الجهود كان جزئيا ، فقد نمت
 الاقلاعات وكثر عدد الأتقنان المرتبطين بالأرض ، وكثرت المشاكل
 الاجتماعية التى حددت سلام ورخاء الدولة . أما ما نجحوا فيه فهو
 الغائهم لنظام موالى الأرض Serf Dom^(١٢) .

الزراعة فى آسيا الصغرى :

تقع جميع مناطق آسيا الصغرى البيزنطية ضمن مناخ البحر
 المتوسط ، وهو مناخ معتدل بارد شتاء حار جاف صيفا ، الى جانب

(11) Baynes, Ibid.

(12) Diehl «op. cit.» p. 92.

نمتعها بالتربة الخصبة التى تسمح بانتاج وفير خاصة من الحبوب .
ومن أخصب هذه المناطق المنطقة الغربية والجنوبية الغربية التى
ظلت مركزا لانتاج الحبوب الذى أنعش الاقتصاد البيزنطى ، ومن
اهم مناطق الانتاج الأخرى ما كان يزرع حول المدن الكبرى مثل
أماسيا وأنقرة فى الشمال وقونية فى الوسط وقيايقيا فى الجنوب ،
أما فى الشرق حيث المناخ جبلى قاسى خاصة فى منطقة جبال القوقاز ،
ومدن هذه المنطقة قليلة ، وقراها صغيرة ، والانتاج الزراعى الذى
نتجه هذه المناطق ضعيف ولا يكفى الا الاستهلاك المحلى . ويكثر فى
هذه المناطق المراعى التى يرعى فيها المواشى والماعز ، وهى تعتبر مصدر
الثروة الحيوانية الهام للامبراطورية ، ويكثر بهذه المناطق أيضا المناجم
التى تغذى الامبراطورية بالمواد الخام الهامة (١٣) .

الزراعة فى مناطق بحر ايجه :

ان الزراعة فى منطقة بحر ايجه تعتبر مماثلة لما ذكرناه عن
مناطق آسيا الصغرى . فالمناطق الداخلية فى بحر ايجه جبلية ووعرة
وتتركز الزراعة فى هذه البلاد فى المناطق الساحلية والمنتجات الزراعية
تكفى الاستهلاك المحلى ، وقليل من هذه المنتجات يقومون بتصديرها .
ومن أهم المواد الزراعية التى يصدرونها النبيذ . والواضح أن
الامبراطورية البيزنطية لم تعتمد كثيرا على هذه المناطق اقتصاديا .
وكل ما تحتاجه من هذه المناطق القوة البشرية التى تسخر فى الحروب .
فقد كان معظم جيش الامبراطورية من سكان بحر ايجه ، خاصة تراقيا
والشمال . ومن أهم المناطق الزراعية المناطق الشمالية عند سالونيك
والمنطقة التى نحو الشرق فى اتجاه تراقيا . فنتج هذه المناطق أهم
الغلات الزراعية فى المنطقة . لكن رغم ذلك فان مناطق بحر ايجه
لا نستطيع أن نمثلها ونقارنها بمناطق آسيا الصغرى فى الأهمية

(13) David, T. Rice «op. cit.» p. 38.

الاقتصادية بالنسبة للامبراطورية ومما يدل على ذلك أنه عندما سقطت مدن آسيا الصغرى فى أيدي السلاجقة فى القرن الثانى عشر ، انقسم ظهر الامبراطورية اقتصاديا وانهارت انهيارا لم تتمكن من مقاومته . فآسيا الصغرى هى المنطقة الاستراتيجية الهامة التى تربط الدولة بالشرق ، وهى مورد الطعام والغذاء والقوة البشرية للبيزنطيين^(١٤) .

الضرائب والاقتصاد النقدى

كانت الضرائب الزراعية التى تفرض على الأرض من أهم موارد الدولة وتمثل نسبة كبيرة من ميزانية الدولة . فقد كان ملاك الأرض يخضعون لضرائب تتغير قيمتها تبعا لتغير الظروف .

فقد كان القروى الحر مكلف بأنواع معينة من الضرائب على ما يملك من أدوات ومواش والممتلكات وكان ورثته أيضا من بعده مكلفين بذلك ، ووضعت له العراقيل فى سبيل تخلصه من أرضه ، لذلك لم يكن بمستطاع بحال أن يغادر القرية ، واستحدث القوم نظاما جديدا زاد أغلاله احكاما وثيقا ، ذلك أن المجتمع القروى فرضت عليه الضرائب كمجتمع متكامل أى كوحدة ، فان أخل واحد منهم زاد العبء الملقى على جيرانه جميعا ، لذا صار من مصلحتهم الاحتفاظ به يعمل بين ظهرانيهم^(١٥) .

والى جانب الضرائب التى كانت تفرض على الأراضى فهناك ضرائب كانت تفرض على المنازل والمخازن التى يؤجرونها للتجار ، الى جانب أن الحكومة كانت لها امتيازات كثير من المصانع ، وهناك ضرائب الجمارك التى كانت تمثل نسبة ١٠٪ على الصادرات والواردات وضرائب على الأتقبان وضرائب سكان المدن ، وضرائب البضائع

(14) Ibid, p. 39.

(15) Theophanes «op. cit.» p. 471.

الاستهلاكية وضريبة التركات^(١٦) .

ومن أهم معالم السياسة الاقتصادية البيزنطية أنها عملت على القضاء على نظام التعامل العيني واستبدلت به الاقتصاد النقدي . أى التعامل بالنقد .

ويروى الأستاذ أوستروجورسكى أن الاقتصاد البيزنطى أصبح اقتصادا نقديا بعد القرن الثامن . فقد كانت العملة هى أساس دفع مرتبات الموظفين والجنود وأجور العمال حتى القروض التى كانت تمنح للتجار وملاك السفن كانت نقدا أيضا^(١٧) .

أما نورمان بينز فيعزو ذلك الى نقاء عملتها الذهبية فيذكر أن العالم جلزر Gelzer ذكر « ان الحكومة الرومانية لم تجد من عصر دقلديانوس الى الكسيوس كومنين فى فترة مدتها ٨٠٠ سنة نفسها فى وضع يضطرها الى اعلان افلاسها أو التوقف عن الدفع ، ولن نجد فى العالم القديم أو الحاضر شيئا يشبه هذه الظاهرة . لقد ضمن هذا الاستقرار العجيب فى السياسة المالية الرومانية « البيزنطية » عملته العالمية ، فقد كانت مقبولة عند جميع الأمم المجاورة بسبب وزنها المضبوط كأساس ثابت للتعامل ، واستطاعت بيزنطة أن تسيطر بنقودها على كلا العالمين المتحضر والبربرى »^(١٨) .

ومن أهم بنود الانفاق الذى كانت تنفق فيها الدولة هذه الأموال النقدية أولا الانفاق على الجيش والأسطول حيث كان الجنود والضباط يتقاضون أجورا عالية الى جانب مرتبات الجنود المرتقة وهناك نفقات البلاط التى لم يكن هناك سبيل الى تقليلها مع أنها كانت باهظة^(١٩) .

(16) David «op. cit.» p. 122.

(17) Ostrogorsky «op. cit.» p. 138.

(18) Baynes «op. cit.» p. 121.

(19) David, T. Rice «op. cit.» p. 122.

وهناك كثير من المنشآت العامة مثل القناطر والصحاريح والمؤسسات الخيرية والأسوار التي يبنونها حول المدينة والتي تمتد الى ما يقرب من عشرين كيلو متر ، الى جانب اضطراب الدولة الى دفع الجزية المفروضة عليها من الذهب الخالص . كما حدث زمن الامبراطورة ايرين حينما اضطرت الى دفع الجزية من الذهب للخليفة هارون الرشيد الذي وصلت قواته الاسلامية الى افسوس وهرقلة المواجهة للقسطنطينية^(٢٠) .

ثانياً - الصناعة :

لعل أبرز الصناعات التي برزت من خلال دراستنا لهذه الفترة كانت تدور في فلك المنسوجات التي كانت تتشابه مع ما تنتجه بلاد الشام .

فقد كان لاهتمام الامبراطورية الشديد بالصناعات الحريرية بالذات ، وكثرة استخدامها أن قاموا باحتكار المصانع التي تصنع هذه المنسوجات حتى ان الناس كانوا يتهافون على العمل في هذه المصانع ، وكان معظمهم من الرجال لأنهم لم يثقوا في النساء ظنا منهم أنهم غير جديرين بحفظ أسرار الصناعة وسيقومون بافشائها^(٢١) .

كما قامت الحكومة الامبراطورية باحتكار جميع المنسوجات الحريرية الأرجوانية اللون بالذات ، وحرمت بيعها أو تصديرها وكل من يقبض عليه متلبسا بتهريب شيء منها يقع تحت طائلة القانون — ويرجع ذلك الى أن الدولة كانت تخصص هذا اللون كرداء رسمي يلبسه جميع من يعملون في القصر الامبراطوري^(٢٢) .

(20) Pirenne «op. cit.» p. 210.

(21) Ibid, p. 118 & Diehl, «op. cit.» p. 86.

(22) Charanis, The Social Structure of the Later Roman Empire, p. 50 — 51.

ومن أهم الصناعات التي شاعت في هذه الفترة المصنوعات الذهبية . فقد ظلت القسطنطينية هي المركز الرئيسي للصناعات الجيدة ، من أهمها صناعة الأطباق المذهبة التي تحمل علامات وشارات فنية معينة ، وكان يقوم على صناعتها عمال تابعين للإمبراطور ، إلى جانب حفر العاج وتشكيله وصناعة المصوغات وحلى النساء التي اشتهرت بصورة كبيرة جدا في هذه الفترة (٢٣) .

كما اشتهرت صناعة قماش البروكار المطعم بالذهب والشاش الجيد إلى جانب صناعة الأسلحة والزجاج .

ويصف الأستاذ ديل القسطنطينية بأنها كانت قلعة للصناع ويقول ان المحلات التي كانت على جانبي شارع الميز لا يمكن منافستها وهي تكتظ بالمصنوعات المحلية التي صنعت في القسطنطينية وهي آية في الروعة والجمال ، وكلها مطعمة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وهناك وفي سوق أركاديوس بالذات توجد مجموعة كبيرة من الصناع يعرضون مصنوعاتهم والصياغ الذين تفننوا في تشكيل القطع الذهبية الى أشكال جذابة تجذب الناظرين وصناع الجلود الذين فاقوا غيرهم من أهل هذه الفترة في مصنوعاتهم وصناع الشمع ، وصناع النحاس المكث وغيرهم (٢٤) .

ولعل الصناعات الكيماوية التي اشتهر بها البيزنطيون لتتمثل خير تمثيل في النار الاغريقية التي عرفوها منذ زمن طويل وظلت فنا قتاليا يتميزون به ويحتفظون بسر تركيبه ، وتهكوا من خلاله من احراز النصر على أعدائهم (٢٥) .

وقد انتظم معظم الصناع في اتحادات أو نقابات . فقد كان لكل صناعة من الصناعات نقابتها ، ولا يجوز لأى انسان أن ينسب الى

(23) Ibid, p. 121.

(24) Diehl «op. cit.» p. 82.

(25) Buckler «op. cit.» p. 215.

نقابتين فى وقت واحد ، وكل نقابة تعين رئيسها الذى كان من الضروري فيما يحتمل أن يوافق والى المدينة على تعيينه ، وكانت النقابة كوحدة كاملة تشتري المواد الخام التى تلزم الصناعة وتقسمها بين أعضائها الذين كانوا يبيعون السلع المصنوعة فى مكان عام معين بسعر محدد بديوان الوالى . وكانت ساعات العمل وأجور العمال تقرر بنفس الطريقة . ولذا لم يعد للوسطاء أدنى ضرورة ، وكل محاولة لشراء مقادير ضخمة من البضائع وبيعها بالتجزئة فى الأوقات المناسبة كانت محظورة حظرا أكيدا (٢٦) .

ولم يكن فصل العمال من المصانع ممكنا دون أن يعود ذلك بأعظم الصعوبات والمشاكل ، فان عطل أى رجل صحيح الجسم عن عمل يقوم المسئول مباشرة بتكليفه بعمل جديد من الأعمال العامة ، ويقول فى ذلك ليو الأيسورى فى مواد الاكلوجا « ان الكسل يورث الجريمة ، وكل فائض ناتج عن عمل الغير ينبغى أن يعطى للضعفاء لا للأقوياء » (٢٧) .

ويذكر الأستاذ ديل فى ذلك أن القسطنطينية كانت قلعة الاحتكارات والامتيازات وحماية الانتاج الوطنى . فالصناعة كانت تحت رقابة الدولة ، كما قامت بتنظيم النقابات التى كان لكل واحدة منها مجالا معيناً . ولم يترك متسعا للعمل المستقل أو للحق الفردى . فكانت الدولة تتدخل فى تحديد كميات البيع والشراء ونوعية المصنوعات ، وتتحكم فى الأسعار ، وتحدد الأرباح ، وتفرض تفتيشا دوريا على المحلات والدفاتر التى يمسكونها . وتمنع تصدير هذه السلعة أو تلك طبقا لنظام حماية المصنوعات المحلية ، وتحقق فى ذلك مع من يتهم بالخروج على القانون ، وكانوا يفاجئون التجار بحملات فمثلا كانوا يمنعون استيراد الصابون من مرسيليا لأنه ينافس الصناعة المحلية ، كما يمنعون تصدير الحرير الأرجوانى . حتى أصبحت هناك قوائم تسمى « قوائم المصنوعات

(٢٦) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٠٨ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٢٠٩ .

المنوعة » وهى التى يحظر بيعها للأجانب • فكان المصنع يجهز البضائع التى سيقوم بتصديرها فيخطر بها والى المدينة الذى يقوم بفحصها ثم يعطى المصنع تأشيرة تتضمن الموافقة ، ويقوموا بختمها بختم الامبراطورية (٢٨) •

المناجم والتعدين :

لم تقتصر الأهمية الاقتصادية لمنطقة آسيا الصغرى على أنها مركزا زراعيا ، ومركز لامداد الامبراطورية بالقوة البشرية ، بل انها كانت منطقة تحوى عددا كبيرا من المناجم التى اكتشفت فى العصور القديمة ، وظلت على كفاءتها طوال العصور الوسطى ، فكانت تعطى كميات كبيرة مما تخزنه الأرض من خيرات •

وقامت الامبراطورية البيزنطية باحتكار هذه المناجم وجعلتها ملكا خاصا لها يحظر على أى فرد أن يستغلها ، وجميع ما تنتجه كان يصنع فى المصانع الامبراطورية ، وتختص وحدها بأرباحه •

وأهم المناجم كانت تقع اما فى جبال بونطس بين طرابيزون وكارسي « خورصه » أو فى جبال طوروس • ومن أهم ما تغله هذه المناجم خام الذهب • وهناك مناجم اخرى بالقرب من الشاطئ • وكذلك فى منطقة القوقاز • أما الفضة فتركزت فى جبال طوروس بالقرب من نهر دجلة (٢٩) •

ثالثا — التجارة :

لا شك أن الموضع الجغرافى الممتاز للقسطنطينية قد حقق لها رخاءا اقتصاديا كبيرا • فهى تقع عند ملتقى آسيا وأوروبا والشرق بالغرب ، وهذا الموقع الفريد جعلها ملتقى لطرق التجارة العالمية •

(28) Diehl, «op. cit.» p. 90.

(29) David, «op. cit.» p. 42.

والمعروف تاريخيا أن الامبراطورية البيزنطية امتلكت أسطولا ضخما ، وحققته سيطرة اقتصادية كبيرة طوال القرون السابقة على دراستنا ، وكان تفوقها البحرى موضع اعتبار العالم واعجابه . واستطاعت سفنها أن تجوب البحار تحمل التجارة ، ورست فى شواطئها قوافل التجارة العالمية لتفرغ فيها المنتجات والبضائع التى تحملها . فأصبحت وسيطا تجاريا الى الشرق والعالم الغربى مما كان له أكبر الأثر فى الرخاء الاقتصادى الذى شهدته ، والمقتنيات والكنوز التى زخرت بها قصورها وكنائسها . والتى كانت مثار اعجاب كل الأجانب الذين زاروها . ولنا أن ندخل مباشرة على حركة التجارة فى القرنين الثامن والتاسع والليذان يشهدان ازهى عصور الازدهار التجارى . فقد كانت لبيزنطة أكبر قوة بحرية فعالة فى حياة البحرين المتوسط والأسود . واحتفظت بسيادتها البحرية التى كسبتها عام ٧٤٧ م ، ولم يعد هناك منافس للأسطول الامبراطورى وسيطرت بيزنطة الى حد كبير على صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر البليار ، وتحكمت فى المساق ذات القيمة الحربية الهامة الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، وصار اشراف القسطنطينية البحرى دقيقا وكاملا بفضل قيام أسطولها بدورات تفتيشية على سواحل الأعداء وحيلولته دون استخدام العرب المنافسين لبيزنطة لمياة البحر المتوسط (٣٠) .

ويرى الأستاذ فنلى أن القسطنطينية كانت هى أهم مرفأ تجارى فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، فيرى أنه بينما قضى شارلمان على التجارة الداخلية فى مملكته بتثبيت الأسعار الى أعلى درجة ، وقضى على التجارة الخارجية بحجة القضاء على مظاهر الترف حتى يمنع أعدائه من تكديس الثروات — التى قام بعد ذلك بالاستيلاء عليها . وضمها الى ثروته الشخصية — فقد نجح الأيسوريين ومن بعدهم

(٣٠) ارشيبالد لويس « القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط » ص ١٥٨ ترجمة احمد عيسى .

العموريون فى جعل التجارة هى المصدر الأول لثروة الشعب ، كما رأوا أن أى تدخل فى حرية التجارة يعتبر فيه اضرار لمصالح الفرد والجماعة^(٣١) .

أهم الموانئ فى الامبراطورية :

امتلكت الامبراطورية البيزنطية مجموعة كبيرة من الموانئ الهامة فى جميع أرجاء الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط وهناك موانئ فى الأناضول مثل طرطوس ، وأضاليا ، وفسوس وفوكييه وعلى البحر الأسود طرابيزون فى الجنوب حيث كانت مركزا وسوقا تجاريا كبيرا ، وخرصون فى الشمال وهى مركز تجارى هام لبلاد الخزر وروسيا . وعلى شواطئ اليونان هناك موانئ فوبليا ، وكورنث وبتراس وأثينا ونيجربونت ، ودورازو وأفلونا وكورفو على البحر الأيوني ، وعلى رأسهم جميعا سالونيك وهى أكبر مركز تجارى فى أوروبا بعد القسطنطينية وهو ميناء ضرورى لجميع أنواع المتاجر بين الأدرياتى والبسفور والمنفذ الطبيعى لصادرات البلقان من العبيد . ففى نهاية أكتوبر من كل عام ، وأثناء عيد القديس ديمتريوس كان يعقد سوق مشهور فى فاردار ، حيث يباع فيه العبيد اليونانيين والايطاليين ، والكلت ، وأناس من شواطئ المحيط البعيد . وهناك موانئ أخرى مثل تراقيا ، وهيراقليا ، وسيلمبريا ، ورودستو^(٣٢) .

السياسة التجارية للامبراطورية البيزنطة :

شجعت الامبراطورية مواطنيها على المتاجرة مع البلاد الأخرى . والدليل على ذلك ما أصدره الامبراطور ليو الثالث من تشريعات بحرية أهمها « القانون البحرى الرودى » الذى أشرنا اليه مسبقا ، والذى صار بمقتضاه ربانة السفن أحرارا فى تصرفهم ، لهم أن يتجهوا

(31) Finlay «op. cit.» p. 194.

(32) Diehl «op. cit.» p. 88.

للحصول على شحنات لسفنهم حيث شاءوا^(٣٣) . وهذا يوضح لنا أن الإمبراطورية بدأت تغير تفكيرها فبدلاً من أن تستورد البضائع مباشرة من الخارج فضل البيزنطيون ترك مهمة جلب هذه المتاجر إلى آخرين . فقد شجعوا الأجانب أن يأتوا ويبيعوا ويشترى في أسواق القسطنطينية فأصبحت القسطنطينية بذلك مركز العالم التجارى ، وملتقى جميع الأجناس حتى وصلت إلى مرحلة من الثراء ، وارتفع مستوى دخلها ، وتعددت أنواع البضائع التى اكتظت بها أسواقها ، فرأت الحكومة فى ذلك زيادة فى مركز وقوة العاصمة حتى غدت القسطنطينية منافسا خطيرا للعالم الغربى^(٣٤) .

ولعل هذه السياسة الاقتصادية أعطت الفرصة لقوى أخرى أن تقوم بالعمليات التجارية ، وأن تتصل بموانى الشرق ، وتشرى فنجحت هذه القوة التجارية مستقبلاً فى أن تحل محل الدولة البيزنطية فى النشاط التجارى فى عالم البحر المتوسط .

وكان يكتنف حياة التجارة والأعمال بالإمبراطورية من كل جانب عدد لا يحصى من اللوائح والتنظيمات ، وكانت الدولة تبذل الحماية الجمركية ، وتفرض رسوماً على البضائع للحصول على دخل كبير يقدر بحوالى ١٠٪ على المصادر والوارد ، وكانت هناك قائمة بالمواد التى تدفع عنها الضرائب منها البهار والقطن الخام والجلود الغالية ، والعاج والأحجار الكريمة والأصبغة والأصواف الشرقية ، وكذلك تحصل المكوس على العبيد ، والعلمان والخصيان^(٣٥) . وقد حاولت الإمبراطورة ايرين ارضاء التجار ، فقامت بتخفيض الرسوم الجمركية على ضفاف البسفور والدردينيل^(٣٦) .

(33) Charanis «op. cit.» p. 55.

(34) Diehl «op. cit.» p. 89.

(35) Baynes «op. cit.» p. 120.

(36) Finlay «op. cit.» p. 194.

وقامت الدولة كذلك بمنح امتيازات للتجار الأجانب وكانت للدولة احتكارات مثل تجارة الحرير ، وصناعة الأسلحة ، وهناك كذلك قوانين تحدد نوعية البضائع المسموح بتصديرها ، والغير مسموح بها . ومن النوع الأخير المواد الخام التي يحتاجونها داخليا والسكك الملح^(٣٧) .

وقد منعت الدولة البيزنطية القروض الربوية قانونا ما عدا بعض الحالات التي سمحوا بها لتشجيع التجارة ، ويرى الأستاذ بيرين أن الكنيسة الغربية نجحت منذ القرن التاسع فى فرض مبدأها الدينى بتحريم الربا والقروض التجارية بفائدة على جميع أرجاء العالم المسيحى ، واعتبرت ذلك خطيئة كبرى ، وكانت تقدم كل من يقتترف الربا الى المحاكم الكنسية ، توقع عليه أشد العقاب . اما التجارة فكانت فى نظرها أقل اثما من الربا لصلتها بالحياة المادية دون الروحية ، ويرى أن الكنيسة أفتت بذلك تحقيقا لصالحتها ، ورغبة منها فى تقوية سلطانها الروحى^(٣٨) .

وقد حددت الامبراطورية وسطاء معينين خاضعين لرقابتهم للقيام وحدهم بتوزيع التجارة الشرقية فى بلاد الغرب الخاضعة للفرنجة ، ولم تسمح بيزنطة للتجار الكارولنجهين بالاتجار المباشر مع مصر وسوريا ، فعندما استولى الضعف على دولة الكارولنجهين عادت بيزنطة الى مقر التعامل فى السلع التجارية التى كانت تحتكرها المدن الايطالية التى كانت تدين لها بالولاء^(٣٩) .

الطرق التجارية والأسطول :

كانت هناك طرقا تجارية مختلفة تعبر الدولة البيزنطية أو تؤدى إليها ، ومعظم التجارة الشرقية التى كانت تأتى من جنوب شرق آسيا والهند كانت تصل الى القسطنطينية عبر الطرق الرئيسية التى تصل اما

(37) David, R. «op. cit.» p. 121.

(38) Pirenne «op. cit.» pp. 28 — 29.

(39) Pirenne, Ibid.

الى البحر الأحمر ومصر ومنه برا الى الاسكندرية حيث تنتقل التجارة الى القسطنطينية ومنها الى الغرب أو أن تأخذ طريق البحر الى الخليج الفارسي ومنه الى بلاد الشام حيث يأخذ طريقه فى البحر المتوسط الى القسطنطينية أو أن تجتاز الهند وأفغانستان ووسط فارس الى نصيبين ومنها الى بلاد الشام أو أن يخرق طريقا جنوبيا عبر شمان ايران الى نصيبين على الحدود الرومانية أو عن طريق أرمنية الى طرابيزون وهناك طريق يمر عبر التركستان الى بحر قزوين ثم يسير أما عن طريق الشمال الى نهر الفولجا فالبحر الأسود عند خيرصون^(٤٠) .

وكانت هناك طرقا أخرى هامة تمر فى نيقوميديا ، وتسير محاذية شاطئ البحر الأسود الى أماسيا ، والثانى يسير فى الجنوب الشرقى الى دوريليوم ثم يتفرع اما فى اتجاه الشرق الى أنقرة أو فى اتجاه الجنوب الى قونية وكلما مر الزمن اتضحت أهمية هذه الطرق ، حتى أصبحت فى وقت من الأوقات أهم الخطوط الحربية والتجارية .

أما فى أوروبا فكان هناك الطريق القديم طريق اجناتيا *Via Egnatia* الذى يسير من القسطنطينية الى أدرينبول وثيابوليس وفيليبى وسالونيكيا ، الى جانب طريق آخر هام فى الشمال يؤدى الى بلغاريا ، وهناك طرقا أخرى كثيرة^(٤١) .

وقد امتلكت الدولة البيزنطية أسطولا ضخما سيطرت به على تجارة البحر المتوسط — قبل ظهور المدن الايطالية فيها بعد — وامتلك الأسطول النار الاغريقية والخشب والحديد الى جانب التنظيم الدقيق ، كما تمكن هذا الأسطول من الاستيلاء على جزر البحر الأبيض . اذ كونت جزر البليار وسردينية وكورسيكا سلسلة من الحواجز تجاه

(40) Heyd «Histoire du Commerce du le vant au moyen age,
Vol. I, pp. 20 — 24.

(41) David «op. cit.» p. 41.

شواطئ أسبانيا وشمال افريقيا ، يضاف الى هذا أن اشراف بيزنطة على مضيق ميسينا وعلى جانبي مدخل البحر الأدرياتي حال دون مرور أية سفينة — كانوا يريدون منعها من السفر من الغرب أو اليه • كما أن الطريق الممتد على سواحل البحر المتوسط الجنوبية بين مصر وشمال افريقيا كان شديد الخطورة على الملاحة على الرغم من امكان استخدامها • وتقع هذه الطرق على طول خليجى قابس وسدره حيث تهب رياح شمالية لا تعترضها كتل أرضية تقى أو تحد من هبوبها والواقع أن الموانئ الصالحة لرسو السفن قليلة جدا فيما بين برقة وطرابلس • ولذا كانت الطرق المألوفة بين الشرق والغرب هي الطريق المارة بكريت وقبرص وعلى طول ساحل آسيا الصغرى الجنوبي • هذا الى جانب استخدام الطريق المباشر بين كريت والاسكندرية • وفى استطاعة القوة البحرية البيزنطية على طول هذه السواحل كلها ، أن تقف فى وجه التجارة المتوجهة الى الغرب أو الذهابة الى مصر والشام وشمال افريقية ، واذا أمكن لسفينة أن تغفلت من هذا الحصار عند مكان ما فهناك فى أماكن أخرى يمكن منعها من الافلات مرة أخرى • وهذا الوضع مكن بيزنطة من محاصرة البحر المتوسط سواء أكان فى وسطه أم على طول سواحل شمال افريقيا من جهة الغرب أو على الطريق الدائرية للتجارة بين الشرق والغرب (٤٢) •

على أن الرقابة التجارية البيزنطية لم تقف عند مجرد حظر مرور التجارة الدولية فى مواضع خاصة ومنع مرورها فى مواضع أخرى فيما بين عامى ٧١٦ — ٨٢٧ ، بل كانت لها أهمية أخرى ترتبت عليها نتائج ربما لم تكن منظورة بالنسبة لتشكيل التجارة فى حوضى البحرين الأسود والمتوسط ذلك أن هذه الرقابة أدت الى تغيير الوسطاء الذين كانوا يقومون بالتبادل التجارى بين الشرق والغرب ، وعلى الرغم من نشاط بعض التجار الوطنيين فى ايطاليا وشمال افريقيا ، فان التجارة

بين الشرق والغرب ظلت حتى عام ٧١٦ م فى يد الشوام والمصريين واليونانيين واليهود واستقر التجار المشاركة جلابو البضائع الشرقية فى مستعمرات لهم فى الغرب ومنه كانوا يرسلون السفن الى الشرق محملة بالبضائع الغربية^(٤٣) .

وابتداء من عام ٧١٦ م حالت التدابير الاقتصادية البيزنطية دون وصول التجار الشوام والمصريين الى أسواق الغرب ، وأكثر من هذا نرى البيزنطيين فى ختام القرن الثامن يحرمون على عدد كبير من التجار اليونانيين فى مناطق القسطنطينية وبحر ايجيه وآسيا الصغرى نقل هذه التجارة ، وهكذا ضيقوا الخناق على أنفسهم وعلى منافسيهم العرب والتزموا فى الوقت ذاته باتباع سياسة اقتصادية سلبية تكاد لا تقل سلبية عن تلك التى اتبعتها كل من الشام ومصر . وانتهى الأمر بأن حددت بيزنطة عددا معينا من المنافذ التجارية واشترطت ألا تسلك التجارة غيرها^(٤٤) . وبهذا حطمت ما كان للتجار من رعاياها من حرية التبادل التجارى خارج حدود الامبراطورية ، بل انها فعلت أكثر من هذا ذلك أنها جعلت توزيع البضائع الثمينة مثل الحرير والتوابل احتكرا لتجار تلك المنافذ التجارية ولمن سمح لهم بالقسودم اليها لأغراض التجارة فمن خرسون قام الخزر بتصدير البضائع البيزنطية الى روسيا وممتلكاتها ، ومن طرابيزون عاد التجار العرب والأرمن بالبضائع الى بلادهم ومن صقلية قام تجار شمال افريقيا بتوزيع بضائع القسطنطينية على سكان المغرب الأقصى وكان أكبر جميع الموزعين نصيبا تجار المدن البحرية وأمالفى ونابلى وجائينا^(٤٥) .

ولعل هناك شيئا هاما وهو أن ازدياد خروج عملية نقل التجارة من أيدي البيزنطيين الى غيرهم أدى الى التدهور الملحوظ فى قوة أساطيل.

(43) Pirenne «Mohamed and Charlemagne» pp. 114 — 178.

(44) Heyd «op. cit.» pp. 55 — 56.

(45) Ibid & Pirenne «op. cit.» p. 255 — 260.

الأجناد البيزنطية فى بحر ايجه وكبيرها يوت ، اذ كانت تلك الأساطيل تعتمد على من تجمعهم بالقوة من ملاحى السفن التجارية • وهذا هو الذى يعزو اليه ضعف بيزنطة البحرى فى أوائل القرن التاسع أى أن ذلك الضعف يرجع الى اهمال فعلى من جانب الحكومة لشئون الأسطول ، وقد ترتب على هذا الضعف أنه لم يعد فى مقدور أساطيل صقلية وبحر ايجه مواجهة قوى بحرية ، كانت منذ قرن لا تستطيع أن تقف أمامها (٤٦) •

أنواع السلع والمتاجر

المعروف أن القسطنطينية كانت أكبر سوق تجارى فى القرنين الثامن وأوائل التاسع ، وقد زخرت أسواقها بعدد من المتاجر القادمة اما من الشرق أو الغرب •

وقد تعددت السلع التجارية ومن أهمها التوابل والعقاقير الطبية والبخور والعطور ، ومواد الصناعة والصباغة والمواد الغذائية والمنسوجات والصينى والزجاج والأحجار الكريمة وبعض المعادن •

واذا تكلمنا عن التوابل فيحتل الفلفل أهم سلعة فى هذه التجارة ، ولقد تسابق التجار فى الحصول على أكبر قدر منه ، وكان مصدر انتاجه ساحل الملبار وسيلان وجزر الهند الشرقية والهند الصينية ومن أهم استعمالاته تأثيره القوى فى علاج بعض الأمراض وادخاله فى صناعة النبيذ وحفظ الطعام (٤٧) •

وقد فصل الأستاذ ديل التجارة الوافدة من جنوب شرق آسيا بأن البيزنطيين كانوا يستوردون الحرير من الصين والالء والأحجار

(46) Bury «op. cit.» p. 317.

(47) Heyd «op. cit.» Vol. II, p. 663.

الكريمة من الهند بالإضافة الى التوابل والأعشاب الطبية • ومن بغداد وسوريا يجلبون الأقمشة الحريرية والكتانية ، والنبيد الجيد والسجاد الفاخر ، وكانت دمشق وحلب وانطاكية المراكز الرئيسية للتجارة العربية • وطرق القوافل التي كانت تعبر وسط آسيا تنتهي عند أرمينيا حيث كانت مدينتها الكبرى أرزان Arzan سوقا هاما ، بينما كان ميناء طرابيزون يمد القسطنطينية ببضائع هامة والمنطقة الغنية في جنوب روسيا تمتد الامبراطورية بالقمح والسمك المملح والعسل والكافيار والفراء ، وجلود الحيوانات من الشمال والكرمان والبيد • وكانت خرسون هي المخزن الهام لكل هذه البضائع ، كما وصلت الى أسواق القسطنطينية أعدادا كبيرة من التجار الروس ومن البلقان استوردوا الشمع والعسل والسمك المملح ، وبضائع متنوعة من الصرب والبلغار •

كما كانت تحط على المعادن المصنعة والغير مصنعة من الغرب والكتان المصنع والبطاطين والسجاد الصوفى من أسبانيا الى جانب النبيد والملح^(٤٨) •

أما الأستاذ داود رايس فيرى أنه منذ القرن التاسع بدأت الحياة المدنية تدب في الغرب ، وبدأوا يميلون اقبالا شديدا على السلع الكمالية ، مما أدى الى ثراء القسطنطينية التي استفادت كثيرا من المتاجرة في هذه البضائع الشرقية • كما اننا لابد أن نرى مدى حاجة سكان الامبراطورية الذين تراوح عددهم ما يزيد عن نصف مليون ، فقد زادت الرغبة على هذه البضائع زيادة كبيرة بين رجال القصر الامبراطورى ، وكبار رجال الدولة وأغنياءها ، خاصة الحرير والعاج والأحجار الكريمة والمعادن بينما الطبقات الفقيرة كانت هي المستهلكة للبضائع الاستهلاكية خاصة التعميم^(٤٩) •

(48) Diehl «op. cit.» pp. 87 — 88.

(49) David «op. cit.» p. 116.

وقد بدأت الامبراطورية تحصل على القمح اللازم لها من المناطق المحيطة بسالونيك ، لكن كمية ما وصل الى العاصمة لم يكفى حاجة سكانها لذلك بدأت الدولة فى زراعته فى آسيا الصغرى ، والفائض قاموا بتصديره حتى تكونت طبقة من التجار الذين زادت أعدادهم وثرواتهم فى الفترة من القرن السادس الى العاشر^(٥٠) .

ولعل أبرز شيء فى هذا الموضوع هو أن القسطنطينية هى التى كانت تمد التجار والمولين بالعملة المقبولة فى السوق وهى البيزنانت البيزنطى الذهبى الذى لقى رواجاً كبيراً وثقة بين المتعاملين^(٥١) .

وهكذا ظلت مجموعة كبيرة من المدن البيزنطية تمد المستهلك الأوروبى بالبضائع الهندية ، وعن طريقهم جلبت الثروات الى الخزينة الامبراطورية ولا بد أن نضع فى اعتبارنا أن مدن آسيا التى سقطت فى أيدي المسلمين لم تتأثر ، ولو أن هناك ظروفًا جديدة ظهرت لتغير طريق التجارة الكبير من البلاد الاسلامية الى القسطنطينية ، حيث أصبح طريق البحر الأحمر - مصر مكلفاً ، فقد قام الخليفة المنصور العباسى باغلاق القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر . فتأثرت بذلك تجارة مصر مع الهند والشواطىء الشرقية ، وبدأت أوروبا تحصل على ما يلزمها من القسطنطينية^(٥٢) .

ويستطرد الأستاذ هايد فى ذكر البضائع التى كانت تأتى الى القسطنطينية من أسواق الشرق الى جانب الفلفل والقرفة وجوزة الطيب والخلنجان والزنجبيل والزعفران والسنامكى والبلسم وبهار الهند والرواند الصينى والحبهان وصبغ الفوه والكافور والند والعطور والبخور مثل المسك والصندل والعنبر والبلادن والمصطكى واللبان

(50) Ibid, p. 117.

(51) Finlay «op. cit.» p. 195.

(52) Ibid, p. 196.

الجاوى • ومن أهم المعادن الماس الذى كان يرد من الشرق الأقصى
ووسط الهند^(٥٣) •

وهكذا كانت تتجمع هذه البضائع وتتكدس فى أسواق القسطنطينية
التي كانت تعدّها لتصدرها الى الغرب عن طريق صقلية وأمالفى
ونابلى وبارى والبندقية وغيرها ، ويظهر أن طريق البحر الأديراتى
استخدم أكثر من غيره ، وعرض البنادقه وغيرهم للبيع بضائع الشرق
وتوابله وحريره الوارد من بيزنطة فى مدينة بافيا ، حيث كان يحضر
للشراء تجار شمال أوروبا عن طريق ميانسى والراين ، الى جانب
استخدام ممرات أخرى تصل بهم الى حوض الرون الأعلى • ويبدو
أن أهالى أمالفى ونابلى وجائيتا نقلوا هذه البضائع الى روما وبلاد
الغرب ، كما نقلها مسلمو شمال افريقيا الى بلاد المغرب وربما الى
الأندلس^(٥٤) •

(53) Heyd «op. cit.» pp. 580 — 663.

(٥٤) لويس « المرجع السابق » ص ١٨٩ •

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية في الدولة الكارولنجية
على عهد شارلمان

- * الحالة الاقتصادية في عصر شارلمان
- * الاقطاع الزراعى
- * واجبات التابع تجاه سيده في عصر شارلمان
- * واجبات السيد على التابع
- * نظام الضياع
- * الصناعة في عهد شارلمان
- « أهم الصناعات – مراكزها »
- * التجارة في عصر شارلمان
- « سياسة شارلمان التجارية – أهم المراكز التجارية –
انواع الأنشطة التجارية المختلفة »

الحياة الاقتصادية فى عصر شارلمان

تتجلى الحياة الاقتصادية التى برزت فى عصر شارلمان بصورة واضحة فى التغيير الكبير الذى أصاب المجتمع نتيجة لتغير الظروف . هذا التغيير يظهر فى ظاهرة اختفاء المدن واتساع الضياع الزراعية مما مهد لظهور الاقطاع الذى شاع وانتشر فى أوروبا العصور الوسطى .

والحقيقة التى اجمع عليها جميع مؤرخى هذا العصر ، هى أن الاقتصاد اعتمد اعتمادا كبيرا على الزراعة والأرض التى أصبحت هى المصدر الأساسى للثروة الشخصية .

ويرى المؤرخ الاقتصادى هنرى بيريون أن المجتمع فى العصر الكارولنجى كان يعتمد من أعلى تنظيمه السياسى الى أدناه ألى من الامبراطور الى القن الذى يعمل فى الأرض على ما تنتجه سواء أكانوا يعملون فيها بأيديهم أم يستأجرون من يفلحها لهم . فالوجود الاقتصادى قوامه الملكية وبمعنى أصبح ملكية الأرض لذلك أصبح من الصعب على الدولة أن تقيم نظاما عسكريا أو غير عسكري لا يعتمد على الأرض^(١) .

فالجيش قوامه الفلاحين المرتبطين بالأرض فى اقطاعات كبار الملاك ومعنى ذلك أن بذور النظام الاقطاعى القائم على الزراعة ، بدأ فى الظهور مع هذه الدولة .

الاقطاع الزراعى :

يرى الأستاذ كوبلاند أن هناك مقدمات أربعة هى التى مهدت للنظام الاقطاعى ، وأنتجته ، وأهمها حركة التطور العام نحو المحلية *localism* ، وهى حركة أنبتتها عزوف باطن عن فكرة الحكومة المركزية المستقرة ، وشاع هذا العزوف من غير شك بالمجتمع

(1) Pirenne. Economic and Social History, p. 7.

الأوربي كله أبان عصر انهيار الامبراطورية الرومانية ، وانثيال عناصر البرابرة الأجنبية عليها ، واقتحامهم لأقاليمها ، واستقرارهم بها . ثم يلي ذلك من المقدمات التي ترتب عليها النظام الاقطاعي ما أنشأه الأباطرة الكارولنجيون قبل أوانه من حكومة وسعت نظمها ما أصل بغرب أوربا من تطور نحو المحلية كيما يكون لتلك الحكومة مظهر الدولة المركزة السلطان ونحن نسوق لفظ « مظهر » عامدين فان المركزية التي بدت على الدولة الكارولنجية لم تعد أن تكون في الواقع شيئا زائفا بدليل أنها أوقفت تيارها دون أن تقدر على وقفها هي بعينها ، ويلاحظ أن ما قام به شارلمان نفسه من تخويل كثير من السلطة المركزية لنوابه Counts الاقليميين البالغ عددهم ثلاثمائة ولرؤسهم أيضا كان مما سهل السبيل لقيام النظام الاقطاعي ، بل يلاحظ في هذا الصدد أيضا ما اعتاده الأباطرة الكارولنجيون وملوكهم من تقسيم الملك أرضية بين أولادهم من بعدهم وما ساروا عليه من منح براءات الاعفاء التي جعلت أراضي أصحابها سواء أكانوا من المدنيين أم من رجال الدين بمنأى من تدخل عمال القضاء والشئون المالية من موظفي الدولة . ومن ذلك أيضا ما سار عليه الكارولنجيون من ارسال المبعوثين الملكيين الى مختلف نيبات الدولة للقيام بأعمال التفتيش السنوي العام ، فان هذا النظام دل على ضعف السلطة المركزية ، وان قصد به في الأصل اظهار مالها من قوة وضبط وهيمنة على جميع شئون الحكم والادارة بكافة الأقاليم . ثم انه يلاحظ كذلك أنه لم يمتص على وفاة شارلمان سوى بضع سنوات حتى بدت امبراطوريته عاجزة عن تدبير سياسة موحدة ضد اغارات الشماليين وغيرهم من الأعداء الذين طالما هددوا أطراف الدولة سابقا دون جدوى ، وذلك بفضل قوة الامبراطور العظيم وقوته الحربية ، وفي هذا وغيره مما تقدمت الاشارة اليه من أحوال عصر الكارولنجيين مما يساعد على تعليل ظهور النظام الاقطاعي (٢) .

(٢) كويلاند «القطاع والعصور الوسطى بغرب اوربا» ص ١٦ — ١٧ .

أما الأستاذ جرين فيرى أن الجرمان عامة والقوط الشرقيون خاصة قد قاموا بسلب الرومان الوطنيين أراضيهم ، بل ان القوط شاركوا بعضا من الرومان ملكية الأرض ، وجاء بعض اللومبارديين الذين ساروا على نفس النظام فقد أعطوا أتباعهم الأراضي الى جانب أن النبلاء من اللومبارديين امتلكوا ضياعا واسعة ، كانوا قد تسلموها من ملوك القوط السابقين أو من كبار الملاك .

وعندما حل القرن السابع والثامن رأينا كثيرا من الأحرار يلجأون الى السادة الكبار وكبار الملاك ليحصلوا على الحماية من عدوان جيرانهم الأقوياء في مقابل أن يقدموا اليهم بعض الخدمات ، ومثل هذا النوع من العقود كون شكلا متميزا للمجتمع الرومانى فى عصوره المتأخرة (٣) .

وأجزاء كبيرة من العزب والضياع كانت تؤجر لبعض سنوات للاتباع ويدفعون ايجارها ويسد منها الأقتان ديونهم ، ولم يكن المستأجر مرغما على أن يسد مثل هذه الديون والايجارات اذا كانت باهظة ، لذلك فإن مثل هذا النوع من الأرض المستأجرة كانت تعرف على أنها أرض معيشة (٤) .

وعندما اشتدت الهجمات على دولة الفرنجة من جانب السكسون شمالا والمسلمون جنوبا اضطر شارل مارتل الى منح الجنود الأرض ووفر لهم من الوسائل اللازمة لاستغلالها ، وهو ما يعبر عنه بالاقطاع الحربى (٥) .

وقد أطلق شارل مارتل على هؤلاء الجند اسم « أتباع السيد » وبذلك توافر لدينا من العناصر الأساسية التى تألف منها النظام الاقطاعى

(3) Green «Medieval Civilization in Western Europe» pp. 36 — 37.

(4) Ibid, p. 37.

(5) Ibid.

من نظام أتباع السيد واقطاعاتهم ، فالتابع يحلف يمين الاخلاص لسيدته ، ويحصل على قطعة أرض يعيش عليها ، ويؤدي عنها للسيد خدمة عسكرية ، وبذلك نرى أن الاقطاع انما يعنى تنظيماً خاصاً للملكية ، فقد يمنح شخصاً لآخر قطعة من الأرض على شرط أن يقدم له هذا الشخص خدمات معينة ، هذه القطعة من الأرض تسمى اقطاعاً^(٦) .

وعندما تقلد شارلمان الحكم أكثر من اتخاذ الأتباع لما قام به من حروب عديدة فى جهات السكسون والمسلمين واللومبارديين ، لذلك فرض على الموظفين الذين يقومون بخدمته أمثال الكونتات ، وحكام الأطراف والدوقات واجب الدخول فى تبعية الملك ، فالتزم الموظفون بحكم مناصبهم بأن يبذلوا للملك الطاعة والولاء على النحو الذى يلتزم به السيد للتابع ، وهذه السياسة نفسها اتبعها بتشجيع رئيس الدولة كبار الموظفين ازاء الموظفين الذين يلونهم فى الرتبة ، ومثال ذلك ما اتبعه رؤساء المؤسسات الكنسية الكبرى مع ممثلى سلطتهم من العلمانيين .

وقد كانت هناك أجزاء كثيرة من أراضى التاج تمنح كاقطاعات لذوى الجدارة من الرعية ، وأنه كان يراعى فى تملكهم لها مبدأ التوريث ، فان عدم وجود ورثة للأراضى ومصادرة بعض الأملاك كانت عوارض عادية تعوض ما ينقص من الأراضى الملكية ، هذا وقد كان الوريث مطالباً عندما يخلف والده على أراضيه بدفع مبلغ لتوثيق حقه فيها ، وقد كانت أراضى التاج فى تزايد مستمر بفضل حق الملك غير المنازع فى الأراضى التى لا مالك لها وما يجنف من أراضى المستنقعات ، وفيما يحصل من فائدة الغابات والشواطىء والمناجم غير الخاضعة للملكية الشخصية^(٧) .

إذا فالنظام الاقطاعى فى الامبراطورية الكارولنجية والبلاد التى انتقل اليها هذا النظام من الكارولنجيين قام على الارتباط الوثيق بين

(6) John, Critchley «Feudalism» p. 12.

(7) Thompson «op. cit.» p. 483.

التبعية وحيازة الأرض ، وطالما تحقق هذا الارتباط لخدمة الحكومة ، ويعتبر النظام الاقطاعى فى جوهره سياسيا ، ولا ينبغي أن نعتبره مرحلة ضرورية فى التاريخ الاقتصادى رغم اقترانه ببعض التدابير الزراعية ، كما أنه لا يصح اعتباره نوعا من القوى الفوضوية ، لأن ظهوره ونموه صادف زمن تفكك الامبراطورية الكارولنجية^(٨) .

والواقع أن الظروف السياسية التى أشرنا اليها دفعت كثيرا من الرجال الأحرار الى اختيار أحد طريقتين ، فاما أن يصبح جنديا ، واما أن يصبح قنا ، لأنه لا يستطيع البقاء بمفرده دون سيد قوى يحميه ، ويزود عنه ، وهكذا أخذ كبار الملاك يبحثون عن أتباع مسلحين يساعدهم فى التغلب على ما واجههم من أخطار ، وبعبارة أخرى لجأ كل من يمتلك أرضا أكثر من حاجته وحاجة أسرته الى منح هذه الزيادة على هيئة اقطاعات لأتباع له من الجنود^(٩) .

أما صغار ملاك الأراضى فقد دفعتهم هذه الفوضى الشاملة التى تعرض لها غرب أوروبا فى القرن التاسع الى الدخول فى حماية من هم أقوى منهم وأقدر على الزود عنهم ، فيسلم المالك الصغير أرضه لسيد قوى ، ثم يعود فيتسلمها منه كإقطاع ، وبذلك يصبح فصلا أو تابعا إقطاعيا له ، وكان يحتفل كل عام بقيام علاقة إقطاعية بين سيد وفصله فى حفل بسيط ، فيركع الفصل أمام سيده الإقطاعى ، ويضع يده بين يديه ثم يقسم على أن يظل تابعا أميناً له ويؤدي كافة الخدمات والالتزامات الإقطاعية المتنوعة المفروضة على الإقطاع ، ويسمى هذا القسم يمين الولاء^(١٠) وبعد ذلك يناوله السيد الإقطاعى حفنة من التراب إشارة الى أنه سلمه الإقطاع فعلا . كما يسلم لفصله علما وعكازا وبراءة

(٨) العرينى « الحضارة والنظم » ص ٢٣ .

(٩) سعيد عاشور « النظم والحضارة » ج ٢ ص ٤٦ .

(١٠) المرجع السابق .

يثبت أوصاف الأرض الممنوحة ومساحتها ، وتسمى هذه العملية « التقليد » .

وهناك ظاهرة لا بد من الالتفات إليها في العصر الكارولنجي وهي أن التابع يعتبر من الناحية القانونية حراً . لأن ملوك الكارولنجيين نجحوا في جذب أتباع من مستويات اجتماعية عالية . وبفضل ما حصل عليه أفراد هذه الطبقة من ثروة عقارية ضخمة اتخذوا بدورهم لأنفسهم أتباعاً ، وترتب على ذلك أن الأتباع صاروا يألّفون طبقة اجتماعية خاصة فأضحت التبعية رتبة مرموقة ، رفيعة الشأن ، نظراً لارتباطها بالملك مباشرة ، وحياسة التابع اقطاعاً مقابل ذلك ، فأصبحت الحياسة الاقطاعية وثيقة الصلة بالسلطة السياسية (١١) .

واجبات التابع تجاه سيده في عصر شارلمان :

كانت الخدمة الحربية هي أهم واجبات التابع تجاه سيده ، وحفلت مراسيم شارلمان بتفاصيل هذه الخدمات ، فالتزم بأن يخرج للخدمة بحصان جيد كامل العدة ، قطعة وتجهز بكل أسلحة الفارس ، على أن اقطاعات أتباع الملك كانت أكبر مساحة ، فتراوحت مساحتها بين ٥٠ ، ١٠٠ ، ٢٠٠ حيازة ، على أنه ليس من اللازم أن يشمل اقطاع ضيعة واحدة أو جانباً من الضيعة .

ومنذ أواخر عصر شارلمان تعتبر الخدمة المطلوبة من التابع السبب المباشر لمنح الاقطاع ، فإذا أغفل التابع ما هو مقرر عليه من الخدمة أو لم يؤدها على الوجه السليم اختفى المبرر الذي بمقتضاه يجرى بذل الاقطاع ، بل يجوز عندئذ استرداده من التابع ، وتعتبر مصادره الاقطاع أهم عقوبة توقع على التابع الذي لم يوف بالتزامات التبعية ، وهذا المبدأ الأساسي أشار إليه الامبراطور شارلمان في مرسومي ٨٠٢ ، ٨١٣ حين قرر أنه اذا لم يستجب أحد الأتباع لما توجه إليه

(11) Marc Bloch «Fendal Society» Vo. 2, p. 287.

من دعوة لمساعدة تابع آخر من أتباع الملك تقرر مصادرة اقطاعه^(١٣) .
والى جانب الواجب الحربى كانت هناك واجبات كثيرة أخرى منها التزام الفصل بالحضور على نفقته الخاصة الى مقر السيد الاقطاعى عندما يطلب منه ذلك ، وكانت هناك أغراض متعددة تستدعى توجيه هذه الدعوة ، أهمها رغبة السيد فى استشارة أفضاله فيما يهم مجتمعهم الصغير من مصالح مشتركة ، ويبدو أن مبدأ الشورى هذا كان من المبادئ الأساسية التى سادت المجتمع الاقطاعى الى درجة أن السيد الاقطاعى كان يجمع أفضاله لياخذ رأيهم فى اختيار زوجة لنفسه أو لأبنة أو زوجا لابنته^(١٤) .

وهناك التزامات مادية ، ذلك أنه صار لزاما على الفصل أن يؤدي للسيد عدة مقررات ومكوس اقطاعية أصبحت بمثابة حقوق ثابتة للسيد، ومن هذه الضرائب ضريبة المصايد Relief وهى أشبه بضريبة الميراث أو التركات فى عصرنا الحديث ، وكانت تدفع كلما تولى على الاقطاع وريث جديد من سلالة صاحب الاقطاع المتوفى^(١٥) .

ويلى فى قائمة الحقوق المفروضة على الفلاحين ما هو معروف باسم العشر وهو المكس المقرر على ما تخرجه الأرض من الزرع والماشية وهو مكس شائع بكافة البلاد المسيحية ، وهناك عشر الماشية ، وعشر ما تأتى به السفن من الأسماك^(١٥) .

ويرى الأستاذ طومسون أنه بالرغم من أن الضرائب المالية كانت تفرض على الأفراد لأغراض معينة ، لم يكن هناك نظام ضرائبى عام للأغراض الحكومية ، وكانت الهدايا التى تقدم للملك فى اجتماع الربيع تختلف فيما يبدو كما وكيفما ، ولم تكن خاضعة لأى نظام ثابت

(١٢) العربى « المرجع السابق » ص ٣٢ — ٣٣ .
(١٣) سعيد عاشور « النظم والحضارة » ص ٥٣ .
(١٤) المرجع السابق ص ٥٤ .
(١٥) كوبلاند « المرجع السابق » ص ٤٨ .

على أنه كان يقوم مقام الضرائب الالتزام العام الذى يلتزمه سكان منطقة من المناطق بكأداء الخدمات العامة كصيانة الطرق والقناطر ، وغيرها من المنشآت العامة سواء بالعمل الشخصى أو بالمساهمة المالية ، وكانت استضافة الملك أو مبعوثيه اذا طلبوا ذلك فرضا يقع عبئه على المناطق التى تتعرض لهذه الزيارات^(١٦) .

ولما كان شارلمان يقوم بالحملات ذات اليمين وذات الشمال فقد استغل هذا الالتزام وفقا للظروف أو تفاوتت طلباته بتفاوت خطورة الحرب ، واختلاف أجزاء الامبراطورية المتناثرة بها ، وكان يحاول أن يجعل العبء متكافئ مع مقدرة من يقع عليه ، ولم يلجأ الى التعبئة العامة الا فى أقصى الحروب صرامة مثل حربه ضد الآفار والسكسون^(١٧) .

واجبات السيد على التابع :

ما هو مفروض على السيد من التزامات يطابق ما يؤديه التابع من خدمات ، فيلتزم بالمحافظة على اليمين وسائر الالتزامات فيتحتم عليه ألا يتخذ من الوسائل ما يلحق الأذى بحياة التابع أو يخدش شرفه أو يضر بأمواله ، وأن يظهر نحو التابع المودة والعطف ويصبح تلخيص التزاماته المادية فى أمرين لمسناهما زمن الكارولنجيين ، فينبغى على السيد أن يتكفل بحماية التابع ، وأن يتولى الانفاق عليه^(١٨) .

وقد أجاز شارلمان للتابع أن يتحلل من يمين الولاء الذى أقسمه لسيده فى حالات ثلاث : اذا عامل السيد تابعه على أنه عبد ، واذا اعتدى على حياته وشرفه ، واذا لم يمدده بالحماية اللازمة^(١٩) .

(16) Thompson «op. cit.» p. 485.

(17) Ibid.

(18) Marc-Bloch «op. cit.» p. 291.

(١٩) ديفز « شارلمان » ص ٣٨ .

والحقيقة التي لا مراء فيها أن التابع يعتبر فى نظر القانون مواطنا حرا وله أن يتمتع بأهم امتيازات الحرية بأن تجرى محاكماتهم أمام المحكمة العامة ، ومهما يكن للسيد فى بعض الأحوال من السلطة التي يلتزم بها أتباعه بتأدية أعمال خاصة كأن يقوموا بأعمال مرهقة أثناء الخدمة العسكرية ، فلا تجرى محاكماتهم أمام محكمة خاصة ، ومع ذلك فان محكمة الملك تعتبر محكمة عليا ويتولى رئاستها الملك على أنه سيد لأتباعه (٣٠) .

ويرى أستاذنا الدكتور عاشور أن الفصل « التابع » اذا اعتقد أن سيده يسىء اليه ، فله أن يطلب عرض قضيته أمام محكمة من أنداده ، هذا زيادة على أن الفصل كان يستطيع أن يفسخ العلاقة الاقطاعية ويتحلك من تبعيته اذا ثبت أن السيد الاقطاعى لا ينهض بمسؤولياته الأساسية تجاهه ، وبعبارة أخرى فان الأفضال كانوا فى حل من عدم التقيد بالعقد الاقطاعى أو التنصل من التزاماتهم تجاه سادتهم ما دام هؤلاء السادة قد خرقوا بالتزاماتهم وتجاوزوا الحدود التي يفرضها عليهم العرف الاقطاعى ، وكانت هذه العملية عملية سحب الثقة من السيد الاقطاعى ، وفسخ العقد العرفى المعقود معه اذا أخل بأصول واجباته من المبادئ الأساسية فى التنظيم الاقطاعى (٣١) .

نظام الضياع :

اذا كنا قد بينا أن النظام الاقطاعى قد ارتكز على الزراعة والمجتمع الزراعى ، اذا فلا بد أن نعرف أن الضيعة والقرية كانتا هما وحدة المجتمع الزراعى ، واختفت معهما المدن القديمة .

ويرد كثير من الباحثين نظام الضياع الى أصول رومانية قديمة جدا ، فترجع فى غالة الى العصر الذى سبق فتح يوليوس قيصر لها ،

(٢٠) العربى « المرجع السابق » ص ٣٠ .

(٢١) عاشور « النظم والحضارة » ص ٥٧ .

وفى ألمانيا قبل أن يفتحها الرومان • وقد سمح الرومان للمغاليين بأن يعيشوا فى ظل الضياع الزراعية التى اعتمدت على نفسها اعتمادا كاملا فى جميع أمورهما الاقتصادية ، وسنت لنفسها نظاما اقتصاديا له طابع خاص حتى انتشر وعرف باسمهم (٢٢) •

من هذا نرى أن نظام الضياع ليس نظاما جديدا على المجتمع فى غالة ، لكن الجديد فيه هو النظام الذى اتبع فى الضيعة بعد اختفاء التجارة وانحلال المدن •

والمعروف أن الضياع كانت تتبع نظام التبادل الاقتصادى مع العالم الخارجى ، فكانت تقوم بعملية انتاج للمواد الغذائية وتصديرها واستيراد الأدوات الصناعية واستهلاكها (٢٣) •

وبمعنى آخر ، فقد كانت تقوم بعمليات التبادل التجارى مع العالم المجاور ومع المدن ، لكن عندما تلاشت المدن كما ذكرنا توقفت عن هذا الدور لأنها لا تجد من يبيع له ولا تجد مشترى ، فأين تبيع الزائد عن حاجتها • لذلك يضطر سكان الضياع الى انتاج زراعة المواد والمنتجات التى يحتاجون اليها فقط ، على أن يكفوا أنفسهم بأنفسهم ، فكل ضيعة توجه نفسها الى نوع الاقتصاد الذى يلائمها ، وهو ما يعبر عنه باقتصاد الضيعة المغلق « فهو اقتصاد بدون أسواق » (٢٤) •

وبذلك نرى أن الضياع اضطرت الى انتهاج هذا النظام ليس من واقع الاختيار ، لكن نتيجة للظروف الملحة التى فرضت عليها ذلك فهو نظام الاكتفاء الذاتى ، فكانوا ينتجون المأكولات والملابس وكل ما يحتاجونه ، ومع ذلك فلم تكن الضيعة بذلك وحدة اقتصادية بل كانت أيضا وحدة اجتماعية ودينية ، فاشترك أهلها فى احياء حفلاتهم

(22) Pireen «op. cit.» p. 8.

(23) Ibid.

(24) Marc-Bloch «op. cit.» p. 295.

وتزاجوا عادة بعضهم من بعض ، كما كان لكل ضيعة كنيستها وتقسيمها •
 وخلاصة القول ان الضيعة كانت الطريق الذي توصلت به الغالبية
 العظمى من أهالى غرب أوروبا حتى القرن الثانى عشر للحصول على لقمة
 العيش ، كما أن سياسة الاكتفاء الذاتى التى اتبعتها الضيعة تطلبت من
 أهلها أن ينصرف بعضهم الى توفير مطالب الغذاء والكساء والمأوى
 فى حين انصرف البعض الآخر للنواحى الدفاعية والادارية والروحية (٢٥) •

أما عن أساس ادارة شارلمان لأراضى التاج كان واضحاً فى
 مرسوم الضياع Capitulare de-villis الذى يرجع الى السنوات الأولى من
 حكم شارلمان والذى بنى على القول بأن «ضياع الملك ينبغى أن تدار لمنفعته
 الخاصة ، وليس لمنفعة غيره» (٢٦) وكان يختار المشرفون أو نظار
 الزراعة من بين متوسطى الحال ، وليس من بين الأغنياء الذين قد
 يستخدمون نفوذهم لخدمة مصلحتهم الخاصة •

وكانت تصدر لهؤلاء الموظفين التعليمات الدقيقة بشأن تموين
 الضيعة والتصرف فى مصولها • وكان يقع فى وسط الضيعة الدار أو
 المسكن Camera ، وهو مزود بكل ما يلزمه حتى اذا مر الملك
 بتلك الناحية لم يكن ثمة حاجة الى استعارة اللوازم من جهة أخرى (٢٧) •

وكانت تحيط بالمنزل الحدائق الغناء وبساتين الفاكهة الطيبة ،
 وكانت الطواويس والفرايج والحمام وغيرها من الطيور التى تربي
 فيها زينة للناظرين • وبالقرب من المنزل كانت توجد حظائر الخيل
 والأكواخ الخارجية وأعشاش الدواجن والأوز التى كانت تربي الى حد
 معلوم فى الضياع الرئيسية ، وكان المستأجرون من الأحرار والأقنان

(٢٥) عاشور « النظم والحضارة » ص ٧٥ •

(26) Stephenson «op. cit.» p. 182.

(27) Thompson «op. cit.» p. 485.

يستخدمون فى شتى الأعمال التى يحتاج اليها المجتمع المكثف بذاته بتوجيه من ناظر الزراعة • وكانت هناك أماكن خاصة بالنساء يعملن فيها فى غزل الملابس وحياتها وصباغتها بما يمدهن به ناظر الزراعة من مواد أولية ، وكانت أهم هذه المواد العظم والزنجفر والفوه مما يلزم العملية الأخيرة من هذه العمليات • أما السمك فكان يحتفظ بما يوجد من بركة وتوسع أو تحفر له برك جديدة ، وكانت تبذل عناية فائقة للمحافظة على الغابات التى تقع فى الضياع الملكية وتعاد زراعة البقع التى يجف فيها الشجر ، وحظر قطع الشجر على نطاق واسع بعد أن تكونت مساحات جديدة للزراعة فى الغابات ، وكانت فراء الذئاب التى تؤخذ طوال السنة ترسل الى الملك • كما كانت تصدر التعليمات فى شهر مايو الى ناظر الزراعة بأن يصيد صغار الذئاب أو يستعمل أى وسيلة يراها لإبادتها • وكان من المفروض أن يقدم للملك سنويا فى موسم عيد الميلاد جردا دقيقا بكل ما فى عهده يحدد فيه البيانات بدقة تتجنب التعميم الشكلى كما كان المفروض أن يتحرى ناظرو الزراعة هذه الدقة فى طلب مثل هذه البيانات المفصلة من رؤسائه المشرفين على الأقسام الواردة بالجرء (٢٨) •

وكان تنظيم الخاصة الملكية على هذا النحو نموذجا احتذاه الملاك الآخرون وحتى ذلك الوقت لم يكن الحد الفاصل بين الحرية والرق واضحا تماما ، وعلى أى حال ، كان الوضع القانونى للمستأجر الحر لا يعفيه من أداء الخدمة لشخصه فى الضياع الكبيرة ، ولا من الهدايا السنوية العينية التى كان ينتظر أن يقدمها لسيده عما استأجره من الأرض •

وكان يعهد بعدد كبير من الضياع الى مزارعين مستقلين مقابل أداء خدمات شخصية معلومة ، أو دفع مبالغ معينة ، ولكن الضياع الرئيسية وعلى رأسها ناظر الزراعة ، ولقبه « الضيعى » Villicus

كانت تهيمن على ضياع أصغر منها تقسم الى طوائف تحت ادارة نظار
زراعة Desani ، وكانت الضياع الكبرى بمثابة مخازن لما
يفيض من الضياع الصغرى^(٢٩) .

الصناعة فى عهد شارلمان :

إذا كنا قد تعرضنا لدراسة نظام الضياع من الناحية الزراعية ،
وبينا أهمية الضيعة ، فإننا إذا دخلنا فى الكلام عن الصناعة ، فلا بد
أننا سنتعامل مرة أخرى مع الضيعة حيث مارس سكانها الصناعات
الصغيرة داخل ضياعهم ، واشتغل عدد منهم فى بعض الصناعات اليدوية
البسيطة ، من أهمها غزل الصوف وهو ما انفردت به النساء ودبغ
الجلود وصناعة النعال والسروج والحدادة والنجارة^(٣٠) .

والواقع أن الحرف والصناعات التى سادت دولة الفرنجة قبل
عصر شارلمان لم تكن شائعة فى كل المواضع ، ولا تجرى ممارستها
الا فى بطن شديد ، ففى أراس وليون ومتر تقوم صناعة الحلى والتطريز
والخيوط الحريرية الموشاة بالذهب ، واشتهر صباغو ليموج الذين
يرعاهم القديس ايلوا بأنهم ألفوا نقابة معروفة من قديم الزمن ، أما
صناع الأسلحة والحدادون فتوافروا بكل مكان ، واستعدوا لتلبية كل
الطلبات ، وما اشتهرت به سلعهم من ارتفاع السعر انما يدل على أن
الطلب زاد على العرض ، وأصاب التجارة بعض الازدهار فى المدن
الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، اذ صدرت الى القسطنطينية
وأسبانيا الزيت والنبىذ والماشية ، وكذا الأرقاء المسيحيين ، وتلقت
مقابل ذلك الحرير والتوابل من اليونانيين والدنانير الذهبية والمنسوجات
المطرزة من المسلمين^(٣١) .

(29) Stephenson «op. cit.» p. 183.

(30) Green «op. cit.» p. 80.

(٣١) ديفز « المرجع السابق » ص ٣٤ .

ويرى الأستاذ ستيفنسون أن الصناعة فى عصر شارلمان لم تعدو أن تكون صناعات يدوية بسيطة ، فكانوا يصنعون الأدوات التى يستخدمونها فى ضياعهم ، وقد أصدر شارلمان مرسوما حدد فيه مهام كثير من الصناع الذين يعيشون فى القرى ، وكانت عليهم واجبات زراعية كما كان عليهم ضرورة الالتزام بقانون الضيعة^(٣٢) .

ولا ننسى كذلك الدور الذى قام به رجال الأديرة فى الصناعات خاصة دير كوربى الذى خصصت به عدة حجرات للصناعات المختلفة فيها حجرة بها ثلاثة من صانعى الأحذية واثنتان من السروجية وحجرة أخرى بها ستة من الحدادين ، واثنتان من الصائغين وصانع أسلحة وآخر يعد الرقائق الجلدية لاستخدامها فى الكتابة وقاعة ثالثة بها النجارين . وهكذا قامت هذه الورش داخل الدير لتسد حاجات ومطالب رهبانه من المنتجات الصناعية^(٣٣) .

التجارة فى عصر شارلمان :

يرى الأستاذ بيرين أن اقتصاد الكارولنجيين اختلف عن اقتصاد الميروفنجيين فى أن الميروفنجيين ظلوا يستخدمون التجارة مع الشرق الأدنى فاتجهوا بذلك فى اقتصادهم نحو البحر المتوسط ، على حين أن الكارولنجيين اتجهوا نحو بحر الشمال وابتدعوا مجموعة من النظم ظلت بالغة الدلالة والأهمية فى حضارة العصور الوسطى^(٣٤) .
فالكارولنجيين — فى رأى بيرين — لم يواصلوا ما كان للميروفنجيين من نشاط تجارى ، بل ارتدوا الى مجتمعات زراعية غلب عليه اقتصاد الضيعة .

والواقع العملى أن التجارة لم تتوقف نهائيا فى البحر المتوسط ،

(32) Stephenson «op. cit.» p. 182.

(٣٣) عاشور « المرجع السابق » ص ٨٥ .

(34) Pirenne «op. cit.» p. 6.

فلا زالت السلع ترد الى غرب أوروبا ويجرى بيعها فى سائر الأسواق ، وقد أدرك شارلمان شخصيا الأهمية الاقتصادية للتجارة بالنسبة لامبراطوريته ، وعلى هذا فلم يكن تأييده للبابوية العامل الوحيد فى تشكيل سياسته فى ايطاليا ، وفى موقف العداء الذى وقفه من القسطنطينية لكنه رأى أيضا ضرورة الاشراف على منابع الثروة التى يمكن أن تتدفق من البحر المتوسط على الشواطىء التابعة له ، كما أنه رأى أيضا كيف تسيطر بيزنطة على التجارة ، وحاول أن يحطم تلك السيطرة ، ويذكر اينهارد « أنه أبدى مرة لسفير بيزنطة رغبته فى أن تكون امبراطوريته وثيقة الصلة فى التجارة مع الشرق » (٣٥) .

وقد كانت هناك فئات كبيرة من التجار الجائلين الذين أتوا من الشرق وهم من السوريين واليونانيين واليهود ، واستقروا فى غالة على هيئة جاليات ، لم تلبث أن كبرت أهميتها (٣٦) .

كما أن شارلمان منع تصدير المؤن الى الاسكندنافيين والدانين والفريزيان حتى يلزم النورثمن بالركون الى الهدوء والسلام ، وما داز من مراسلات بين شارلمان وأوفا ملك مرسيا بانجلترا حول تصدير القماش البريطانى الى القارة ، ومعاملة الحجاج دل على اهتمام الملكين بهذه التجارة . وفى أثناء القرن التاسع نشط الاتصال التجارى بحرا بين انجلترا وفرنسا ، بل ان تجارا بريطانيين ترددوا على سوق سان دينيه وعلى سوق روما شأن التجار الفريزيان (٣٧) .

والحقيقة أن بناء شارلمان لأسطول فى البحر المتوسط ، ومد نفوذه فى جزر البليار وسردينيا وجنوب ايطاليا ، ومحاولته السيطرة على البندقية وايسترىا ودلماشيا الا جزء من خطة مدبرة تستهدف

(35) Einhard, «op. cit.» p. 57.

(36) Clive «A history of commerce» p. 45.

(٣٧) العرينى « الحضارة والنظم » الأوربية « ص ٩٦ .

السيطرة على مصادر الثروة التجارية التي حرمت منها بلاده ، وإلى هذا أيضا هدفت كل مباحثات شارلمان مع مبعوثى بطريق صقلية نائب الامبراطور البيزنطى فى الغرب^(٣٨) ، وكذلك خطبته للامبراطورة ايرين ومفاوضات مع الحكام والخلفاء العباسيين ، بل ان اتخاذه لقب امبراطور عام ٨٠٠ م عليه أن يكون خطوة نحو ذلك الهدف^(٣٩) .

وقد قام شارلمان بعلاقات تجارية مع الشعوب التى تسكن على حدوده ومنهم الآفار والصقالبة ، وقرر منع تصدير الأسلحة اليهم ، على أن التجارة البرية لم يكن لها من الأهمية فى وسط أوروبا مثلما كان للتجارة مع بحر الشمال أو التجارة بين ايطاليا والبلاد الاسلامية أو القسطنطينية كما يتجلى فهم شارلمان للنظام التجارى واهتمامه به فى مشروعاته الاقتصادية فحاول أن يتخذ تدابير مضادة لقواعد الاحتكار التجارى البيزنطى فى ايطاليا ولا سيما البندقية ، ومع أن البندقية أعانتها عام ٧٧٤ م بقوة بحرية أثناء هجومه على بادوا الا أنه لم يكف منها بذلك ، وعندما نزلت حملة بيزنطية بجنوب ايطاليا سنة ٧٨٧ م عمد شارلمان الى الضغط الاقتصادى على البندقية فصادر منشآتهم فى بنتابوليس وألغى امتيازاتهم التجارية الواسعة فى بلاده ، وكانت هذه الوسائل بالغة الأثر للغاية ، فاستطاع فى فترة قصيرة بين عامى ٨٠٢ ، ٨٠٥ م أن يخضع البندقية تماما لنفوذه ، وعندما تغير ميزان القوى بتدخل بيزنطة بقوتها البحرية ضده سنة ٨٠٦ م لجأ شارلمان الى فرض حصار اقتصادى ، وتسيير قوة حربية نحو المدينة ، وظفر شارلمان بما أراد سنة ٨١٢ فقررت بيزنطة وقد هددت من كل جانب أن تتفق مع أعدائها الكارولنجيين ، ويتضح من مطالعة نصوص هذا الاتفاق أن شارلمان نجح على الأقل فى الحصول لجميع التجار من رعاياه على أن يكون لهم حرية الاتجار داخل الامبراطورية البيزنطية

(38) Monk of Saint Gall «op. cit.» p. 761.

(39) Buckler «op. cit.» p. 17.

وفى مقابل هذا استعادت البندقية امتيازاتها التى كانت لها على حين اعترف شارلمان بملكية بيزنطة لايستريا ودلماشيا^(٤٠) ولا شك أن هذا النجاح التجارى لا يبتأى الا بأسطول بحرى ، فقد قام شارلمان بإنشاء أسطول كبير ويعد عدد سفنه بألف سفينة ، حتى ان القرن التاسع شهد ازدهارا كبيرا فى قوة الكارولنجيين البحرية^(٤١) .

أما فى الفترة السابقة على القرن التاسع ، فلم تكن الدولة الكارولنجية تعنى بإنشاء السفن ورغم ذلك جازف التجار بحياتهم وحریتهم فى سبيل التبادل التجارى على يد الأجانب من اللومباردين واليونانيين واليهود أيضا ، اذ كان الناس يعتبرون التجارة فيما مضى مهنة حقيرة الى جانب وعورة الطرق وحصول بعض الأسواق على امتيازات خاصة وازدياد وطأة المكوس ورسوم الموانى ، وهذه المكوس بلغت من شدتها أنها أصبحت عبئا لا يحتمل وقلما تم دفعها للدولة ، وأقام كبار الملاك سلاسل عبر الأنهار لتمنع السفن من المرور حتى تؤدى ما عليها من ضريبة ، وفى كثير من الأحيان تعتبر الماخضات والجسور من الأملاك الخاصة ، وكل محاولة تبذل لكشف طريق جديدة غير خاضعة لهذه القيود ، لم تلق الا السخط والكراهية الشديدة من أولئك الذين يرون فى التغيير تهديدا لأرباحهم . ولم تقف متاعب التاجر عند هذا الحد اذ انخفضت قيمة النقد ، وقل اتخاذ النقد وسيلة للتعامل ، كما أن القانون كان عدوا للأرباح الناجمة عن التجارة . وفى أوقات الأزمات ، وحين تقل السلع تقرر توقيع عقوبات شديدة على كل تاجر يحاول أن يبيع السلع الضرورية بأسعار تزيد على السعر الطبيعى^(٤٢) .

وقد تنبه شارلمان لجميع هذه العوائق ، وحاول السيطرة على التجارة فجعل النقد فى يد الحكومة المركزية ، ووضع لوائح لتحديد

(40) Pirenne «Mohamed and Charlemagne», p. 174.

(41) Ibid, p. 248.

(٤٢) ديفز « شارلمان » ص ٣٤ — ٣٥ .

أسعار المواد الزراعية ، اذ تقرر ابطال دور الضرب العديدة التى اشتهر بها عصر الميروفنجيين^(٤٣) الى جانب أنه حرم استخدام النقود اللومباردية منذ أغسطس سنة ٧٨١ ، وأصدر أوامر بتحريم الربا وتحديد أثمان الغلال مما يثبت أنه تأثر فى آرائه الاقتصادية بالكنيسة وتعاليمها^(٤٤) .

كما حاول شارلمان كذلك أن يشجع سكان بلاده على التجارة رغم سيطرة الفكرة الزراعية على عقولهم واهتمامهم الكبير بتنمية ثرواتهم عن طريق الأرض ، كما قام بالعناية بالطرق التجارية والاكتار منها والمحافظة على سلامتها وتوفير الأمن لسالكىها . وهذه كلها أمور اهتم بها شارلمان ، ولم تصرفه مشاغله الكثيرة عنها . فاهتم بالطرق البرية وزاد منها هذا وان فضل تجار ذلك العصر استخدام الطرق النهرية حتى أصبحت أنهار الراين والدانوب والسين والرون وفروعها تكون شبكة ضخمة من طرق التجارة تربط بين شمال امبراطورية شارلمان وجنوبها وبين شرقها وغربها^(٤٥) .

كما أن الفرنجة تاجروا كذلك مع الأراضى الايطالية الخاضعة للدولة البيزنطية ، ومن هذه المراكز نابلى وجائيتا وأمالفى وربما أيضا مدينة سالرنو على الساحل الغربى ، وسمح لهذه المدن باستقبال السفن القادمة لبيع التوابل والحريير الفاخر فى ايطاليا ، وسمح كذلك ولمرة واحدة فقط فى العام لتجار هذه المدن بالسفر الى بافيا فى حوض البو لعرض بضائعهم الشرقية على تجار شمال ايطاليا وسائر بلاد الغرب . ويبدو أن التجارة تمتعت بقسط أوفر من الحرية مع دوقية بنفنتو اللومباردية ، ومع روما نفسها^(٤٦) .

(43) Pirenne «op. cit.»

(٤٤) عاشور « النهضةات » ص ٨٦ — ٨٧ .

(٤٥) المرجع السابق .

(46) Lopez & Raymond «Medieval Trade, in the Mediterranean World» p. 35 — 37.

وقد قام التجار اليهود بدور كبير فى تجارة شارلمان ، وأهم تجارة قاموا بها كانت تجارة الرقيق التى تعتبر أهم جانب فى التجارة الدولية والمعروف أن مراكز هذه التجارة توطنت فى فردان وماينز حيث اجشسد الأرقاء ، وجرى ارسالهم صوب الجنوب لبيعهم للمسلمين ولم يؤد التجار الذين فى خدمة البيت المالك أو الضياع الكبيرة رسوما باهظة ، وحصل اليهود على هذه الامتيازات أيضا ، ومع ذلك حرصت الخزانة الحكومية على المحافظة على حقوقها فى المراكز التجارية الهامة أمثال كوينتوفيك ودورستاد (٤٧) .

وقد كان للأديرة فى عصر شارلمان نشاطا تجاريا كبيرا اذ قامت ببيع الفائض من انتاجها الزراعى فى الأسواق القرية رغم مخالفة ذلك للقانون المكتسب ولرسوم شارلمان (٤٨) .

لذلك قامت الأسواق العلماة بجوار المدن والأديرة والضياع ، كما قامت قرب المزارات الهامة وأضرحة القديسين — حيث ان النشاط التجارى يلازم الاحتفالات الدينية فى صورة تشبه ما يحدث فى الموالد بالبلاد الاسلامية . وأشهر سوق من هذا النوع كان سوق سانت دنيس الذى اعترف به بيبين القصير سنة ٧٥٩ ، ومنذ ذلك الوقت وهذا السوق فى نمو مستمر بفضل قربه من باريس حتى أصبح يعرف بسوق الشعب ، وصار يقصده التجار من أسبانيا ، ولومبارديا وغيرها من البلاد البعيدة (٤٩) .

ويرى الأستاذ ستيفنسون أن هذه الأسواق كانت تعقد يوما واحدا فى الأسبوع ، اما التعامل التجارى الذى اتخذ صورة كبيرة فكان فى الغرب حيث وجدت مجموعة كبيرة من التجار القادمين من الشرق

(٤٧) العرينى « الحضارة والنظم » ص ٩٧ .

(٤٨) المرجع السابق .

(٤٩) عاشور « النهضة » ص ٨٧ .

ومعظمهم من أهل الشام ، وكان هؤلاء يتاجرون فى السلع الكمالية التى لا يهتم بها الا الأثرياء فقط^(٥٠) .

وقد ازداد النشاط التجارى كذلك فى المناطق الواقعة عند بحر الشمال وفى شمال فرنسا وبلاد الراين نشطت صناعة السيوف التى ،ازداد الاقبال عليها فى أنحاء العالم ، يضاف الى ذلك أن هذا الاقليم اشتهر بصناعة الأواني الزجاجية والخزف . ومن انجلترا والأراضى المنخفضة جاءت الأقمشة والمنسوجات ، والراجح أن قدرا كبيرا من المنتجات الزراعية تعتبر وقتذاك من السلع التجارية فى اقليم بحر الشمال . أما فى الجنوب فتناولت التجارة أيضا المنتجات الزراعية فالنبيذ كان من أهم السلع التجارية ، حيث كان يتم شحنه فى السفن التى اجتازت الطرق الساحلية للمحيط الأطلسى والطرق النهرية ، كما أن تجارة الرقيق كانت من أهم السلع التى صدرتها أوربا الى المسلمين فمن الأرقاء ما يرد من شمال فرنسا بعد أن جلبهم الانجليز والسكسون وما يرد من الأطراف الشرقية حيث توافرت هذه التجارة بين الصقالبة^(٥١) .

وبذلك نرى أن الحياة الاقتصادية فى عصر شارلمان غلبت عليها السمة الزراعية لكن شارلمان حاول أن يهتم بالتجارة فى الحدود التى سمحت بها الظروف المعاصرة حتى يثبت أركان دولته فى مواجهة القوى العظمى الشرقية ، كما لم يهمل شأن الصناعات التى لم تخرج عن كونها صناعات بدائية .

(50) Stephenson «op. cit.» p. 185 & Lindsay «op. cit.» p. 397.

(٥١) العربى « المرجع السابق » ص ٩٥ .

الخاتمة

وبعد فقد كان هذا عرض علم للامبراطوريتين البيزنطية ، والرومانية الغربية فى عصر شارلمان ، توصلنا فيه الى الظروف التى مهدت السبيل أمام الدولة البيزنطية لكنى تنحصر فى الجزء الشرقى من الامبراطورية متعرضين لسقوط الامبراطورية فى الغرب والهجمات الجرمانية ، واندماج أباطرة الشرق فى العالم الهلنى ثقافيا ، وحضاريا . كما بينا كيف كان للاختلاف المذهبى أكبر الأثر فى انشطار الامبراطورية الى قسمين ، والى زيادة حدة الخلاف بينهما •

وأهم نتيجة فى هذا الكتاب كانت استغلال شارلمان ملك الفرنجة لهذه الظروف السياسية التى عاشتها كل من الامبراطورية البيزنطية ، وايطاليا ممثلة فى البابوية ، حيث كانت العلاقة بين هؤلاء الثلاثة هى السبب فى ارتفاع نجم شارلمان وسطوعه • فقد نجح فى اجتذاب البابوية الى جانبه لاتحاده معها فى العقيدة المذهبية ، ومساعدته لها فى دفع الأخطار المتعددة التى تعرضت لها ، مما جعل البابوية تجد فيه الحليف والنصير الذى لا غنى عنه فعبرت عن ذلك ، بتنصيبه امبراطورا على الفرنجة عام ٨٠٠ م • فأعادت بذلك الامبراطورية الرومانية فى القسم الغربى ، لكن بصورة جديدة ، وبمناخ جديد وبزعامة جديدة • فالعاصمة كانت آخن وليست روما والملك جرمانى ، وليس رومانى •

ثم توصل البحث بعد ذلك لنتائج ايجابية فى عرض للسياسة العامة التى انتهجتها كلا الامبراطوريتين فى نظم حكمهما وقوانينهما مما يعطى الدارس فكرة كبيرة عن مدى التباين والاختلاف فى كل منهما

مما جعل لكل امبراطورية منهما طابعها المختلف عن الأخرى ، كما كان
للفصول الأخرى « خاصة الحياة الاجتماعية والثقافية » فى كل جزء
من أجزاء الامبراطورية ما يثبت كيف كان يعيش الناس مظاهر حياة
وتقاليد وأسس وعادات تختلف نهائيا فى كلا الجزأين ، وذلك لاختلاف
الأساس والينبوع ، ولاختلاف المدد والمؤثر .

والله أسأل أن نكون قد وفقنا الى اضافة جديد الى مكتبة العصور
الوسطى ، وأن نكون قد قدمنا للقارئ العربى موضوعا متكاملا
للامبراطورية الرومانية فى قسميها الشرقى والغربى فى أهم فترة من
فترات التاريخ الوسطى أعنى بذلك « عصر شارلمان » .

الملاحق

ملحق رقم ١

مقتطفات من مقدمة الاكلوجا الصادرة سنة ٧٢٦ م

الاكلوجا أو المختارات هي مجموعة من القوانين المختصرة ، وتحتوى على أربعين بنداً ، قام باصدارها الامبراطور ليو الثالث الأيسورى باللغة اليونانية ، ويتضح مضمونها من عنوانها فهي عبارة عن منخبات من القوانين قام باختصارها ليو وابنه وخليفته قنسطنطين الخامس « أباطرتنا الأتقياء الحكماء » الذين اقتبسوها من مجموعة جستنيان القانونية « الحجستا » ومن متجدداته ، وقد غلبت عليها الأحكام الانسانية وهنا نقدم فقرتين قمنا بترجمتها — من اليونانية — من المقدمة (١) . « منذ ان وضع الله فى أيدينا السلطة الامبراطورية ، ورغبة منا فى ارضاء الله الذى منحنا الحب ، والشعور بالتبجيل نحوه على نفس الأسلوب الذى سار عليه بطرس رئيس وزعيم الرسل الذى قام « باطعام قطعائه المخلصين » فاننا نشعر أنه ليس هناك عملاً ذو قيمة ومكانة كبيرة يمكن ان نقوم به خير من الحكم بالعدل والقسطاط لهؤلاء الذين هيأهم الله لنا ليعيشوا تحت حكمنا ورعايتنا . فاننا سنقوم بالغاء جميع بنود القوانين والمواثيق التى فرضت بالقوة التى اتسمت بالجور والحيث ، وسنقاوم جميع الاعتداءات التى يعتدى بها علينا المعتدون ، لاننا توجنا بيد الله القادر الذى بشرنا بأننا سننتصر على أعدائنا « وهذا شيء أثمن وأعلى عندنا من التاج الموضوع على رؤوسنا » ولذلك سيعيش بلاطنا فى سلام وستعيش بلدنا فى استقرار فى ظل مملكتنا .

(1) From the text in *Collectio Librorum juris Graeco — Romani meditorum*, ed. K.E. Zachariae von Lingenthal. pp. 10 — 11.

ولذلك ، وبما أن الله قد منحنا كل هذه الرعاية فأننا سنجهد عقولنا لمعرفة كل ما يرضى الله ويسعد الرعية ، ونعائى قدر العدل فوق كل شيء على الأرض لأن العدل شيء سماوى من عند الله وهو أحد من أى سبب فى قمعه للاعداء بفضل قوه الله العادل ، ولنعلم أن القوانين التى اصدرها الأباطره السابقين علينا ، جمعت فى هذه أجزاء ، ونؤكد أن جميع أغراض هذه القوانين كانت صعبة الفهم على البعض لقلة تداولها فى الأوساط خارج العاصمة الامبراطورية المحروسة من الله . لذلك انتقينا مجموعة من خبار البطارقة والكويستور والقضاة الممتازين ، وغيرهم ممن يخافون الله ، وأمرناهم بأن يجمعوا جميع الأجزاء القانونية التى سيستخدمونها فى حضرتنا ، وسنبحث جميع هذه الأجزاء بدقة وعناية « وسنستفيد من جميع الأجزاء التى يتبنت صلاحيتها ، ومن كل المراسيم والقرارات التى اصدرناها شخصيا » كما يجب على القضاة أن يتجردوا من العواطف ، وأن يحكموا بالعدل والعقل ، كما يجب أن تخوى هذه الأجزاء بوضوح أنواع العقاب الملازم لكل جريمة من الجرائم ، وغرضنا من ذلك أن نكون فكرة واضحة عن « القوة » المقصودة فى هذه القوانين المقدسة فهذه الأمور يجب أن تقرها حكمة القضاة ، فلا يكون هناك عقابا الا على المجرمين الأثمين ، ويكون هناك اصلاحا وتقويما لأولئك الذين يركبسون الاعمال الخاطئة .

ملحق رقم ٢

شارل الكبير يعلن أن واجبات البابا واجبات روحية فقط سنة ٧٩٦

خطاب شارلمان الى البابا ليو الثالث

تمنع شارلمان بشعور حاد بسلطاته ومركزه ، فكان يستاء من أى تصرف فيه انتقاص من حقوقه . ومن الخلل الذى أرسله الى البابا ليو الثالث ، أوضح فيه شارلمان أن واجباته ليست الا واجبات روحية فقط (٢) .

(2) Zacher, A. Hoyer, «Select document of medieval history», p. 36.

« شارل برعية الله — ملك الفرنجة واللومباردين — وبطريق الرومان » ببعث بتحياته الى قداسة البابا ليو ، « نمند أن وقعت انفاقية مع سلفك الأب المقدس ، فاتفى أرغب أيضا فى عقد معاهدة لا تنفسم عراها معك ، معاهدة للحب والاخلاص المتبادل . ومن ناحيتك عليك أن تصلى من أجلى وتحنى البركات الرسولية » .

ومن ناحيتى ، وبعون الله ، خاتنى سادافع عن الكرسي المقدس للكنيسة الرومانية المقدسة ، لأن واجبنا أن ندافع عن كنيسة المسيح المقدسة من هجمات الوثنيين والكفرة ، وذلك من أجل تقوية ونشر العقيدة الكاثوليكية .

فهذا واجبك ايها الأب المقدس ان تساعدنا فى حروبنا بأى ترفع يدك الى السماء كما فعل موسى ، وذلك وبشفاعتك ووساطتك فسيحرز العالم المسيحي النصر على الاعداء دائها تحت سلطة الرب وبالإسم المقدس ، وبإسم يسوعنا المسيح ؛ سيمجدون فى كل أرجاء العالم . والى جانب القوانين الكنسية والطاعة الدائمة لتعاليم الآباء بالمقدسين ، فان حياتك ستصبح مثلا للقداسة أمام الجميع ، ونصائحك المقدسة سيعمل بها فى كل مكان فى العالم وسيضيء نورك أمام الناس الذين يسرون على نهجك الصالح وسيجدون آباءك الذين هم فى السماء ، وتدعوا الله القادر أن يحفظ قداسك من أى ضر طول السنين من أجل اعلاء شأن كنيسةك المقدسة .

ملحق رقم ٣

خطاب من شارلمان الى انجلبرت

مقدم دير سانت ريكوير

يعطيه تعليمات أن ينصح وينذر البابا ليو

الثالث سنة ٧٩٦ م (٣)

عسى أن تؤدي بك رحمة الله بسلام الى أبينا الرب الرسول ،

(3) Stewart «op. cit.»

نقلا عن :

Translated by H.W. from Epistola Alcuini «Mon., Germ. tist. Epistolae IV» No. 22 pp. 135 — 136.

أنصحه أن يعيش دائما بأمانة ، وإن يرمى خاصة الأحكام الشرعية المقدسة ، فقد أمرته القوانين المقدسة أن يرمى كنيسة الله المقدسة بروح التقوى تبعا للاتفاق الذى بينك وبينه ، وتبعا لأرائه ، وأذكر له كثيرا كيف أن هذا الشرف الذى منح له حيننا بدلا من المكافأة الأبدية الزائلة التى نعطي إلى الشخص الذى يعمل إلى النهاية . أنصحه أن يعمل باجتهاد للقضاء على الهرطقة والرشوة فى الحصول على المناصب الدينية « السيمونية » لأن ذلك يضر بمجتمع الكنيسة بوسائل شتى ، قل له كلما تذكرت المسائل التى ناقشناها أنا وأنت بين أنفسنا ، فإن الله يرشدك ويمعذك سالما ، لما أن الله يمكن أن يرشد ويوجه قلبه « قلب البابا » إلى كل خير حتى يمكن أن يخدم كنيسة المقدسة ، ويمكن أن يقودنا كآب ورع ويشفع لصالحنا .

ملحق رقم ٤

من خطاب كتبه الملك شارل إلى البابا

ليو مهننا على اختياره البابوية سنة ٧٩٦ م (٤)

« لكى نؤكد اتفاقنا على السلام ، فإننا نرسل بسرعة مستشارنا وسكرنيرنا انجلبرت إلى قداسك وأعطيناه تعليمات كاملة مراعين رغبتنا ومطالبك فى تبادل وجهات النظر ، ويمكنك التفاوض فيما تراه ضروريا لاعلاء كنيسة الله المقدسة ، وتثبت دعائمك ، وتقوى كنيستنا » .

ملحق رقم ٥

من خطاب كتبه الكوين إلى الملك شارل

الذى دعاه « الملك داود » عن القوى الكبرى الثلاث

فى العالم يونيه سنة ٧٩٩ م (٥)

« هناك ثلاث أشخاص يشغلون المراكز العليا فى العالم حتى يومنا

(4) Ibid, No. 93, pp. 137 — 138.

(5) Stewart «op. cit.»

Ibid, No. 174, p. 288.

هذا ، صاحب السلطة الرسولية النائب عن بطرس المقدس أمير الرسل ،
والذى يشغل كرسیه بفضل عنايتك ، فقد بلغنى مصر آخر من جلس على
هذا الكرسي . والناتى هو السلطة الإمبراطورية والقوة الدنيوية لروما
الثانية « عاصمة الإمبراطورية » والإشاعة التى ثارت حول الطريقة التى
لا تتفق مع الدين والى حكم بها الإمبراطور الحالى ليس على يد الغرباء
لكن بيد الأقارب والمواطنين ، وقد انتشرت هذه الإشاعة فى كل مكان —
أما القوة الثالثة فهى المنصب الملكى الذى حصلت اليه كحاكم للشعب
المسيحى ، حيث يفوق منصبك القوتان الأخرتان من حيث القوة والسمو
والهبة الملكية . فعليك تقع مسئولية ازدهار الكنيسة ورفاهيتها وأنت
المنتقم للأعمال الشريرة ضد الذين ضلوا والمعزى للذين منجعو فأنت فخر
أهل الخير ... » .

ملحق رقم ٦

أ — من حوليات الملكية الفرنجية ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠ م (١)

فى ذلك اليوم المقدس يوم ميلاد السيد المسيح ، عندما كان الملك
فى قداس أمام مذبح الرسول بطرس المبارك ، وعندما فرغ من الصلاة
وضع البابا ليو التاج على رأسه فتهتف شعب روما كله « الحياة والنصر
لشارل العظيم » أغسطس « المتوج من الرب إمبراطور الرومان العظيم
— المحب للسلام — وبعد هذا التمجيد وقره البابا على طريقة الأباطرة
القدامى وبدلا من تلقيه بالبطريك الرومانى فقد لقب بالإمبراطور
أغسطس العظيم .

ب — من حوليات لورثس سنة ٨٠١ م (٢)

أنهى المنصب الإمبراطورى بجلوس امرأة على العرش الإمبراطورى
لذلك خيل للبابا ليو وجميع الآباء المقدسين المجتمعين فى المجلس ، وبقيّة

(6) Translated by H.W. from the annales regni Francorum ad .
a 801, «Hannover, 1896» p. 112.

(7) Stewart «op. cit.»

Translated by, H.W. from the annales laureshmenses
«Man. Germ. Hist. Scriptores I.» p. 38.

الشعب المسيحي أن يصعدوا لقب امبراطور الى شارل ملك الفرنجة لانه لا يحكم روما فقط والتي اعتاده القياصرة الإقامة بها ، بل يحكم بلاد أخرى في إيطاليا وبلاد الغال والمانيا ، ومنذ جعل الله القادر جميع هذه الأماكن تحت حكمه ، فقد اعتبروا ذلك حقاً له ، لذلك فبمعونة الله ورجاء الشعب المسيحي يجب أن يمنح اللقب الامبراطوري ، ولم يكن في استطاعة شارل أن يرفض هذا الرجاء ، وفي تواضع نام خضع لارادة الله وارادة الشعب المسيحي كله ، وذلك بقبوله المنصب الامبراطوري الذي منحه اياه البابا ليو يوم ميلاد المسيح .

ج — ومن حياة البابا ثيو(٨)

وبعد ذلك « بعد قسم التطهر » الذي تم في كنيسة القديس بطرس اجتمع الجميع مرة أخرى في يوم ميلاد المسيح في الكنيسة المذكورة عالياً للرسول بطرس المبارك ، وتوجه البابا الموقر المحب للسلام ووضع بيده نفسها هذا التاج الثمين ، عندئذ صاح كل الرومان في صوت واحد ، وقد شاهدوا جميعاً كيف كان حريصاً على الدفاع عن الكنيسة الرومانية المقدسة ورئيسها .

كانت هذه ارادة الله وبطرس المبارك حامل مفاتيح مملكة السماء . الى شارل التقى التوج من قبل الله الامبراطور المعظم المحب للسلام فليمنحه الحياة والنصر ، وقد أعلن ذلك ثلاث مرات قبيل الاعتراف المقدس للرسول بطرس المبارك وبينما كانوا يمجّدون مختلف القديسين ، أقره الجميع امبراطوراً للرومان .

وقد مسح البابا والأسقف المقدس شارل وابنه بالزيت المقدس في هذا اليوم يوم ميلاد السيد المسيح .

د — ومن تاريخ ثيوفانيس(٩)

(8) Translated by H.W. From-Vita Leonis Liber Pontificalis «ed. 1 Duchesne» Vol. I, Paris 1886, p. 11, 7.

(9) Stewart «op. cit.»

From Theophanes «Chronographia», A. M. 6293. Migne Patrologia Curus Completus, series Graeca, CV III Col. 956.

وفى هذا العام فى شهر ديسمبر نوح الملك شارل ملك الفرنجة
بواسطة البابا ليو .

ملحق رقم ٧

اعتراف البيزنطيين بشارلمان

عقد معاهدة السلام كما وردت فى

حوليات لورثى سنة ٨١٢ م (١٠)

وبعد أن أحرز شارلمان انتصارات عديدة رائعة فى مواسيا قتل
الامبراطور بيثفور فى أحد المعارك ضد البلغاء ، وجاء ميخائيل زوج ابنته
امبراطور من بعده ، وكان هو الذى استقبل فى القسطنطين السفراء
الذين أرسلهم الامبراطور شارل الى بيثفور والذى أعادهم ثانية مع
مندوبيه الاسقف ميخائيل وارسوف وثيوجنونوسى وكان قد أرسلهم
لنعتقدوا معاهدة السلام التى بدأها بيثفور . وبعد وصولهم الى البلاط
الامبراطورى فى آخن تسلّموا من يده معاهدة السلام فى كنيسة القصر،
وهتفوا بحبانه وأنوا عليه بالمديح والاطراء بطريقتهم الخاصة وبالمراسم
واللغة اليونانية كامبراطور وباسيليوس .

وفى رحلة العودة توقفوا فى روما ونسلموا فى كاتدرائية
القديس بطرس الرسول نسخة أخرى من معاهدة السلام موقعا عليها
من البابا ليو الثالث .

ب — من رسالة لشارلمان سنة ٨١٣ م (١١)

نشكر سيدنا يسوع المسيح ربنا الحق ، نشكره بكل قوة جسدنا
وعقلنا ومن كل قلوبنا لأنه بخيره العميم جعلنا نعيش إيماننا هذه وقد تحققت
رغبتنا الطويلة التى طالما انتظرناها من أجل السلام بين الامبراطوريتين

(10) Translated by, H.W. from Annales Laurissenses Vel
Einhardi «Man. Germ. Hist. Scriptores», p. 199.

(11) Eastan «op. cit.»

«Mon, Germ. Hist. Epistolae IV» No: 37, p. 556.

الشرقية والغربية وسمح لنا أيضا ان نحكم ونحمى دائما متطلبات الكنيسة الكاثوليكية المقدسة الطاهرة التى انتشرت فى العالم ، والتى امرنا بتوحيدها ، ونشر السلام فى وقتنا هذا .

ملحق رقم ٨

التنظيمات الاقتصادية فى عصر شارلمان

١ — بنود من مرسوم الضياع (١٢)

كل وكيل مسئول عن اقطاعية وعليه أن يقدم كشف حساب سنوى عن دخل اراضينا ، وذلك لنعمل احصاء للأراضى التى حرثت بالثيران بواسطة حراثتنا ، والأرض التى يفلحها أو يزرعها المستجرون والتى يجب عليهم حرثها ، وأن يحسبوا حساب الخنازير والايجارات والالتزامات والمكوس التى تؤخذ على الصيد فى غاباتنا بدون تصريح منا وكذلك عن المطاحن والغابات ، وعن الحقول والقناطر والمراكب ومن الرجال والمئات الذين تحت تصرفنا ومن الأسواق والنبلاء وهؤلاء الذين يدينوا لنا بالولاء ، وعن القش والخشب والوقود والمشاعل والواح الخشب وأنواع أخرى من الأشياء المختلفة ، وعن الأرض القاحلة الغير محروثة والخضروات والأعشاب وعن الصوف والكتان والقنب وعن أشجار الفاكهة ، وأشجار الجوز الصغيرة والكبيرة والأشجار المطعمة بكل أنواعها ، والحدائق واللفت وبرك الأسماك والجلود ومقاييس الأنهار والأبواقى والعسل والشمع والدهن والشحم والصابون ونبذ التوت والنبذ المطبوخ وشراب الخمر ، والخل والبيرة والنبذ القديم والجديد وعن الحبوب والفلال القديمة والجديدة والبيض والأوز وعن عدد الصيادين والعمال الذين يشتغلون بالمعادن ، وصناع السيوف « والاسكافية — صناع الأحذية » وعن صناديق ومخازن الحنطة ، وعن المشتغلين بالخراطة والسروج وعن محال الحدادين والمناجم بما فيه الحديد والمعدن الأخرى ، وعن مناجم الرصاص وعن دافعى الجزية وعن الجياد الصغيرة وسوف يعلموننا بكل ذلك ، ويبينوا لنا ما نحت أمرنا وما غير ذلك حتى نعرف فى عيد الميلاد ثمن كل شىء نمتلكه .

٢٢ — يمتلك وكلاؤنا فى جميع أرجاء مملكتنا الكثير من زرائب الأبقار وحظائر الخنازير والأغنام والاسطبلات ، وعليه ينبغى الا يكونوا لغير ذلك ، وبالإضافة الى ذلك فاننا نملكهم أبقار ويقوم على خدمتهم الأبقار حتى يتمكنوا من أداء عملهم حتى تقبل حظائر الأبقار والمحاريث التى تستخدم فى مملكتنا الى أعلى درجة من الكفاءة . وإذا أرادوا أن يحصلوا على كميات من اللحوم فعليهم بتملك الثران الصغيرة الصحيحة والأبقار والخيول الغير هزيلة والحيوانات الصحيحة ، وكما قلنا فمن أجل ذلك فان حظائر الأبقار والمحاريث لن نصل الى درجة من الضعف .

٣٤ — ضرورة بذل العناية لجميع المصنوعات اليدوية مثل شحم الخنزير واللحم المدخن واللحم المملح والتبييض والخل وتبيذ التوت والأجران والعسل والشمع والحقيق ، وضرورة الاهتمام بصنعها بدقة ونظافة .

٤٢ — ويمتلك كل وكيل فى مملكتنا من أجل الزينة البجع والطواويس وطيور الحجل ، والبط وأبراج الحمام ، وسوف نزود جميع العاملين فى ضياعنا بحجرات مجهزة بأدوات ووسائل ، وأسرة ، ومفروشات ومناضد ومقاعد وأوعية وحديد وخشب وحدة للمقياس وأوانى الطهى وشاكوش وبلط ومتقاب ، وكل أنواع الأدوات ، وذلك كى لا تكون هناك ضرورة لأن يذهب وكلاؤنا للاستعارة من أى مكان .

ونلح على ضرورة العناية بالسلاح الذى يستخدم فى محاربة الأعداء وأن نجعله فى حالة جيدة ، وعند الانتهاء من الحرب يحفظ فى الخزائن .

٤٣ — يجب أن تنفذ نساؤنا ما تأمرهن به من ضرورة العمل فى غزل الصوف ، والكتان ، واستخدامهن للوشمة وصبغ الفوة ، وصناعة الصابون والشمع والأوعية وغير ذلك من الأعمال التى يكفن بها .

٤٤ — بخصوص الأطعمة المنتجة — بخلاف اللحوم — فاننا تأمر بارسال النصف أو الثلث لاستخدامنا الشخصى ، وهذه الأطعمة مثل الخضروات والأسماك والجبن والزبد والعسل والخل والأعشاب الجافة والخضروات والفجل ، بالإضافة الى الشمع والصابون والمنتجات

الصغيرة ، ونرجو ارسال أثمانها فى كشف خاص بذلك .

٥٥ — سوف يملك كل وكيل فى مقاطعته بعض العمال المهرة وخاصة الحدادين ، وصناع الذهب والفضة والاسكافية والخراطين والنجارين وصانعى السيوف والصبادين ، وصانعى أدوات المبارزة ، وصانعى الصابون والبيرة والخبازين الذين يصنعون الفطائر وصناع الشباك المستخدمة فى القنص والصيد ، وصائدى الأسماك والطيور .

عملية جرد أو مسح لملكات شارل العظيم(١)

وجدنا فى أحد حقول ضبعة أسنابيوم «Asnapium» منزل ملكى مبنى من الحجر بطريقة مثلى به ثلاث حجرات ، والمنزل محاط بالشرفات وبه أحد عشر غرفة للنساء ، ورواقان معمدان عند مدخل المبنى ، وسبع عشرة منزلا آخر تم بنائهم من الخشب بفناء متسع وحجرات كثيرة ، وملحقات فرعية أخرى بنيت بعناية ، الى جانب اسطبل ، ومطبخ ، وطاحونه ، ومخزن قمح ، وثلاث مبان للعربات .

والفناء محاط بسياج من الشجيرات ومدخل من الحجر وشرفة من أعلى وفناء داخلى مطوق بالأشجار أيضا ، ونظم وزرع بطريقة مناسبة .

الأوعية :

٢ غلاية — ٢ فنجان شرب ، مقله — زوج مساند من الحطب المشتعل ، ولبه ، وفأس صغيرة ، أزميل ، مققاب ، سكين ، مطبق كبير ومنجلان للحصاد ، ومجرافان من الحديد وأوعية خشبية تكفية للاستعمال .

انتاج المزرعة :

حنطة قديمة من العام الماضى ، ٩٠ سلة بمكن أن تستوعب ٥٠ كيلا أو وزنا من الدقيق ، مائة كيلة من الشعير ، ستون سلة لهذا الغرض ، والباقى لاستيعاب مائة كيلة من القمح ، الى جانب ستين خنزيرا ، والى

وثمانمائة كيلة من الشعير ، اربعمائة وثلاثون كيلة من الشوفان وكيلة من القمح ، واثنى عشرة كيلة من البازلاء ، وخمس مطاحن ، وثمانمائة وحدة من الوحدات الصغيرة .

ويوجد كذلك أربع خمارات للجمع ، وستمائة وخمسون وحدة ، ومائتين وأربعين لذوى الرواتب الصغيرة الى جانب الباقي الموجود .

أما بالنسبة للقنطريتين فهناك ستون كيلة من الملح ، وثلثان وأربع حقائق واحد عشر شلنا . العسل ثلاث اوعية لحوالى وحدة من الزبد والدهن من العام الماضى ، وعشر جوانب ودهون وجبن من العام الحالى ، وثلث وأربعون وحدة .

المباشية :

واحد وخمسون من رعوس المواشى الكبيرة خمس اعمارهم من ثلاث سنوات ، وسبع اعمارهم سنتان ، وسبع عام واحد ، الى جانب عشر عمرهم عامان ، وثمان مهورات ، وثلثون فحلا ، وست بقرات وجحشان وخمسون بقرة ولود بالعجول ، وثوران صغيران ، وثمان وثلثون بقرة ولود بالعجول ، وثلث حوامل ، ومائة وعشرون جدى وثلثون ماعز صغير ، وثلث ماعز حامل ، واثنان من اثنى الماعز ، وثلثون أوزه ، وثمانون دجاجة ، واثنان وعشرون طاووسا .

وفيما يختص بها ذكرناه سالفا ، فاننا وجدنا فى ضيعة جريزيو Grisio ثلاث حظائر للمباشية وفناء محاط بسور ، وحديقة بالأشجار وعشر أوزات ، وثمان بطات ، وثلثون دجاجة ، ومئى ضيعة أخرى وجدنا مبانى وفناء محاط بسيج من الشجيرات وثلث حظائر ومجموعة من الكرمات وحديقة مملوءة بالأشجار ، ومائة وخمسون أوزة وعشرون دجاجة .

ومئى الضيعة الثالثة مبانى حقلية بها حظيرتان ، ومخزن للقمح ، وحديقة وفناء مسيح جدا بسيج من الشجيرات .

كما وجدنا وحدات القياس، الصلبة والسائلة مثل المستخدمة في القصر الملكي ولم نجد أى صياغ للذهب أو للفضة أو حدادين أو صيادين أو صيادين مرتبطين بأى أعمال أخرى .

وحدات الأعشاب التى وجدناها كانت من السوسن والنعناع والبقدونس والكرفس والعرعر ، والكراث والثوم والنعناع البرى والكزبرة ، والبصل والكرنب .

والاشجار — الكمثرى — التفاح — البشمة — الخوخ — البندق — الجوز — التوت — السفرجل .

ملحق رقم ٩

التنظيمات العسكرية

مرسوم خاص بتنظيم الجيش (١٤)

١٤ — عدم السماح لأى فرد بالاستحواذ على أسلحة بدون أوامرننا .
٢٠ — عدم السماح لأحد ببيع مهمات حربية « معاطف — دروع » خارج مملكتنا .

٧ — عدم اعطاء التجار التروس والمهمات .

وإذا تخلف أى فرد عن الانضمام للجيش ، ويقيم بمنزله ، بينما يذهب الآخرون الى الحرب ، فسيحق به العار ، ويضطر لدفع غرامة كاملة كما نص على ذلك قانون الفرنجة وهو ما يساوى ستين صولدا .

٣ — بخصوص الهاربين من الجندية أيضا ، فإذا ثبت أن شخصا أظهر تمردا أو عصيانا للهروب من الجيش ، وعاد الى منزله بدون تصريح من الملك فإذا ثبت أنه مذنب فسيعد مجرما ويعدم وتصادر ممتلكاته .

(14) From University of Pennsylvania. Tran, and Reprint VI, 5, pp. 6, 7, 10 — 11.

in.

Estan, op. cit. p. 137 — 142.

٦ — بخصوص معدات الجيش فيجب أن يطبق عليها ما ذكرناه في المرسوم الآخر خاصة ما نراه من ضرورة الزام كل شخص يمتلك اثنا عشرة حقلا عليه أن يملك زردا ودرعا ويقدمه في حالة نشوب معركة ، فإذا لم يقدمه فيقوم الملك بسحب الزرد والأرض الممنوحة له كمعيشة عقابا له .

٧ — فيما يخص التجار الذين يذهبون الى مناطق السلاف والآمار — فيحظر عليهم حمل اسلحة أو معدات للبيع ، وإذا اكتشف أحدا يحمل سلاحا أو معدات فستسحب منه ، ونصفها يؤول الى الخزانة الملكية والنصف الآخر سيوزع جزء منه على المبعوثين ، وعلى الذين اكتشفوا . عملية التهريب .

التنظيم العسكري :

٣ — إذا استدعى أى شخص يشغل وظيفة في مملكتنا لأى عمل عسكري ولم يلبي النداء ويتعامل مع القائد المختص ، فسوف يمنع عنه اللحم والنبيد لفترة كبيرة حتى يشرح أسباب غيابه أو تخلفه عن النداء للرئيس المختص .

٦ — ممنوع على أى فرد أن يطلب من قائده المختص أن يحضى الخمر أثناء تجمع الجيش ، وإذا ضبط رجل مخمور في الجيش ، فسوف يحرم من الكنيسة ، ويمنع عنه شرب أى شئ عدا المياه حتى يعترف بخطاه .

٨ — ان الاستعداد للخدمة في الجيش سيسير على نفس النظام القديم وخاصة بالنسبة والطعام والمؤن اللذين لسيير الجيش لمدة ثلاث شهور والسلاح والملابس اللذين لنصف عام ، مع هذا فقد تقرر بأن هؤلاء الذين سيأخذون طريقهم من الراين الى اللوار سنوف يحتسب لهم بداية احتياجاتهم من المؤن ابتداء من اللوار ... الخ .

٩ — أصدرنا قانونا بمنع أى أسقف أو مقدم دير للرهبان وللراهبان أو أى قسيس أو حارس للكنيسة من أن يقوم بمنح أو بيع السيوف أو الدروع بدون إذننا لأى فرد خارج اقطاعيتهم ولا يسمح لهم بذلك الا لاتباعهم فقط . وإذا حدث ان وجد في أى كنيسة أو أى مكان مقدس أنهم يملكون دروعا

أكثر مما يحتاجها الرجال الذين يقومون بحراسة نفوس الكنيسة ؛ عندئذ يقوم القسيس المسئول بسؤال الملك عما يمكن عمله بهذه الدروع .

١٠ — جميع المعدات الخاصة بالملك سوف تحمل على عربات ، الى جانب المعدات الخاصة بالأساقفة والكونتات ، ومقدمى الأديرة والنبلاء ، كما يتم تحميل الحقيق ولحم الخنزير والتبيض ، والطواحين والفؤوس والبلط والمقاليع ، الى جانب الرجال الذين يعرفون استخدام هذه الأدوات جيدا ، ويقوم المارشال الخاص بالملك بتحميل الحجارة اللازمة لكل هؤلاء على عشرين بهيما وذلك فى حالة الحاجة اليهم .

وعلى كل شخص دعى الى القتال أن يستعد بما يلزمه ، وأن يحضر معه المؤن والمعدات الخاصة به ، وكل كونت سيكون عنده كميات من علف الحيوانات فى مقاطعته لاستخدامها فى الجيش ، وسيحصل على الكبارى والسفن الجيدة .

ب — خطاب مرسل من شارلمان الى فولراد مقدم الدير بخصوص الجيش

بسم الأب والابن والروح القدس ، شارلمان اغسطس المنوج من عند الله وامبراطور الباسفيك ، وبرحمة الله ملك الفرنجة واللومبارديين ، يبعث بتحياته الى فولراد مقدم الدير .

« ليكون معلوما لك اننا قررنا عقد اجتماع عام هذا العام فى شرق سكسونيا على نهر بودا فى المكان المسمى ستاسفورت Stassfurt ونأمرك بأن تحضر الى المكان المشار اليه مع رجالك المستعدين المسلحين من اليوم الخامس عشر من يوليو ، وهى أيام صعبة وقبل عيد القديس يوحنا المعمدان . فأحضر الينا مستعدا ومسلحا ومعك رجالك فى المكان المشار اليه ، وأن تكون على استعداد للذهاب الى أى مكان نوجهك اليه ومعك السلاح والتجهيزات والملابس الخاصة بالحرب الى جانب الطعام . ولذلك فانه يجب أن يكون عند كل فارس ترسا ورمحا وسيفا ، وخنجرا وقوسا ، وكنايات بالسهم ، وأن تحوى العربات مختلف الأدوات المطلوبة للقتال مثل البلط والمقاشط والفؤوس والواح الخشب والمجارف الحديدية وجميع الأدوات

— ٤٠١ —

التي تستخدم في الحرب : كما يجب أن تحمل العربات المسؤن اللازمة من الطعام والتي تكفي ثلاث شهور تبدأ من بداية تجمع الجيش ، والملابس والسلاح يكفي نصف عام . وهذا أمر عام ، عليك أن تعد نفسك ، وتتوجه باطمئنان الى المكان المشار اليه .»

وعلى كل فانه يحذر عليك وعلن أتباعك عند مرورهم على أى مكان في مملكتنا أن يأخذوا شيئا ما عدا علف المشية والخشب والماء ، ودع الرجال الذين يسرون مع كل تابع من أتباعك أن يسروا بجانب عرباتهم وفرسانهم ، واجعل القائد يسير دائما بجانبهم حتى يصلوا الى المكان المشار اليه لأنه في حالة غياب القائد ، من الممكن أن يقوم جنوده بأعمال خطيرة .

وعليك أن ترسل اليها الهدايا المفروض عليك أن ترسلها في الاجتماع الذي سيعقد في منتصف شهر مايو في المكان الذي سنكون فيه هناك . وإذا كان بالمصادفة ، وتمكنت أثناء رحلتك أن تكون على استعداد للقدوم شخصيا وتقديم الهدايا اليها ، فائنا نفضل ذلك حقيقة . وسنرى في المستقبل انه لن يكون هناك اهمالا منا مطلقا في تلبية أى رغبة لك ، وتقديم جميل مماثل .

ملحق رقم ١٠

التنظيمات السياسية

مرسوم عام للمبعوثين عام ٨٠٢ م (١٥)

الجزء الأول خاص بالمبعوثين الذين يرسلهم الامبراطور الى الخارج .
« لذلك فان الامبراطور التقى الدين شارلمان قد اختار من بين نبلاء أكثرهم حكمة وتعقلا ، فمنهم رؤساء أساقفة ، وبعضهم أساقفة أيضا ، ومقدمى أديرة وكثير من العلماء المتدينين ، وبعث بهم في جميع أرجاء المملكة وعن طريقهم جعل الناس تعيش طبقا لقوانينه الصحيحة وزيادة على ذلك ، فان أى شيء يجدونه غير صحيح أو مخالف ، فكان يسن له قانونا ، وقد أمرهم الامبراطور أن يبحثوا بجد بالغ ويبلغوه ، فقد منحه الله القدرة على الإصلاح . . . فطلب من المبعوثين أنفسهم أن يقوموا بالتحقيق ،

— ٤٠٢ —

إذا اشتكى أى انسان من عدم تطبيق العدالة أو أن أى شخص قد أضره ، فعليهم أن يقوموا بالتحقيق باخلاص ورهبة وخشوع وخوف من الله . وسوف ينفذوا القانون حرفيا وبعادلة تامة مساوين بين الكنائس المقدسة والفقراء والأرامل وجميع الناس على حد سواء .

وإذا كان هناك بعض الكونتات غير قادرين على حل المشاكل وتصحيح الأوضاع وتحقيق العدالة ، فعلى المبعوثين أن يوضحوا ذلك فى تقاريرهم التى يبعثون بها الى الامبراطور ، ويجب ألا تقف رشوة أو هدايا أو تملق من أى شخص مهما بلغت مكانته فى تحقيق العدل بين الناس — أو أن يستغل الناس القرابة أو يخافون من سلطان الاقوياء .

٢ — فيما يخص يمين الاخلاص الذى اتسموه للامبراطور . فقد أمر كل شخص فى مملكته سواء كان رجل دين أو علمانى وكل شخص تبعاً لقدره وحرفته أن يقدم وعداً للامبراطور بالاخلاص الذى سبق وأن تعهد به واقسم عليه له كملك ، وكل من لم يقسموا هذا القسم عليهم أن يقسموه ، وعلى كل من بلغ اثنى عشر عاماً أن يدلى بقسمه ، وعليهم أن يعلنوا ذلك للجميع حتى يعرف كل انسان أهمية هذا القسم ، ليس لما يظن البعض ان الاخلاص للملك يكون أثناء حياته فقط ، وألا يسمحوا للأعداء بالهجوم على أراضيه ومملكته وألا يستروا ، ولا يكتتموا على خائن ، فليكن معروفا للجميع أن هذا القسم خاص بالجميع .

٤ — ثانياً :

لأبجرؤ شخص مطلقاً على أن يسترد أو يخفى عبداً من عبيد الامبراطور سواء عن طريق الخداع والاحتيال والكذب أو حتى بطريق الخيانة أو الحلف كذباً ، بأن يأوى العبيد والأقنان الهاربين ، والذين يذكرون كذباً واحتيالا بأنهم أحرار .

٥ — لا يجرؤ أحد على أن يسرق أو يلحق ضرراً أو احتيالا على كنائس الرب ولا على الأرامل واليتامى والحجاج ، فان الامبراطور قد نصب نفسه بعد الله والقديسين على أن يكون حاميه والمدافع عنهم .

— ٤٠٣ —

٦ — لا يجرؤ أحد على أن يبدد اقطاع المعيشة الممنوح له من الامبراطور ولا أن يجعله من ممتلكاته الخاصة .

٧ — لا يجرؤ أحد على اهمال أى استدعاء يوجه اليه للحرب من الامبراطور ولم يعترض أحد من الكونتات مقدماً على طرد هؤلاء الذين عليهم خدمات عسكرية ولم يقوموا بها حتى اذا كانت بينهم قرابة أو حدث منهم تملق أو قدمت لهم هدايا على سبيل الرشوة .

٨ — لا يجرؤ أحد على أن يعترض على أى أمر من أوامر الامبراطور أو أن يضيع أوقات عمله ، أو أن يرتكب ما من شأنه أن يتعارض مع أوامره ووصاياه ، ولا أن يهمل تسديد ودفع واجباته الضرائبية .

١٠ — يعيش جميع الأساقفة والقسس طبقاً للقوانين الكنسية ، وعليهم أن يعلموا غيرهم بنفس الطريقة .

١١ — على الأساقفة ، ومقدمى الأديرة ، والرهبان الذين يعملون مع غيرهم ولهم مكانة كبيرة ، أن يجاهدوا فى سبيل الوصول الى رعاياهم ويساعدونهم بأسلوب لين ، ويتعدوا عن الأسلوب الجاف وعن الطغيان ، ويعلمونهم بالرحمة والحب من الأمثلة التى يثبتونها لهم للأعمال الطيبات مما يعمل الى جذب عدد كبير من أفراد المجتمع اليهم بالمحبة والاحسان .

١٢ — يعيش مقدموا الأديرة حيث يعيش الرهبان فى الأديرة المقدسة طبقاً لأحكام الشريعة ، وعليهم أن يقوموا بتعلم ودراسة القوانين الكنسية ، كما يجب على أديرة النساء أن تفعل مثل ذلك .

١٣ — على الأساقفة ومقدمى ومقدمات الأديرة أن يتبعوا القساوسة وحكام المثنيات الذين يعرفون القانون ويحبون العدل ، والذين يعتبرون رحماء وعطوفين ، لذا فانه عن طريق هذا المكسب المعنوى العظيم ستعود الفائدة على كنيسة الرب المقدسة ، لأننا لا نرغب أن نجعل الجشع والضرر يسيطران على الأديرة ..

— ٤٠٤ —

١٧ — يجب أن يعيش الرهبان حياة خشنة وصارمة طبقا لقانون الدير
لأننا نعلم اذا كان احد الرهبان فاترا فى حماسه الدينى ، فهذا يؤدى الى غضب
الرب كما عبر عن ذلك يوحنا بيزز .

١٨ — يجب أن تحكم اديرة النساء بقوانين صارمة ، ولا تتاح الفرصة
للنساء أن يتجولن أو أن يطفن حولها ، وسوف تحرس بكل جد ولا تجرأ واحدة
منهن على اثاره النزاع فيما بينهن ، ولا يجزآن على القيام بتمرد أو عصيان
بأى طريقة تجاه مقدمة الدير .

٢٧ — لقد أمرنا ألا يقوم أحد من أهل مملكتنا بمنع ضيافة واستقبال
أى شخص غنيا أم فقيرا أو حاجا فلا يمنعهم أحد من أن يجدوا مأوى لها ونارا
للتدفئة وماء وخاصة للحجاج الذين يقدمون إلينا باسم الرب أو أى عابر
سبيل قاصدا حب الله ، فعينا أن نمنحهم الحماية . وإذا رغب أحد زيادة على
ذلك فى أن يسدى الى هؤلاء الحجاج خدمات اضافية ، فدعهم يفعلون ذلك
لينالوا ثوابهم الكبير من الله فقد قال متى فى انجيله « ومن استضاف واحدا
حتى ولو كان طفلا قاصدا اسمى فكأنه استضافنى » .

٢٨ — وفيما يختص بالسفراء الذين يقدمون من قبل الامبراطور ، فيجب
أن يهدم الكونتات والحكام بالرعاية والعناية وبالمعلومات التى يريدها
الامبراطور ، أما المبعوئين الذين يبعث بهم الى الخارج ، فعليهم أن يذهبوا
الى مقاطعاتهم دون تأجيل .

٣٠ — وفيما يخص هؤلاء الذين يرغب الامبراطور أن يشملهم يسوع
بحمايته ورعايته فى مملكته خاصة هؤلاء الذين يطلبون العطف والرحمة سواء
اكانوا مسيحيين أم وثنيين ، فهم يريدوا أن يبلغوه بعض الاتباء وذلك طلبا
للمساعدة نتيجة فقرهم أو جوعهم ، فلا يجرؤ أحد على اجبارهم على خدمته
أو أن يستولى عليهم أو يقوم ببيعهم .

٣٣ — نحن نمنع ونحرم جريمة زواج المحارم « ذوى القربى » .

٣٥ — يجب على الجميع أن يبجلوا ويحترموا الأساقفة والقسس بكل
أنواع التبجيل والاحترام لأنهم يخدمون ارادة الله . لأنهم لا يتجراوا على أن

— ٤٠٥ —

يدنسوا أنفسهم بطريق زواج أو تزويج من تحرم الشريعة أن يتم الزواج بينهم ، فلا يعقدوا زواجا قبل أن يستفسروا باجتهاد عن مدى القرابة عن طريق كبار السن من الناس، وبعد أن يتأكدوا من صحته وبعدها يعقدوا الزواج ويباركونه .

٣٦ — وإذا ثبت بعد ذلك وتأكد أن أحدا قد خنت في يمينه وكذب فيجب أن يعلم أنه سيعاقب بقطع يده اليمنى ، وسبجرد من ممتلكاته حتى نصدر قرارا .

٣٧ — لا يجرؤ أحد على أن يسرق من غابائنا لحوم الصيد ، وقد أصدرنا تعليمات كثيرة تمنع ذلك من قبل .

٤٠ — وأخيرا ، فإنا نرغب في أن تعم قراراتنا جميع أرجاء المملكة ويعلمها الجميع عن طريق مبعوثينا الذين أرسلناهم الى الخارج فمنهم رجال دين أساقفة ومقدمى أديرة وقسس وشمامسة ، وكنسيين ، جميع الرهبان والراهبات ، الى جانب العلمانيين الذين انتشروا في كل مكان من أرجاء مملكتنا الكبيرة .

فهارس الكتاب

- الاعلام *
- الفرق والملل والنحل والجماعات *
- الأماكن والبلدان *

٨ الاعلام

اركانديوس : ١٨ ، ٢٣ ، ١٢٦ ، ٤	(١)
١٥٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٣٤٩	
ارنو : ٦٣	آدم عليه السلام : ٣٧١
اريفيس : ٥٤ ، ٩٦	ابراهيم عليه السلام : ٢٦١
اريوس : ٢١	أبو عيسى الوراق : ٢٦٦
اسحق اليهودي : ٢٨٩	أبو القاسم بن ابراهيم البلخي :
اسقروجورسكي : ٢٤٧	٢٦٦
الاسكندر الأكبر : ٢٠٨ ، ٢٧١	أبو قره : ٢٦٦
اغسطس : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ٤٥٩	أبولو : ٢٠٨
٦٦ ، ٦٩	اتيان : ٢٠٥
اغسطولوس : ٢٠٨	اتيلا : ٢٠
٢٤ ، ٦١ ، ١١١	اتيوس : ١١٤
اغسطين : ٢٩٤ ، ٣٣٤	اثناسيوس : ٢١ ، ١٥٧
افلاطون : ٢٦٤	اثولوكوس : ٢٨٣
اقليدس : ٢٨٢ ، ٣٢٠	اثيان : ٢٠٩
اكتيوم : ٥	اثيوس : ١١٣ ، ١١٩
اكسينيفون : ٢٧٧	أجاسياس : ٢٧٧
البوين : ٣٥	ادواكر : ٢٥
الكستدي : ٢٥٩	اراس : ٣٧٧
الكسندر ترايس : ٢٨٣	ارتافادوس : ٨٠
الكسيوس الأول : ١٥٥	ارخس : ٥٣
الكسيوس الرابع : ١٥٥	ارساقبيوس : ١٢٢ ، ١٢٥
الكسيوس كومنين : ٣٤٧	أرسطو : ٢٦٤

١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ،	الكوين : ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٥ ، ٢٨٨ ،
٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢٦٣ ، ٢٩٠ ،	٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،
٣٤٨	٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،
ايزوب : ٢٦١	٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ،
ايزيدور الاشبيلي : ٣٢٠	٣٣٤
ايسوكرايتس : ٢٥٩	اليديوس : ٨٩
ايليسيوس : ٩٥	امالاسوتا : ٣٣
ايلوا : ٣٧٧	اتاكومينا : ٢٧٧
اينهارد : ٤٧ ، ٦٦ ، ١٢٤ ، ٢٨٩ ،	انجلبرت هومر : ٦٤ ، ٣٠٩ ،
٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ،	٣١٩ ، ٣١٥
٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ،	انجيلوم : ١٨٠
٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٧٩ ،	انستاسيوس : ٧٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
(ب)	انسلم : ٥٨
باباريغويولو : ١٣٩	انطونيوس : ٥
باخوس : ٢٠٢	انطون جاولياس : ٢١٥
باخوم : ٢٧٠	اكتافيوس : ٥ ، ٧ ، ٢٩
باخوميوس : ٢٦١	اوكسيراخ : ٣٨ ، ٤٢
باراداس : ٢٦١ ، ٢٦٢	اومان : ٧١
باسيل : ٢٧٠	اياصوفيا : ٢٠٣ ، ٢٠٦
باسيل الثاني : ١٥٥ ، ١٥٦	ايرارتنس : ٣٣
برترادا : ٤١ ، ٤٣	ايركامبالد : ٣٣٤
برسكوس : ٢٠	ايرين : ٣١ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
برونتوس : ٣٣٢	٧٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
بروكبيوس : ٣٤	٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
بروكيبيا : ٢٢٤	٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
	١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
	١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

بيرين ، هنرى : ٥٤ ، ٦٩ ، ١٨٤
٣٥٥ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨
بيزاس : ١٤
بين القصير : ٥٣ ، ٨١ ، ١٧٠ ،
١٨٤ ، ٣١٢ ، ٣٨٣
بيورى : ١٢٦ ، ٢٦٢

(ت)

ناراسيوس : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ،
١٠٤ ، ١٢٠
تاكيتوس : ٣١٧ ، ٣٣٢
تامارا رايس : ٢٢٦
نحتمس الثالث : ٢٠٨
تسكانيا : ٣٥
توتيل : ٣٣ ، ٣٤
توما الاكوينى : ٢٦٨
تيوداهاد : ٣٣

(ث)

ثيكويديس : ٢٥٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧
ثيوجوتوس : ١٢٥
ثيودور : ١٢٠ ، ١٤١ ، ١٦٥ ،
١٩٩ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ،
٢٨١
ثيودورا : ١٤٣ ، ٢٤٣ ، ٢٧٢ ،
٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠
ثيودريك : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٩ ،
٦٨ ، ٢٨٩
ثيودريك الكبير : ٣٢

بريام : ٢٥٩

بسلو : ٢٥٧

بسلوس : ٢٧٩

بطرس : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٨ ،
٧٩ ، ٨٢ ، ٢٠٣ ، ٣١٨

بطرس البيزى : ٣١٤

بكر : ١٢١ ، ١٢٤

بطليموس السكندري : ٢٨٣

بطليموس : ٣٣٠ ، ٣٣٥

البلاخرناى : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ،

بلاتو : ٩٩

بليزاريوس : ٣٣ ، ٣٤

بندكت : ١٧١

بنيامين التطلى : ٢٠٢

بوثيبوس : ٣٣

بوجولف : ٣١٣

بوذا : ٢٧٥

بومير : ٢٦٧

بول : ٩٠

بولس الشماس : ٣١٤ ، ٣٣٤

بولس الايجينى : ٢٨٣

بومبى : ٥

بوفيفاس : ٦٠ ، ١٨٠ ، ٣٠٠

بين : ٤١ ، ٤٣ ، ٥٠ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ١٢١ ، ١٦٣ ، ٢٩٢ ،

٣٠٨

جرجورى : ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
٣٨ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٧٧ ،
٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣٢٨

جوفينال : ٣٣٢

جيرمانه : ٢٠٥

جريموالد : ٩٦

جستينان : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٧٨ ،
١١٠ ، ١١١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٤٦ ،
١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ،

٢٥٧ ، ٢٣٦

جستين : ٣٣

جلزر : ٣٤٧

جورج : ٤٢ ، ٢٨١

جورج ماسينه : ١٤٤

جوزيف كاب : ٧٦ ، ٨٩

جونكينز : ٩٠

جيرالد سيمونس : ٦٩ ، ٣٥٨

جيروم : ٢٢ ، ٢٣ ، ٣١٨

جيرى : ٦٨

جيرين : ٣٦٧

جيللا : ٤٣ ، ٨٢ ، ١١٨ ، ٣٢٥

جيلاريوس : ٣٠

(ح)

الحجاج بن قطر : ٢٨٢

حنا الاول : ١٥٥

حنا ميتنورف : ٧٦

ثيودسيوس : ١٨ ، ٢٣٠ ، ٧٢ ،

١١١ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٦٩ ، ١٨١ ، ٢٠٣ ، ٢٥٦ ،

٢٦٩ ، ٢٧٠

ثيودسيوس الثالث : ١٢٦

ثيودسيوس الكبير : ٢٠٨

ثيودوت : ٩ ، ١٠٠ ، ١١٤ ، ٢٥٧ ،

ثيودولف : ١٠ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ،

٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ،

٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،

ثيوفانيوس : ٥٢ ، ٩٢ ، ١٠٠ ،

١٠١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٥٣ ،

٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥

ثيوفيل : ١٩٦ ، ٢٣٧

ثيوفيلوس : ١٥٥ ، ٢٣٧ ، ٢٧١ ،

٢٨٣ ، ٢٨٠

ثيوكتيستوس : ١٠٢

(ج)

الجاحظ : ٢٦٦

جال : ٢٨٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣٦ ،

٣٢٨ ، ٣٣١

جاليريوس : ١٥

جالينوس : ٢٨٤

جيررجا : ٤٨

جرجس الراهب : ٢٥٣ ، ٢٧١

جرمانوس : ٧٨

جرجورانس : ٢٧٧

(خ)

لخليفة المنصور العباسي : ٣٦١

(د)

اود : ٧١

اود رايس : ١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٥

٣٦٠ ، ٣١٩ ، ٣١٨

مسديوس : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٨

٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٢٩٢ ، ٣٥٣

تلدانوس ، ٣ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١

١٣ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٢١ ، ١٢١

٢٦٩ ، ٣٤٧

نيس : ٩٦ ، ٣١١ ، ٣٢٨

ورستاد : ٣٨٣

يفز : ١٦٢

يفوبوس : ٢٥٩

يل : ٢٠١ ، ١٤٤ ، ٢٧٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٤

٣٥٩ ، ٣٥٠ ، ٣٤٩

(ز)

ابان : ٣٢٥

انجابه : ١١٥

وترود : ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٢

٣٢٥

وديد : ٢٩٢

وميتوس : ٢٣

ولاند : ٥٨

وفينوس : ٦٨

رومولوس : ١١١

رونسيغال : ٥٨ ، ٣٣٣

ريكيه : ٦٤

(ز)

زكريا : ٤١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٠

زوتبرج : ٢٧٦

زينون : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٠

(س)

سابا : ٢٦٨

سارافيجيني : ٢١٦

سارة : ٢٦١

سافاس : ٩٤

سالفين المرسيلى : ٢٣

سباسياروس : ١٢٢

سبتيوس سفروس : ٨ ، ٢١٠ ، ٢١٠

سبنسكى : ١٤١

ستيلكو : ١٨ ، ٢٣

ستاراكوس : ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٤

١٢٣ ، ١١٩

ستيفن : ٤٢ ، ٤٧ ، ٦٠ ، ٨١ ، ٨١

١١٠

ستيفتسون : ٣٧٨ ، ٣٨٣

سرجيوس : ٢٠٢

سعيد عاشور : ١٧ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٢

٣٧٣

سقراط : ٣٦٤

١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
 ١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،
 ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،
 ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
 ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
 ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٥٢ ،
 ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
 ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،
 ٣٨٦

شتورم : ٣٣٥

شيشرون : ٣١٧

(ص)

صوفيا : ١٣٣ ، ٢٠٢ ، ٢٢٦ ،
 ٢٤٦

(ط)

طومسون : ١٦٢ ، ٣٧١

(ع)

علاموس : ١٣٨

عبد الله الهاشمي : ٢٦٦

مكولاستيكوس : ٢١٠

مسليمان العربي : ٥٧

منيسيوس : ٢٧٢

السيدة العذراء : ٢٣٨ ، ٢٦٧

(ث)

شارل ديل : ١٤٢

شارل مارتل : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،

٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ،

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٦٨ ،

٨٣ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،

١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٤ ، ١٧٠ ،

١٧١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،

٣٠٨ ، ٣٢٨ ، ٣٦٧

مشارلمان : ٣١ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ،

٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ،

٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ،

٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،

٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ،

٧٥ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ،

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧ ،

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥٩ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،

قسطنطين الخامس : ٧٣ ، ٧٧ ،
٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
٨٤ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١١٤ ، ١٥٦ ،
١٥٧ ، ٢٠٧ ، ٢٣٧ ، ٢٦٩ ،
٢٧٢ .

قسطنطين السادس : ٧٣ ، ٨٥ ،
٨٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،
١١١ ، ١١٩ ، ٢٧٠ .

قسطنطين السابع : ١٩٧ ، ٢٧٣ ،
قسطنطين الثامن : ١٥٥ ،
قسطنطين الكبير : ١٢٠٩ ، ١٦ ،
٢١ ، ٢٩ ، ٧١ ، ١١١ ، ٢٥٦ .

(د)

كارل : ٤٨ ، ٢٩٢ ،
كارلمان : ٤١ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
كاسيدروس : ٣٢٠ ،
كاسيه : ٢٨٠ .

كامبولوس : ٦٢ ،
كوامباخر : ٢٨٠ ،
كروم : ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٥٧ ، ٢٠١ ،
٢٠٣ .

كلوفس : ٥٩ ،
كليوباترا : ٥ ،
كوبرنيوموس : ٤٢ ،
كوبلاند : ٣٦٥ .

عبد الرحمن بن معاوية : ٥٧ ،
عبد المسيح الكندي : ٢٦٦ .

(ف)

فازيليف : ١٤٢ ،
فاسترادا : ٢٩٢ ،
فالنشيان الثالث : ١٢٦ ، ١٦٨ ،
فرانز كوميون : ٢٥٠ ،
فيلاريت : ٢٣٩ ،
فلاكوس : ٣١٩ ،
فوشيبوس : ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٧٢ ،
٢٧٨ .

فيتالى : ٢٨٨ ،
فيدكند : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
فيليكس : ٣١٤ ،
فيليوكو : ١٧٩ .

(ق)

قاسمين بن يوسف : ٥٧ ،
قسطنابن لوقا : ٢٨٢ ،
قسطنطين : ٣ ، ٨ ، ١٢ ، ١٣ ،
١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٣٦ ،
٤٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٣ ،
٨٠ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٦ ،
٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢٩٩ .

(J)

لامب : ١٠٤ ، ٢٨٩ .

لو كولومبي : ٥ .

لو كيوس سنتيوس : ٦ .

لويسق : ١٧٩ ، ٢٩٢ .

لويسن ، التقي : ٣٨٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

لويسن الثاني : ١٩٢٦ .

ليثويزاند : ٤٠ ، ٢٣٦ .

ليسياس : ٢٥٩ .

ليكنيوس : ٢٧ .

ليو : ٣٠ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٦١ ، ٦٢ ،

٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ،

٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٨ ،

١١٠ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٣٣ ،

١٤٦ ، ١٩٧ ، ٢٩٣ .

ليو اسبثياروس : ١٢٨ .

ليو الارمني : ٢٨٣ .

ليو الثالث : ١٣ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ،

١٥٥ ، ١٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٤١ ،

٣٥٣ ، ٣٥٠ .

ليو الرابع : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ،

٨٨ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١١١ .

ليو الخامس : ١٢٦ ، ٢٦٩ ، ٤٧٠ ،

ليو الخزري : ٥٣ ، ٨٣ .

ليو السادس : ١٣٤ .

ليو الشماسق : ١٧٧ .

ليندساي : ٧٠ ، ١٢٥ .

ليوت : ٣٥٩ .

ليوتجارد : ٦٤ .

(M)

مارتن : ١٠٥ .

مارتيان : ٣٣٢ .

مارتيانوس كابيللا : ٣٢٠ .

مارسيان : ٢٠٣ .

مازيا : ٨٥ ، ٩٦ ، ٩٩ .

مالسينيوس : ١٦ .

المأمون : ٢٦٦ ، ٢٨٣ .

مانويل كزيز لوراس : ٢٠٢ .

مريم : ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٢٨٨ .

محمد صلى الله عليه وسلم : ٢٦٦ .

مرقص : ٢٢٧ .

مولتين : ٣١٢ .

مسلمة بن عبد الملك : ١٣٢ ، ١٥٣ .

المسيح : ٢١ ، ٢٩ ، ٦٦ ، ٧٦ ،

٩٣ ، ١٣٢ ، ١٩٧ ، ٢٦٦ ،

٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٣١٤ .

مكسيميانوس : ١٢ .

موريس : ٣٨ ، ٧٠ ، ٢٧٠ .

موسى : ٢٩١ .

هارون الرشيد : ٩٦ ، ١١٠ ، ١١٣ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢٨٩ ،

٣٤٨

هاسي : ١٤٢ ، ١٦٨ ، ١٩٢ ، ٢٧٦

هايد : ٣٦١

هرستال : ٢٩٧

هرقل : ١١ ، ١٣٦ ، ١٥٧ ، ٢١٧

هلدياد : ٣٣

هيروذوت : ٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧

هودجكن : ٩٥

هيلجارد : ٢٩٢

هيوم : ٦٨

(و)

وتيجيز : ٣٣

وندرل : ٣٢٥

وينتر : ٣٣٥

(ي)

يعقوب : ٧١

يوثيميوس : ٢٧٩

يوحنا التامن : ٢٠٢

يوحنا الحمشقي : ٣٥٣ ، ٢٦٦ ،

٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩

يودوكيا : ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٨

يوسبيوس : ١٦

يوسف : ٧١ ، ٢٧٠

يوليوس قيصر : ٣٧٣

ميخائيل الاول : ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢٦٣ ،

٢٦٩

ميخائيل بيسلوس : ٢٨١

ميخائيل الثاني : ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٥

ميخائيل الثالث : ١٥٥ ، ٢٦١ ،

٢٦٢ ، ٢٦٦

(ن)

نارسييس : ٣٤

نقفور : ٨٨ ، ١١٥ ، ١٩ ، ٤١ ، ١٢٠ ،

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

٢٧٥ ، ٢٧٧

نقفور الاول : ٢١٤

نقفوريس : ١٢٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ،

٢٧٠ ، ٢٧٢

نقفور فوقاس : ٢٠٥ ، ٢٣٦

نكيتاس : ١١٩

نورمان بينز : ١٣ ، ٣٤٧

نيقولا سنيكوس : ٢٧٨

(هـ)

هاجر : ٢٦١

هارديان : ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦١ ،

٦٢ ، ٦٥ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٨٠ ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٣١

الفرق والمال والنحل والجماعات

(أ)	
الآفار : ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٨ ، ٣٨٠	الاسرة الايسورية : ٢٤٩
آل باليولوجوس : ١٥٦	الاسرة الرومانية : ٢١٨
آل كومنين : ١٩٦ ، ١٥٥	الاسرة العمورية : ٢٦١
الاباطرة الايسوريون : ١١٠	الاسرة المقدونية : ٢٦٢
الاباطرة الالايقونيين : ١٤١	الاسكتدنافيون : ١٥٠ ، ١٥١ ، ٣٧٩ ، ٢٤٧
الاباطرة المبيزنطيون : ١٦ ، ٢٠ ، ١٥٠ ، ١٢٤ ، ٨٣ ، ٧٠	الاسلام : ٧٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٦٥ ، ١٥٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨
٣٤٠ ، ٢٥٧ ، ١٥٥	الاسيويون : ٢٣٦ ، ٢٦٣
الاباطرة الرومان : ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ٦٩ ، ٦٦ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ١٩	الاطباء : ٢١٢ ، ٣٥
اباطرة الشرق : ٦٠	الاغريقيات : ٢٢٣
الاباطرة اللانين : ١٥٥	الاغريق : ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٣٦ ، ٢٨١ ، ٢٧٤ ، ٢٦٧
الأتراك : ١٤٣ ، ١٥٠ ، ٢٤٦	الألمان : ٢٠ ، ١٧٨
الأتراك العثمانيون : ١٥	الاليريون : ٧
الأناسيوسية : ٢١	الاليمنيون : ١٦١
الأرثونكس : ٦٠ ، ١٠٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨١ ، ٢٦٦ ، ٢٥٦	الأمة الألمانية : ٥٥
الأرمن : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٦٣ ، ٣٥٨	الامويون : ١٥٣ ، ٢٦٦
الأريوسية : ٢١ ، ٣٣ ، ١١٩	الانجليز : ١٠٥ ، ٣١٣ ، ٣٨٤
الاساقفة : ٣٠ ، ٩٤ ، ١٠٧ ، ١٣٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ٣٠٠	انجلز : ٢٦
الاساقفة الشرقيون : ٩١	الاجيبريين : ٥٥ ، ٥٦
الاسبان : ١٠٧	أوفا : ٣٧٩
الاستقاليون : ٥٦ ، ٥٥	الايبريون : ١٥٠
	الايبرانيون : ٢١٥

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٢٥ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ،
١٧٨ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ،
٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٥٨ ، ٢٦٤ ،
٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٣١٨ ،
٣٣٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ،
٣٥٨

(ت)

التجار : ١١ ، ١٨٦ ، ٣١٣

(ث)

الثورنجيون : ١٦١ ، ١٨١

(ج)

جاليروس : ٢

الجرمان : ١٣ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٢ ،
٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٥ ،
١٠٦ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ،
١٨٦ ، ١٩٩ ، ٢٣٥ ، ٢٨٩ ،
٣٦٧

(ح)

الحنيون : ٢١٥

الحواريون : ٢٥١

الايسوريون : ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٣ ،
١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
١٥٧ ، ٢٦٣ ، ٣٥٢ ،
الايطاليون : ٣٥٣ ،
الايقونيون : ٩٤ ، ١٠٢

(ب)

الباجوس : ١٦٨ ،
البقاريون : ٤٣ ، ٥٨ ، ١٦١ ،
الباتونيون : ٧ ،
الباسك : ٥٨ ،
البرابرة : ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٨٤ ،
البرابرة الجرمان : ١١ ، ٢٠ ،
البرجنديون : ٢٠ ،
البيزنطيات : ٢٢٢ ، ٢٣٨ ،
البريتون : ٦٤ ،
البريطانيون : ٣٧٩ ،
البطاركة : ٢٣٧ ،

البلغار : ٩٨ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٧ ،
١٧٨ ، ٢٢٤ ،
البنادقة : ٢٠٣ ، ٣٦٢ ،
البوهيميون : ١٦٢ ،

البيزنطيون : ٢٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٤ ،
٨١ ، ٨٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

السكسون : ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٥ ، ٥٤

٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩

٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ١٦٢

١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢

٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤

السلجقة : ٣٤٦

السلاف : ٩٠ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ٢١٤

السلاف الشماليون : ٥٨

السوريان : ١٦١

السوريون : ٣٧٩

(ش)

الشعب البيزنطي : ١١٢

الشعب الروماني : ١٥ ، ١١١

الشعراء : ٣٣ ، ٤٨

الثقاة : ٢٥٨

(ص)

الصقالبة : ١٣٧ ، ١٥٠ ، ١٨٩

٢١٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤

الصربيان : ١٦٢

(ع)

العرب : ١٤٣ ، ١٥٠ ، ٢١٥

٢١٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦

٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٣٥٨

العثمانيون : ٨٠ ، ٩٠ ، ١٢٠

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٠ ، ٢٥٠

٢٩٠ ، ٢٦٨ ، ٣٠٠

(خ)

الخرز : ٨٥ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٣٤٧

٣٥٨

(د)

الدانيون : ٥٥ ، ٣٧٩

الديريون : ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٤

(ر)

الراهبات : ٨٩ ، ٩٢

الرهبان : ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٨

٩٢ ، ٩٩ ، ١٢٠ ، ١٧١ ، ١٧٣

١٧٤ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢٦٩

٢٧٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠

٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠

٣٣٢

الروس : ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٤٧

٣٦٠

الروم : ٥٠٠ ، ٦٦ ، ٢١٥

الرومان : ٦ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٥٩

٦٢ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٧

١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٧٨

١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٠

٢٣٦ ، ٢٦٣ ، ٢٨٩ ، ٣١٧

٣٦٧ ، ٣٧٤

الرومان الغربيون : ١٣

الريك : ١٨١

(س)

انساميون : ٢١٥

٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ،
٣٤٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ،
الفلاسفة : ٣٣ ، ٢١٢ ، ٢٣٦ ،
٢٦٤ ، ٢٦٧ ،
الفينكج : ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٨

(ج)

القبائل الجرمانية : ١٤ ، ١٩ ، ١٦٢ ،
القبائل الساسانية : ١٤ ،
القبائل الفارسية : ١٤ ،
قبائل الهون : ٢٠ ، ٢٦ ،
القديسون : ٧٦ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ١٤٣ ،
١٤٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٧٥ ،
٢٧٦ ، ٢٩٨ ، ٣٨٣ ،
القياسوسة : ٩٩ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،
٣٢٥ ،
القوط : ٣٣ ، ٣٤ ،
القوط الشرقيون : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ،
٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٥٩ ،
القوط الغربيون : ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ،
٢٦ ، ١٨١ ،
القياصرة : ٨٧ ، ٨٩

(د)

الكاثوليك : ٥٧ ، ٦٠ ، ١١٢ ،
٢٦٣ ، ٢٦٥ ،
الكارولنجيون : ٦٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
١٧٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ،
٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٣٥٥ ، ٣٦٦ ،
٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨ ،
٣٨٠

العموريون : ٣٥٣ ،
العناصر الجرمانية : ٢٩٢

(غ)

الغاليون : ٢١٥

(ف)

الفرس : ١٤٣ ، ١٩٨ ، ٢١٥ ،
الفرنجة : ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٩ ،
٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ،
٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ،
٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٨١ ،
٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،
١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٦١ ،
١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
١٨٤ ، ٢٣٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،
٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٥ ،
٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٥٥ ،
٣٨٢ ، ٣٨٥

الفرنجة الشرقيون : ٣١٢

الفرنجة الغربيون : ٣١٢

الفرنجيون : ٢١٤ ، ٢١٥

الفرينزيان : ١٧٨ ، ١٨١ ، ٣٧٦

الفلاحون : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

٤٩ ، ١٦٢ ، ١٧٧ ، ٢٩٨ ،

٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،

٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣١٤
 ٣٣٢ ، ٣٧١
 المسيحيون : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٤٦٦
 ٧٥ ، ٩٣ ، ١٧٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥
 ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥
 المطارنة : ١٨٠
 الملائكة : ٩٣
 المؤرخون : ٦ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦
 ١٧ ، ٢٢ ، ٤٧ ، ٦٨ ، ٨٥
 ٩٠ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٦٢
 ١٦٨ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ، ٢١٠
 ٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٧٠
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٨
 ٢٩٠

المبروتنجيون : ١٦٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨
 ١٨٢ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٨٢

(ن)

النافار : ٥٨
 نبلاء الفرنجة : ١٨٩
 النصراني : ٢٦٦
 النورثين : ٢٧٩
 النورمان : ١٥٠ ، ١٨٥
 النيقا : ٢٠٣

(هـ)

الهراطقة : ٧٧
 هراطقة شرقيون : ٨٣

الكلاسيكيون : ٢٧٢

الكنسيون : ١٦٩

(J)

اللاتين : ٢١٨ ، ٣٢٤

اللومبارديون : ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٥
 ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢
 ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠
 ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ٦٩
 ٨١ ، ٨٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١١٧
 ٢٩٢ ، ٣٢٤ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨

(م)

المجتمع العالي : ٢٩٢

المسلمون : ٤٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤
 ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ١٠٠
 ١١٤ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ٢١٥
 ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٣٠٠
 ٣٣١ ، ٣٦١ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
 ٣٧٧ ، ٣٨٣

المسيحية : ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧
 ٣٩ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٨
 ٨٠ ، ١٠١ ، ١١٠ ، ١١١
 ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠
 ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٦٩ ، ١٧٨
 ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ ، ٢١٨
 ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢
 ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧

(و)	(ى)
الوثنية : ١٣ ، ١٥ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٣٠٢	اليهود : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٩٠ ، ٣٥٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣
الوثنيون : ٥٤	اليهودية : ٧٧ ، ٢٥٠
الوستنغاليون : ٥	اليونانيون : ١٢٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٧
الوندال : ٢٠ ، ٢٦	٣٥٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٧٧
الويلاتابيان : ١٦٢	٣٧٩ ، ٣٨١

الأماكن والبلدان

استريا : ٢٦ ، ٥٦ ، ١٢٢ ، ٣٧٩	(١).
٣٨١	آخن : ٩٦ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٥
استنبول : ٢٤٥	٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
الاسكندرية : ٢٥ ، ٨٠ ، ٩١	٢٩٦ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨
١٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٥٦	٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤
أسوار بابليون : ٢٠١	أثينا : ٧٩ ، ٣١٩ ، ٣٥٣
آسيا : ٢٠ ، ١٥٢ ، ٢١٩ ، ٢٣٥	إنجلترا : ٣٧٩ ، ٣٨٤
٢٥١	إجاثيا : ٥٢ ، ٣٥٦
آسيا الصغرى : ١٤ ، ٩٦ ، ١٤٧	اخترناخ : ٢٨٧
١٥١ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٤	أدرنة : ١٢٣
٢٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦	أدرينبول : ٣٥٦
٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٦١	الاديرة البيزنطية : ٢٧١
أضاليا : ٣٥٣	أديرة سكوديون : ١٠٢
أفريقيا : ١٨٣ ، ٢٨٩	أرخوس : ٣٥٣
أفسوس : ١٩٨ ، ٣٤٨	الأرخيبيل : ٢٦٨
الاقطار الشامية : ٢٦	أرمينيا : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٢٦ ، ١٤٩
اكتيانيا : ٥٨ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٨١	١٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥
١٨٥ ، ٢٩٠	٣٥٦ ، ٣٦٠
أكس : ١٨٠	اسبانيا : ٣٧ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ١٦١
أكس لاشابل : ١٠٧ ، ١٠٩ ، ٢٨٧	١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠
٣١٩	٣٠٨ ، ٣٣٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠
أكويليا : ٣٥	٣٧٧ ، ٣٨٣
أكسيجرانوم : ٢٨٧	اسبوروم : ١٨٠
أكوتين : ١٦٦	اسبوليتو : ٤٠ ، ٥٣
الالر : ٥٥	استابلو : ٢٨٧
الألزاس : ٢٠	استراليا : ٢٨٧

٢٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،	ألمانيا : ٥٥ ، ٦٢ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
٣٦٨ ، ٣٦٩	٣٢٧ ، ٣٧٤
الاناثوليك : ١٣٢ ، ١٤٧	ألمانيا : ٣٤٥ ، ٣٥٩
الأناضول : ١٣٥ ، ٣٥٣	ألمانيا : ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٨٢
أنجريا : ٥٦	الامبراطورية البيزنطية : ٣ ، ٥ ،
أنجوليم : ٢٩٦	١٥ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٣ ،
الأنطلس : ٣٦٢	٣٧ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ،
أنطاكيا : ٢٥ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٢٢٩ ،	٦٤ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ١٠٩ ، ١١١ ،
٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٣٩٠	١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٣١ ،
أنقرة : ٣٤٥ ، ٣٥٦	١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
أورجل : ٣١٤	١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٧٩ ،
أوريا : ٣ ، ١٩ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٨ ،	١٩١ ، ٢١٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦٥ ،
٥٤ ، ٧٨ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ٢١٤ ،	٢٧٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ،	٣٦٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٥
٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٣٣١ ،	الامبراطورية الرومانية : ٦ ، ٧ ،
٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ ،	٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ،	٣٠ ، ٣٠٩ ، ٦٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،
٣٧٥	١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
أورليان : ١٧٤ ، ١٨٥	١٢٦ ، ١٤١ ، ١٧٤ ، ٢٨٧ ،
أوستا : ١٦١	٣٣٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦
أوستريا : ٥٦	الامبراطورية الشرقية : ٢٠ ، ١٠١ ،
أوسيمو : ٥٠	الامبراطورية الغربية : ٣ ، ١٨ ،
أوغرن : ١٦٨	١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٥ ، ١٢٥ ،
أونزبرك : ٥٧	١٧٩
الاوكر : ٥٥	الامبراطورية الفارسية : ١٣١ ، ١٣٢ ،
أيتجنى : ٢٩٧	امبراطورية الفرنجة لا : ٢٩٥ ، ٣٣٠ ،
أيرلنده : ٣١٣ ، ٣٢٩	الامبراطورية الكارولنجية : ١١٧ ،
أيسوريا : ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٩ ،	١٢٧ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٩٤ ،
٢٦٥	

البحر الأسود : ٣٥٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٢	إيطاليا : ٢٣ ، ٢٠ ، ١٦ ، ١٠
٣٥٧	٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١
البحر الأبيض المتوسط : ٢١٤ ، ٥١	٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦
٢٧٤ ، ٢٧١	٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١
البحر المتوسط : ٣٥٢ ، ٣٣١ ، ١٤	٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠
٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧	٥٣ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٧٩
٣٧٨	٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١٠٤
بحر ايجة : ٣٤٢ ، ٣٣٧ ، ٢٦٩	١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٦١ ، ١٧٨
٣٥٩ ، ٣٥٨	١٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩
البحر الايوني : ٣٥٣	٢٩٦ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٣٣
البحر الباطلي : ١٩٦	٣٥٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢
بحر الشمال : ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٢٩٦	٣٨٥
بحر قزوين : ٣٥٦	الايز : ٥٥
بحر مرمرة : ٢٠١ ، ١٩٩ ، ١٤	(ب)
٢١٧ ، ٢١٤	
برانس : ٥٨	بادريورن : ١٠٩ ، ٦٤ ، ٦٢ ، ٥٦
برشلونة : ٥٧	٥٧٠
برقة : ٣٥٧	بادوا : ٣٥
بروسيا : ٢٥٣ ، ١٩٩ ، ١٠٠	بارما : ٣١٥
٣٦٠ ، ٣٥٨	باري : ٣٦٢
بروفانس : ٣٣٥	باريس : ٣٨٣ ، ١٩٦ ، ١٦٨
بروم : ٢٨٧	بافاريا : ٢٩٠ ، ٥٤
بريتاني : ١٦٨	بافيا : ٢٩١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٢٩٠
بريشيا : ٣٤	٢٩١ ، ٣١٤ ، ٣٦٢ ، ٣٨٢
اليسفور : ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ٨٠	بانونيا : ١١٦٢ ، ٣٥
٢١٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤	بتراس : ٣٥٣
بلانس : ٢٠٨	البحر الأحمر : ٣٦١ ، ٣٥٦
بغداد : ٣٦٠ ، ٢٨٢ ، ١٢١	البحر الادرياتي : ٣٥٣ ، ٥٢ ، ٨
البلاد الاسيوية : ٢٧١	٣٥٧ ، ٣٦٢
البلاد الاسلامية : ٣٨٣ ، ٣٨٠	

١١٤ ، ١٤٩ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ،
٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٦٤ ،
٢٨٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ،
٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ،
٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ،
بيسينيا : ٢٨١

(ت)

تارنت : ١٨٠
تراقية : ٧٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٩٨ ،
٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ ،
التركستان : ٣٥٦
تريه : ١٦٨
تور : ٦٣ ، ٦٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ،
٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

(ث)

ثغر الارمينياقي : ١٣٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
الثغر الأعلى الاسباني : ٥٧
ثغر الابسيق : ١٤٧
ثغر البكلار : ١٤٧
ثغر خريسون : ١٤٨
ثغر ترافيسيا : ١٤٧
ثغر سيلوفنية : ١٤٧
الثغور البيزنطية : ١٣٢
ثورنجيا : ١٦٨
ثيابوليس : ٣٥٦
الثيمات : ١٣٤
ثيونيفيل : ٤٩

بلاد الراين : ٣٨٤
بلاد الشام : ٣٥٦
البلاد الصقلية : ١٤٠
بلاد الصين : ١٩٨
بلاد المغرب : ٣٦٢
بلاط البيزنطي : ١٩٦
بلاط الحزر : ٩٧

البلاط الفارسي : ١٩٦ ،
البلاط الكارولنجي : ١٠٧ ، ١٣٣ ،
بلغاريا : ٣٥٦
البلقان : ١٣ ، ١٢٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٠ ،
البليار : ٦٤ ، ٣٧٩
البليونييز : ٢٠٠
بنبلونة : ٥٨
بنتابوليس : ٣٨٠
بنحقية : ٢٦ ، ٥٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
٣٦٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
بنفيينتو : ٤٠ ، ٣٥ ، ٥٣ ، ٩٦ ، ١٦٢ ،
٣٢٩
بوهيميا : ٥٨
بواتو : ١٦٨
يونثيون : ٤١
بونت : ٢٣٨
البيت : الكارولنجي : ٥٨٧
بيت المقدس : ٢٥ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٣٠٨ ،
يشينيا : ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ،
بيروت : ٢٥٧
بيزنطة : ٩ ، ١٤ ، ٥٢ ، ٧٥ ،
٨١ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١١ ،

جورجيا : ١٥٠	(ج)
جورجيوس : ٨٧٠	جاسكونى : ١٦١
جيرونا : ٥٧	جاشينا : ٣٨٢
(ح)	جبال الالب : ٤٨ ، ٤٩
الحدود البيزنطية : ١٢٣	جبال بونطس : ٣٥١
الحدود الرومانية : ٣٥٦	جبال سيني : ٤٩
الحدود الشرقية : ٢٧١	جبال طوروس : ٣٥١
الحدود الشرقية لاسيا الصغرى	جبال مورافيا : ٥٥
١٤٣ ، ٣٥٩	جبال بوهيميا : ٥٥
حلب : ٣٦٠	جبل سونتل : ٥٧
حمامات دلفى : ١٩٩	جبل اليمبيا : ١٩٩
حوض البو : ٣٨٢	الجبهة الارمنية : ١٤
حوض الدانوب : ٣٤	الجبهة الدانوبية : ١٤
حوض الرون : ٣٦٢	الجبهة الشامية : ١٤
حى الهيدروم : ٢٠٦	جرادوا : ٣٥
(خ)	جزائر البيار : ١٦١
الخزر : ١٥٦ ، ٣٥٣	الجور : ١٤٥ ، ١٥٣
خلقدونيا : ١٩٩	جزر البحر المتوسط : ٣٥٦
خليج البسفور : ٢١٧	جزر البليار : ٣٥٢ ، ٣٥٦
خليج سدره : ٣٥٧	جزيرة صقلية : ٩٧
الخليج الفارسى : ٣٥٩	جزيرة لسبوس : ١١٩
خليج قنابس : ٣٥٧	جسر بلقيوس : ١٧
خيرصون : ١٣٥ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦	الجمهوريات البحرية الايطالية : ١٤٥
٣٥٨ ، ٣٦٠	الجنوب : ١٤ ، ٤٩
(د)	جنوب التيرول : ٣٥
داشيا : ١٨	جنوب شرق اسيا : ٣٥٥
دافيني : ٢٠٩	جنوب شرق آسيا الصغرى : ١٣١
داكيا : ١٦٢	١٣٢
	الجيداي : ٣٤

دير اورليان : ٣٥٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢	الدنمارك : ٥٦
دير سكاينون : ٩٩	الدانوب : ١٤ ، ٧٩ ، ١٦١ ، ١٦٢
دير فيلدا : ٢١	الحدنيل : ٣٥٤
دير لورش : ٣٢٨	دلمشيا : ٣٤ ، ٧٩ ، ١٢١ ، ١٣٥ ،
(ر)	١٦٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨١
رادا : ٢٥	دمشق : ٣٦٠
رافنا : ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٥ ،	دورازو : ٥٢ ، ٣٥٣
٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ،	دوريلي : ١٩٩
٥٠ ، ٨٢ ، ١٥٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩	دوريليوم : ٣٠٦
الراين : ١٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٣٠٧ ،	دوقيات الجنوب : ٥٠
٣١٥ ، ٣٠٨	دوقية بنففيو : ٤٠ ، ٥٤ ، ٣٨٢
رودستو : ٣٥٣	دوقية روما : ٤٣
روسيا : ١٤ ، ٣٥٣	دوقية سيوليتو : ٤٠
روما : ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ،	الدولة الايسورية : ٧٣ ، ٧٥ ، ١٢٩ ،
٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ،	١٥٦
٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ،	الدولة البيزنطية : ٢٥ ، ٢٩ ، ٣١ ،
٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،	٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ،
٤٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ،	٣٩ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨١ ،
٥٤ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ،	٨٢ ، ٨٣ ، ٩١ ، ١٠٥ ، ١٢٩ ،
٦٥ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ،	١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ،
١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ،	١٩٢ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ،
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٥٦ ، ٢٠٨ ،	٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٧٣ ،
٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٨٧ ،	٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣٣٩ ،
٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٩ ، ٣٦٢ ،	٣٤٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،
٣٨٢ ، ٣٨٥	٣٨٢ ، ٣٨٥
رونسقال : ٥٨	دولة الفرنجة : ٣٦٧ ، ٣٧٧
	الدولة الكارولنجية : ١٧٠ ، ١٨٦ ،
	٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٦٣ ،
	٣٩٦ ، ٣٨١

سيلان : ٣٥٩	(س)
سيلمبريا : ٣٥٣	ساحل اسيا الصغرى : ٣٥٧ ، ١٩٩
(ش)	الساحل الغربى : ٣٨٢
الشاطيء الاسيوى : ١٥٣ ، ١٠٠	سويسا : ٤٢
الشاطيء الدلماتش : ١٢٢ ، ١٢١	السال : ١٦١
الشم : ١٥٣ ، ١٢٢ ، ٣٧ ، ٢٢	سالرنو : ٣٨٢ ، ٥٣
٣٨٤ ، ٣٥٧ ، ٣٤٨	سالولنيكا : ١٥٦ ، ١٥٥ ، ٧٩
الشرق : ١٣ ، ١١ ، ١٠ ، ٣	٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٢٦١
١٤ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٣٧ ، ٣٩	ساموس : ١٣٤
٤٥ ، ٥١ ، ٥٢	سانت ماماس : ١٩٨
شرق اوربا : ١٤	سراجوسا : ٥٨
الشرق الأقصى : ٣٦٢	سردينية : ٣٧٩ ، ٣٥٦ ، ٣٥٢
شبه جزيرة اسكتلندا : ١٥٠	السفوح : ١٢٣
شبه جزيرة الاناضول : ٢٢	السيكس : ٢١٧
شبه جزيرة البلقان : ٧٩	سكسونيا : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٩
الشمال : ١٣ ، ١٤ ، ٥٠	٢٨١ ، ١٨٩
شمال افريقيا : ٦ ، ٢٠ ، ٣٧ ، ٥٢	سهول روسيا : ٢٦٦
١٥٦ ، ٢٤٥ ، ٣٥٧	سوابيا : ١٦٦
٣٥٨	السواحل : ١٤٥
شمال ايران : ٣٥٦	سواحل البحر الابيض المتوسط :
شمال فرنسا : ٣٨٤	١٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٧٧
شمال المملكة الفرنجية : ١٨٨	سواحل الشم : ١٥٠
شواطىء الاطلنطى : ١٢٦	سواسون : ٢١٢ ، ٢٩٦ ، ١٦٨
(ص)	سوريا : ١٨٣ ، ٢٠٠ ، ٢٤٤
صقلية : ٢٦ ، ٥٠ ، ٧٩ ، ٨٩	٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠
١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٤٨	سوق سانت دينيس : ٣٨٣
١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٨٥ ، ٣٥٢	السوم : ٢٠
٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٨٠	سيكيون : ١٤٣

(ف)	(ض)
فاردار : ٣٥٣	صفة الراين : ٥٦
فارسي : ٣٤	طرابلس : ٣٥٧
فاينزا : ٤٩	طرابزون : ١٥ ، ١٩٨ ، ٢٨٤ ،
فرانكفورت : ١.٢ ، ١.٦ ، ١.٧ ،	٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،
١٨٠	٣٦٠
فرانكيا : ١.٧ ، ١٢٢	طرطوس : ٣٨٣
فردان : ٣٨٣	
فرنسا : ١٧٤ ، ٣٧٩	(ع)
فلسطين : ٢٤٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨	العاصمة البيزنطية : ١.٢ ، ١٩٩ ،
فريولي : ٣٥	٢٤٨
الفيستولا : ١٦٢	العاصمة الرومانية : ١٣ ، ١٥ ، ٢٠٠
فورمز : ١٦٨	العالم الاسلامي : ٧٦ ، ٢٦٥ ، ٢٨٤
فوستريا : ٥٠ ، ١٦٨	العالم الروماني : ١.٥ ، ١١٧ ، ١١٨
فوكيه : ٣٥٣	العالم المسيحي : ٧٦ ، ١.٦ ، ٣٥٥
فيالكنزا : ٣٥	
فيرارا : ٤٩ ، ٥٠	(غ)
فيرونا : ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ٢٩٠	غالة : ١٠ ، ٣٧ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ،
فيليبى : ٣٥٦	٢٠٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥ ،
	٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،
(ق)	٣٧٩
قادة آسيا : ٢٠٠	الغرب : ٣ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ،
قادة اوريا : ٢٠٠	٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٧ ،
قبرص : ٢٤٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ،	٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥١ ،
٣٧٩	٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤
قرطبة : ٥٧ ، ١٧٤	غرب اوريا : ٣٧٩
القرم : ١٣٥	غرب الراين : ١٦٨
القرن الذهبى : ١٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٤	

قصر يورفيرى : ١٠٠	القسطنطينية : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ،
قصر دافنن : ٢٠٩	١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ،
قصر السورس : ١٩٨ ، ١٩٩	٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
قصر يورفيرى : ١٠٠	٤٥ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٧ ،
القوتاز : ١٥٠ ، ٢٢٤ ، ٣٥١	٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ،
قونية : ٣٤٥ ، ٣٥٦	٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
قيلقيا : ٣٤٥	١٠٧ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ ،
(ك)	١١٩ ، ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ،
كارسى : ٣٥١	١٥٥ ، ١٩٦ ، ١٩٣ ، ٢٥٦ ،
كالابريا : ٢٦ ، ٥٠ ، ٧٩ ، ١٢٢ ،	١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
١٦١	٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
كالونيموس : ٢٢٨	٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ،
كبادوكيا : ٩٦ : ١٤٩	٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ،
كرت : ٧٩ ، ١٥٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧	٢٢٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ،
كلن : ١٦٨	٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،
كوربى : ٣٢٥	٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
كورفو : ٣٥٣	٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٥٨٢ ، ٣١٤ ،
كورسيكا : ٣٥٦	٣٣٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،
كورنثه : ٧٩ ، ١٥٣	٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ،
كوماشيو : ٤٩ ، ٥٠	٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
كوبنتفيك : ٣٨٣	٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٧ ،
كيدفدال : ٣٥	٣٧٩ ، ٢٨٠
	قصر الارب : ٩٨ ، ١١٩
	القصر الامبراطورى : ١٩٦ ، ١٩٧
	قصر بلازانى : ١٠٠

٢٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٦٥ ،
٢٦٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،
٣٦١

مضيق مسينا : ١٥٧

المغرب الأقصى : ٣٥٨

مقدونيا : ١٨ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٥٠ ، ٢٠ ، ٢١٤ ، ٢٣٨

الملبار : ٣٥٩

الممالك الجرمانية : ٣٢

المملكة اللومباردية : ٤٣

ممرات الالب : ٢٨٩

منتوا : ٣٥

منتزة فيلوياتيون : ١٩٨

مونت كاسينو : ٣٢٩ ، ٣٣٤

مبانس : ٣٦٢

ميتر : ٣٧٧

ميدان السباق : ٢٠٢

الميز : ٢٠

ميوش : ٢٩٧

ميلان : ٢٩١

ميلانو : ٣٤ ، ٣٥

الميناء : ٢٠٦

ميناء ليجوريا : ٢٨٩

(ل)

لاتران : ٦٣ ، ٦٥

لاؤن : ١٦٨ ، ٢٩٦

اللوار : ١٦١

لومبارديا : ٣١٨ ، ٣٨٣

الليريا : ٨ ، ١٠ ، ٧٩ ، ١٠٤

ليندسفارن : ٣١٨ ، ٣٢٩

ليون : ١٦٨ ، ٣٧٧

(م)

ماجفورا : ٨٧

مارسبيا : ٣٧٩

مارسيليا : ١٦٨ ، ٣٥٠

ماينز : ١٦٨ ، ٣٨٣

متر : ١٦٨ ، ٢١٢ ، ٢٨٧ ، ٣٨٤

المتحف البريطاني : ١٥٤

المحيط الاطلسي : ٣٨٤

مخل البسفور : ١٩٨

مدن آسيا : ٣٦١

المدن الايرانية : ٢٨٤

المدن الايطالية : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٩٦

المدن الرومانية : ٢٩٥ ، ٢٩٧

المدن البيزنطية : ٣٦١

مصر : ٦ ، ٢٢ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ١٥٢ ،

نوستريا : ٢٩٦	(ن)
نيجروننت : ٣٥٣	قابلى : ٢٦ ، ٥٠ ، ١٢٢ ، ٣٥٨ ،
نيقوميديا : ١٠ ، ١٣ ، ١٣٢ ،	٣٦٢ ، ٣٨٢
٣٥٦ ، ١٥٦	تاريون : ١٦٨
نيقية : ٢١ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ،	نهر ابرو : ١٦١
١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،	نهر البو : ٣٥
١٠٦ ، ١١٢ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ،	نهر الالب : ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ١٨٩
التيل : ٣٦١	نهر الاودر : ٥٤ ، ٥٨
(ه)	نهر شميريا : ٣١٥
هرقلة : ٣٤٨	نهر دجلة : ٣٥١
هليوبوليس : ٢٠٨	نهر الرون : ٣٨٢
الهند : ١٩٨ ، ٢٨٩ ، ٣٥٥	نهر الراين :
٣٦١	نهر السين : ٣٨٢
الهند الشرقية : ٣٥٩	نهر الدانوب : ١٩ ، ١٨٩ ، ٣٨٢
الهند الصينية : ٣٥٩	نهر الراين : ٢٨٧ ، ٢٩٧ ، ٣٦٢ ،
هولشتين : ٥٥	٢٨٢
هيرا : ١٩٩	نهر الفولجا : ٣٥٦
هيراكليا : ٣٥٣	نهر الميز : ٢٨٧ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ ،
هيوسكة : ٥٧	٣٤٩
هيريا : ٨٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،	نهر المين : ٣٢١
هيلاس : ١٤٨	نهر ورم : ٢٨٨
وادي السين : ٢٩٧	نهر الويزر : ١٨٩
وادي نهر ليكونس : ٢٢٧	نومياليا : ٣٥٣
وسط آسيا : ٣٦٥	نور شميريا : ٣١٥

— ٤٣٥ —

الولايات الشرقية : ١٤	وسط أوروبا : ٣٨٠
الولايات الغربية : ١٤	وستاليا : ٥٦
(ى)	وسط الهند : ٣٦٢
ياردين : ١٥٠	الولايات البيزنطية : ٧٦ : ٣٤١
اليونان : ٧٩ ، ٩٠ ، ١٥٣ ، ١٦٢	الولايات السناتورية : ١٠
٢٢٢ ، ٢٦٤ ، ٣٥٣	

المراجع

(أولا) المراجع العربية

(ثانيا) المراجع الأجنبية

أولا : المراجع العربية والمترجمة

١ - آبل ارمان

« تحتاج أهل الأديان في القرنين الثامن والتاسع » .
الملحق السادس لكتاب غزيلييف تاريخ الروم والعرب تعريب
عبد الهادي شعيرة .

٢ - توفيق « عمر كمال »

الامبراطورية البيزنطية
الاسكندرية سنة ١٩٦٧ م

٣ - ديفز « كارلس »

شارلمان
ترجمة السيد الباز العرينى القاهرة سنة ١٩٥٩ م

٤ - رستم « أسد »

الروم
بيروت سنة ١٩٥٥ م

٥ - رنسمان « ستيفن »

الحضارة البيزنطية
ترجمة عبد العزيز جاويد سنة ١٩٦٠ م

٦ - عاشور « سعيد عبد الفتاح »

أوريا العصور الوسطى
الطبعة السادسة سنة ١٩٦٥ م
النظم والحضارة
القاهرة سنة ١٩٠٩ م
النهضات الأوروبية في العصور الوسطى
القاهرة سنة ١٩٦٠ م

٧ — عبيد « اسحق »

روما وبيزنطة
القاهرة سنة ١٩٧٠ م
الامبراطورية الرومانية
القاهرة سنة ١٩٧٢ م

٨ — العرينى « السيد الباز »

الدولة البيزنطية
القاهرة سنة ١٩٦٠ م
الحضارة والنظم الأوربية
القاهرة سنة ١٩٦٣ م

٩ — الفمراوى « على »

مدخل الى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط
القاهرة سنة ١٩٧٧ م

١٠ — فشر « ه . ١٠ . ل »

تاريخ اوربا العصور الوسطى .

ترجمة زيادة والعرينى . القاهرة سنة ١٩٦٩ م

١١ — كاتسور

تاريخ العصور الوسطى

ترجمة على الفمراوى . الكويت سنة ١٩٧٢ م

١٢ — كوبلاند « ج . و »

الاقطاع والعصور الوسطى بغرب اوربا

ترجمة محمد مصطفى زيادة . القاهرة سنة ١٩٥٥ م

١٣ — لويس ارشيبالد

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض

ترجمة أحمد عيسى . القاهرة سنة ١٩٦٠ م

١٤ — القاصرى « سيد أحمد على »

تاريخ الامبراطورية الرومانية

القاهرة سنة ١٩٧٥ م

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية

THE ORIGINAL SOURCES :

- 1) Bouquet,
«Recueil des Historiens Occidentaux»
Vol. IV.
- 2) Einhard,
«The Life of Charlemagne»
Tenth. ed. Michigan, 1975.
- 3) «L'Evolution de l'Humanité»,
L'Brehier. — «La Civilisation, Byzantine»,
XXXII Ter.
- 4) The Monk of Saint Gall,
«The Life of Charlemagne»
Trans. by A.J. Grant,
London 1926.
- 5) Mansi, J.
«Sacrorum Conciliorum»
31, Vols. Florence & Venice,
1759 — 1798.
- 6) Nicetas Chonitas history,
(C.S.H.B.) Bonn 1835.
- 7) Nicephorus Gregoras, Roman history.
in R.H. Grecs, V. I
- 8) Theophanes,
«Continuatus, historia»,
ed. Bonn. 1883 — 1884.

MODERN WORKS

- 9) Adelson, H.L.,
«Medieval Commerce»,
N.Y. 1962.

- 10) A. Alföldi,
«The Conversation of Constantine the great and Pagan Rome»
Oxford, 1948.
- 11) Ashour & Rabie,
«Fifty documents in medieval history»,
Cairo, 1975.
- 12) Ashour & Ziada,
«Select documents in medieval history»,
Egypt, 1959.
- 13) Baynes, N.,
«The Byzantine Empire»,
London 1926.
- 14) Bell. H.I.,
«Egypt from Alexander the great to The Arab Conquest»,
Oxford, 1948.
- 15) Buckler,
«Harun Al Rashid and Charles the great»,
Camb. Mass. 1927.
- 16) Bury, J.
«A history of the eastern Roman Empire»,
London 1912.
- 17) Bury, J.
«History of the later Roman Empire»,
III Vols. London 1923.
- 18) Bury, J.
«Imperial administration system in the ninth cent»,
London 1909.
- 19) Cam. ancient Hist. Vol. III.
- 20) Cam. Med. Hist. Vol. IV, & V.
- 21) Charanis,
«The Social Structure of the later Roman Empire in
Byzantine»,
London 1942.

- 22) Clive, D.,
«A history of commerce»,
London 1950.
- 23) Critchley, J.S.,
«Feudalism»,
London 1978.
- 24) David, T. Rice,
«The Byzantines»,
M.B.E. 1962.
- 25) Deanesly, M.,
«A history of Europe»,
London 1960.
- 26) Depelais, S.,
«L'habitation Byzantine»,
Paris, 1923.
- 27) Donald, M. Nicola,
«Byzantium its icclestastical and Relation with Western
World»,
London 1968.
- 28) Eastan, S.,
«The ERA of Charlemagne»,
N.Y. 1961.
- 29) Evan, J.,
«La Civilisation en France au moyen age»,
Paris 1930.
- 30) Eyre,
«European Civilization»,
Vol. III, The middle ages,
London 1935.
- 31) Finlay, G.,
«History of the Byzantine Empire»,
London 1906.
- 32) Gerald, Simons,
«The Birth of Europe»,
N.Y. 1968.

- 33) Gibbon,
«The history of the decline and fall of the Roman Empire»,
London 1900.
- 34) Girg, A.,
«Manuel de diplomatique»,
Paris 1907.
- 35) Green, V.H.H.,
«Medieval Civilization in Western Europe»,
London 1971.
- 36) Guerdan, R.,
«Byzantium its triumph and Theology»,
London 1975.
- 37) Guizot, M.,
«Histoire de la Civilization en France»
Paris 1897.
- 38) Heyd. W.,
«Histoire du Commerce du Levant au moyen age»,
Leipzig, 7 Vols. 1936.
- 39) Hodgkin,
«Italy and her invaders»,
4 Vols. Oxford 1896
- 40) Hulme, E.M.,
«The middle ages»,
N.Y. 1938.
- 41) Hussey,
«The Byzantine World»,
London 1967.
- 42) Joseph, Mc. Cape.,
«The Empresses of Constantinople»,
London 1913.
- 43) Lamb, H.,
«Charlemagne»,
London 1963.

- 44) Lavisce,
«Histoire de France»,
II Vol. Paris 1911.
- 45) Lindsay, J.,
«Byzantium into Europe»,
London 1952.
- 46) Lopez & Raymond,
«Medieval Trade in Medieteranean World»
N.Y. 1956.
- 47) Lot,
«The end of the ancient world»,
London 1931.
- 48) Marc-Bloch,
«Feudal Society»,
Trans. by L.A. Manyon,
2 Vols, fifth ed. 1978.
- 49) Marian, Wenzel,
«The finding out about the Byzantines»,
London 1965.
- 50) Mauglais, H.J.,
«Byzantine, Christianity, Emperor Church, and the West»,
London 1970.
- 51) Maurice Keen,
«The Pelican History of Medieval Europe»
London 1968.
- 52) Meyndorff, J.,
«Byzantine Theology»,
N.Y. 1974.
- 53) Moss,
«The Birth of the middle ages»,
Oxford 1947.
- 54) Oblensky, D.
«The Byzantine Common Wealth».
London 1971.

- 55) Oman, C.,
«The dark ages»,
London 1914.
- 56) Oman, C.,
«History of the art of war in the middle ages»,
London 1924.
- 57) Oman, C.,
«The Byzantine Empire»,
London 1902.
- 58) Ostrogorsky,
«A History of the Byzantine State»,
London 1968.
- 59) Painter, S.,
«History of the middle ages»,
N.Y. 1954.
- 60) Painter, S.,
«Forward of the Life of Charlemagne»,
N.Y. 1975.
- 61) Pears,
«Destruction of the great empire»,
London 1963.
- 62) Pirenne, H.,
«Mohamed and Charlemagne»,
N.Y. 1939.
- 63) Pirenne, H.,
«A History of Europe»,
Tran. By Maill, London 1946.
- 64) Pirenne, H.,
«Economic and Social History of Medieval Europe»,
Tran. e.c. Legg. Last ed. 1978.
- 65) Pirenne, H.,
«Medieval cities their origin and the revival of Trade»,
Tran. H.P. Halsey, London 1925.

- 66) Romelly Jenkins,
«Byzantium the imperial centuries»,
London 1960.
- 67) Sellery, G.C. & A.C. Krey,
«Medieval Foundation»
London 1929.
- 68) Stephenson, C.
«The Carolingian Empire»,
N.Y. 1949.
- 69) Stephenson, C.,
«Medieval Feudalism»,
N.Y. 1942.
- 70) Stephenson, C.,
«Medieval history»,
N.Y. 1944.
- 71) Tamara, T. Rice,
«Byzantium»,
N.Y. 1969.
- 72) Thorondik, L.,
«History of Medieval Europe».
London 1965.
- 73) Thompson,
«The middle ages»,
2 Vols. London 1920.
- 74) Thompson,
«Economic and social history»,
2 Vols. N.Y. 1959.
- 75) Vasiliev,
«A history of the Byzantine Empire»
Wisconsin 1958.
- 76) William, G. Sinnigen,
«A history of Rome»,
London 1937.

مطبعة الجبلاوى
شارع الترمه البواقمة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٢١٤٢

